

ول
وايرل ديورانت

قصة الحضارة

عصر فولتير



قصة الحضارة

ول وايرنيل ديورانت

عصر قولتير

تاريخ الحضارة في أوروبا الغربية من ١٧١٥ إلى ١٧٥٦
مع التنويه الخاص بالهتراء بين القديم والفلسفة

مراجعة
علي أدهم

ترجمة
فؤاد أندراوس

الجزء الأول من المجلد التاسع



حقوق الطبع محفوظة

قادر المجلد : ص.ب. ۸۷۳۷ - ت: ۴۶۶۱۵۸ - ۴۶.۴۶۵ - تلکس: ۴۳۴۲
العنوان البرقي: دار ميلاد - بيروت - لبنان

إلى حفيدنا المحبوب

جم

محتويات الكتاب

٥	كلمة اعتذار
٧	مقدمة
٩	الفصل الأول : فرنسا : الوصاية : ١٧١٥ - ٢٣
٩	١ - فولتير الشاب
١٢	٢ - الصراع على الوصاية
١٨	٣ - ازدهار ثم انهيار
٢٧	٤ - الوصي
٣٤	٥ - المجتمع في عهد الوصاية
٣٨	٦ - فانتو والفنون
٤٤	٧ - المؤلفون
٤٨	٨ - الكردينال العجيب
٥١	٩ - فولتير والباستيل

الكتاب الأول

انجلترا ١٧١٤ - ٥٦

٦٥	الفصل الثاني . الشعب
٦٥	١ - التمهيد للثورة الصناعية
٦٥	أ (المؤيدون
٦٩	ب (الصناعة
٧٢	ج (الاختراع
٧٥	د (رأس المال والعمال
٧٨	هـ (النقل والتجارة
٨٠	و (المال

٨٥	٢ - مظاهر الحياة فى لندن
٨٩	٣ - المدارس
٩٢	٤ - الاخلاق
١٠٠	٥ - الجريمة والعقاب
١٠٨	٦ - آداب السلوك
١١٨	٧ - تشترفيلد

الفصل الثالث . الحكام

١٢٩	١ - جورج الاول
١٣٦	٢ - جورج الثانى والملكة كارولين
١٣٨	٣ - روبرت ولبول
١٤٣	٤ - بولنبروك
١٤٦	٥ - كيف تنزلق الدول الى الحرب
١٤٩	٦ - ارلنـدة
١٥٤	٧ - اسكتلنده
١٥٧	٨ - الامير تشارلى الجميل
١٦٣	٩ - صعود وليم بت

الفصل الرابع . الدين والفلسفة

١٦٧	١ - الموقف الدينى
١٧٢	٢ - المتحدى الربوبى
١٧٧	٣ - المدفع الدينى
١٨٤	٤ - جون وسلى
١٩٨	٥ - فى النحل والبشر
٢٠١	٦ - ديفد هيوم
٢٠١	أ (الفيلسوف الشاب
٢٠٤	ب (الغض من شأن العقل
٢١٠	ج (الاخلاق والمعجزات
٢١٤	د (الداروينية والمسيحية
٢١٩	هـ (الشيوعية والديمقراطية
٢٢٣	و (التاريخ
٢٢٧	ز (الفيلسوف العجوز

١ - دولة القلم

٢ - الكسندر بوب

٣ - أصوات الوجدان

٤ - المسرح

٥ - الرواية

أ (صموئيل رتشردسن

ب (هنرى فيلدنج

ج (طوبياس سمولت

٦ - الليدى مارى

الفصل السادس . التصوير والموسيقى

١ - المصورون

٢ - وليم هوجارث

٣ - الموسيقيون

٤ - هندل

أ - نشأته

ب (غزو انجلترا

ج (هزيمته

د (الأوراتوريو

هـ (بروميثيوس

٥ - فولتير فى انجلترا

كلمة اعتذار

يجب أن يُلقى اللوم لطول هذا المجلد على المؤلفين اللذين أغراهما بالاسهاب الشديد افتتانهما بموضوعه المحسورى - ونعنى به الصراع الغالب ، المتصل ، بين الدين والعلم ، مضافا اليه الفلسفة ، ذلك الصراع الذى استحال الى مسرحية حية فى القرن الثامن عشر ، وتمخض عن علمانية عصرنا الممتدة . فكيف حدث أن شطرا كبيرا من الطبقات المتعلمة فى أوربا وأمريكا فقد الايمان بلاهوت ظل خمسة عشر قرنا يقدم خوارق الدعائم والاسانيد للقانون الاخلاقى القلق ، المتنافر ، الذى أرسيت فوقه الحضارة الغربية ؟ وأى آثار - فى الاخلاق والادب ، والسياسة - سيسفر عنها هذا التغيير ، الأساسى رغم صمته ؟

لقد ازداد التفصيل فى كل مجلد بتكاثر أحداث الماضى وشخصياته التى لا تزال اليوم حية فى تأثيرها وتشويقها . ولعل هذا التكاثر ، بالإضافة الى تعدد الموضوعات - التى تنتظم جميع مناحى الحضارة فى أوربا الغربية من ١٧١٥ الى ١٧٥٦ - ينهض عذرا عن طول القصة وتشعبها . وهكذا فجر « عصر فولتير » ضفافه وفاض بجزء عاشر ننوى اصداره عن « روسو والثورة » يبلغ بالقصة عام ١٧٨٩ . وسيتناول هذا الجزء العاشر التغيير الذى أحدثته حرب السنوات السبع فى خريطة العالم ، والسنين الأخيرة التى اختتمت بها حياة لويس الخامس عشر ، ١٧٥٦ - ٧٤ ، وعصر جونسون ورينولدز فى انجلترا ، وتطور الثورة الصناعية وازدهار الأدب الالمانى من لسنج الى جوته ، والفلسفة الالمانية من هردر الى كانط ، والموسيقى الالمانية من جلوك الى موتسارت ، وانهيار الاقطاع فى فرنسا لويس السادس عشر ، وتاريخ تلك الأمم المحيطة بالقارة - وهى السويد ، والدنمرك ، وبولنده ، وروسيا ، وتركيا ، وإيطاليا ، والبرتغال ، وإسبانيا - التى أرجأنا تناولها فى هذا المجلد قصدا فى المساحة من جهة ، ولعدم تورطها مباشرة فى الصراع العظيم بين العقل والايمان من جهة أخرى (الا عن طريق البابوية) . وسينظر هذا المجلد الختامى فى مراحل ذلك الصراع

اللاحقة ، متمثلة فى ثورة روسو على العقلانية ، وجهد ايمانويل كانط .
البطولى لانقاذ اللاهوت المسيحى عن طريق الاخلاق المسيحية . وسوف
تستكمل لوحة عصر فولتير فى ذلك الجزء العاشر من « قصة الحضارة »
وتعرض خاتمة هذا المجلد التاسع الدفاع عن الدين ، أما خاتمة « روسو
والثورة » التى تلقى نظرة محيطية على المجلدات العشرة كلها ،
فستتصدى لسؤال يبلغ بموضوع الكتاب ذروته : ما هى عظات التاريخ
وعبره ؟ .

ولقد حاولنا أن نصور الواقع بالمزج بين التاريخ والسير . وستثير
هذه التجربة نقد الناقدين - ولا ضير فى هذا ، ولكنها تحقق هدف
« التاريخ المتكامل » . ذلك أن الأحداث والاشخاص تسير جنباً الى جنب
خلال الزمن دون اعتبار لايها كانت الاسباب وايها النتائج ، والتاريخ
يتكلم فى الأحداث ، ولكن خلال الافراد . وليس هذا المجلد سيرة
لفولتير ، انما هو يستخدم حياته الجواله الثائرة نسبجا يربط بين الأمم
والأجيال ، ويقبله بوصفه أعظم الاعلام دلالة وأكثرهم ايضاحاً فى
الفترة بين موت لويس الرابع عشر وسقوط الباستيل . فمن من بين
جميع الرجال والنساء الذين عاشوا فى تلك الحقبة المضطربة أنصع من
فولتير صورة فى ذاكرة الناس ، وأحظى بقراعتهم الكثيرة لأعماله ،
وأبقى تأثيراً فيهم اليوم ؟ يقول جيورج برانديس « ان فولتير خلاصة
قرن من الزمان (١) » . ويقول فكتور كوزان « ان الملك الحقيقى
للقرون الثامن عشر هو فولتير (٢) » . فلنسر اذن خلف ذلك اللهب
المتوهج خلال القرن الذى عاش فيه .

الفصل الأول

فرنسا : اللوصاية

١٧١٥ - ٢٣

١ - فولتير الشاب : ١٦٩٤ - ١٧١٥

لم يكن اسمه بعد فولتير ، بل كان حتى اطلاق سراحه من الباستيل في ١٧١٨ يدعى فرانسوا ماري آرويه . وقد ولد ببافيس في ٢١ نوفمبر ١٦٩٤ ، وأصبح خلاصتها المصفاة حتى ١٧٧٨ . أما الرجل الذي يفترض أنه أبوه ، واسمه فرانسوا آرويه ، فكان محاميا ميسور الحال ، عرف الشاعر بوالو والغانية نينون دلائكلو ، وكتب وصيتهما ، وعرف المسرحي بيير كورنيلي ، ووصفه بأنه « أثقل من لقي من الناس ظلا (١) » . وأما أمه ، ماري مارجريت دومار ، فكان يجري في عروقتها قدر طفيف من الدم النبيل ، وكانت ابنة موظف في « البرلمان » واخت المراقب العام للحرس الملكي ، ومن طريقهما استطاعت الوصول الى بلاط لويس الرابع عشر . وقد جعلت حيويتها وذكائها المرح من بيتها صالونا صغيرا . وذهب فولتير الى أنها ملكت كل ما وهبت أسرته من ذكاء ، كما ملك أبوه كل ما أوتيت من دراية مالية ، وقد استوعب الابن الموهبتين جميعا فيما ورثه . وماتت أمه في الأربعين وهو لم يجاوز السابعة . وكان أكبر ابنائها الخمسة أرمان ، الذي كان غيورا على لاهوت الجانسنيين حريصا على ميراث الأسرة . أما أصغر الأبناء فرانسوا ماري ، فكان معتلا في عامه الأول ، حتى أن أحدا لم يصدق أن ستكتب له الحياة . وقد ظل حتى الرابعة والثمانين يتوقع موته المبكر ويذيعه على الناس .

وكان من بين أصدقاء الأسرة عدة « آباء » abbés وهو لقب كان يخلع على أي كنسي علماني ، سواء كان قسيسا مرسوما أو لم يكن . وقد أصبح كثير من هؤلاء الآباء رجال دنيا لا دين ، لمعوا في المجتمع رغم تمسكهم برداء الكهنوت ، ومنهم من ألفوا المشاركة للسافرة في

مجالس خلت من الوقار ، ومنهم من عاش كما يشتهي متسترا وان حافظ على مظهر لقيه . مثال ذلك الأبيه دشاتو نوف ، آخر عشاق نينون دلائكلو وأول معلم لفولتير . وكان رجلا واسع الثقافة ، رحب الأفق ، وقد أشرب تلميذه ونثية نينون وارتيازية مونتينى . وفى رواية قديمة مشكوك فيها انه قدم للصبي ملحمة هازلة تدعى « الملحمة الموسوية » كانت تتداول فى مخطوطات سرية ، ومؤداها ان الدين ، اذا استثنينا الايمان بكائن أعظم ، ليس الا ذريعة يتذرع بها الحكام لاختضاع المحكومين وارهابهم (٢) .

بدأ تعليم فولتير حين اصطحبه معلمه « الأبيه » فى زيارة لنينون ، وكانت الغانية الشهيرة يومها (١٧٠٤) فى الرابعة والثمانين . ووجدها فرانسوا « يابسة كالمومياء » ولكنها مازالت فياضة برقة المرأة وعطفها . وقد تذكر فى تاريخ لاحق صنيعها فقال « لقد طاب لها أن تذكرنى فى وصيتها ، فتركت لى ألفى فرنك لاشتري بها كتبا (١٣) » . وماتت بعد ذلك بقليل .

ورغبة فى موازنة هذا الغذاء ألحق الصبى وهو فى العاشرة طالبا مقيما بكلية لوى - لجران اليسوعية على شاطئ باريس الايسر ، التى اشتهرت بأنها أفضل مدرسة فى فرنسا . وكانت تضم بين تلاميذها الألفين من أبناء الاشراف كل من أطاق أن يتعلم ، وفى السنوات السبع التى أنفقها فولتير فى مدرسته صنع الكثير من الاصدقاء الارستقراطيين الذين احتفظ طوال حياته بالآلفة الطبيعية معهم . وقد تلقى تدريبات حسنا فى الدراسات الكلاسيكية ، والادب ، ولا سيما المسرحية ، ومثل فى مسرحيات عرضت هناك ، وكتب هو نفسه تمثيلية وهو بعد فى الثانية عشرة . وكان متقدما فى دراسته ، وظفر بجوائز كثيرة وأبهج معلميه وأفرعهم . فلقد أعرب عن عدم ايمانه بالجحيم ، وسمى السماء « عنبر نوم الدنيا الكبير (٤) » . وتنبا أحد معلميه فى حزن بان هذا المفكر الصغير سيحمل لواء الربوبية الفرنسية - أى الدين الذى يرفض كل لاهوت تقريبا فيما عدا الايمان بالله . على أنهم احتملوه بما عهد فيهم من صبر وأناة ، وبادلهم هذا الصنيع باحتفاظه - طوال هرطقاته كلها - باحترام وعرفان بالجميل

دافئتين لليسوعيين الذين راضوا عقله على الوضوح ودربوه على النظام
كتب وهو فى الثانية والخمسين يقول :

« تلقيت العلم سبع سنين على يد رجال بذلوا جهودا مضنية لم
ينالوا عليها جزاء ليربوا عقول الشباب وأخلاقهم ... ولقد أشربونى
ميلا الى الأدب ، وعواطف ستكون عزاء لى الى نهاية عمرى . وما من
شئ سيمحو من قلبى ذكرى الأب بوريه ، الذى هو عزيز بالمثل على
كل من أخذوا عنه العلم . فان أحدا من المعلمين لم يحب تلاميذه فى
الدرس والفضيلة كما فعل ذلك الأب ... وقد أسعدنى الحظ بتلقى
العلم على أكثر من أب يسوعى جعلته أخلاق الأب بوريه .. فما الذى
رايته خلال السنين السبع التى قضيتها مع اليسوعيين ؟ أكثر ضروب
للحياة جدا وقصدا وتنظيما ، أوقاتهم كلها قسمة بين رعاية يبدلوننا
لنا وممارسات لمهنتهم الشاقة . وإنى لأستشهد بالآلاف الذين علموهم
كما علمونى وليس بين هؤلاء فرد يكذبنى (٥) » .

وبعد أن تخرج فرانسوا نوى أن يجعل الأدب مهنته ، ولكن أباه
أصر على أن يدرس القانون ، محذرا أياه من احتراف الأدب الذى هو
كلمة المرور السحرية الى الفقر والعوز . وظل فرانسوا ثلاث سنين
« يدرس قوانين تيودوسيوس وجستنيان سبيلا لمعرفة مهنة المحاماة
الباريسية » على حد قوله . وقد كره « كثرة الأشياء عديمة الجدوى
التي أرادوا أن يشحنوا بها ذهنى ؛ ان شعارى هو : التركيز على
صميم الموضوع (٦) » . وبدلا من أن يستغرق فى مجموعات القوانين
والسوابق القانونية ، سعى لصحبة جماعة من شكاك الأبيقوريين كانوا
يجتمعون فى التأميل - وهو بناء تخلف من دير قديم لفرسان الهيكل
(الداوية) فى باريس . وكان امامهم فيليب دفاندوم ، كبير رؤساء
أديار فرنسا ، صاحب الموارد الكنسية الضخمة والايمان الدينى الهزيل ،
ومعه الآباء سيرفيان ، ودبوسى ، ودشوليو ، ومركيز دلافار ، وأمير
كوفتى ، وغيرهم من الأعيان الذين يتمتعون بدخل ميسر وحياسة
مرحة ... وكان الآبيه دشوليو يجهر بأن الخمر والنساء أطيب النعم
التي جادت بها على الانسان طبيعة حكيمة خيرة (٧) . وقد لاعم
فولتير بين نفسه وبين هذا النظام دون عناء ، وصدم أباه بالسهر خارج

للبيت مع أمثال هؤلاء السملر المعريدين حتى العاشرة مساء ، وكانت
تعد يومها ساعة متأخرة تأخيرا منكرا .

وعين فولتير ملحقا للسفير الفرنسي بلاهاى (١٧١٣) ، ربما
بناء على طلب الأب . ويعرف العالم كله كيف وقع الفتى البالغ الحساسة
فى غرام أوليمب دنوايه ، وكيف لاحقها بأشعاره ، وقطع لها العهد
بعبادتها الى الابد . كتب لها يقول : « لم يوجد حب يعدل حبنى ، لأنه
لم يوجد انسان أجدر بالحب منك (٨) » . وأبلغ السفير آرويه الأب
بان فرانسوا لم يخلق للدبلوماسية . فاستدعى ولده الى وطنه ، وحرمه
من ميراثه ، وهدد بنفيه على مركب الى جزر الهند الغربية . وكتب
فرانسوا من باريس الى « بامبيت » بأنه قاتل نفسه ان لم تبادر بالحضور
اليه . واذا كانت أعقل منه بسنتين اثنتين ، ويجنس واحد ، فقد ردت
عليه بأن من الخير له أن يصلح أباه ، ويصبح محاميا فالحا . وصفح
عنه أبوه شريطة أن يدخل مكتب محام وقيم معه ، فوافق . اما بامبيت
فتزوجت كونتا . ويبدو أنها كانت آخر مغامرات فولتير الغرامية .
لقد كان انسانا مرهف الشعور كائى شاعر ، كله أعصاب وحساسية ، ولكنه
لم يكن عارم الشهوة ، وسوف يقع بعد ذلك فى غرام مشهور ، ولكنه
لن يكون تجاذبا بين جسدين بقدر ما هو تألف بين عقليين . لقد فاضت
طاقته من خلال قلمه . كتب الى المركيزة ديمور وهو لم يجاوز الخامسة
والعشرين يقول « ان الصداقة اثمن ألف مرة من الحب . ويخيل الى
أننى لم أخلق قط للغرام . فأننى أجد فى الحب شيئا سخيلا نوعا ما . .
وقد قررت أن أطلقه الى الابد (٩) » .

وفى أول سبتمبر ١٧١٥ مات لويس الرابع عشر ، فتفتشت أوروبا
البروتستنتية وفرنسا الكاثوليكية الصعداء . لقد كان موته خاتمة ملك
ونهاية عصر : ملك اتصل اثنتين وسبعين سنة ، وعصر - عصر القرن
العظيم - بدأ بأمجاد الانتصارات الحربية ، وبهاء الروائع الأدبية ،
وفخامة فن الباروك ، وانتهى بانحلال الفنون والآداب ، وارهاق الشعب
واقفاره ، وهزيمة فرنسا واذلالها . وتطلع الجميع فى أمل وشك الى
الحكومة التى ستخلف الملك المهيب الذى راح غير مبكى عليه .

٢ - الصراع على الوصاية : ١٧١٥

كان هناك ملك جديد ، هو لويس الخامس عشر ، ابن حفيد

لويس الرابع عشر ، ولكنه لم يكن قد جاوز الخامسة . مات جده ، وأبوه ، وأمه ، واخوته ، واخواته ، وأخيرا جد أبيه . فمن يكون وصيا عليه ؟ .

لقد سبق وليان للعهد الملك الشمس الى الموت : ابنه لويس الذى مات فى ١٧١١ ، وحفيده دوق برجنديا الذى مات فى ١٧١٢ . وقبل حفيد آخر باسم فيليب الخامس ملكا على اسبانيا ، شريطة تنازله عن جمع حقوقه فى عرش فرنسا ، وبقي على قيد الحياة بعد موت الملك الشيخ ابنان غير شرعيين ، وكان قد اعترف ببنوتهما شرعا ، وأصدر مرسوما بأن يرثا تاجه فى حالة عدم وجود أمراء يجرى فى عروقهم الدم الملكى . أما أكبرهما وهو لوى أوجست ، دوق مين ، البالغ آنئذ الخامسة والأربعين ، فكان رجلا هزيل الجسم لطيف المعشر زادت قدمه المشوهة من حيائه وجبنه ، ولعله كان يقنع بما تتيح له ضيعته الكائنة بضاحية سو (خارج باريس مباشرة) ، والتي بلغ ثمنها ٩٠٠.٠٠٠ جنيه ، من ترف ودعة ، لولا أن زوجته الطموح كانت تحته على أن ينافس غيره من الساعين للوصاية على العرش . ذلك أن دوقة مين لم تنس قط أنها حفيدة كونديه الكبير ، فاحتفظت فى سو ببلاط أشبه ببلاطات الملوك ، بسطت فيه رعايتها على الفنانين والشعراء (ومنهم فولتير) ، وأحاطت نفسها بحاشية مريحة وفيه تمهدا للملك وسبيلا للوثب اليه ، وكان لها مفاتنها ، امرأة لا عيب فى جسمها ولا شائبة فى هندامها ، شديدة القصر والنحافة حتى ليخالها الناظر صبية ، ذكية ماهرة ، تلقت تعليما كلاسيكيا طيبا ، وأوتيت بديهة حاضرة وحيوية لا تعيا وان أعيت غيرها . وكانت واثقة أن زوجها سيكون وصيا رائعا ما دام خاضعا لسلطانها . وبلغت بالحاحها من اقناع القوى المحيطة بالملك المحتضر مبلغا كفى لاستخلاص وصية منه (١٢ أغسطس ١٧١٥) تركت لدوق مبن الاشراف على شخص الصبى لويس ، وتعليمه ، وعلى جنود القصر ، ومنحته كرسيًا فى مجلس الوصاية . ولكن ملحقا للوصية (٢٥ أغسطس) عين فيليب الثانى ، دوق أورليان ، رئيسا للمجلس .

وأما فيليب هذا فكان ابن فيليب الاول (الميسو) الاخ الخنثوى للملك الشيخ من زوجة ثانية - هى شاررلوت اليزابث أميرة البالاتين

الخشنة الواقعية النزعة . وكان تعليم الفتى قد نبط بأب دينى تصفه « مذكرات » سان - سيمون ، كما تصفه « المذكرات السرية لفترة الوصاية » « لدكلو » بأنه « بالوعة نتنة » من الرذائل . فلقد كان جيوم دبوا هذا ابنا لصيدلانى اقليمى ، بذل جهدا كثيرا فى الدرس ، وكسب قوته بالاشتغال مدرسا خصوصيا ، وتزوج ، ثم ترك زوجته برضاها ليلتحق بكلية سان - ميشيل بباريس ، حيث كان يدفع نفقات تعليمه بإداء الأعمال الحقيمة بهمة لا تفتر . فلما تخرج قبل وظيفة مساعد لسان - لوران ، ضابط بيت « الميسو » وجز شعر راسه ليترهب ، ورسم كاهنا صغيرا ، ناسيا فيما يبدو زوجته . فلما مات سان - لوران عين دبوا مدرسا خصوصيا للوصي المستقبل . يقول دكلو - الذى قل أن توخى النزاهة وعدم التحامل « أن الابيه أحس أن تلميذه سيحتقره عما قليل ما لم يفقد أخلاقه ، فلم يدخر وسعا فى تحقيق هذا الهدف ، وأفلح فى هذا فوق ما دبر لسوء الحظ (١٠) » . أما سان - سيمون الذى كان يكره الموهبة المجردة من عراقة الأصل ، فكان يجد متعة فى وصف دبوا ، قال فيه :

« رجل قصير القامة ، حقير الهيئة ، ذابل الوجه ، مخلوع القلب ، يلبس باروكة صفراء باهتة ، له وجه عرسة يضئيه بعض الذكاء . لقد كان - فى كلمتين مألوفتين - وغدا أصيلا . اضطرعت فى داخله دون هوادة كل الرذائل لتظفر بالسيادة ، حتى ملا ذهنه الضجيج المتصل - آلهته الحرص والفجور والطمع ، ووسائله الغدر والمسلق والتذلل ، ودينه الفسوق المطلق ، ورأيه الذى دان به كانه المبدأ العظيم هو أن الاستقامة والأمانة من الأوهام التى يتجمل بها الناس دون أن يكون لها وجود ... كان فيه ذكاء ، وعلم ودراية بشئون الدنيا ، ورغبة شديدة فى ارضاء الناس والتودد اليهم ، ولكن هذا كله أفسدته رائحة كذب وزيف انبعثت رغم ارادته من مسام جسده كلها ... شرير ... خائن ، عاق ، خبير بأخبث الخبائث ، صفيق أشد الصفاقة حين يكشف أمره . يشتهى كل شيء ، ويحسد كل شيء ، ويود أن يظفر بكل شيء (١١) » .

وكان سان - سيمون وثيق الصلة بأسرة فيليب ، وعلينا ألا نتعجل

فى تكذيبه ، ولكن لابد أن نضيف أن هذا الابيه كان دارسا كفلا ،
ومساعدا قديرا ، ودبلوماسيا حكيما موقفا ، وأن فيليب لخبرته بالرجل
ظل وفيا له الى النهاية .

اما التلميذ ، الذى ربما كان نسبه من ناحية الاب قد افسده ، فقد
تلقف تعليمات أستاذه وبزها عقلا ورذيلة . أبهج معلمه بذاكرته القوية ،
وفطنته العقلية ، وذكائه الثاقب ، وفهعه وتذوقه للأدب والفن . واتاه
دبوا بفونتنيل ليعلمه أصول العلوم ، وبهومبيرج ليعلمه أصول الكيمياء ،
وسيكون لفليب فيما بعد مختبره الخاص كما كان لتشارلز الثانى ملك
انجلترا ولغولتير فى سيريه ، وسيلتمس فى التجارب الكيميائية بعض
الراحة من حياة الزنا والفجور . وكان يرسم صوراً لا بأس بها ، ويعزف
على القيثارة ، ويحفر الرسوم للكتب ، ويجمع التحف جمع ذواقه
خبير ولم يتعمق واحدا من هذه الميادين ، فقد كانت اهتماماته شديدة
التنوع ، وملاهيته تستأثر بوقته . وكان بريئا كل البراءة من الايمان
الدينى ، وحتى أمام الناس « تظاهر باستهتار مخز بالدين (١٢) »
وفى هذا ، كما فى اباحته الجنسية ، كان رمزا وحافزا لبلده وللقرن
الذى عاش فيه .

لقد كان كاكثرا خليطا مضطربا من الشخصيات . يكذب فى يسر
وفى ابتهاج خبيث عند الحاجة أو للنزوة الطارئة ، وينفق ملايين
الفرنكات المنتزعة من شعب مملق على ملاهيته وهواياته الشخصية ؛ على
انه كان جوادا عطوفا ، بشوشا متسامحا ، « بطبيعته طيب القلب
عطوف ، رموف (كما قال سان - سيمون (١٣)) أكثر وفاء لأصدقائه
منه لخليلاته . وكان يثمل بالشراب كان السكر شعيرة يؤديها كل ليلة
قبل أن يمضي الى فراشه (١٤) . فاذا ويخته أمه أجابها « من السادسة
صباحا حتى الليل يفرض على العمل الطويل المضى ، ولولا أنى الهو
بعد ذلك لما أطقته ، ولت كمدا (١٥) » .

وربما كان له من اجهاض حبه الاول عذر فى اسرافه فى الجنس .
ذلك أنه شغف حبا بالأنسة سيرى ، وكانت وصيفة شرف لأمه ، عريقة
المولد . فراح ينظم لها القوافى ، ويغنى لها ، ويزورها مرتين فى

اليوم ، وأراد أن يتزوجها . ولكن لويس الرابع عشر عبس ، وزكى له ابنته غير الشرعية ، دوقة بلوا ، تزكية قوية . وأطاع فيليب (١٦٩٢) ، ولكنه واصل تعلقه الشديد بالآنسة سيري حتى ولدت له ابنا . فنفاها الملك الغاضب من باريس . وبعث لها فيليب بالمال الكثير ، ولكنه حاول أن يكون وفيا لزوجته ، دون أن يوفق في ذلك طويلا . ومنحته ابنة ، هي دوقة بيرى المستقبل ، التي أصبحت أغلى حب له . وأمر ماساة في حياته .

وبعد موت أبيه (١٧٠١) خلفه فيليب على لقب الدوقية وثروة الأسرة ، دون أن يلتزم بشيء ، إلا أن يستمتع بحياته في السلم ويخاطر بها في الحرب . وكان قد قاتل قبل ذلك ببسالة ضد الحلف الأعظم (١٦٩٢ - ٩٧) ، وأصابته من جراء ذلك جراح كبيرة . ثم نال الآن مزيدا من الامتياز ببسالته المستهترة في حارب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢ - ١٣) . فلما نجا من الموت كافا نفسه بوليمة من البغايا . وكان في آثامه كلها ، وفي غير استهتاره الديني ، يحتفظ بلطف في السلوك وتهذيب وأدب في الحديث يذكر الناس بشباب « الملك الشمس » الحال .

ولم يخطر ببال فيليب أن من حقه أن يطالب بالوصاية على العرش إلا بعد أن أزيح جميع الورثة المباشرين من الطريق ، أما بالموت وأما بالمعاهدة . واتهمته الشائعات بأنه سمم أمراء البيت المال ليخلو له الطريق الى الملك ، ولكن الأجيال التالية وافقت لويس الرابع عشر على رفضه هذه الفرية . وبدأت عدة جماعات ترى فيه شرا أهون من دوق مين ودوقتها . فالبروتستنت الفرنسيون الذين قبلوا اعتناق الكاثوليكية تحت الاكراه بالتهديد تمنوا ارتقاءه الى منصب الوصي لما توسموا فيه من ميل ملحوظ الى التسامح . كذلك الهانسنويون الذين قامسوا من الاضطهاد الملكي والمراسيم البابوية ، وكذلك أصحاب « العقول القوية » أو أحرار الفكر الذين أبهجتهم فكرة حكم رجل حر الفكر لفرنسا ، وكذلك جمهور باريس الذي سئم صرامة الملك المتوفى وتزمته الذي جاء متأخرا ، وكذلك جورج الأول ملك إنجلترا ، الذي عرض على فيليب المعونة المالية فرفضها ، وأهم من هؤلاء جميعا أن « نبلاء السيف » -

أى الأسر الذبيلة التى أنزلت عن سلطانها القديم يأمر ريشليو ولويس الرابع عشر ليصبح أفرادها طفيليات تعيش عائلة على البلاط - هذه الأسر راودها الأمل بأنها عن طريق فيليب ستثار لنفسها من الاهانة الملكية ، اهانة الخضوع للأبناء غير الشرعيين فى الحكم ، وللتجار فى الادارة . وحث سان - سيمون فيليب على التخلّى عن تبطله وفجوره ، وعلى الكفاح فى سبيل حقه فى الوصاية ، وكان هو نفسه واحدا من أكبر النبلاء مقاما .

وأما فيليب فكان يحب اللهو أكثر من السلطة ، ولعله كان يؤثر أن يترك شأنه . أما وقد راح أصحابه يحضونه ، فقد همز همته لتفور فورة قصيرة ، فاشترى هو - أو هم - تأييد جنود القصر الملكى (تحت بصر دوق مين) ، وكسبوا كبار السياسيين والعسكريين بوعدهم بالوظائف ، واسترضوا البرلمان بأمال رد امتيازاته السابقة . وفى ٢ سبتمبر ١٧١٥ - غداة موت لويس الرابع عشر - دعا فيليب برلمان باريس ، وقادة النبلاء ، وكبار موظفى الدولة ، للاجتماع فى قصر العدالة . وذهب دوق مين مؤملا الظفر بمنصب الوصي ، ولكن جسارة دوق أورليان ، وكذبه ، وفصاحته ، كلها غلبته فى هذه اللعبة . قال فيليب فى معرض بذل الوعود « لن يكون لى هدف غير التخفيف من آلام الشعب ، وتوطيد النظام الحسن من جديد فى مالية الدولة ، والمحافظة على السلام فى الوطن وفى الخارج ، وإعادة الوحدة والهدوء الى الكنيسة ، وسيعيننى على هذا اعتراضات هذا المحفل الجليل الحكيم ، وهانذا التمسها سلفا (١٦) » . أى أنه عرض أن يرد للبرلمان « حق الاعتراض » (على المراسيم الملكية) الذى أنكره الملك السابق وأغفله . وتحقق النصر لهذه الحركة البارعة ، وبائع البرلمان فيليب بالاجماع تقريبا وصيا على العرش وأعطاه الاشراف الكامل على مجلس الوصاية . واحتج دوق مين بأن هذه الترتيبات تخالف وصية الملك الراحل ، وأنه والحالة هذه لا يمكن ان يظل بعد ذلك مسئولا عن شخص الملك الصبى ، وأنه مضطر الى طلب اعفائه من ذلك الواجب . فأخذه فيليب والبرلمان عند كلمته ، وانكفأ مين ساخطا عاجزا الى ضيعته فى سو ، وإلى تقريعات زوجته العنيفة . وأصبح فيليب أورليان وصيا على عرش فرنسا ثمانية أعوام ، وكان يومها فى الثانية والأربعين .

٢ - قصة الحضارة

٣ - ازدهار ثم انهيار : ١٧١٦ - ٢٠

كانت مهمته الاولى اعادة النظام والاستقرار الماليين الى الدولة .
لقد ورث حكومة مفلسة ، بلغ دينها ٢٤٠٠.٠٠٠.٠٠٠ جنيه ، اضيف
اليه دين قصير الاجل بلغ ٥٩٠ مليون جنيه على شكل « سندات على
الدولة » - وهى كمبيالات ملكية تتداولها الأمة ، ولم تكد تساوى آنئذ
ثلث قيمتها الاسمية . وكان صافى ايرادات الحكومة عام ١٧١٥
لا يتجاوز ٦٩ مليون جنيه ، ومصروفاتها ١٤٧ مليوناً . وكان اكثر
الدخل المنتظر فى ١٧١٦ قد أنفق مقدماً (١٧) .

واشار سان - سيمون بأن تشهر الحكومة افلاسها . ولكن الدوق
أدريان موريس دنواى احتج . ووفق الوصي بين الرايين باجراءات
اقتصاد واصلاح معتدلة . فخفض الجيش الى ٢٥.٠٠٠ مقاتل ، وأعفى
الجنود المسرحون من الضرائب ست سنوات ، وأعفى آباء الاطفال
الثمانية اعفاء دائماً . وخفضت ضرائب « التاي » ، والجاييل ،
والرموس ، وغيرها من الضرائب . وندد بالفساد الذى استشرى فى
جميعها ، وعولج بعض هذا الفساد ، ورفعت مئات من شاغلى الوظائف
الحكومية الزائدين عن الحاجة - ومنهم ٢٤٠٠ فى باريس وحدها .
وانشئت « غرفة عدالة » (مارس ١٧١٦) دعى للمثول امامها كل
الماليين ، والتجار ، وأصحاب مصانع الذخيرة ، وغيرهم ممن اشتبه
فى أنهم غشوا الحكومة . وهنا أقام نواى ، الذى ألف الاجراءات
العسكرية ، حكم ارهاب حقيقيا ، فوعد بالرافة كل من يكشف عن زملائه
من المذنبين ، ووعد المبلغون بخمسة المبالغ التى تسترد بفضل
مساعدهم . وشرعت عقوبة الاعدام لكل من يعوق عمل المبلغين ،
وتقررت مصادرة الاملاك والحكم بالتشغيل على سفن الاسرى والعبيد
مدى الحياة عقاباً لمن يدلون بشهادة زور عن وضعهم المالى . وشنق
بعض من حكم عليهم ، ووضع البعض الآخر فى المشهرات امام جمهور
مبتهج ، وانتحر بعض رجال المال بعد أن يئسوا من تبرئة أنفسهم . على
أن النتائج لم تكن متناسبة مع هذه الوسائل . ذلك أن أكثر المذنبين
اشتروا الاعفاء من الفحص او الادانة برشوة موظفى الغرفة ، او اصدقاء
الوصي ، او خيلاته . وتفاقم الفساد حتى بلغ حداً كان أفراد الحاشية

بیسعون فيه الى الرشوة بدلا من أن يعرضها المذنبون عليهم ، من ذلك أن أحد رجال المال حكم عليه بغرامة قدرها ١٢٠٠.٠٠٠ فرنك ، فوعده أحد رجال البلاط برفع الغرامة لقاء مبلغ ٣٠٠.٠٠٠ جنيه . قال له رجل المال « سيدى الكونت العزيز ، لقد تأخرت كثيرا ، لأننى أبرمت للتو اتفاقا مماثلا مع زوجتك لقاء نصف هذا المبلغ (١٨) » . وأعلن المرسوم الذى ألقى غرفة العدالة (مارس ١٧١٧) ، فى صراحة نذر أن تتحلّى بها الحكومات ، أن « الفساد استشرى حتى وصلت عدواه الى جميع الطبقات تقريبا ، بحيث لا يمكن توقيع العقوبات العادلة على مثل هذا العدد الغفير من المذنبين دون الاخلال بالخطر بالتجارة والنظام العام والدولة » . وكان صافى ربح الحكومة حين انتهى التحقيق نحو سبعين مليون فرنك (١٩) .

فلما خاب أمل الوصي فى هذه النتائج ، استمع الى رجل اسكتلندى ممتاز اقترح عليه نظاما جديدا للمالية . واسم الرجل جون لو ، وقد ولد لمصرفى من أدنبره فى ١٦٧١ ، ودرس علم المصارف فى لندن ، وشهد افتتح بنك إنجلترا فى ١٦٩٤ ، واشتبك فى مبارزة بسبب الحب ، وقتل غريمه ، ثم فر الى القارة يحمل على رأسه حكما بالإعدام . وكان وسيما ، بشوشا ، مولعا بالعلوم الرياضية ، ضارب بنجاح فى سوق النقد الأجنبى ، وأعانتته قدرته على حساب ارتباطات أوراق اللعب وتذكرها على كسب قوته فى مختلف الاقطار . وقد راقب الطرق التى تعمل بها المصارف فى أمستردام ، وهامبورج ، والبندقية ، وجنوة . وفى أمستردام على الأخص أخذ بسحر نظام الائتمان ، الذى أتاح للمصرف أن يصدر أوراقا نقدية بأضعاف القيمة الذهبية لرصيده ، بحيث شغل عشرة جولدنات بغطاء جولدن واحد ، وبهذه الطريقة حفز الأنشطة الصناعية والتجارية ، ويسرها ، وضاعفها . ورأى هناك كيف يمكن ، فى مصرف يثق به رجال الاعمال ، اجراء المعاملات بمجرد نقل الارصدة المصرفية ، دون عناء حمل الفضة أو الذهب أو مبادلتهما . وساعل نفسه : لم لا يمكن انشاء مصرف قومى ونظام الائتمان كهذين فى فرنسا ؟ وراح يفكر فى وضع « نظامه » - وهو الاسم الذى أطلق عليه بعد ذلك .

وكان محور فكرته زيادة توظيف الناس والمواد باصدار أوراق النقد ، بضمان الحكومة ، لمثلئى قيمة الاحتياطيات القومية من الفضة والذهب .

والارض ، ويخفض معدل الفائدة ، تشجيعا لرجال الاعمال على اقتراض المال للمشروعات والطرق الجديدة فى الصناعة والتجارة . وبهذه الطريقة تخلق النقود الاعمال ، وتزيد الاعمال من التوظيف والانتاج ، وتزداد الايرادات والاحتياطيات القومية ، ويتيسر اصدار المزيد من النقود ، ويتصاعد الخير والنفع . ولو أمكن اقناع الشعب - عن طريق المدفوعات من الفوائد - بايداع مدخراته فى مصرف قومى بدلا من اختزان المعدنين النفيسين ، لاضيفت هذه المدخرات الى الاحتياطيات ، وأصدر المزيد من العملة ، وهكذا يشغل المال العاطل ، ويزداد رخاء البلاد .

وفى عام ١٧٠٨ شرح لو أفكاره للحكومة الفرنسية ، فرفضها لويس الرابع عشر . فلما أصبح فيليب أورليان وصيا ، عرض لو أن ينقذ بنظامه هذا مالية فرنسا المفلسة . وتساعل : لم تنفرد فرنسا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، دون سائر دول أوربا الكبرى بخلوها الى ذلك الحسين من المصارف القومية ؟ ولم تردت فرنسا فى مهاوى الركود الاقتصادى برغم ما تميزت به تربتها من خصب وأهلها من ذكاء ؟ ووافق فيليب على السماح له بأن يؤسس « مصرفا عاما » (١٧١٦) على أن يكون هذا مشروعا أهليا . وقبل المصرف الودائع ، ودفع الفوائد ، وأقرض القروض ، وأصدر أوراق نقد - من فئات عشرة ومائة و ألف فرنك - سرعان ما أصبحت وسيطا مفضلا فى المبادلة بفضل قيمتها الثابتة ، المربوطة بوزن ثابت من الفضة . وكانت هذه الاوراق النقدية أول نقود ورقية قانونية ، وهكذا وضع مصرف لو ، وفروعه الاقليمية ، أول طرق الائتمان المنتظمة فى فرنسا . وفى أبريل ١٧١٧ تقرر قبول أوراق المصرف سدادا للضرائب .

وفى سبتمبر تقدم لو الى مرحلة من أفكاره اشد مغامرة . ذلك أنه حصل من الوصي على امتياز شركة جديدة سماها « شركة الغرب » لاستغلال حوض المسبى باكملة ، وكان يومها خاضعا لفرنسا . وباع للجمهور ٢٠٠.٠٠٠ سهم فى شركة الغرب هذه سعر السهم منها ٥٠٠ جنيه ، وكان الثمن عاليا ، ولكن يجوز دفع ثلاثة أرباعه سنداه حكومية بقيمتها الاسمية ، التى بلغت ثلاثة أمثال قيمتها الفعلية .

ويبادر الجمهور الى شراء الاسهم كلها مغتبطا بهذه الفرصة التي اتاحت له أن يستبدل بالأوراق المنخفضة القيمة أسهما في مشروع يرجى من ورائه الربح . وأصدر لو - في تفاؤل متزايد - تعليماته لمصرفه بأن يشتري الاحتكار الملكي للتبغ ، وجميع الشركات الفرنسية التي تشتغل بالتجارة الخارجية ، ثم ضم هذه الشركات الى شركة الغرب فالف منها « شركة جزر الهند » التي ستحتكر كل التجارة الخارجية . وبدأ لبعض رجال الأعمال ان الاشتراكية في التجارة الخارجية نذير بالاشتراكية في الانتاج والتوزيع الداخليين ، فبدأت تختمر حركة معارضة للو .

وفى ٤ ديسمبر ١٧١٨ أعيد تأسيس مصرف لو باسم « المصرف الملكي » ، واعترف بأوراقه أوقافا نقدية قانونية ، وأعطى الاشراف الكامل تقريبا على مالية الامة . وأصدر لو اصدارا جديدا من الاسهم في شركة الهند بسعر السهم منها ٥٥٠ جنيها . وسرعان ما تم الاكتتاب . وزاد توقع الناس للارباح المرتفعة في تقديرهم لقيمة الاسهم ، فتبادلوها بأسعار مطردة الزيادة في موجة مضاربة ، حتى طلبت بسعر ٢٠٠٠ رة جنية ، أى بتسعة أو عشرة أمثال قيمتها الاسمية . وتصادف أن مرت بباريس في ١٧١٨ الليدى مارى ورتلى مونتاجيو ، فابتسمت لرؤية فرنسا تترك المتصرف في حياتها الاقتصادية لرجل بريطانى . وسمح لو نفسه لخياله بأن يشطح متجاوزا صواب حكمه . فلم يكتف المصرف الملكى الجديد بتسلم دار سك النقود وكل جبايات الضرائب ، بل تلقى الدين القومى باعطائه حصة في شركة جزر الهند نظير كل قيمة اسمية قدرها ٢٠٠٠ رة جنية في تعهدات الحكومة ، وخیل اليه أن رأس المال العاطل سيصبح بهذه الطريقة عاملا تقي مشروعاته الموسعة . ثم عرض قدرها المصرف على الوفاء بديونه لمزيد من الخطر باعطائه منحة للموصى قدرها ٢٤٠٠ سهم .

وظللت ثقة الناس به كاملة برغم هذه المغامرات الطائشة ، واشتدحت حماسهم للشركة ، وزايد المشترون بأسعار أعلى وأعلى على أسهمها . وزاد المزيغون هذه الضجة بانزال شهادات أسهم مزيفة الى السوق . وظل شارع كانكمبوا ، الضيق القذر ، الذى اختار « النظام » فيه مكانه ، سدى صامنين المركز المالى الرئيسى لباريس (أشبه ببول مستنريت فى

نيويورك) . وتجمع فيه المشترون والبائعون من جميع الطبقات ، والدوقات والمومسات ، والباريسيون والريفيون والاجانب ، فى أعداد مطردة وانفعال اشتد يوما بعد يوم . ومات البعض تحت الأقدام وسط الزحام ، أو داستهم مركبات النبلاء . وكان المريشال الشيخ « دفيلاى » يمر بالمكان راكبا ، فتوقف ليحاضر الجمع المحتشد عن جشعه المفرط . وكانت الأكشاك الصغيرة المقامة فى هذا الزقاق تغل كل شهر ايجارا أكثر مما تغله البيوت فى عشرين عاما . وشكا السكان من شدة الضجيج الذى لا يحتمل . ومع ذلك لم يتوقف المشترون عن المزايدة بأصوات مرتفعة ، وكان سعر السهم يزداد كل يوم تقريبا ، بل أحيانا كل ساعة ، فبيع بعض الأسهم فى نهاية عام ١٧١٩ بمبلغ ١٢ر٠٠٠ جنيه ، وبلغت القيمة السوقية لكل الاسهم المعروضة آنئذ ثمانين ضعف قيمة كل الذهب والفضة المعروفين فى فرنسا (٢٠) . واذ كان المطلوب دفعه من ثمن السهم لا يتجاوز عشرة فى المائة من قيمته الاسمية ، فان نقل الاسهم من مالك لآخر كان مريعا ، وحقق البعض ثروات فى يوم واحد . فكسب مصرف ١٠٠ مليون جنيه ، وخدام فى فندق ثلاثين مليونا (٢١) . وسمع الناس لأول مرة كلمة « المليونير (٢٢) » .

وكان لو رجل الساعة . ففى ١٧٢٠ عين مراقبا عاما للمالية . وكان أساطين النبلاء والنبيلات يذرعون حجرة انتظاره ملتسمين نصحه فى شئون المال أو تأييده فى دسائس البلاط . وقد كتب فولتير مستعيذا ذكرى ذلك العهد فقال « رأيتته يعينى يخترق أبهاء الباليه - رويال ومن ورائه الأدواق والاشراف - وماريشالات فرنسا ، واساقفة الكنيسة (٢٣) » . وقبلت إحدى الدوقات يده فى تذلل .

بيد أنه لم يبد عليه أن انتصار أفكاره الظاهر أفسده ، أو ان استفحال سلطانه الشخصى أطفاه ، والواقع أنه ربح للقيمة المفرطة التى أوصل جشع الجمهور أسهم الشركة اليها (٢٤) . ولم يستغل مركزه ليثرى . وقد صرح سان - سيمون ، الذى كان يعارض هذا « النظام » بقوله :

« لم يكن فى طبيعه جشع ولا لؤم . فلقد كان رجلا رقيقا طيبا »

محترما ، لم تفسده زيادة الثقة وكثرة المال ، ولم يكن فى مسلكه ، ولا فى بطانته ، ولا فى ملئدة طعامه ، ولا فى أثائه ، ما يصدم الناس . وقد احتمل بصبر وثبات عجيبين كل المضايقات التى سببتها عملياته ، حتى اذا قارب النهاية . . . أصبح سريع الغضب حاد الطبع » .

ولكن بعض النبلاء لم يرضوا عنه لأنه أجنبى وبروتستنتى ، ولاحظوا أنه هو وزوجته الانجليزية لم يكونا متزوجين زواجا شرعيا رغم ما بدا من اخلاصهما الواحد لصاحبه . ورغبة منه فى التخفيف من هذا العداء ، قبل المواطنة الفرنسية والمذهب الكاثوليكي الرومانى .

واستعمل سلطانه مهمازا يحفز به رضاء وطنه الثانى ، فخفض الضرائب ، وأنهى النظام السقيم الفاسد الذى كانت الوكالات الاهلية تتبعه فى جمع الضرائب ، وأظهر نحو جماهير الشعب عطفًا لم يعهد فى رجال المال . وقسم ضياعا كبيرة ملكا للكنيسة أو النقابات ليزرعها الفلاحون ، لا بل اقترح عقب تعيينه مراقبا عاما الزام الكنيسة ببيع جميع الاملاك التى اقتنتها بعد عام ١٦٠٠ - أعنى نصف جميع ممتلكاتها الفرنسية (٢٥) - وسبق طورجو بالغائه الرسوم المفروضة على نقل الأغذية والسلع داخل فرنسا ، ونظم بناء الطرق والكبارى والقنوات أو ترميمها ، واستقدم مهرة الصناع من الخارج ليؤسسوا صناعات جديدة ، وشجع التوسع الصناعى بتخفيضه نسبة الفائدة على القروض ، وزادت المشروعات الفرنسية ستين فى المائة فى مدى العامين (١٧١٩ - ٢٠) اللذين بلغ فيهما قمة سلطته ، وأحيا البحرية التجارية وضاعفها بالتوسع فى التجارة مع آسيا وأفريقيا ، وأمريكا ، وكانت السفن الفرنسية التى تحمل التجارة الخارجية ، تبلغ ست عشرة فى مارس ١٧١٩ ، فأصبحت ٣٠٠ فى يونيو ١٧٢٠ ، وعادت التجارة الخارجية الفرنسية فى عهد لو الى الأوج الذى أدركته تحت كولبير . وأقنع النبلاء الفرنسيين بتمويل انتاج البن والتبغ فى لويزيانا ، ومول هو نفسه تطوير منطقة نهر أركنساس . وفى ١٧١٨ أسست نيو أورليانز ، واتخذت لها اسما من اسم أسرة الوصي .

على أن المشروع الأمريكى لم يكتب له التوفيق رغم جهود لو

وفيليب المتعددة النواحي . فلقد كان شطر كبير من وادى المسبى لا يزال برية لم تفتح ، وعرض لو مهور العرائس و ٤٥٠ فدانا على الأسر المهاجرة الى الوادى . فلما تبين أن الهجرة أقل اغراء من المضاربة ، رحل المسجونون والمتشردون والبغايا الى لويزيانا ، ودفع الشباب والشابات (أمثال مانون ليسكو فى رواية بروسى) الى هذه الغامرة بالحيلة أو القوة . وكان هؤلاء الضحايا يطعمون أسوأ الطعام حتى مات كثير منهم فى الطريق . وأوقفت مراسيم مايو ١٧٢٠ هذا الاكراه الهمجى . أما فى المستعمرة ذاتها فان التجهيز الرديء ، والادارة السيئة ، والتمرد كلها عوقت النهوض بالاقتصاد ، وجعلت أرباح « شركة المسبى » (كما سماها الناس) أقل كثيرا مما افترضه المضاربون . واتضح أن آمال استخراج الذهب أو الأحجار الكريمة من أرض المستعمرة وهم فى وهم ، رغم أن لو نفسه راوده هذا الحلم .

ولا بد أن نبا هذه الصعوبات قد وصل الى فرنسا . وحكم اذكى المضاربين أن أسهم الشركة قد بلغت قمتها ، أما غيرهم ممن لم يقلوا عن هؤلاء جشعا وان افلقروا الى المعلومات أو الحكم الصائب ، فقد حل بهم الخراب لأنهم تأخروا فى بيع أسهمهم . وفى ديسمبر ١٧١٩ أصبح التهافت والتنافس على البيع أكثر مما كان على الشراء . ففى بحر شهر واحد باع الدوق بوربون أسهما بعشرين مليون جنيه ، وأمير كوزديه بأربعة عشر مليونا ، وتطلب الأمر تخصيص ثلاث عربات لحمل الذهب الذى لم يجرؤ لو على الامتناع عن دفعه ثمنا لأوراقه النقدية وأسهم الشركة (٢٦) . وأفرغ مضارب بروسى ما يملكه منها ، ثم مضى بثلاثين مليونا من الجنيهاات ذهبا . وصرف غير هؤلاء ثمن أسهمهم ليشتروا أرضا أو بيوتا أو حليا أو أشياء أخرى مما تستند قيمته على أساس مكين من حاجة البشر و غرورهم . أما المليونون الذين عاقبتهم غرفة العدالة فقد انتقموا لانفسهم بصرف ثمن أوراقهم وارسل الذهب خارج فرنسا . وحاول لو أن يقف تدفق الذهب من الخزائن ، فحصل من الوصى على مراسيم تحرم على الشعب تملك المعسدين النفيسة أو الاتجار فيها أو تصديرها ، وتحتم تسليم كل الذهب والفضة مما تزيد قيمته على خمسمائة فرنك الى المصرف الملكى . وخول لندوبى المصرف أن يدخلوا البيوت ويفتشوا عن المعدن النفيس المخبوء ، ومثل هذا

العدوان على حرمة البيوت لم يجرؤ عليه أحد قط حتى لويس الرابع عشر . يقول سان - سيمون « لقد أخفى الكثيرون أموالهم فى تكتم شديد حتى أنهم - بعد أن ماتوا دون الافضاء بمكمن كنوزهم الصغيرة - ظلت هذه مدفونه وضاعت على ورثتهم (٢٧) » .

فلما واصل سعر الأسهم هبوطه حاول لو أن يدعمه بعرضه ٩٠٠٠ جنيهه (بأوراق النقد) ثمنا للسهم ، ولكن الزيادة المطردة فى أوراق النقد خفضت من قيمتها ورفعت من سعر البضائع . فلم يحل مايو ١٧٢٠ حتى كانت الاسعار قد ارنفعت مائة فى المائة ، والاجور خمسة وسبعين فى المائة بالمقارنة بسنة ١٧١٦ ، وفى يوليو كان زوج الجوارب الحريرية الطويلة يباع بأربعين جنيها . وبدأ الذعر من التضخم ، فاندفع الناس الى تغيير أوراق النقد وشهادات الاسهم بالبضائع ، فجمع دوق دلافورس المقادير الكبيرة من الشموع ، وكدس المريشال ديسترى كميات ضخمة من البن والكافكاو . ولكى يحد لو من هذا الهروب من النقود الى السلع ، أعلن (٢١ مايو) تخفيض ٥٠ ٪ فى القيمة الرسمية لأوراق النقد وأسهم الشركة . وكان هذا خطأ كبيرا - ربما كان السبب فيه ضغط الوصي المرتاع على لو ، وكان هو ذاته يشعر بالضغط عليه من خصوم لو من النبلاء والكهنة (٢٨) ، وحاول فيليب تخفيف الأزمة برد كل أسهمه فى الشركة الى المصرف (٢٩) .

ومع ذلك استمرت موجة البيع . ففى يوليو اضطر المصرف الى وقف الدفع على أى ورقة نقدية تزيد على عشرة فرنكات وحاصر حملة الأوراق المصرف . وطالبوا فى صخب وضجيج برد قيمة أوراقهم ذهباً أو فضة . وفى باريس اشتد تزاحم القوم حتى ديست عشر نساء تحت الاقدام وسط الفوضى ، وحملت بعد ذلك ثلاث من جثثهن فى موكب غاضب تحت نوافذ الوصي . واعتبر الشعب لو مسئولاً عن جميع الصعوبات مع أن مضاربتهم المجنونة هى التى سببت انهيار « النظام » . وحاول بعضهم القبض عليه وقتله ، فلما فشلت المحاولات هشمّت مركبته تهشيماً فى فناء الباليه - رويال - وأعربت حوادث الشغب المتكررة عن شعور الشعب بأنه كان ضحية الخدع المالية ، وبأن الطبقات العليا كسبت على حساب جمهرة الأمة . وشارك البرلمان فى الحملات

على لو ، فنفى فيليب البرلمان الى بونتواز (٢٠ يوليو) ، ودافع
الشعب عن البرلمان .

وفى أغسطس هبطت أسهم شركة المسبى الى ٢٠٠٠ جنيه بعد
أن بلغت فى أوج ارتفاعها ١٢٠٠٠ جنيه ، أما الأوراق النقدية فهبطت
الى عشرة فى المائة من قيمتها الأصلية . وفى أكتوبر تسرب نبا - سرى
من قم الى قم - بأن الوصي سحب من المصرف الملكى ايان ازدهاره أورقا
بلغت قيمتها الاسمية ثلاثة بلايين من الفرنكات ، انفق أكثرها على
الهدايا السخية للأصدقاء والمحظيات وحوالى هذا التاريخ هرب أحد
صيافة المصرف الى بروميا حاملا كمية ضخمة من الذهب . فهبطت
أسهم شركة المسبى الى ٢٠٠ جنيه . وفى ديسمبر الغى الوصي
المصرف ، وطرد لو ، وأعاد البرلمان . وفى الرابع عشر من أكتوبر غادر
لو فرنسا مع ابنه . وكان قد وظف ثروته فى شركة جزر الهند الخاسرة ،
وشارك مصير معظم حملة الأسهم ، ولم يكن قد أودع مالا فى الخارج ،
فلم يأخذ الآن معه سوى ألفى جنيه وبعض الجواهر غير القيمة . وفى
بروكسل تلقى من بطرس الأكبر دعوة بالحضور الى روسيا والاضطلاع
بشئون ماليتها ، فرفض ، واعتكف فى البندقية ، حيث لحقت به زوجته
وابنته ، وعاش مغمورا فقيرا ، وهناك مات فى ١٧٢٩ .

لقد كانت المبادئ التى أقام عليها مصرفه سليمة نظريا ، ولولا
جشع المضاربين المفرط واسراف الوصي لجعلت فرنسا قادرة على الوفاء
بالتزاماتها ولحققت لها الرخاء . وحين فحصت حسابات لو الخاصة
وجدت سليمة لا غبار عليها . وترك الاقتصاد الفرنسى مؤقنا خربا فى
ظاهر الأمر ، فحملة الأسهم والأوراق النقدية يطالبون بدفع قيمتها
والدفع مستحيل ، وتداول النقود أصابه الشلل تقريبا ، والصناعة
محجمة ، والتجارة الخارجية أصابها الركود ، والأسعار فوق طاقة
الشعب . ودعا الوصي اخوان « بارييس » ليشيعوا شيئا من النظام وسط
هذه الفوضى . فطلبوا جميع أوراق النقد وعوضوا فئاتها المنوعة
بحقوق على الدخل القومى ، بخسارة على أصحابها تفاوتت من ستة
عشر الى خمسة وتسعين فى المائة ، أما الجمهور الذى استنفد سورة
غضبه فقد أذعن لهذا الافلاس العملى فى صبر واحتمال .

على أن شيئا بقى بعد هذا الانهيار . فالزراعة أفادت من ارتفاع قيمة محاصيلها وهبوط العملة . وأفادت الصناعة سريعا لأنها وجدت حافزا من انخفاض الفائدة وارتفاع الأسعار ، وظهرت المشاريع الجديدة فى كل مكان . وانتفعت التجارة الداخلية من خفض الرسوم الداخلية ، واستأنفت التجارة الخارجية توسعها فيما وراء البحار بعد انحسار الفوضى . وخرجت الطبقات الوسطى سليمة كبيرة - وسعيها وراء الكسب كالعهد بها طبيعى وضرورى . وتضاعف عدد المائيين وازدادوا قوة على قوة . وكسب الذبلاء لأنهم دفعوا ديونهم بعملة أرخص ، ولكنهم ظهروا بمظهر مخز لانهم أبدوا وسط حمى المضاربة شهوة ملحة للكسب لا تقل اقتضاحا عنها فى أى طبقة . وظلت الوصاية ملوثة بالنكول عن التزاماتها المالية وبترفها الموصول وسط الخراب الشامل . وقال ناقد مجهول الاسم فى معرض الشكوى من الحال « لا بد من انقضاء قرون حتى يمكن استئصال الشر الذى يسأل عنه لو ، لأنه عود الناس الدعة والترف ، وجعلهم غير قانعين بحالهم ، ورفع ثمن الطعام والعمل اليدوى ، وجعل جميع طبقات التجار تتطلع الى أرباح باهظة (٣٠) » ولكن تلك الروح التجارية ذاتها حفزت اقتصاد فرنسا وفكرها ، رغم هبوطها بالجو الأخلاقى للمجتمع الفرنسى . فما حل عام ١٧٢٢ حتى انتعش الاقتصاد الفرنسى بقدر أتاح للوصى على العرش أن يعود ، باطمئنان ضمير الحاكم ، الى أساليبه المعهودة من الحكم العطوف ، والفجور الفاضح .

٤ - الوصى

لقد نبهته أمه الالمانية الى ضرورة الحد من لطفه مع الناس ، فقالت له « ان العطف خير من القسوة ، ولكن العدالة تقوم بالعقاب كما تقوم بالثواب ، ومن المؤكد أن من لا يجبر الفرنسيين على خشيتهم سيخشاهم بعد قليل ، لأنهم يحتقرون من لا يخيفونهم (٣١) » . أما فليب ، الذى شكله مونتيني ، فكان يعجب بالحرية الانجليزية ، ويتكلم بتفاؤل على حكمه رعية لا تطيعه طاعة عمياء ، بل تكون من الذكاء بحيث تدعه يشرح لها الدواعى التى تبرر قوانينه . ورمز لروح نظامه بتركه فرساي وسكنى البالييه - رويال ، فى قلب باريس ومعماها .

وكان يكره مراسم حياة البلاط والاعلان عنها ، فترك ذلك كله وراء ظهره . ورغبة في المزيد من التيسير والخلوة رتب ألا يسكن الملك الصبي فرساي بل القصر الريفى فى ضاحية فانسين . وبدلاً من أن يدس له فليب السم كما أرجفت الشائعات ، عامله أرق معاملة ، وأبدى نحوه كل الخضوع الواجب له ، واحتفظ لويس الخامس عشر طوال حياته بذكرى شاكراً للرعاية التى أعدها عليه الوصى (٣٢) .

بعد أن دفن لويس الرابع عشر بيومين أمر فيليب بالافراج عن جميع المسجونين فى الباستيل فيما عدا أولئك الذين عرف عنهم ارتكابهم جرائم خطيرة ضد المجتمع . وكان مئات من هؤلاء الرجال قد سجنوا بمقتضى أوامر القبض المختومة lettres de cachet التى أصدرها الملك الراحل ، وأكثرهم جانستيون لم تكن تهمتهم سوى الانشقاق الدينى ، ومنهم من طال العهد بهم فى السجن حتى لم يعرف أحد ، حتى ولا هم أنفسهم ، السبب فى سجنهم . مثال ذلك أن رجلاً قبض عليه قبل خمسة وثلاثين عاماً لم يحاكم قط أو ينابى بسبب سجنه ، فلما أفرج عنه وهو شيخ وجد نفسه حائراً مذهولاً ، فهو لا يعرف انساناً فى باريس ، ولا يملك فلساً واحداً ، وعليه فقد التمس أن يبقى فى الباستيل الى آخر عمره ، وأجيب الى ملتصقه .

ونفى من باريس ميشيل لوتلييه ، كاهن الملك الذى تعقب الجانسينيين من قبل . ونصح الوصى على العرش الحزين المتخاصمين فى الكنيسة بأن يهدئا من خلافاتهما . وأغضى عن البروتستانت المتسترين ، وعين عدداً منهم فى وظائف ادارية . وأراد أن يجدد مرسوم نانت السماح ، ولكن اليسوعيين والجانسينيين اتحدا فى التنديد بمثل هذا التسامح ، كذلك فناه عن ذلك وزيره دويوا الذى كان يحتال للظفر بقبعة الكردينالية (٣٣) . « ولم ينل البروتستانت الانصاف الذى أنكره عليهم الحزبان المتنافسان فى الكنيسة الا بفضل الفلسفة (٣٤) » فلقد كان الوصى فولتيرياً قبل فولتير . ولم يكن له عقيدة دينية واضحة ، وكان على عهد لويس الرابع عشر القضى يقرأ رابليه فى الكنيسة (٣٥) ، أما الآن فقد سمح لفولتير ، وفونتنيل ، ومونتسكيو ، بنشر كتب لو صدرت قبل بضع سنوات لحرم تداولها فى فرنسا لما تنطوى عليه من تهديد للايمان المسيحى .

وكان فيليب - من الناحية السياسية - حاكما متحررا مستنيرا حتى حين زج بفولتير في السجن ، وكان يفسر قوانينه للشعب بعبارات بلغت من الاعتدال والاخلاص مبلغا حدا بميشليه الى أن يرى فيها ارهاضا بجمعية ١٧٨٩ التأسيسية (٣٦) . وامتلات مكاتب الحكومة بالرجال الأكفاء دون نظر الى عدائهم للوصي ذاته ، فعين رجل كان قد هدده بالاغتيال رئيسا لمجلس المالية (٣٧) ، أما فيليب ، الذى كان بطبيعته أبيقوريا - فكان يظل رواقيا حتى الخامسة مساء ، يقول سان - سيمون انه كان الى تلك الساعة « ينصرف بكليته الى أعمال الدولة ، واستقبال الوزراء والمجالس الخ . ولا يتناول طعامه أبدا خلال ذلك النهار ، بل يكتفى بتناول الكاكاو بين الثانية والثالثة ، حين يسمح للجميع بدخول غرفته . . . وقد أبهجت الناس جدا ألفته وسهولة الوصول اليه ، ولكنهم أساءوا استعمالهما (٣٨) » . وكان فيليب أورليان ، دون سلائل هنرى الرابع جميعا ، أى جميع البوربون ، فى رأى فولتير « أشبههم بذلك الملك فى شجاعته ، وطيبة قلبه ، وصراحته ، ومرحه ، وبشاشته ، وسهولة الوصول اليه ، مع فهم أكثر تهذيبا وصقلا (٣٩) » . وكان يربك السفراء والمستشارين بمعارفه الواسعة ، وفكره الثاقب ، وحكمه الصائب (٤٠) . ولكنه شارك الفلاسفة ضعفهم - وهو القدرة والرغبة فى رؤية جوانب كثيرة جدا للموضوع الواحد ، بحيث يضيع الوقت فى النقاش ويؤجل العمل الحاسم .

ولم يكن على سماحته يطبق أى اختزال للسلطة الملكية التقليدية . فلما رفض البرلمان - الذى أراد استخدام حق الاعتراض الذى وعده به - أن يسجل بعض مراسيمه (أى أن يعتبرها ضمن قوانين البلاد المعترف بها) ، دعاه (٢٥ أغسطس ١٧١٨) الى « سرير عدالة » مشهور - وهى جلسة يمارس فيها الملك وهو جالس على « سرير » القضاء سلطته فى الالتزام بتسجيل مرسوم ملكى . ومضى القضاء البائس عددهم ١٥٣ ، وقورين مهيين فى عبااتهم القرمزية ، الى التويلرى سيرا على الاقدام . واتباعا لتعليمات فيليب ، أمرهم الملك الصبى بتسجيل مراسيم الوصي ، ففعلوا . وانتهاز فرصة مواصلة دوق ودوقة مين معارضته سواء فى المجلس الملكى أو بالتأمر عليه ، فحرم أبناء الملك وحفدته غير الشرعيين من وضعهم كامراء من الدم الملكى . ورد

الادواق الشرعيون الى سابق ترتيبهم وحقوقهم ، الأمر الذى أبهج الدوق سان - سيمون ، الذى رأس فى هذه الخطوة أعظم انجاز للوصاية ، ركزت أسماى اللحطات فى « مذكراته » .

على أن دوقه مين لم تقبل الهزيمة . فمولت بعض الطرفاء الذين راحوا يخزنون الوصي باهاجيهم اللاذعة . واحتمل هذه السهام بصبر القديس سبستيان ، النهم الا « الفليبيات » وأهاجى « الأشياء التى شأهنتها » المنسوبة لفولتير . وفى ديسمبر ١٧١٨ اشتركت الدوقه فى مؤامرة مع كيلامار ، السفير الأسبانى ، والببيرونى رئيس الوزراء الأسبانى ، والكردينال ملشيور دبولنيك ، للاطاحة بالوصي وتنصيب فليب الخامس الأسبانى ملكا على فرنسا ، على أن يكون الدوق مين كبير وزراء . وكشف أمر المؤامرة ، وطرد السفير ، وزج بالدوق والدوقه فى سجنين منفصلين ، وأفرج عنهما فى ١٧٢١ . وادعى الدوق أنه يجهل أمر المؤامرة . وعادت الدوقه الى بلاطها ومؤامراتها فى سو .

فى وسط هذه المضايقات ، وفى نطاق التقاليد وعلى قدر ما سمح به خلته الشخصى ، قام فليب ببعض الاصلاحات المعتدلة . فشق فى حكمه القصير من انطرق أكثر مما شق فى نصف القرن الذى حكمه لويس الرابع عشر . ووفر ملايين الفرنكات بتركه قصرى مارلى وفرساي ، واحتفاظه بحاشية متواضعة العدد . وقد بقى الكثير من ابتكارات « لو » ممثلا فى جباية للضرائب أشد قسرا وأكثر رحمة ، وفى طرد الجباة المتهمين بالفساد أو التبديد . وفكر فليب فى ضريبة دخل تصاعدية : وجربها فى نورمانديه ، وفى باريس ، وفى لاروشيل ، ولكنها أبطلت بموته المبكر . وقد جاهد لميبقى فرنسا بنجوة من الحرب ، فصرح آلاف الجند ، ووطنهم فى الأراضى غير المزروعة . وأسكن الباقين فى ثكنات بدلا من أن يسكنهم فى بيوت الشعب . وبنظرة سمحة فتح أبواب جامعة باريس والمكتبة لجمعية الطلبة المؤهلين دون أجر ، ودفعت الدولة مصروفات تعليمهم (٤١) . وأعان بمال الدولة الأكاديمية الملكية للعلوم ، والأكاديمية الملكية للمأثورات والآداب البحتة ، والأكاديمية الملكية للعمارة ، ومول نشر المؤلفات العلمية ، وأنشأ فى اللوفر أكاديمية للفنون الميكانيكية نهوضا بالاختراع والفنون الصناعية (٤٢) . وأجرى

المعاشات على الفنانين والعلماء والأدباء ، وهيا لهم غرقا فى القصور الملكية ، وكان يحب أن يتكلم مع هؤلاء الرجال على مهنتهم المختلفة . ولم تؤت تدابيرها واصلاحاته ثمارها كاملة من جراء كابوس الدين وانهيال ثورة لو المالية من جهة ، وعيوب الوصي البدنية والخلقية من جهة أخرى .

ومن أفجع المآسي فى تاريخ فرنسا أن هذا الرجل الذى وهب الكثير من فضائل الذهن والقلب لولته وأضعفه فجور طبقته وفسق جيله . فهذا الابن الذى أنجبه أب منحرف جنسيا ، ورباه رجل فاجر من رجال الكنيسة ، شب وهو يكاد يكون عاجزا عن كبح جماح شهوة الجنس التى انغمس فيها . « أقول ذلكوا » كان يمكن أن تكون له فضائل اذا كانت الفضائل ميسورة لانسان بغير مبادئ (٤٣) « - واذا كان قد أكره على الزواج من ابنة غير شرعية للويس الرابع عشر ، وافتقد الحب أو السلوى فى زوجته ، فإنه أولع بالسكر الكثير ، وبمعاشرة الخليلات فى اسراف لم يعدله فيه حاكم خارج حريم السلاطين . واختار اصدقاءه من بين المعريدين الذين كان يصفهم بكلمة noués (أى الفاسقين) ، والذين كانوا ينفقون الثروات على الفجور ، ويؤثثون بيوتهم بالفن الغالى ويزودونها بالمثيرات الجنسية (٤٤) . وكان فليب يلحق باصحابه فى الباليه - رويال ، أو فى فللته فى سان - كلو ، ومعظمهم من شباب الاشراف ، وفيهم أيضا بعض الانجليز المثقفين امثال اللوردين ستير وستانهوب - فى حفلات عشاء صغيرة تختلط فيها النساء المثقفات كمدام دوديفان بالممثلات ومغنيات الاوبرا ، والخليلات ، فى توفير اثاره الانثى لذكاء الرجل . يقول سان - سبمون ، ربما فى شيء من التلوين المنافق :

« فى هذه الحفلات كانت تعرض أخلاق كل انسان ، الوزراء وأصحاب الحظوة كغيرهم سواء بسواء ، بحرية هى الاباحية المطلقة : غزليات البلاط والمدينة فى الماضى والحاضر ، وكل قديم من القصص والخصومات والفكاهات والسخافات ينبش من مكانه ، ولم يعف من هذا النبش أحد ، وكان الدوق أورليان يدلى برأيه كالباقين . ولكن نادرا جدا ما كانت هذه الاحاديث تؤثر فيه أقل تأثير . وكان هؤلاء الاصحاب يسكرون ما شاء لهم السكر ، ويلهبون أنفسهم ، ويتكلمون بأقذر الاشياء

دون تحرج ، ويتنافسون فى التفوه بالفحش العبارات ، حتى اذا فرغوا من احداث الكثير من الضجيج وثلثوا بالخمير ، مضوا الى فراشهم ليعاودوا اللعبة ذاتها فى الغد (٤٥) » .

وقد افصح روح فليب القلقة المنزوعة الجذور عن نفسها فى قصر تسلط محظياته عليه ، فنذر أن سيطرت عليه أحداهن أكثر من شهر ، ولكن المبعديات منهن كن يترقبن الفرصة حتى يعود دورهن مرة أخرى . وكان خدمه الخصوصيون ، وحتى أصدقاؤه ، يجلبون له العشيقات الجدد فى غير توقف . فنساء الطبقة العليا ، كالكونتيسة بارابير ، والنساء المغامرات كمدام تنسان ، والمغنيات والراقصات من الاوبرا ، والموديلات البارعات الجمال كمدام سابران (التى أثار « سمثا الرائع » و « وجهها الذى لا يدانيه فى الحسن وجه فى العالم » حتى مشاعر رجل فاضل كسان - سيمون) - هؤلاء كلهن وهبن أنفسهن للوصي لقاء برهة من السلطان ، أو لقاء الرواتب أو الاعانات أو المجوهرات ، وكان يغدق العطايا عليهن من دخله الخاص أو من الخزانة التى على شفا الافلاس . على أنه برغم اهماله لم يسمح قط لهؤلاء النسوة بأن ينتزعن منه أسرار الدولة ، أو أن يناقشن شئونها ، فلما حاولت ذلك مدام سابران جعلها تنظر الى صورتها فى المرآة ثم سألها ، « أيمكن للانسان أن يتحدث حديثا جادا الى مثل هذا الوجه الجميل ؟ اننى لا أحب ذلك أبدا (٤٦) » . وما لبث سلطانها عليه أن زال .

هذا العرييد ذاته كان يحب أمه ، فيزورها مرتين كل يوم ، ويحتمل توبيخها الحزين فى حلم . ومع أنه لم يحب زوجته ، فأنه بذل لها العناية والمجاملة ، ووجد الوقت لينجب منها خمسة أطفال . وكان يحب أبناءه ، وحزن حين لجأت صغرى بناته للدير ، ولم يمر به يوم دون أن يزور فى قصر اللكسمبورج كبرى بناته ، التى كانت حياتها فضيحة محزنة تكاد تعدل فضيحة حياته هو .

ذلك ان زواجها بشارل ، دوق بيرى ، سرعان ما غدا تارحجا بين الحرب والهدنة . فبعد ان أمسكته متلبسا بين أحضان امرأة ، وافقت على أن ترضى عن خياناته شريطة أن يغضى عن خيانتها ، ويضيف تاريخ اخبارى معاصر أنهما « تعهدا » بأن يحمى الواحد صاحبه (٤٧) -

هذه الحفيدة - حفيدة « المسيو » ، « اللوطى » - وسليلا امرة بافاريا ورثت الجنون فى دمها ، وجدت أن ثبات الذهن واستقرار الخلق امر يفوق طاقتها ، وزاد وعيها بعيوبها وأخطائها من حدة طبع عات اربع كل من كان لهم صلة بحياتها . وقد استغلت نبالة أصلها استغلالا كاملا ، فكانت تركب عربتها مخترقة باريس كأنها ملكة ، وتحفظ فى اللكسمبورج بقصر مترف يخدمها فيه أحيانا ثمانمائة خادم (٤٨) . فلما مات زوجها (١٧١٤) راحت تستضيف سلسلة من العشاق . وصدمت كل انسان بسكرها وفجورها ، ولغتها النابية ، وعجبها وغطرستها ، وكانت تختلف عليها نوبات من التقوى ، ومن الهجمات الشكاكة على الدين .

ويبدو أنها لم تحب انسانا قط محبتها لأبيها ، وأنه لم يحب انسانا قط محبته لها . ولقد شاركتة ذكاه ، ورهافة حسه وظرفه كما شاركتة خلقه ، وكان حسنهما فى شبابها يضارع حسن أجمل خليلاته . واتهمتهما شائعات باريس - التى لا قلب لها ولا حرمة - بسفاح القربى ، لا بل زادت بانه اقتترف هذه الخطيئة مع بناته الثلاث جميعا (٤٩) . وأغلب الظن ان بعض هذه الشائعات أطلقتها « شلة » مدام مين (٥٠) . وقد رفضها سان - سيمون ، وهو أقرب الناس الى الموقف ، لانها افتراءات قاسية وضيقة . أما فليب ذاته فلم يعبا بنفيها . وخلوه التام من الغيرة من عشاق ابنته (١٥١) ، وعدم غيرتها من خليلاته (٥٢) ، لا يكادان يتفقان وطبيعة الحب المستاثرة (٥٣) .

ولم يقو على فصلها عن أبيها سوى رجل واحد - هو الكبتن ريون الضابط بحرس قصرها ، الذى سلبت فحولته لبها حتى خضعت له خضوع الاماء . ففى ١٧١٩ حبست نفسها فى اللكسمبورج مع بعض اتباعها ، وولدت ابنة للكبتن . ثم ما لبثت أن تزوجته سرا . وتوسلت الى أبيها أن يأذن لها باعلان هذا الزواج ، فرفض ، فانقلب حبها له غيظا مجنونا . ومرضت ، وأهملت نفسها ، فاصابتها حمى أنذرت بالخطر ، وماتت وهى فى الرابعة والعشرين اثر مسهل أعطها اياه طبييبها (٢١ يوليو ١٧١٩) . وقد كشف تشريح جثتها عن تشوهات فى مخها . ولم يرض أى أسقف بالصلاة عليها فى جنازتها ، وكان فليب

شاكرًا أعمق الشكر حين سمح رهبان سان - دنى بإيداع جثمانها في المدافن الملكية في كنيسة ديرهم . أما الأم فقد اغتبطت بموت ابنتها ، وأما الأب فقد دفن نفسه في فراغ السلطة .

ه - المجتمع في عهد الوصاية

كان ازدياد الثروة في فرنسا في الفترة بين صدور مرسوم نانت (١٥٩٨) والغائه (١٦٨٥) ، وانتشار حياة الحضر ، واضمحلال العقيدة الدينية عقب الحروب الدينية والخلافات الجانسية - كان هذا كله قد جر على طبقة الاشراف تحللاً في الأخلاق رمز له لويس الرابع عشر في شباب حكمه . وكان زواج الملك من مدام دمانتينون (١٦٨٥) ، واهتداؤه الى القناعة بامرأة واحدة والى حياة الفضيلة ، وما أحدثته الكوارث الحربية من تأثير منبه ، كل أولئك أكره بلاطه على أن يغير على الأقل من سلوكه الخارجى ، وكانت اصلاحات الاكليروس الذاتية قد أوقفت ضعف الكنيسة جيلاً ، وفرض أحرار الفكر الرقابة على مؤلفاتهم ، وستر الابيقوريون لهوهم الصاخب عن أنظار الناس . ولكن حين جاء بعد الملك الصارم التائب هذا الوصي الشاك الاباحى المتسامح، تداعت هذه الضوابط ، وتفجر غيظ الغرائز المكبوتة في موجة من الزندقة والاستغراق في اللذات شبيهة بالفورة الشهوانية التى أصابت المجتمع الانجليزى عند عودة الملكية عقب جيل من تسلط البيورتان (١٦٤٢ - ٦٠) . وأصبح التحلل من الاخلاق شارة التحرر ورقى الثقافة ، وغدا الفجور نوعاً من « الاتيكيت (٥٤) » .

كانت المسيحية آخذة في الاضمحلال قبل أن تهاجمها « الموسوعة » بزمان طويل ، لا بل قبل أن يصوب اليها فولتير أول سهام قلمه . ففي ١٧١٧ شكا دبوى من كثرة الماديين في باريس (٥٥) ، وقال ماسيون في ١٧١٨ « يكاد الكفر اليوم يضىء على أصحابه مظهر التميز والفخار، انه فضيلة توصل الى العظماء ... وتجلب للمغمورين شرف الالفه بامير الشعب (٥٦) » وقد كتبت أم ذلك الأمير قبيل موتها في ١٧٢٢ تقول « لست أعتقد أن في باريس ، سواء بين رجال الدين أو الدنيا ، مائة شخص يدينون بايمان مسبحى صادق ويؤمنون حقيقة بمخلصنا ، وهذا يجعلنى أرتعد فرقا (٥٧) » وقل من أفراد الجيل الأصغر من فكر

نفس التحول عن الكاثوليكية الى البروتستنتية ، فقد تحولوا الى اللاحد ،
الذى كان أسلم لهم . وكان مقهى بروكوب ، ومقهى جراند ، شأنهما شأن
القامل ، ملتقيات للمفكرين الملحدين .

وإذا كان المروق عن الدين قد شارك فى إطلاق الإستهتار الخلقى فى
الطبقة العليا ، فإن الفقر تعاون مع جموح الناس الطبيعى على أحداث
الفوضى الخلقية بين دهماه باريس . وقد حسب العالم لأكروا ان « الاشخاص
الخطرين ، والمتسولين ، والمتشردين ، واللصوص ، والنصابين من شتى
الأنواع ، ربما الفوا سدس مجموع الشعب (٥٨) » . ولذا أن نفترض أن
الزنا كان يلطف من عناء الكدح بين فقراء المدن ، شأنه بين أغنيائها .
وأفترخت الجريمة فى شتى أشكالها ، من النشالين فى باريس الى قطاع
الطريق العام . حقا كان لباريس شرطة منظمة ، ولكنها لم تستطع
ملاحقة الجريمة ، وكان رجالها أحيانا يقنعون بشطر من الغنيمة (٥٩) .
وفى ١٧٢١ نجحت وزارة الحرب على الأقل فى القبض على كارتوتن ،
قاطع الطريق الفرنسى الأشهر (قريع جاك شبرد الانجليزى) وحاصرت
خمسمائة من رجال عصايته التى جعلت السفر خطرا حتى على الملوك .
ولم يبق على الاستقرار الخلقى للحياة الفرنسية غير طبقة الفلاحين
والطبقات الوسطى .

أما فى طبقة الاشراف بباريس ، وبين أعيان المدن الطليقيين ،
ومدمنى الأدب أو الفن ، ورجال المال ورؤساء الدين ذوى الخيليات ،
فقد بدأ أن المبادئ الاخلاقية باتت نسيا منسيا ، ولم تذكر المسيحية
الا ساعة يلتقى فيها الناس فى الكنائس أيام الاحاد . فاذا وفدت الزوجات
على باريس أو فرساي تركن وراء ظهورهن ذلك المعيار الخلقى المناق ،
الذى حاول أن يحمى ميراث الاملاك بجعل خيانة الزوجة لزوجها
جريمة أخطر كثيرا من خيانة الزوج لزوجته ، هناك كانت الزوجة التى
تقتصر وصالها على زوجها تعد من الطراز القديم ، وهناك ناقست النساء
الرجال فى ربط الروابط وفكها . وكان الزواج يقبل للحفاظ على
الاسرة ، وأملاتها ، واسمها ، اما بعد هذا فلا يطالب عرف العصر
والطبقة لا الزوج ولا الزوجة بالوفاء (٦٠) . لقد كان الزواج فى العصور
الوسطى يعتمد عليه فى أن يقود الى الحب ، أما الآن فنادرا ما كان

الزواج. يقود إلى الحب أو الحب إلى الزواج ، وحتى في الزنا لم يكن هناك كبير ادعاء للحب . على أن العهد لم يخل من زوجين وفيين يتالقان كأنهما استثناء جرى للقاعدة وسط هذا الحشد الفاسق ، مثال ذلك دوق ودوقة سان - سيمون ، وكونت وكونتيسة تولوز ، ومسيو ومدام لون ، ومسيو ومدام بونشارتران ، ومسيو ومدام بيل - ايل . وتحولت الكثيرات من الزوجات المستهترات إلى جدات هادئات مثاليات واثكفا بعضهن ، بعد أن بليت مفاتنهن من كثرة التداول ، إلى أديرة مريحة حيث يفرغن لأعمال البر ويعلمن الحكمة للراهبات .

ومن أجراً نساء عصر الوصاية كلورين الكساندرين دتنسان ، التي أطلقت فجأة من الدير وهي في الثانية والثلاثين إلى سلسلة متلاحقة من العلاقات الغرامية . وكان لها أعذارها : فابوها زير نساء موفق ورئيس برلمان جرينويل ، وأما لعوب طائشة ، وكلودين ذاتها كانت واعية بجمالها الذي يتلف على أن يباع . وكانت أختها الأكبر منها ، مدام دجروليه ، لا تقل عنها كثيراً في فوضى علاقاتها الغرامية ، وقد قالت في اعترافها على فراش الموت حين بلغت السابعة والثمانين معللة مسلكها « كنت شابة ، وكنت جميلة ، وكان الرجال يقولون لي ذلك فاصدقهم ، وعليكم أن تحذروا الباقي بعد هذا (٦١) » . ورسم أخو كلودين الأكبر منها قسيساً ، وشق طريقه إلى قبعة الكردينالية وإلى منصب رئيس أساقفة ليون متوسلاً إلى هدفه بالعديد من النساء ، أما الأب فادخل كلودين ديرا في منفلوري ليوفر مهرها . هنالك ظلت متبرمة ستة عشر عاماً في حياة تقوى فرضت عليها كرها . وفي ١٧١٣ ، حين بلغت الثانية والثلاثين ، هربت واختبأت في حجرة الشفالييه ديتوش ، وهو ضابط في المدفعية ، أصبحت بمعونته (١٧١٧) أم الفيلسوف دالمبير . على أنها لم تتوقع انبعاث « الموسوعة » من هذا الوليد ، فتركته على سلم كنيسة سان - جاك - لرون ببباريس . وانتقلت إلى ماثيو برايور واللورد بولنبروك ومارك رينيه دفواييه دارجنسون ، وبعد أن جلست إلى مثال ينحت لها تمثالاً عارياً (٦٢) فيما روى ارتعت بين أحضان الوصي نفسه . وكان مقامها هناك قصيراً ، وقد حاولت أن تحول قبلاتها إلى وظيفة كهنوتية ذات أيراد لأخيها المحبوب ، وأجاب فليب إنه لا يحب الغواني اللاتي يتحدثن في شؤون العمل في

الفراتى (١٨٣٩) « وتلمر بأن توصل أبوابه فى وجهها . ثم غصت من
كبروتها تلك وغزت قلب دىوا . وسنلتقى بها مرة أخرى .

وفى وسط هذا القلب الأخلاقى السريع واصلت بعض نساء باريس
تلك الفضيلة الفرنسية المميزة ، فضيلة الجمع بين أصحاب الألقاب ،
والذكاء ، والجمال ، فى الصالونات . وكان أكثر المجتمعات تهذبا فى
العاصمة يلتئم شمله فى مبنى الأوتيل دىلى الرائع العمارة ، هناك كان
يحضر الساسة والماليون والشعراء - فونتنيل فى ستيناته الصامتة ،
وفولتير فى عشريناته المندفعة . وكانت جماعة أكثر جدلا تجتمع فى
الأوتيل دىويون ، الذى خلده لساج فى لحظة غضب ، ذلك أنه دعى
هناك ليقراء مسرحيته « توكاريه » ، فوصل متأخرا ، فويخته الدوقة فى
خيلاء قائلة « لقد ضيعت علينا ساعة » ، فاجاب « ساجعلكم تكسيون
ضعفى هذا الوقت » ثم غادر المنزل (٦٤) . وقد مر بنا من قبل صالون
مدام دمين فى سو . وكانت مرجريت جان كوردييه دلونيه ، التى
ستصبح البارونة دسقال فيما بعد ، تخدم الدوقة وصيفة شرف ، وقد
كتبت « مذكرات » بارعة (نشرت فى ١٧٥٥) تصف المهازل ،
والنزوات ، والمهرجانات الليلية ، والحفلات التنكرية التى لم تترك
مكانا يذكر للحاديث التى تخللت « ملاهى سو » .

ولكن الحديث كان يغلب على الصالون الذى أدارته آن تيريز
دكورسيل ، ماركيزة دلامبير ، فى الأوتيل دنفير (وتشغله اليوم المكتبة
الاهلية) . وقد واصلت هذه المرأة الغنية الصارمة ، خلال عصر الوصاية
الصاحب ، تلك العادات الرزينة الجليلة التى سادت سنوات لويس
الرابع عشر الأخيرة . فلم تشجع لعب الورق ، ولا الشطرنج ، ولا حتى
الموسيقى ، بل كانت بجملتها نصيرا للفكر . وقد أولعت ، كالمركيزة
دساتليه ، بالعلم والفلسفة ، وكانت أحيانا (كما يقول فولتير) تتكلم
فوق ما يفقه رأسها ، ولكن الرأس كان جميلا يحمل لقباً نبيلًا ، ويحرك
مشاعر أى ميتافيزيقى ، وكانت فى كل ثلاثاء تستضيف العلماء والنبل ،
وفى كل أربعاء الكتاب والفنانين والأدباء ومنهم فونتنيل ومونتسكيو
وماريفو . وفى اجتماعاتها تلك كان العلماء يلقسون المحاضرات ،
والمؤلفون يقرعون ما يزعمون إصداره من كتب ، والشهرة الأدبية.

تكتسب ، ومن « ندوة العقل » تلك ، قامت هذه المضيقة الكريمة الطموح بنحو عشرين حملة ناجحة لادخال من بسطت عليهم حمايتها فى عضوية الاكاديمية الفرنسية . لقد كانت واحدة من مئات النساء المهذبات ، المثقفات ، المتحضرات ، اللاتى يجعلن تاريخ فرنسا أكثر القصص فتنة فى العالم .

٦ - فانتو والفنسون

عكست ثورة فى الفن ذلك التغيير الذى طرأ على السياسة والاخلاق. فبعد أن انهارت سياسة لويس الرابع عشر الامبريالية فى حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢ - ١٣) ، تحولت روح فرنسا من دماء المجد الحربى الى مياهج السلام . فلم يجد مزاج العصر حاجة للكنائس الجديدة ، بل وجد الحاجة أكثر للقصور المدنية كالاوتيل ماتينيون وقصر بوربون (١٧٢١ - ٢٢) . واذا استثنينا هذه العمائر الضخمة ، وجدنا ان المساكن والحجرات أصبحت الآن أصغر حجما ، وحليتها أكثر رقة وصقلا . وبدأ الباروك يتحول الى الروكوكو* ، أى أن طراز الاشكال غير المنتظمة والحلية الكثيرة غلبت عليه أناقة تكاد تكون هشة ، تصل الى حد الخيال الجامح العاثر الذى لا يمكن التنبؤ به . وأصبح الولع بالصقل البديع ، والالوان الزاهية ، وتطويرات التصميم المدهشة ، طابعا لطراز الوصاية . وتلاشت الطرز الكلاسيكية تحت فرحة الثنايا الانيقة ، واختفت الاركان ، ولقشت الحلى والقوالب المعمارية فى اسراف . وهجر النحت فخامه فرساي الاولمبية الى صور أصغر ، صور الحركة الرشيقة والاعراض العاطفى . وتجنب الأثاث الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة ، واستهدف الراحة أكثر من الوقار . فظهر الآن مقعد الشخصين ذو المسندين ، وهو المقعد المصمم للصديقين والحببيين اللذين يكرهان عاطف البعد . وارسى شارل كرسان كبير نجارى الوصي ، طراز أثاث عصر الوصاية بما حوى من مقاعد ، وموائد ، ومكاتب وخزائن ذات ادراج ومرايا ، تسطح بتطعيم الصدف وتشرق بالجمال المتعمد .

* ربما كانت هذه الكلمة rococo أصلها rocallie وهو لفظ استعمل فى فرنسا فى القرن السابع عشر للدلالة على بناء المغارات أو تجميلها بالصخور والاصداف .

ولقد رمز فليب ذاته ، فى شخصه وعاداته وميوله ، الى الانتقال الى الروكوك . فحين نقل الحكومة من فرساي الى باريس أنزل الفن من وقار لويس الرابع عشر الكلاسيكى الى روح العاصمة الأكثر خفة ، ووجه ثروة الطبقة البورجوازية الى رعاية الفن . وكان راغيا للفن بحكم منصبه ويتفرد فى هذا المضمار ، فهو غنى بثروته أصلا ، سخي فى البذل للفنانين . ولم يكن يسيغ الفخامة أو الضخامة ، ولا مواضيع التصوير التقليدية - مواضيع الدين أو الأساطير أو التاريخ ، بل الروائع الصغيرة ذات الصنعة المتقنة التى تغرى الأصابع وتفتح العيون ، أمثال علب الحلى المرصعة بالجواهر ، والأنية الفضية ، والطاسات الذهبية ، والخزفيات الصينية الغريبة الأشكال ، ورسوم النساء الغاتنات اللاتى يلبسهن روبنز أو تتزيانو رداء الطبيعة أو يرقلن فى أرواب فيرونيزي الفاخرة . وقد فتح أبواب مجموعته الخاصة فى الباليه - رويال على مصاريحها لجميع الزوار المسئولين ، ولولا خيلاته اللاتى يطلبن وينثن ما يطلبن منها لضارعت مجموعته أفضل نظائرها . ووفد الفنانون على قاعاته للدرس والنسخ ، وذهب فليب الى مراسمهم لينظر ويتعلم . تحدث الى كبير مصوريه ، شارل أنطوان كوابيل ، فى أدب وتواضع تميز بهما فقال : « اننى يا سيدى لسعيد وفخور بأن ألقى نصيحتك وأنتفع بدروسك (٦٥) » . ولولا ما عانى من ظمأ للجمال وتذوق عات له لكان رجلا رفيع التحضر .

وأفصحت روح العصر عن نفسها بأجلى بيان فى التصوير . فقد نبذ الفنانون أمثال فاتو ، وباتير ، ولانكريه ، وليموان ، القواعد التى وضعها لبرون فى الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة بعد أن حررهم الوصي ورعاتهم الجدد . واستجابوا عن طريب خاطر للطلب على الصور التى تعكس فهم الوصي للجمال والمتعة ، وحسن نساء عهد الوصاية الغياض بالحوية والمرح ، والألوان الدافئة لأثاث الوصاية وسجفها ، والحفلات المرحية فى غابة بولونيا ، والألعاب والتكريات فى قصر سو ، والأخلاق المتراخية التى اتسم بها الممثلون والممثلات ومغنيات الاوبرا والراقصات . وحلت الأساطير الوثنية محل قصص القديسين . القائمة المتجهمة ، وسمحت الأشكال العجيبة المستوردة من الصين ، أو تركيا ، أو فارس ، أو الهند ، للعقل الذى أطلق من عقاله بأن

يجوب فى حرية خلال احلام غريبة ودخيلة ، واخذت الرهويات الحالة مكان « التواريخ » البطولية ، وحلت صور اشخاص المشتريين محل صور مآثر الملوك وجلال أعمالهم .

وواصل بعض الرسامين الذين اشتهروا فى عصر لويس الرابع ازدهارهم فى عصر الوصاية ، ومنهم انطوان كوابيل ، فبعد ان زخرف فرساي بالطراز نفسه الذى زين به القصر القديم ، رسم فى الباليه - رويال نساء فى اثواب طويلة فضفاضة ساحرة . اما نيكولا دلارجلير ، الذى كان يبلغ التاسعة والخمسين عند موت الملك العظيم ، فقد واصل الرسم ثلاثين سنة اخرى ، وصورته معلقة فى اللوفر الذى لا تنضب صوره ، وهو يبدو فى خياله وفى باروكته ، بصحبة زوجته وابنته . وراح الكساندر فرانسوا ديپورت ، الذى مات عام ١٧٤٣ وهو فى الثامنة والثمانين ، يرسم الان مشاهد طبيعية عريضة ، كلوحسة « منظر الابل دفرانس » المحفوظة بمتحف كومبيين . وزخرف فرانسوا لموان ، الذى انتحر فى التاسعة والاربعين (١٧٣٧) ، كنيسة سان - سوليبيس بروح الخشوع والورع ، ثم اشاع الدفء فى صالون هرقل بفرساي باجساد شهوانية سيقلدها بوشيه من بعده . وادخل كلود جيو ، مصمم مناظر المسرح وملابسه ، ونقاش المناظر الطبيعية واللوحات المسرحية ، أسلوب « المهرجانات الريقية » الذى يرتبط عندنا بتلميذه انطوان فاتو .

وانطون هذا فلمنكى ، ولد لصانع بلاط فى فالنسيين (١٦٨٤) ، وشكلته اول الامر التأثيرات الفلمنكية - صور روبنز ، وأستاذ ، وتنتيه ، وتعليم مصور محلى يدعى جاك جيران . فلما مات جيران (١٧٠٢) يمم فاتو شطر باريس وهو لا يملك شروى نقير . وكسب قوته بمساعدة رسام للمناظر ، ثم بالعمل فى مصنع ينتج بالجملة لوحات صغيرة وصورا دينية . وكان أجره ثلاثة فرنكات فى الاسبوع مضافا اليها من الطعام ما يمك رمقه يفضي لأصابته بالسل . ولكن حمى اخرى كانت تعتمل فى صدره وتكويه كيا - وتلك هى الجوع للعظمة والشهرة . فكرس أمسياته وعطلاته لرسم الأشخاص والاماكن من الطبيعة . واستهوى أحد هذه الرسوم التخطيطية جيو ، الذى كان يرسم لوحات لمسرح الكوميدي - ايتاليين ، فدعا فاتو للانضمام اليه . وجاء انطوان ، ووقع فى غرام الممثلين ، فرسم احداثا

من حياتهم البطولية ، وغرامياتهم المتقلبة الطائشة ، والعابهم ونزهاتهم الخلوية ، وفزعهم الأكبر حين قصرتهم مدام دمانتون على البانتوميم (التمثيل الايمائي) بعد أن ساءها هجاؤهم . والتقط فاتهم ما فى قلقهم وعدم استقرارهم من أسي ، والتعبيرات المضحكة المرتسمة على وجوههم ، وطيات ثيابهم الغريبة ، ثم أضفى على هذه الصور نسيجا ذا ومض لعله أثار بعض الغيرة فى نفس جيو . على أية حال تشاجر الأستاذ والتلميذ وافترقا ، وانتقل انطوان الى مرسم كلود أودران فى اللكسمبورج . وهناك درس فى رهبة صور روبنز التى مجد بها مارى مديتشي ، ووجد فى الحداثى مناظر من الشجر والغيوم فتنت قلمه أو ريشته .

تلك كانت سنوات مرة يساق فيها الغلمان الفرنسيون على عجل الى المعركة تلو المعركة فى حرب الوراثة الاسبانية الطويلة . وكان يقدم لتضحيتهم على هذا النحو بما ينبغى من العروض الوطنية وحفلات الوداع المثيرة للأسى . وقد وصفها فاتهم فى لوحته . « رحيل الجنود » برقة فى الشعور والاسلوب جعلت أودران هو الآخر يوجس من تفوق فاتهم عليه . ودخل انطوان مسابقة نظمته الأكاديمية الملكية للتصوير والنحت فى ١٧٠٩ أملا فى نيل « جائزة روما » . فلم ينل الجائزة الثانية ، ولكن الأكاديمية ألحقته عضوا بها فى ١٧١٢ . وبعد جهود صغيرة كثيرة بلغ قمة مجده بلوحته « الأبحار الى جزيرة سيتير (١٧١٧) » وهى اليوم من أروع كنوز اللوفر . وصدقت لها باريس كلها ، وعينه الوصي المغتبط مصورا رسميا للملك ، وكلفته الدوقة ببرى بزخرفة قصرها الريفى « لاموييت » . وراح يعمل كالمحموم ، وكأنه أدرك أن لن يفسح له فى الأجل سوى أربع سنين آخر . وقدم انطوان كروزا ، منافس فليب ذاته فى رعاية الفن ، الى فاتهم الماكل والمسكن فى قصره المترف . هناك درس انطوان المصور (أصغر الانطوانين سنا) أروع مجموعة جمعها مواطن الى ذلك الحين . ورسم لكروزا أربع لوحات زخرفية ، سماها « الفصول » . وسرعان ما ضاق ذرعا بالترف ، فراح يتنقل من مكان الى مكان ، حتى الى لندن (١٧١٩) ، ولكن غبار الفحم والضباب رداه الى باريس ، حيث سكن فترة مع تاجر التحف جرسان . ورسم له انطوان فى ثمانية أصباح جانبى لافتة ظهر فيها باريسيون عصريون يفحصون صورا فى حانوت ، وفوق الذرعة

الواقعية العرضية ألقت طيات رقيقة لثوب امرأة ذلك الضوء الواهن. الذى تميز به فاتو . وكان سعال سله يزداد سوءا يوما بعد يوم ، فاتخذت بيتا فى نوجن ، قرب فانسين ، مغللا نفسه بأن هواء الريف سيعينه على البرء . وهناك ، بين أحضان جيرسان والكنيسة ، مات (١٨ يوليو ١٧٢١) غير متجاوز السابعة والثلاثين .

وقد سرت عدوى مرضه الطويل الى خلقه وفنه . وكان ، وهو الرجل النحيل الممرض العصبى الحى ، السريع الاعياء ، النادر الابتسام ، القليل المرح - يقصي حزنه عن فنه ، فصور الحياة كما رأتها أحلامه وأمانيه - مشهدا عريضا من الممثلين المرحين والنساء اللدنات ، وأغنية للفرح الملهوف . واذ كان أضعف من أن يجرى وراء شهوات الحس ، فإنه حثفظ وسط اباحية عهد الوصاية بلياقة فى الخلق انعكست فى مزاج انتاجه . صحيح انه رسم بعض النسوة العاريات ، ولكنهن خلون من اغراء اللحم ، وفيما عدا هؤلاء كانت نساؤه يرتدين ثيابا مشرقة تخطر فى خفة وحذر خلال دهاليز الحب . وتنقلت فرشاته بين تقلبات الممثلين ، ومراسم الغزل ، ومشكال الجو . فأضفى على شخص « غير المكترث (٦٦) » أغلى وأشف ما استطاع تخيله من ثياب . وصور « الكوميديين الفرنسيين (٦٧) » فى مشهد درامى ، والتقط صورة الممثل الايطالى جوزيبى باليتى فى دور المهرج جيل (٦٨) ، غارقا فى التفكير مرتديا سراويل بيضاء . وفاجأ « عازف جيتار (٦٩) » فى لحظة اكتئاب غرامى ، ورأى « حفلة موسيقية (٧٠) » مسحورة بعزف العود . وقد وضع شخصياته أمام خلفيات حاملة ، من نوافير عابثة ، وأشجار متمائلة ، وغيوم سابحة ، يتخللها هنا وهناك تماثيل وثنى يردد به صدى بوسان ، كما نلاحظ فى « مهرجان الحب (٧١) » أو « الفراديس السعيدة (٧١) » كان يحب النساء على بعد متهيب ، بكل أشواق رجل أوهن من أن يلمس ودهن ، وقد انفعل بأعطافهن الدافئة أقل من انفعاله بجهاء شعورهن وانسياب أثوابهن المتمسوج . فالقى على ثيابهن كل سحر ألوانه ، وكأنه يعرف أن المرأة باتت بفضل هذا اللباس ذلك المر الغامض الذى بعث نصف ذكاء العالم ، وشعره ، واصجابه الشديد ، فضلا عن انجابه النوع الانسانى .

ومن ثم سكب روحه فى أشهر صورة قاطبة ، وهى « الابحار الى جزيرة سيتير » وفيها نساء رشيقات استسلمن لاثارة الرجال فركبن السفينة مع عشاقهن الى جزيرة صغيرة قيل ان لفينوس فيها معبدا ، وانها طلعت هناك من البحر وهى تقطر جمالا . هنا يكاد الرجال يكسفون النساء فى بهاء ملابسهم ، ولكن الشيء الذى فتن الاكاديمية فى اللوحة هو جلال الاشجار المتدلى ، والقمة الثلجية للجزيرة البعيدة تصبغها الشمس والغيوم الملامسة لها . وقد أحب فاتو هذا الموضوع الدقيق حبا أغراه برسمه فى ثلاثة مناظر متنوعة - واستجابت باريس باختيارها فاتو ليحمل راية عصر الوصاية ، ويحىى مباحج الحياة فى نظام حكم سيموت حالما يسلم شبابه . وغدا بلقبه الرسمى « مصور الاعياد المرحية » ، رسام العشاق من أهل المدن يتنزهون نزهات حاملة فى ريفه هادئ مطمئن ، ويمزجون بين « ابروس » (اله الحب) و « بان » (اله المراعى والغابات) فى الدين الوحيد الذى دان به العهد . على ان نسمة اكتئاب تهب على هذه المشاهد التى توهم بخلو البال ، فهؤلاء الفتيات الناعمات الطيعات ما كان يمكن أن يصبحن بهذه الرقة لولا أنهن خبرن شيئا من الألم ، أو ربما لم يساورهن الظن فى قصر برهة الهيام بهن . تلك هى ميزة فاتو - الترجمة المرحفة للملاحظات الكمال التى لا بد ان تنقضى .

وعاجله الموت قبل ان ينعم بشهرته . وبعد موته اكتشف الخبراء رسومه القلمية والطباشيرية ، وفضلها بعضهم على لوحاته الزيتية ، لان الطباشير أو القلم بلغ هنا دقة فى تفصيل الايدى والشعر ، ورهافة تميز فى رسم العيون والوقفة والروحة المعابثة لم تكشف عنها قط ألوان الزيت كل الكشف (٧٣) . وأغرمت نساء باريس غراما شديدا بأنفسهن كما راينها فى أشواق الفنان الميت . واليست « دنيا المجتمع الراقى » نفسها بأسلوب فاتو (ألا فاتو) ، ومشت واتكات بأسلوب فاتو ، وزينت مخادعها وصالوناتها كما زينت هذه فى أشكال خياله وألوانه . ودخل طراز فاتو فى تصميم الاثاث ، وفى وحدات الزخرفة الريفية و « أرابسك » الركوك الرشيق . وتلقف الفنانون أمثال لانكريه وياتير تخصص فاتو ، وصورا المهرجانات الريفية ، وأحاديث الغزل ، وحفلات الموسيقى فى المنتزهات وحفلات الرقص على الخضرة .

والمكاشفات بين العشاق بخلود الحب . ان نصف تصوير فرنسا خلال المائة
السنة التالية كان ذكرى لقاتو . وقد استمر تأثيره حتى بوشيه ، ثم
فراجونار ، ثم ديلاكروا ، ثم مينووار ، ووجد التأثيرون فى أسلوبه
ارهاصات موحية بنظرياتهم فى الضوء والظل والمزاج . لقد كان كما قال
جونكور المفتون به « الشاعر العظيم للقرن الثامن عشر (٧٤) » .

٧ - المؤلفون

زكا الادب فى ظل أخلاقيات عصر الوصاية الهيئة اللينة وما ساه
من تسامح ، ووجدت الهرطقة موطئا لقدمها لم تجل عنه قط بعدها .
وأفاقت المسارح والأوبرا من عبسات الملك الراحل ومدام دمانتنون ،
وكان فليب ، أو بعض أهل بيته ، يختلفون كل مساء تقريبا الى الأوبرا ،
أو الأوبرا - الهزلية ، أو « المسرح الفرنسى ، أو مسرح الايطاليين .
واحفظ المسرح الفرنسى بتمثيلات كورنىي ، وراسين ، وموليير ،
ولكنه فتح أبوابه لتمثيلات جديدة كمسرحية فولتير « أوديب » ، التى
سمع فيها صوت عصر جديد متمرد .

ونحن اذا استثنينا فولتير وجدنا أعظم كتاب هذا العصر محافظين
شكلوا فى ظل الملك العظيم . فكان ألان رينيه لساج المولود عام ١٦٦٨ ،
ينتمى روحا وأسلوبا للقرن السابع عشر وإن عاش حتى ١٧٤٧ . وفد
على باريس بعد أن تلقى العلم على يد اليسوعيين فى فان ، فدرس
فيها « القانون - وكانت خليلته تدفع له نفقات تعليمه (٧٥) . وبعد أن
قضى فى خدمة جاب للضرائب فترة بغضته فى رجال المال ، تكفل باعالة
زوجته وأبنائه بتأليف الكتب ، ولعله كان يموت جوعا لولا أن رئيسا
دينيا عطوفا أجرى عليه معاشا قدره ستمائة جنيه فى السنة . وقد ترجم
بعض التمثيليات عن الاسبازية ، والتتمة التى كتبها افيلانيدا لرواية
« دون كخوته » . ثم استوحى قصة « الشيطان الأعرج » لفيليت
دى جويغارا ، فوفق كل التوفيق فى قصته « الشيطان الأعرج » (١٧٠٧)
التي صورت شيطانا مؤذيا يدعى اسمودوس ، يحط على قمة جبل فى
باريس ، ويرفع أسقف البيوت كما يشاء بعصاه السحرية ، ويكشف
لصاحبه عن الحياة الخاصة والغراميات المحرمة للقطان الغافلين .
والحصيلة فضح مرج لمكائد البشر القذرة ، ونفاقهم ، ورذائلهم ،

وحيلهم . فترى مثلا سيدة تفاجأ بزوجها فى الفراش مع خادمه الخاص فتجل الكثير من المشاكل جملة بصياحها بان الخادم يعتدى على عفافها ، ويقتل الزوج الخادم ، وتنقذ السيدة عرضها وحياتها ، والموتى لا يتكلمون . واندفع كل انسان تقريبا لشراء الكتاب أو استعارته ، وقد لبهجه أن يرى افتضاح غيره من الناس . كتبت مجلة فردان فى عدد ديسمبر ١٧٠٧ تقول « أن سيدين من رجال الحاشية اقتتلا بالسيوف فى دكان باربان للحصول على آخر نسخة من الطبعة الثانية (٧٦) » . وقد وجد سانت - بوف شبه خلاصة للمعهد فى ملاحظة قالها أسمودوس عن شيطان من اخوانه تشاجر معه « لقد تعانقنا ، ومن وقتها ونحن خصمان لدودان (٧٧) » .

وبعد عامين كاد لساج يسمو الى مستوى موليير بهزلية تهجو رجال المال . وقد نمى الى بعض هؤلاء نبا « توركاريه » هذه سلفا فحاولوا منع تمثيلها ، وقد صورتهم قصة - ولعلها أسطورة - وهم يعرضون على المؤلف ١٠٠.٠٠٠ فرنك ليسحب المسرحية (٧٨) ، وأمر الدوفان ، ابن لويس الرابع عشر ، باخراجها . وتوركاريه هذا مقال وتاجر ومراب يحيا حياة الترف وسط الفاقة التى جرتها الحرب . وهو لا يسخو الا على خليلته التى تبتز ماله بنفس الماثرة التى يبتز بها الناس . يقول الخادم فرونتان « عجبنا لمسار حياة البشر . نحن نلتقط مغناجا ، والمغتاج تلتهم رجل أعمال ، ورجل الأعمال ينهب غيره ، وهذا كله يؤلف أمتع سلسلة من الخدع الدنيئة يمكن تخيلها (٧٩) » .

وربما كان الهجو هنا ظالما مرهقا بشهوة الانتقام . وقد وفق لساج ، فى أشهر روايات القرن الثامن عشر الفرنسية ، فى رسم شخصية أكثر تعقيدا ، وبموضوعية أكبر . وروايته هذه « مغامرات جيل بلاس دى سانتلانى » التى نسج فيها أيضا على منوال الروايات الاسبانية ، تتحرك - بأسلوب روايات التشرذ - خلال عالم من اللصوصية ، ونوبات السكر ، وخطف الناس ، واغواء النساء ، والسياسة - عالم الذكاء فيه هو الفضيلة العظمى ، والنجاح يغتفر كل شيء . و « جيل » هذا يستهل حياته فتى بريئا ، رقيقا ، مثاليا ، محبا للناس ، ولكنه ساذج ، ثرثار ، مغرور . يقبض عليه اللصوص ، فينضم الى عصاباتهم ويتعلم حيلهم

وامماليهم ، ويشق طريقه الى البلاط الاسباني ، ويخدم دوق ليرما مساعدا وقوادا . يقول « قبل أن التحق بالقصر كانت طبيعتي مترفة عطوفا ، ولكن رقة القلب ضعف يعدونه هناك صفة عتيقة ، لذلك أصبح قلبي أقسى من أى صخر . فهنا مدرسة ممتازة لتصحيح الاحاسيس الرومانسية للصدقة (٨٠) » . ويولى ظهره لابويه ويرفض أن يعينهما . ويتعثر حظه ، فيودع السجن ، ويعتزم اصلاح ذاته ، ثم يفرج عنه ، فينزوى فى الريف ، ويتزوج ، ويحاول أن يكون مواطنا صالحا . ولكنه يجد هذا عبئا لا يطاق ، فيعود الى القصر وناموسه ، ويخلع عليه لقب الفروسية ، ويتزوج ثانية ، ويدهش لفضيلة زوجته ولسعادته بأطفالها « الذين أومن مخلصا بأننى أبوهم (٨١) » .

وأصبحت « جيل بلاس » أحب الروايات للقراء الفرنسيين ، إلى أن تحدثت « بؤساء » هوجو (١٨٦٢) ضخامتها وتفوقها . وأحب لساج كتابه حبا جعله يواصل العمل فيه عشرين سنة فظهر المجلدان الأولان فى ١٧١٥ ، والثالث فى ١٧٢٤ ، والرابع فى ١٧٣٥ ، وكان آخر مجلداته لا يقل جودة عن أولها . وقد استعان على معاشه فى شبخوخته بكتابة هزليات صغيرة لمسرح شعبى يدعى « مسرح السوق » وفى ١٧٣٨ أصدر رواية أخرى تسمى « أعزب سلمنقة » ، وأطال الكتاب بسرقات صغيرة لم يعترف بها ، وهى عادة درج عليها كتاب ذلك العصر وكان قد أصبح أصم تقريبا فى الأربعين ، ولكن كان فى قدرته أن يسمع ببوق ، فيا له من رجل محظوظ يستطيع أن يصم أذنيه حين يشاء كما نغمض أعيننا . وقرب نهاية حياته فقد القدرة على استعمال مواهبه العقلية « الا فى منتصف النهار » بحيث « بدا أن ذهنه يشرق ويغرب مع الشمس (٨٢) » ، كما قال أصدقاؤه . ومات عام ١٧٤٧ شيخا فى الثمانين .

وقصة لساج « جيل بلاس » تجد اليوم قراء أقل مما تجده « مذكرات » لوى دروفروا ، دوق سان - سيمون . وما من انسان يحب هذا الدوق الآن ، لأنه يفتقد قدرة الرجل المتواضع على اخفاء غروره . فهو لم ينس قط أنه كان واحدا من « أدواق ونبلاء » فرنسا ، الذين لا يبيزهم فخامة غير أعضاء الاسرة المالكة ذاتها ، ولم يفتقر قط للويس

الرابع عشر تفضيله كفاية البورجوازيين على عجز الاشراف فى ادارة الحكومة ، ولا رفعه الابناء والحفدة الملكيين غير الشرعيين فوق « الادواق والنبلاء » فى مراسم البلاط وولاية العرش . يقول لنا فى أول سبتمبر ١٧١٥ :

« نمت الى نبا موت الملك حين استيقظت . فذهبت من فورى لتقديم احترامى للملك الجديد . . ومن هناك ذهبت الى دوق أورليان ، وذكرته بوعده قطعه على نفسه ، وهو أن يسمح للأدواق بأن يحتفظوا بقبعاتهم على رعوسهم حين يطلب اليهم التصويت (٨٣) » .

وقد أخلص فى حب الوصي ، وخدمه فى مجلس الدولة ، ونصحه بالاعتدال فى أمر خليلاته ، وواساه فى أحزانه وهزائمه . واذ كان على كذب من الأحداث مدى خمسين عاما ، فقد بدأ تسجيلها فى ١٦٩٤ - من زاوية طبقته - منذ مولده عام ١٦٧٥ الى وفاة الوصي عام ١٧٢٣ . أما هو فقد مد فى أجله الى عام ١٧٥٥ ، حتى أدرك عهدا لا يوافق طبيعته . وقد حكمت عليه المركزية كريكى بأنه « غراب مريض هرم ، يحرقه الحسد ويأكله الغرور (٨٤) » . ولكنها كانت تكتب مذكرات مثله ، ولم تطق تشبته بالحياة .

فاما الدوق الثرثار فكان دائما متحيزا ، وكثيرا ما كان ظالما فى أحكامه ، ومرات مهملا فى التاريخ (٨٥) ، وأحيانا غير دقيق الرواية عن وعى (٨٦) ، كان يتجاهل كل شيء الا السياسة ، ويتوه بين الحين والحين فى ثرثرة لا غناء فيها عن الارستقراطية ، ولكن مجلداته العشرين سجل مفصل نفيس لكاتب ذى عين للاحقة ثاقبة وقلم سيال ، فهى تمكننا من أن نرى مدام دمانتون ، وفنيلون ، وفليب أورليان ، وسان - سيمون ، رؤية ناصعة نابضة بالحياة ، وسان - سيمون يقرب فى هذا من بوريين اذ يتيح لنا رؤية نابليون . ورغبة فى اطلاق العنان لتحيزه ، حاول أن يخفى مذكرته ، ومنع نشرها قبل أن ينقضى قرن على موته ، ولم يصل منها شيء للمطبعة حتى عام ١٧٨١ ، وكثير منها لم يصلها قبل عام ١٨٣٠ . ومن بين جميع المذكرات التى تنير لنا تاريخ فرنسا تقف هذه المذكرات على القمة دون منازع .

٨ - الكردينال العجيب

لو صدقنا سان - سيمون لكانت مسيرة جيوم دبوا النقيض لأعظم مبادئ شبابنا الهاما . فقد جمع كل رذيلة ، وحقق كل نجاح الا « نجاح الاحترام » . فلنستمع مرة أخرى الى سان - سيمون يقول فى زميله عضو المجلس :

« كان ذكاؤه من النوع العادى جدا ، ومعارفه من أكثر المعارف شيوعا ، وكفايته صفرا ، مظهره مظهر العرسية ، مظهر الرجل المتحذلق ، حديته ثقيل ، متقطع ، غامض أبدا ، زيفه مكتوب على قسمات وجهه ، ... ما من شيء فى رأيه جدير بالتقديس ... يجهر باحتقاره للإيمان ، والعهود ، والشرف ، والاستقامة ، والصدق ، ويلذه أن يهزأ بهذه الأشياء كلها ، تستوى فيه الشهوة والطمع ... والى هذا كله كان ناعما ، ذليلا ، لينا ، منافقا ، كاذبا فى اعجابه ، يتخذ كل لبوس ببسر كثير ... حكمه معوج برغم ارادته ... ومن عجب أنه لم يستطع ، وفيه هذه النقائص ، أن يغوى من الناس انسانا الا دوق أورليان ، الذى أوتى نصيبا موفورا من الذكاء واتزان العقل ، ووهب الكثير من الادراك الواضح السريع لأخلاق الناس (٨٧) » .

وكان هذا خليقا بأن يؤدى بالمؤلف القاسي الى التشكك فى صواب غيرته . على أننا يحب أن نعترف بأن دكلو يتفق مع سان - سيمون (٨٨) .

كان دبوا فى عامه الستين حين قلدته الوصاية السلطة ، متهدما بعض الشيء بعد أن أصيب بعدة أمراض تناسلية (٨٩) ، ولكنه كان قادرا على الترفيه عن مدام دتنسان حين وقعت من أحضان فليب . على أية حال لابد أنه أوتى شيئا من الغطنة العقلية ، لأنه أدار الشؤون الخارجية ادارة لا بأس بها . وقد أخذ رشوة ضخمة من بريطانيا ليصنع ما ظنّه خيرا لفرنسا . ذلك أن حزب الأحرار فى إنجلترا ، والامبراطور شارل السادس فى النمسا ، كانا يتآمران للتنكر لمعاهدة أوترخت واستئناف الحرب ضد فرنسا . وكان فليب الخامس يتحرق شوقا لعرش فرنسا غير قانع بعرش أسبانيا ، وخيل اليه أن إبرام اتفاق مع إنجلترا سيزيح العقبات عن طريقه . فلو أن إنجلترا ، وأسبانيا ، والنمسا

والأراضي المنخفضة النمساوية (بلجيكا) اتحدت في حلق أعظم جديد ،
لطوقت فرنسا بالامضاء من جديد ، ولأبطلت كل سياسات ريشليو ولويس
الرابع عشر وانتصاراتهما . ومنعا لمثل هذا الاتحاد أبرم دبوا وفليب
اتفاقا مع إنجلترا والأقاليم المتحدة (هولنده) في ٤ يناير ١٧١٣ .
وكان هذا الاتفاق نعمة لفرنسا ، ولتوازن القوى الأوربي ، ولبريطانيا ؛
فلو أن فرنسا وإسبانيا تملك عليهما ملك واحد لتحدى أسطولهما الموحد
سيطرة إنجلترا على البحار . كذلك كان نعمة للملكية الهانوفرية
الجديدة غير الآمنة في إنجلترا ، لأن فرنسا تعهدت الآن بالأمان تبذل مزيدا
من العون للمطالبين الاستيوارتيين بالتاج الانجليزي

وتغلبت الحكومة الأسبانية على أمرها ، ولم ترقها هذه الهزيمة
فاشترك البيروني ، وزيرها الحاكم ، في مؤامرة كيلمار ودوقة مين
للإطاحة بالوصي وجعل فليب الخامس ملكا على فرنسا . واكتشف دبوا
المؤامرة ، وأقنع الوصي على كره منه بأن يحذو حذو إنجلترا في إعلانها
الحرب على إسبانيا (١٧١٨) . وأنهت معاهدة لاهاي (١٧٢٠) هذا
الصراع . ورغبة في دعم السلام رتب دبوا زواج ابنة الملك فليب بلويس
الخامس عشر ، وبنات الوصي بأبناء فليب . وعقدت الزيجات على
جزيرة بيداسو الواقعة على الحدود (٩ يناير ١٧٢٢) واحتفل بها في
حفل لاحتراق المهرطقين (٩٠) . ولما كانت الأميرة الأسبانية ماريانا
فكتوريا لا تتجاوز الثالثة من عمرها ، فلا بد أن ينقضي زمن قبل أن
ينجب منها لويس الخامس عشر وريثا للعرش ، فإذا حدث أن مات
الملك الصبي خلال هذه الفترة ، فإن الوصي يصبح ملكا على فرنسا ،
ويصبح دبوا وزيره الدائم .

وتسلك بدهاء خطوة فخطوة . ففي ١٧٢٠ عين رئيس أساقفة
على كمبري ، وبمفارقة مضحكة من مفارقات التاريخ طلب ملك
بروتستنتي هو جورج الأول ، الى الوصي الشاك ان يقنع البابا بأن
يخلع على دبوا هذا الكرسي الرياسي الشهير ، الذي شرفه قبيل ذلك
فنيلون ، وشارك أساقفة فرنسا بما فيهم التقى الورع ماسيون في
الاحتفالات التي أضفت هذا الشرف على رجل كان يرى فيه الكثير من
٤ - قصة الحضارة.

الفرنسيين. جماع الرخائل - أما ديونا فالحسن بانه لم يكافأ بما يكفى جزاء على خدماته لفرنسا ، واستخدم المال الفرنسي ليُجْلِس على عرش البابوية مرشحا تعهد بان يبعث اليه بقبعة حمراء (أى قبعة الكردينال) . وأوفى أنوسنت الثالث عشر بوعده وهو آسف ، وأصبح رئيس الاساقفة الكردينال دبوا (١٦ يوليو ١٧٢١) ، وبعد سنة عين وزيرا أول للملكة براتب قدره ١٠٠.٠٠٠ جنيه . واذا كان يتقاضى ايرادا قدره ١٢٠.٠٠٠ جنيه من منصب رئيس الاساقفة ، و ٢٠٤.٠٠٠ من سبعة أديرة ، و ١٠٠.٠٠٠ من نظارته على البريد ، ومعاشا انجليزيا قدره سيمون بمبلغ ٩٦.٠٠٠ ، فقد بلغ ايراده السنوى الآن نحو ١.٥٠٠.٠٠٠ جنيه (٩١) . ولم يكن له من هم الا خوفه من أن ترفض زوجته - التى كانت لا تزال على قيد الحياة - ما يبعثه اليها من الرشا ، وتكشف عن وجودها ، وتبطل بذلك مناصبه الكنسية (٩٢) .

ولكن الزمن أدركه . ففى ٥ فبراير ١٧٢٣ بلغ لويس الخامس عشر سن الرشد وانتهى عهد الوصاية . وحين كان الملك لا يتجاوز الثلاثة عشرة ، وكان ينعم بالعيش فى فرساي ، طلب الى فليب أن يواصل حكمه للمملكة ، وظل دبوا أكبر مساعدى فليب . ولكن حدث فى أول اغسطس أن انفجرت مثانة الكردينال ، ومات فجأة وهو مثقل بأمواله . واضطلع فليب بالادارة ، ولكن فسحة أجله هو أيضا انتهت . ذلك أنه بعد أن اتخم بالنساء ، وتخذّر بادمان السكر ، وكف بصره ، وفقد حتى عاداته المهذبة ، تقبل ، فى نصف وعى ، ازدراء الناس لذلك النظام الذى بدأ فى جو شامل من الود والارتياح ، وقارب نهايته فى انحدار رسمى واحتقار شعبى . وأنذره الأطباء بان أسلوب حياته سيقضى عليه ، ولكنه لم يكثرث ، فلقد أترع بخمر الحياة حتى الثمالة ، ومات بنوبة فالج فى ٢ ديسمبر ١٧٢٣ ، وتلقفته ذراعا خليلته مؤقتا . وكان يومها فى التاسعة والأربعين .

على ان فليب أورليان لا يقع من نفوسنا موقع الرجل الشرير برغم تعدد آثامه . فرخائله رخائل الجسد لا النفس : كان متلافا سكيما فاسقا ، ولكنه لم يكن إنانيا ، ولا قاسيا ، ولا خسيسا ، بل كان رحيما ، شجاعا ، عطيفا . كسب مملكة بمقامرة ، وتركها بقلب خلى ويد مبسوطة . وقد

أتاح له ثراؤه كل الفرص ، ولم تتج له سلطته أى انضباط . أنه لمنظر محزن حقاً - منظر رجل لامع الفكاه ، سمح الراى ، يكافح لاصلاح ما أفسده فى فرنسا تعصبَ الملك العظيم ، ثم يترك الاهداف السامية تغرق فى سكر لا معنى له ، ويضيع الحب فى دوامة من الفسق .

كانت فترة الوصاية ، من الناحية الاخلاقية ، أشد الفترات خزيا وعارا فى تاريخ فرنسا . فالدين الذى كان نافعا فى القرى جلب على نفسه العار فى القمة لأنه شرف رجلا من أمثال دبوا وتنسان ، ففقد بذلك احترام الفكر الذى أطلق عقاله ، وقد حظى الذهن الفرنسى بحرية نسبية ، ولكنه لم يستخدمها لنشر الذكاء الرحيم المتسامح بقدر ما استخدمها لاطلاق الغرائز البشرية من ضوابط الهيمنة الاجتماعية التى تتطلبها الحضارة ، ونسيت الارتياحية فلسفة أبيقور ، وانصرفت الى اللذات الابيقورية (أى الحسية) . ولقد كانت الحكومة فاسدة ، ولكنها حفظت السلام فترة كفت للسماح لفرنسا بأن تفيق من عهد مدمر ، عهد الفخامة والحرب . وقد انهار « نظام » لو وانتهى بالافلاس ، ولكنه أعطى الاقتصاد الفرنسى حافزا قويا . وشهدت تلك السنوات الثمان انتشار التعليم المجانى ، وتححر الفن والادب من الوصاية والسيطرة الملكيتين ؛ لقد كانت سنوات « الابحار الى سيبيرا » ، و « جيل بلاس » و « أوديب » و « رسائل موتسكيو الفارسية » . ولقد زجت الوصاية بفولتير فى السجن ، ولكنها أعطته من الحرية والتسامح ما لن يعرفه أبدا فى فرنسا حتى فى ساعة انتصاره وموته .

٩ - فولتير والباستيل : ١٥١٧ - ٢٦

فى مذكرات سان - سيمون فقرة مميزة تصف شابا محدثا آثار ضجيجا كثيرا أيام الوصاية :

« نفى آرويه ، وهو ابن موثق كنا نعامله أنا وأبى حتى توفى .. الى تل فى ذلك الحين (١٧١٦) لنظمه أبياتا من الشعر فيها هجو شديد ووقاحة بالغة . وما كنت لألهو بتدوين هذا الحدث الثقافه لولا أن آرويه هذا ، الذى أصبح شاعرا وأكاديميا كبيرا باسم فولتير ، قد أصبح كذلك شخصية فى دولة الادب ، لا بل بلغ شيئا من الاهمية بين بعض الناس (٩٣) » .

هذا الشاب المحدث ، الذى بلغ الآن الحادية والعشرين ، وصف نفسه بأنه « نحيل ، طويل ، للاحم فيه ولا أرداف (١٤) » ولعله بسبب هذا العيب كان يثب من مضيف (أو مضيفة) الى آخر ، ويجد الترحيب حتى فى الدوائر العليا ، بفضل شعره المتألق وذكائه الحاضر ، يتشرب الهرطقة وينشرها ، ويمثل دور زير النساء . واذ لمع فى قصر سو على الأخص ، فإنه أثلج صدر دوقة مين بهجوه الوصي . وكان فليب قد اختزل الى النصف خيول المرباط الملكية ، فعلق آرويه على هذا بأنه كان خيرا له أن يطرد نصف الحمير الذين يزحمون بلاط سموه . وأسوأ من ذلك أنه فيما يبدو اذاع أبياتا عن أخلاق دوقة بيرى (ابنة الوصي) وانكر فولتير أنه كاتبها ، ولكن الأبيات نشرت بعد ذلك فى « أعماله » وقد واصل خطة الإنكار هذه الى قرب ختام حياته ، باعتبارها حماية معتفرة من رقابة مصلته على أصحاب الأقلام . أما الوصي فكان فى وسعه أن يغتفر الهجائيات اللاذعة الموجهة لشخصه ، لأنها كثيرا ما كانت كاذبة ، ولكنه كان يجرح جرحا عميقا من السخريات الموجهة لابنته ، لأنها كانت صادقة فى أغلبها . وعليه ففى ٥ مايو ١٧١٦ أصدر أمرا « بارسال السيد آرويه الابن الى تل » - وهى مدينة على ثلاثمائة ميل جنوب باريس ، اشتهرت بمداينها الكريمة الرائحة ، ولم تكن قد اشتهرت بعد بالنسيج الرقيق « التل » الذى نسب اليها فى تاريخ لاحق . واقنع الأب آرويه الوصي بأن يغير المنفى من تل الى صلى - سير - لوار ، على مائة ميل من العاصمة . وذهب اليها آرويه ، واستقبله هناك الدوق صاحب لقب صلى آنثذ ، سليل الوزير الأكبر لهنرى الرابع ، ضيفا فى بيته .

وقد استمتع هناك بكل شيء الا الحرية . وما لبث أن وجه شعرا « رسالة للدوق أورليان » يؤكد فيه برامته ويلتمس اطلاق سراحه . واستجاب الوصي ، وما وافى ختام العام حتى كان قد عاد الى باريس وراح يتنقل فى أرجائها تنقل الطائر وينظم الشعر ، فى بذاعة حيناً ، وفى سطحية فى كثير من الأحيان ، وفى ذكاء دائما - حتى نسب اليه كل هجو بارع يسرى على موائد المقاهى دون معرفة كاتبه . وفى مطلع عام ١٧١٧ ظهر هجاء لاذع جدا ، بدأت كل جملة فيه بكلمة « رأيت »

J'ai vu « مثال ذلك :

« رأيت الباستيل وألف سجن آخر مملوءة بمواطنين شجعان
ورعايا أوفياء . رأيت الناس أشقياء يرسفون فى عبودية قاسية . رأيت
الجند يهلكون جوعا ، وعطشا ... وسخا ، رأيت شيطانا فى زى
امراة ... يحكم المملكة ... رأيت البور - رويال وقد هدم ... رأيت
- وهذا ينتظم كل ما رأيت - يسوعيا يعبد ... رأيت كل هذه الشرور ،
وأنا لم أجاوز العشرين بعد (٩٥) » .

وواضح أن هذه الابيات كانت تعرض بلويس الرابع عشر ومدام
حمانتون ، ولابد أن كاتبها عدو جانسنى لليسوعيين لا شك مستهتر
لا يزال يحتفظ ببعض الحب فى قلبه لجماعة اليسوعيين . أما الكاتب
الحقيقى فهو أ. ل. لبرون ، الذى التمس بعد ذلك الصفح من فولتير
لأنه تركه يتحمل تبعة كتابتها (٩٦) . ولكن السن المتقولين امتدحت
آرويه على القصيدة ، وألحت عليه الجماعات الأدبية فى القائها ، ولم
يصدق أحد انكاره تأليفها (الا صاحبها) . واتهمته الشائعات التى
نقلت الى الوصي بكتابة عبارة لاتينية - وبحق فيما يبدو - فضلا عن
قصيدة « رأيت » المذكورة ، ومطلعها *Puero regnante* : يقول
كاتبها ما ترجمته « صبى (لويس الخامس عشر) يملك ، ورجل مشهور
بتسميم خصوصه وغشيان المحارم يحكم ، ... وثقة الشعب تنتهك
(افلاس مصرف لو) ... والبلاد يضحى بها طمعاً فى تاج ،
وميراث - يعجل ميقاته بخسه ، وفرنسا على شفا الدمار (٩٧) » .
وفى ١٦ مايو ١٧١٧ أمر خطاب ملكى مختوم بأن « يقبض على السيد
آرويه ويودع الباستيل » . وفوجيء الشاعر فى مسكنه ، ولم يسمح له
بأن يأخذ غير الثياب التى يرتديها .

ولم يتسع وقته لوداع خليلته آنذاك ، واسمها سوزان دليفريه ،
واتخذ صديقه لفيفر دجنونفيل مكانه على صدرها ، واغتفر لها آرويه
« خيانتها فى تفلسف - » علينا أن نحتمل هذه التواقة (٩٨) « وبعد
سنوات مات لفيفر فنظم فولتير فى ذكراه أبياتا تبين موهبة الشاعر الشاب
فى قرض الشعر الجميل ، والعواطف الرقيقة التى كانت دائما أعمق
فى نفسه من الشكوك : « انه يتذكرك ، أنت والجميلة ايجيرى (سوزان)
فى أيام حياتنا الحلوة ، حين كنا ثلاثتنا يحب بعضنا بعضا . فالفكر

والطيش ، والحب ، وسحر الأخطاء الرقيقة ، كل أولئك ربط بين قلوبنا الثلاثة . الا ما كان أسعدنا ، اذ لم يقو على تكدير صفونا حتى الفقر ، رفيق السعادة الحزين . كنا شبابا ، مرحين ، قنوعين ، خالين من الهموم ، لا يشغلنا التفكير فى المستقبل ، رغباتنا كلها تحددنا مباحثنا الراهنة - فإى حاجة بنا بعد هذا لثراء لا غناء فيه ؟ لقد كنا نملك شيئا أفضل منه جدا ، كنا نملك السعادة (٩٩) » .

وتزوجت سوزان رجلا غنيا يدعى المركيز جوفرينه ، وأبت ان تدخل فولتير بيتها حين أتى لزيارتها . وعزى نفسه بهذه الفكرة ، وهى أن « كل الماسات واللآلئ التى تزينها الآن لا تعدل قبلة من قبلاتها فى الأيام الخالية (١٠٠) » . ولم يرها ثانية حتى عاد الى باريس بعد احدى وخمسين سنة ليموت ، عندها أصر وهو فى الثالثة والثمانين على زيارة المركيزة الأرملة ، وكانت قد بلغت الرابعة والثمانين . لقد كان يسكن فولتير هذا شيطان ، ولكن كان يسكنه ايضا أرق قلب فى الوجود .

على أنه لم يجد الباستيل سجننا لا يطاق . فقد سمح له بأن يرسل فى طلب الكتب ، والأثاث ، والثياب الداخلية ، وطاقيّة النوم ، والعطر ، وأن يدفع ثمن هذا كله ، وكثيرا ما كان يتناول طعامه مع مأمور السجن ويلعب البليارد والبولنج مع السجناء والحراس ، وقد كتب فيه ملحمة « الهنريادة » . لقد كانت الألياذة من الكتب التى أرسل فى طلبها ، وسأله نفسه : لم لا يناقش هومر ؟ ولم تقصر الملاحم على الأساطير ؟ ان فى التاريخ الحى رجلا هو هنرى الرابع ، انسان مرح ، جسور ، بطل ، فاسق ، متسامح ، كريم ، فلم لا تصلح تلك الحياة المخامرة الفاجعة لشعر الملاحم ؟ ولم يكن مسموحا للمسجين بورق الكتابة لأنه قد يستحيل فى يده سلاحا فتاكا ، لذلك كتب النصف الأول من ملحمة بين سطور الكتب المطبوعة .

وأفرج عنه فى ١١ أبريل ١٧١٨ ، ولكنه منع من البقاء فى باريس ومن شاطئيه القريبة من سو كتب الى الوهي رسائل يلتمس فيها الصفح ، ولانبت قناة الوصي ثانية ، وفى ١٢ أكتوبر أصدر اذنا « للسيد آرويه دقولتير بالمجيء الى باريس حين يشاء (١٠١) » .

ولكن متى وكيف جاءه هذا الاسم الجديد ؟ الظاهر ان هذا كان حوالى فترة مسجنه فى الباسكيل ، فنحن نلقاه أول مرة فى المرسوم الذى ذكرناه آنفا . وظن بعضهم (١٠٢) انه جناس تصحيفى *anagram* أى تغيير فى ترتيب أحرف كلمة *Arovet L(e) J(eune)* باعتبار الـ *U* هى حرف *V* والـ *I* هى حرف *J* - أما المركيزة دكريكى (١٠٣) فردته الى كلمة « فوتير » ، وهى مزرعة صغيرة على مقربة من باريس ورثها فولتير عن أحد أبناء عمومته ، ولم يرث معها أى حقوق سيادية ، ولكن أرويه ، كبلزاك ، اتخذ الاضافة التى يلحقها السادة باسمائهم "de" بحق العبقرية ، ووقع - كما فى اهداء تمثيليته الاولى - بهذا الاسم « أرويه دفولتير » (ولكنه عما قليل لن يحتاج لغير اسم واحد للدلالة على نفسه فى أى بلد فى أوربا .

وكانت تلك التمثيلية - أوديب - حدثا فى تاريخ فرنسا الادبى . لقد كانت وقاحة صارخة من فتى فى الرابعة والعشرين ألا يكتفى بتحدى كورنىي ، الذى أخرج تمثيلية « أوديب » فى ١٦٥٩ ، بل يتحدى سوفوكليس أيضا ، الذى ظهرت مسرحيته « أوديب ملكا » فى ٣٣٠ ق م . أضف الى ذلك أن قصة فولتير كانت قصة سفاح للمحارم ، يمكن أن تحمل على محمل التعريض بالعلاقات بين الوصي وابنته - وهى بالضبط . التهمة التى سجن بسببها أرويه . وقد فسرتها هذا التفسير دوقة مين واغتبطت بها ، وكان الشاعر قد فكر فى تمثيلته أثناء وجوده فى قصرها . وطلب فولتير بجراته المألوفة الى الوصي أن يأذن له باهداء التمثيلية ، وتردد الوصي ، ولكنه أذن باهداءها لأمه . وأعلن أن حفلة الافتتاح ستكون فى ١٨ نوفمبر ١٧١٨ . وتكون حزبان من رواد مسارح باريس - أنصار الوصي ، وأنصار دوقة مين ، وتوقع الناس أن مباراة الفريقين فى صيحات الاستهجان وهتاف الاستحسان ستجعل من التمثيل مهزلة صاخبة . ولكن المؤلف الذكى كان قد ضمن مسرحيته أبياتا تسر أحد الفريقين ، وأخرى تسر الفريق الآخر . فارضت الفريق الناصر للوصي فقره تصف كيف طرد الملك لايوس حرس القصر الغالى النفقة (كما فعل فليب) ، وأرضي اليسوعيين أن يروا كيف أحسن تلميذهم الافادة من المسرحيات التى كانوا يخرجونها فى كلية لوى - لجران ؛ أما أحرار الفكر فقد صفقوا بحماسة لبقيتين من الشعر وردا فى المشهد

الاول من الفصل الرابع ، بيتين سيصبحان الانشودة التى تتردد فى حياة فولتير . « ليس كهنتنا ما يحسبه جمهور غافل ، فسذاجتنا هى التى تصنع علمهم كله » وصفق كل فريق بدوره ، وفى النهاية ظفرت المسرحية باستحسان الجميع . وتقول رواية قديمة أن والد فولتير ذهب وهو على وشك الموت ليشهد التمثيلية فى أولى ليالى عرضها ، وكان لا يزال يتميز سخطا على ولده الحقيق السيء السمعة ، ولكنه بكى اعتزازا بروعة الشعر وانتصار التمثيلية .

وحققت أوديب فترة عرض لم يسبق لها مثيل ، بلغت خمسة وأربعين يوما . وأطراها حتى فونتنيل المكتهل ، ابن أخت كورنى ، وأن أبدى لفولتير أن بعض أبياتها « بالغة الشدة تضطرم نارا » . وأجاب الفتى المندفع بتورية فذلة : « لكى أهذب نفسي سأقرأ رعوياتك (١٠٤) » وأصرت باريس على أن ترى فى أوديب (المذنب بغشيان المحارم) شخص الوصي ، وفى جوكستا شخص ابنته . وتصدت دوقة برى (ابنة الوصي) للشائعات بشجاعة ، فحضرت التمثيلية عدة ليال . أما الوصي فامر بإخراجها فى مسرح قصره ، ورحب بالمؤلف فى بلاطه .

وبعد بضعة أشهر نشر شاعر أفاك ، لم يعلن عن اسمه ، قصائد سماها « Les Philippiques الفليبيات » ، وهى هجائيات اتهمت فليب بأنه يبيت تسميم الملك الصبى واغتصاب العرش . واشتبه الكثيرون فى فولتير مؤلفا للقصائد ، فأكد براءته ، ولكنه كان قد كذب فى حالات كهذه كذبا صارخا فلم يصدقه إلا أحد المؤلف . وبرأه فليب لعدم كفاية الأدلة على التهمة ، واكتفى بنصحه بأن يغيب حينسا عن نعيم باريس . فعاد الى شاتو صلى (مايو ١٧١٩) . وبعد سنة سمح له بالعودة الى العاصمة ، وهناك ظل فتى الارستقراطية المدلل فترة من الزمان .

وإذ كان مؤمنا بأن المال حجر الفلاسفة ، فقد استخدم ذكاه الحاد فى فهم مشكلات المالية وحيلها . وسعى لمصادقة المصرفيين ، واجيز بمكافأة سخية للمعونة التى قدمها لآخوان باريس « للحصول على عقود

بتوريد مؤن وذخائر للجيش (١٠٥) « . وكان بطلنا من استغلاليى الحرب . وظل بعيدا عن « نظام » لو ، واستثمر ثروته بحكمة ، وأقرض النقود بالربا . وفى ١٧٢٢ مات أبوه ، واحتكم فولتير الى القضاء فى أمر الوراثة وثابر على دعواه بعزيمة ماضية ، ففاز بوراثة دخل سنوى قدره ٤٢٥٠ فرنكا . وفى تلك السنة ذاتها أجرى عليه الوصى معاشا قدره ٢٠٠٠ جنيه ، وغدا الآن رجلا موسرا . وعما قليل سيصبح مليونيرا ، وعطينا ألا نفكر فيه نائرا ، ألا فيما يتصل بالدين .

وقد أعان على تربيته وتهذيبه سقوط مسرحيته الثانية - آرتمير - (١٥ فبراير ١٧٢٠) . فجرى من مقصورته الى خشية المسرح وناقش النظارة فى مزايا المسرحية ، وصفقوا لخطابه ولكنهم ظلوا على استنكارهم لها ، وبعد ان مثلت ثمانى مرات سحبها من المسرح ، وفى تاريخ لاحق من تلك السنة قرأ قسما من « الهنريادة » على نفر فى اجتماع ، ووجه اليها بعض النقد ، وبحركة فرجيلية القى بالمخطوطة فى النار ، وخطف اينو الأوراق من اللهب ، وشبه نفسه بأوغسطس وهو يستنقذ انيادة فرجيل ، وقال ان فولتير مدين له الآن بملحمة و « طوقى كم لطيفين (١٠٦) » . واستعاد الشاعر كبريائه فى غير مشقة حين استمع الوصى نفسه الى قراءة من القصيدة . وكان حيثما ذهب يقرأ جزءا منها . وفى ١٧٢٣ زار اللورد بولنبروك وزوجته الفرنسية فى فللتهما ، لاسورس قرب أورليان ، فأكدا له أن ملحمته تبز « جميع الاعمال الشعرية التى صدرت فى فرنسا (١٠٧) » . وتظاهر بأنه يشك فى صدق هذا الزعم .

وتبادل خلال ذلك الفلسفات مع ذلك الشاك النبيل ، وسمع بالريوبيين الذين يكدرون صفو المسيحية فى بريطانيا . وخامرته الظنون بأن انجلترا سبقت فرنسا فى العلم والفلسفة . ولكنه كان قد انتهى الى هرطقات بولنبروك قبل ان يلتقى به أو يقرأ للريوبيين الانجليز . وفى ١٧٢٢ قبل دعوة من الكونتيسة مارى درويلموند بأن يصبحها الى الارضى المنخفضة . وكانت أرملة فى الثامنة والثلاثين ، من نساء الفكر ، ولكنها جميلة ، وقد قبل دعوتها وهو فى الثامنة والعشرين . وفى بروكسل التقى بشاعر منافس يدعى جان باتيست روسو ، اثنى على « أوديب » ولكنه وبخ فولتير على استهتاره الدينى .

أما فولتير ، الذى قلما كان يطبق النقد ، فقد علق على قصيدة لروسو عنوانها « قصيدة غنائية للأجيال القادمة » بقوله « أتعلم يا سيدى اننى لا أعتقد أن هذه القصيدة ستصل أبدا الى من وجهت اليهم ؟ (١٠٨) » وقد ظلا ينهش أحدهما الآخر حتى وفاة روسو . وبينما كان فولتير وكونتيسة يواصلان رحلتها الى هولندة كشفت له عن شكوكها الدينية ، وسألته عن آرائه . واذا كان فولتير جياشا بالشعر ، فقد رد بقصيدة شهيرة سماها « رسالة الى أورانى » لم تنشر الا سنة ١٧٣٢ ، ولم يعترف بها فولتير الا بعد أربعين سنة . وكل شاب مسيحي مرهف الحس سيتبين فيها مرحلة فى تطوره . يقول فولتير « اذن أنت تؤدين أيتها الجميلة أورانى (اسم لأفروديت) وقد بعثت بأمرى فى هيئة لوكريتيوس جديد ، أن أمزق أمام عينيك بيد جريئة القناع عن الخرافات ، وأن أعرض عليك ذلك المشهد الخطر ، مشهد الأكاذيب المقدسة التى تزخر بها الأرض ، وأن تعلمك فلسفتى ازدرأ أهوال القبر ومخاوف الحياة الآخرة » .

ويسير الشاعر بـ « خطى ملؤها الاحترام » . فيقول « انى أريد أن أحب الله ، وألتمس فيه أبى » ، ولكن أى نوع من الاله يقدمه لنا اللاهوت المسيحى ؟ « طاغية ينبغى أن نذكره . خلق البشر » على صورته « ليجعلهم حقراء ، وأعطانا قلوبا آثمة ليكون له حق عقابنا . جعلنا نحب اللذة لكى يعذبنا بالام رهيبه ... أبدية » . وما أن خلقنا حتى فكر فى اهلا كنا . فأمر المياه بأن تغرق الأرض . وأرسل ابنه ليكفر عن خطايانا ، لقد مات المسيح ، ولكنه مات عبثا فيما يبدو ، اذ يقال لذا اننا ما زلنا ملوثين بجريمة آدم وحواء ، وابن الله الذى يمتدح كثيرا على رحمته ، يمثل لنا وكأنه ينتظر بروح الثار أن يقذف باكثرنا الى الجحيم ، بما فينا أناس لا حصر لهم لم يسمعوا به قط « لست أتبين فى هذه الصورة المخزية الاله الذى على أن أعبد ، وسأشينه بمثل هذه الاهانة والولاء » . ومع ذلك ترى الشاعر يحس النبل والالهام الحى فى الفكرة المسيحية عن المخلص :

« انظرى الى هذا المسيح ، القوى المجيد .. يدوس الموت تحت قدميه الظافرتين ، ويخرج منتصرا من أبواب الجحيم . ان مثله

مقدس ، وفضيلته الهية . ويعزى سرا تلك القلوب التى يضيئها بنوره ،
وفى أفدح الكوارث يهبها العون ، واذا كان قد أقام تعليمه على وهم
وخداع ، فان من النعم أن نخدع معه » .

وفى الختام يدعو الشاعر أورانى ان نستقر على رأى فى الدين
واثقة كل الثقة بأن الله « الذى وضع الدين الطبيعى فى قلبك ، لن
يسوءه العقل البسيط الصريح . ثقى أن نفس الانسان البار ثمينة أمام
عرشه ، فى كل زمان ومكان . ثقى أن الراهب البوذى المتواضع ،
والولى المسلم العطوف ، يجدان نعمة فى عينيه أكثر مما يجده جانسنى
(قدرى) صارم ، أو بابا يلوث الطمع روحه » .

ولما عاد فولتير الى باريس أقام فى الأوتيل دبيرنيير بشارع بون
وشرىق فولتير الحالى (١٧٢٣) . وفى نوفمبر ذهب الى اجتماع
للأعيان فى الشاتودميزون (على تسعة أميال من باريس) ، حيث كانت
أعظم ممثلات العصر أدريين لكوفرير ستقرأ تمثيليته الجديدة «ماريان»
ولكن قبل ان يحل موعد الحفل أصيب بالجدري ، وكان فى تلك الايام
يفتك بنسبة عالية من ضحاياه . وكتب وصيته ، واعترف ، وراح ينتظر
الموت . وهرب الضيوف الآخرون ، ولكن المركز دميزون «استدعى
الدكتور جريفيه من باريس » وبدلا من المنبهات التى تعطى عادة فى
هذا المرض ، جعلنى أشرب مائتى باينت من عصير الليمون (١٠٩) «
ولعله كان لهذه الأكراب المائتين الفضل فى « انقاذ حياتى » . ولم
يتمثل للشفاء الا بعد شهور كثيرة ، والواقع أنه بعد هذا كان يعالج
نفسه علاج عليل عاجز ، يمرض تلك الحياة المتقطعة التى يحيها ذلك
البدن الهش الذى فرض عليه أن يؤوى نار صاحبه الأكلة .

وفى ١٧٢٤ بدأ تداول ملحمة الهنريادة سرا بين الصفوة المثقفة .
لقد كانت اذاعة سياسية على مستوى ملحمة . واتخذت الملحمة مذبة
القديس برتلميو نصا لها ، وتبعت الجرائم الدينية خلال العصور ؛
الأمهات يقدمن أبناءهن محرقات على مذابح الآله ملخ ، وأغا ممنون
ينتهي لتقديم ابنته قربانا للآلهة التماسا لقليل من الريح ، والمسيحيون
يضطهدهم الرومان ، والمهرطقون يضطهدهم المسيحيون ، والمتعصبون

« يدعون الرب وهم يذبحون اخوتهم » ؛ والاتقياء يوحى اليهم بقتل الملوك الفرنسيين . وأشادت القصيدة باليزابيث لتقديمها المعونة لهنرى خافار ، ووصفت معركة أفريه ، وشفقة هنرى ، وعشقه لجابرييل ديستريه ، وحصاره لباريس ، وامتدحت تحوله للكاتوليكية ، ولكنها انقذت البابوية لأنها « قوة لا ترحم المغلوبين ، ويلين جانبها للغالبين ، على استعداد للمغفران أو الادانة حسبما تمليه المصلحة » .

وكان فولتير يأمل أن تقبل الهنريادة ملحمة قومية لفرنسا ، ولكن الكاثوليكية كانت أعز على مواطنيه من أن تجعلهم يستقبلون القصيدة ملحمة لروحهم . ثم ان أخطاءها كانت تثب الى العين الدارسة . فالتقليدات الواضحة لهومر وفرجيل - فى مشاهد القتال ، وفى زيارة البطل للجحيم ، وفى ادخال التجريدات المجسدة فى الحركة على غرار الآلهة الهومرية - كل أولئك ضحى بمفاتيح الابتكار والأصالة ، ومع أن الأسلوب كان أسلوب النثر الجيد ، فقد افتقد أخيلة الشعر المنيرة . أما المؤلف ، الذى أسكره مداد المطبعة ، فلم يخامرته ظن فى هذا . فكتب الى تييريو يقول « ان شعر الملاحم موطن قوتى ، والا كنت واهما جدا (١١٠) » ولقد كان واهما جدا .

ومع ذلك بدا أن المديح الذى ظفر به يبرر افتخاره بملحمته . فقد صرح ناقد فرنسي بأنها تسمو على الانبياء ، وذهب فردريك الأكبر الى « أن أى انسان تحرر من الهوى سيفضل الهنريادة على قصيدة هومر (١١١) » . ونفدت الطبعة الأولى سريعا ، ونشرت طبعة منتحلة فى هولندا وصدرت الى فرنسا ، وحظر البوليس الكتاب ، ولكن جميع الناس اشتروه . وترجم الى سبع لغات ، وسنراه يحدث ضجة فى انجلترا . وقد لعب دورا فى احياء شعبية هنرى الرابع . وجعل فرنسا تخجل من حروبها الدينية ، وتنقد النظريات اللاهوتية التى اشعلت فى الناس نيران هذه القسوة الضارية .

واستمع الآن فولتير حينما بالشهرة والمال دون أن يكدرهما مكرر . فقد اعترف به الناس اعظم شاعر حتى فى فرنسا ، واستقبل فى بلاط لويس الخامس عشر ، وبكت الملكة من تمثيلياته ، ونفحتسه بالف وخمسمائة جنيه من جيبتها الخاص (١٧٢٥) . وكتب أكثر من عشرة

خطابات يشكو حياته عضوا فى الحاشية ويغادر بهذه الحياة . وراح يتحدث فى ألفة طبيعية مع النبلاء ، سواء منهم الشريف والخسيس . ولا شك أنه أسرف فى الحديث ، وهذا أيسر شيء فى الوجود . وحدث ذات ليلة وهو فى الأوبرا (ديسمبر ١٧٢٥) أن الشفالييه دروهان - شابو سمعه يسترسل فى الحديث فى بهو الانتظار فسأله فى خيلاء شديدة « مسيو فولتير ، مسيو آرويه - ما اسمك ؟ » ولا علم لنا بم أجاب الشاعر . وبعد يومين التقيا فى الكوميدي - فرانسيز ، وأعاد دروهان سؤاله . ويختلف الرواة فى الجواب الذى أجابه به فولتير ، قالت رواية انه أجاب « انسان لا يتجرجر وراء اسم عظيم ، بل يعرف أن يشرف الاسم الذى يحمله (١١٢) » ، وتقول رواية أخرى انه أجاب « ان اسمى يبدأ بى ، واسمك ينتهى بك (١١٣) » . ورفع السيد النبيل عصاه ليضربه ، وأتى الشاعر بحركة ليستل سيفه . وكانت أدريين لكوفرير تشهد المعركة ، وكان لها من حضور البديهة ما جعلها تقع مغشيا عليها ، وتهادن الخصمان .

وفى ٤ فبراير كان فولتير يتغدى فى بيت الدوق صلى ، واذا رسالة تنبئه أن بباب القصر من يريد أن يراه ، فذهب ، واذا ستة فتاك ينقضون عليه ويضربونه فى شيء من الترفق . وحذرهم دروهان الذى كان يدير العملية من مركبته قائلا « لا تضربوا رأسه ، فعسى أن يخرج منه شيء صالح (١١٤) » . واندفع فولتير عائدا الى البيت ، وطلب الى صلى أن يعينه على اتخاذ اجراء قانونى ضد دروهان . ولكن صلى أبى . فاعتكف الشاعر فى ضاحية أخذ يتدرب فيها على المثاقفة . ثم ظهر فى فرساي ، مصمما على المطالبة بـ « ترضية » من الشفالييه . وكان القانون يعد المبارزة جريمة كبرى . وصدر أمر ملكى للشرطة بأن تراقبه ، ورفض دروهان لقاءه . فى تلك الليلة قبضت الشرطة على الشاعر ، مما أراح كل من له صلة بالأمر ، ووجد فولتير نفسه نزيل الباستيل ثانية . وقال القائد العام لشرطة باريس فى تقريره « ان أسرة المسجين أثنت بالاجماع ... على حكمة الأمر بمنع الشاب من ارتكاب حماقة جديدة (١١٥) » وكتب فولتير للسلطات يدافع عن مسلكه ، وعرض أن ينفى نفسه فى انجلترا مختارا اذا أفرج عنه . وقد عومل كما عومل من قبل ، فوفرت له كل أسباب الراحة والرعاية .

وقبل اقتراحه ، وأفرج عنه بعد خمسة عشر يوما ، ولكن حارسا
أمر أن يوصله الى كاليه . وأعطاه أعضاء الحكومة خطابات تعريف
وتوصية لبعض الانجليز البارزين ، وواصلت الملكة دفع معاشه . وفى
كاليه استضافه أصدقاؤه ريثما يقلع المركب التالى . وفى ١٠ مايو ركب
البحر ، مسلحا بالكتب لدراسة الانجليزية ، راغبا فى رؤية البلد الذى
سمع أن الناس والعقول فيه أحرار . فلنر ماذا وجد فيه .

الكتاب الأول

انجلترا

١٧١٤ - ٥٦

الفصل الثاني

الشعب

١٧١٤ - ٥٦

كانت انجلترا النى وجدها فولنبر أمة تنمتع بربع قرن من السلام النسبى عقب جيل من انتصارانها الغالية على فرنسا ، أمة غدت الآن سيدة البحار ، واذن فسيده التجارة ، واذن فسيده المال ، ممسكة برافعة القوى وميزانها فوق حكومات القارة ، منتصرة فى كبرياء على أسرة من الاستيوارتيين حاولت أن تفرض عليها الكهنة ، وعلى ملوك هانوفريين كانوا خداما لجيب البرلمان المنتخب . تلك هى انجلترا التى احرزت قبل ذلك التفرق العالمى فى العلم بفضل نيوتن ، وانجبت لوك الثائر دون عمد منه ، والتى كانت نقوض المسيحية بالربوبية ، والتى ستحل الشاعر الكسندر « بوپ » (= بابا) محل بابوات روما أجمعين ؛ والتى سنرقب بعد قليل فى فلق عمليات ديفد هيوم العقلية المدمرة . ادنا انجلترا النى أحبها الفنان هوجارث وسحبها بقوة فى محفوراته ، انجلترا التى وجد فيها هندل وطنا وجمهورا مستمعا ، وحجب فيها ضوءه كل موسيقار من آل باخ اذ غدا أعظم « مايسترو » أنجبه العصر . ثم هنا ، فى هذه « القلعة التى ابتنتها الطبيعة لنفسها ضد الغارات . . هذه البقعة المباركة . . فى انجلترا هذه (١) » - بدأت الثورة الصناعية تغير وتبدل كل شيء الا الانسان .

١ - التمهيد للثورة الصناعية

١ - المؤيدون

رسم ديفو ، بعد أن جاب أرجاء انجلترا فى ١٧٢٢ ، صورة مقعمة بمشاعر الوطنية لـ « أكثر بلاد الدنيا ازدهارا وثراء » ، صورة الحقول الخضراء والمحاصيل الوفيرة ، والمراعى تهيم فيها الخراف الذهبية الفراء ، والعشب النضر الغزير يتحول أبقارا سمنا ، والفلاحين يضجون فى ألعابهم الريفية ، وكبار الملاك فى الريف ينظمون شئونهم - قصة الحضارة ٥

الفلاحين ، والنبلاء ينظمون شئون الملاك ، وكبار حكام الأقاليم يتولون القضاء ويقررون النظام فى القرى ، ثم هى الى ذلك بلد يلوذ به بين الحين والحين الشعراء والفلاسفة (٢) . ان تجار الكلام ينزعون الى تصوير الريف بصورة مثالية اذا اغفوا من مضايقات هذا الريف ، ومثله ، وحشراته ، وكده وكدحد .

لقد كانت الحياة الريفية فى انجلترا سنة ١٧١٥ شديدة الشبه بما كانته منذ ألف سنة . كل قرية - بل كل ببت تقريبا - وحدة مكتفية بذاتها ، تزرع طعامها ، وتصنع ثيابها . وتقطع أنسابها للبناء والوقود من الغابات المجاورة . وكل أسرة تخبز خبزها ، وتصيد غزلانها ، وتملح لحومها ، وتصنع زبدتها وعلامها وجبنها ، وتغزل وتنسج وتخطط وتخبغ الجلد وتزقي الأثاثية ، وتنع أكثر أنبتها وأدواتها وآلاتها . وهكذا وجد اللب والخبز والأبناء العمل والتعبير عن ذواتهم لا فى حقول الصيف فحسب ، بل فى أمبات الشتاء الطويلة أيضا ، وكان البيت مركزا للصناعة والزراعة على السواء . فالزوجة هى الخبير المكرم بفنون كثيرة ، من تمرىض الزوج وتربية نحو اثنى عشر طفلا ، الى حياكة الفساتين وصنع الجمرة . وهى تحفظ وتصرف الأدوية المنزلية ، وتعنى بالحديقة والخنازير والدواير . والزواج هو اتحاد بين رفيقين منعازين والأسرة كائن حى اقتصادى كما أنها كائن حى اجتماعى ، وبهذا توافر لها مبرر قوى وأساس مكين لوحدتها وتكاثرها واستمرارها .

ولو قد ترك الفلاحون أحرارا فى الأبناء تلى "سالبهم القديمة فى الحقول لئنعوا بما فى بيوتهم من حيوية متنوعة . لقد تذكروا أياما كان مالك الأرض فيها يسمح لهم ، أو لأسلافهم ، بأن يطاقوا قدامهم لترعى فى حقول المنطقة المشاعة ، ربان بصطادوا السمك كما يشاءون فى غدرانها ، وأن يقطعوا الخشب فى غابتها ، أما الآن ، واثرا عملية بدىء بها فى القرن السادس عشر ، فقد سرر الملاك معظم الأراذى المشاعة ، ووجد الفلاحون عناء فى العيش على قدر دخولهم . صحيح أنه لم يكن هناك أثر لرق الأرض ، ولا لضرائب اقطاع رسمية ، ولكن الملاك المخامرين وتجار المدن الذين استثمروا مالهم فى الأرض كانوا يزرعون على نطاق أوسع ، براسمال أكبر ، وبأدوات أفضل ، ومهارة

اعظم ، وأسواق أوسع مما أتيح لصغار الزراع الذين يزرعون مساحاتهم الضيقة . وقد قدر جريجورى كنج أنه كان بانجلترا فى ١٦٨٨ نحو ١٨٠.٠٠٠ من هؤلاء الملاك الأحرار . وذكر فولتير حوالى ١٧٣٠ أن « فى انجلترا عددا كبيرا من الفلاحين ممن تبلغ قيمة ملكية الواحد منهم ٢٠٠.٠٠٠ فرنك ، ولا يأنفون من أن يواصلوا فلاحه الأرض التى أغنتهم ، والتى يعيشون فيها أحرارا » ، ولكن ربما كان قوله هذا من قبيل الدعاية ، حفزا لهمم الفرنسيين ، أيا كان الأمر ، فانه بحلول سنة ١٧٥٠ كان عدد الملاك الأحرار قد تناقص (٣) . فالملاك السمان يشترون المساحات العجاف ، والبيت الصغير وما حوله من ارض ، المقصود به اعالة الأسرة أو الاسواق المحلية ، يخلق مكانه لمزارع أكبر قادرة على الافادة من الوسائل والآلات المحسنة . والمزارع يصبح مساجرا أو « يدا » أجيرة ، أضف الى ذلك أن نظام الفلاحة الذى ساد انجلترا عام ١٧١٥ قسم ارض القرية الى مناطق مختلفة حسب خصوبتها وسهولة الوصول اليها ، وتسلم كل مزارع شريطا أو أكثر فى النواحي المنفصلة ، وكان التعاون ضروريا ، وأحببت المبادرة الفردية ، وتخلف الانتاج . وكانت حجة مسررى الأزامى أن التثغيل الواسع النطاق تحت ملكية موحدة من شأنه أن يزيد الانتاج الزراعى ، وييسر رعى الأغنام ، ويتيح ناتجا مربحا من الصوف ، ولا ريب انهم كانوا على حق . وأغمض التقدم الاقتصادى عينا واحدة على الأقل عما أصاب الناس من اضطراب شديد فى حياتهم نتيجة الارتحال والانتقال .

وتركز التقدم فى التكنولوجيا الزراعية على المزارع الموسعة . فاستصلح حافز الكسب الأراضى البور وزرعها ، ودرب العمال على كفاية أعظم ، وسُجِع اختراع الآلات والوسائل الجديدة وحفز اجراء التجارب على تربية الحيوان ، ودعم الجهد المبذول فى صرف المستنقعات والحد من تعرية التربة وتطهير الغابات . واصيف بين عامى ١٦٩٦ و ١٧٩٥ نحو مليونى فدان الى المساحة المزروعة فى انجلترا وويلز . وفى ١٧٣٠ أدخل تشارلز تاونشند النظام الرباعى لدورة المحاصيل بدلا من الخطة المسرفة التى كان يترك بمقتضاها ثلث الأرض بورا كل سنة ؛ فزرع القمح أو الشوفان فى السنة الأولى ، والشعير أو الشوفان فى الثانية ، والبرسيم والجاودار والنباتات العلفية واللفت الأصفر والكرنب فى

الثالثة ، والملفت فى الرابعة . ثم جاء بالأغنام لتاكل اللفت أو تدوس عليه فتدفعه داخل الأرض بينما يخصب روثها التربة ، وبذلك أعدت الأرض لمحصول وفير من القمح فى السنة الثانية . وسخر منه جيرانه ، وأطلقوا عليه لقبا هو « تيرنب تاونشند » (أى تاونشند اللفت) ، الى أن حملهم على تقليده زيادة فى محاصيله بلغت ٣٠ ٪ . واذا كان تاونشند فيكونتا ، فقد حذا حذوه نفر آخر من الطبقة الارستقراطية فى تحسين أرضهم ، وشاع بين أشراف الانجليز أن يهتم الواحد منهم اهتماما شخيصا بالزراعة ، وانتقل حديث الضياع من الصيد والكلاب الى اللفت والسماذ (٤) .

وكان جثرو تل محاميا ، اعتلت صحته فعاد الى مزرعة أبيه ، واستهوت ذهنه المرفه معجزة النماء وأرباح الزرع ، ولكن صدمه ما رأى من طرق الفلاحة المرفهة ، - فالمزارعون ينثرون تسعة او عشرة أربال من البذار على الفدان باهمال شديد يترك « ثلثى الأرض خالية من الزرع ، فى حين تكتظ البذار فى الباقي اكتظاظا يمنع الزرع من أن يزكو (٥) » . ودرس أساليب الزراعة أثناء رحلاته فى فرنسا وإيطاليا ، فلما عاد الى وطنه اشترى مزرعة ، وأذهل جيرانه بمخترعات ضاعفت من الانتاج . وقد بدأ (حوالى ١٧٣٠) بصنع محراث ذى أربعة قواطع يقتلع الحشائش ويدفنها فى التربة بدلا من مجرد ازاحتها جانبا . ولكن أكثر مخترعاته حسما (حوالى ١٧٣٣) كان آلة حفر تجرها الخيل ، تنثر الحب خلال أنابيب مسننة على مسافات وأعماق معينة فى خطين متوازيين ، ثم تغطى الحب بمسحاة متصلة بالحفار . ووفرت الآلة الحب والعمال ، واتاحت زرع التربة المحصورة بين الخطين المبدورين وتهويتها وريها وتنقيتها من الحشائش . وقد شارك هذا التغير فى بذر الحب ، الذى يبدو تافها ، وتحسين المحراث ، فى احداث ما سمي بعد ذلك بالثورة الزراعية ، التى يمكن أن تقاس نتائجها (حتى مع أخذ التضخم فى حسابنا) بارتفاع قيمة الأراضي التى استخدمت فيها الوسائل الجديدة عشرة أضعاف خلال القرن الثامن عشر . ومكنت الزيادة فى انتاجية التربة المزارع من أن تطعم المزيد من الصناع فى المدن ، واتاحت ذلك العدد النامى من سكان المدن ، الذى لولاه لاستحالت الثورة الصناعية .

على أنه لا الفلاحون ولا عمال المدن كان لهم نصيب من الثروة النامية . فالملاك الفلاحون أمكن ضغطهم والتخلص منهم بالمنافسة الواسعة النطاق ، والعمال الفلاحون تقاضوا من الأجور البخسة القدر الضئيل الذى أكرههم خوف التعطل على قبوله . فلنستمع الى ما يقوله العلامة الرفيع المقام تريفلين :

« كان الثمن الاجتماعى الذى دفع نظير الكسب الاقتصادى هو تناقص عدد الزراع المستقلين ، وازدياد عدد العمال الذين لا يملكون أرضا ، وكان هذا الى حد كبير شرا لا بد منه ، ولو وزع الريج الزائد الذى حققته دنيا الزراعة توزيعا عادلا لخف الضرر . ولكن بينما ارتفع ايجار المالك ، وعشور القسيس ، وأرباح المزارع المالك والوسيط ارتفاعا سريعا ، فان فاعل الحقل ، الذى حرم حقوقه الصغيرة فى الأرض المشاع وحقوق أسرته بتشغيلها فى الصناعة الى جانب الزراعة ، لم يجز الجزاء الواجب بأجر أعلى ، وكثيرا ما انحدر فى المقاطعات الجنوبية الى درك التبعية والفاقة (٦) » .

ومما خفف الى حد ما من التركيز الطبيعى للثروة دفع الضرائب والاحسان المنتظم . ذلك أن أغنياء الانجليز ، بعكس النبلاء الفرنسيين كانوا يدفعون النصيب الأكبر من الضرائب التى أعالت الحكومة . فقد ألزمت « قوانين اعانة الفقراء » التى بدأت فى ١٥٣٦ كل أبرشية بانقاذ الأشخاص الذين فى خطر الموت جوعا . وكان المتعطلون من القادرين صحيا يرسلون الى الاصلاحيات ، والعجزة الى الملاجىء ، والأطفال يشغلون صبيانا لمن يرغبون فى ايوائهم واطعامهم لقاء خدماتهم . وكانت نفقات هذا النظام تؤدى من ضريبة تفرض على أسر الأبرشية . وقد ذكرت لجنة برلمانية فى تقرير لها أنه لم يبق على قيد الحياة من جميع الأطفال المولودين فى الاصلاحيات ، أو الذين استقبلتهم فى حداثة سنهم ، فى الأعوام ١٧٦٣ - ٦٥ ، الا سبعة فى المائة فى ١٧٦٦ (٧) . حقا لقد كان قرنا قاسيا .

ب - الصناعة

عطل البيت الريفى المكتفى بذاته تخصص العمل والثورة الصناعية

سواء كان هذا التعطيل خيرا أو شرا . فلم يمول الرجل حديث العهد برأس المال مصنعا ما دام فى قدرته أن يجعل مائة أسرة تغزل وتنسج نه تحت أسقفهم ووفق نظام المنافسة الأوتوماتى ؟ لقد أنتجت هذه الصناعة البيتية فى قسم « وست رايدنج » ببوركشير ١٠٠ر٠٠٠ قطعة قمماش للسوق فى ١٧٤٠ ، و ١٤٠ر٠٠٠ قطعة فى ١٧٥٠ ، وإلى عام ١٨٥٦ لم يرد من المصانع سوى نصف انتاج الصوف ، أما النصف الثانى فحلل يرد من البيوت (٨) . على أن تلك البيوت الشاغية بالحركة كانت فى النواع مصانع وليدة ، قرب البيت يدعو الخدم والغرباء لينشاركوا فى العمل ، والحجرات الاضافية تجهز بدواليب الغزل وأنوال النسيج . فلما ازداد حجم تلك العمليات البيتية واتسعت السوق بفضل الطرق المحسنة والسيطرة على البحار ، خلقت الصناعة البيتية ذاتها الطلب على آلات أفضل . وكانت الاختراعات الأولى أدوات أكثر منها مكنة . وكان فى الامكان تركيبها فى المنزل ، مثل مكوك « كى » الطائر ، ولم يحل نظام المصنع محل الصناعة المنزلية الا حين صنع المخترعون آلات تتطلب بالقوة الميكانيكية .

وكان الانتقال تدريجيا ، فقد اقتضى قرنا تقريبا (١٧٣٠ - ١٨٣٠) ، وربما كانت كلمة « ثورة » لفظا أعنف مما يحتمله تغيير بطيء كهذا . ولم يكن الانتفاض على الماضي جادا بالدرجة التى رُحبت بها فى الماضي النزعنة الروائية فى كتابة التاريخ ، فالصناعة قديما قدم الحضارة ، وقد تقدم الاختراع بسرعة متزايدة منذ القرن الثالث عشر ، وكانت المصانع فى فلورنسة على عهد دانتي كثيرة كثرة الشعراء ، والرأسماليون فى هولنده أيام رمبرانت كثيرين كثرة المصورين . ولكن التغيير الصناعى الذى طرا فى القرنين الأخيرين (١٧٦٠ - ١٩٦٠) اذا نظرنا اليه فى مراحل المتصاعدة ، من البخار الى الكهرباء الى النفط الى الالكترونيات والطاقة الذرية ، بالقياس الى معدل التغيير الاقتصادى فى أوربا قبل كولبس - هذا التغيير يشكل ثورة حقيقية لم تغير الزراعة والنقل والمواصلات والصناعة فحسب تغييرا أساسيا ، بل غيرت كذلك السياسة والعادات والاخلاق والدين والفلسفة والفن .

وقد تضافرت عوامل عديدة على فرض التغيير الصناعى . فالحروب التى أعقبت سقوط وزارة ولبسول (١٧٤٢) حثت على زيادة سرعة

الانتاج والتوزيع . ونمو السكان نتيجة لازدياد موارد الطعام أتاح سوقا داخلية متضخمة للزراعة والصناعة ، وشجع على صنع آلات أحسن وشق طرق أفضل . وقد تطلبت الآلات المهارات ، مما أفضى الى تخصص وتقسيم للعمل نهضا بالقوة الانتاجية . وقد جلب الهيجونوت وغيرهم من المهاجرين الى انجلترا ما استنقذوه من مدخراتهم كما جلبوا اليها حرفهم ، ومخترع أول آلة للنسيج (١٧٣٨) كان سليلا للهيجونوت . وكان لتقرير البرلمان تعريفات جمركية حامية (كقانون الكاليكوت - أى الشيت - الصادر فى ١٧٢١ ، والذي حرم استعمال الشيت المطبوع المستورد) الفضل فى الحد من المنافسة الاجنبية ، واثاحة السيطرة الكاملة لصناعة النسيج الانجليزية على السوق الداخلية ، فى حين أعان نفوذ التجار المتزايد فى التشريع على توسيع الاقتصاد البريطانى . وشجعت التقاليد البيورطانية - التى سئدعنها بعد قليل حركة المثوديين - فضائل الجد والاقدام والاقتصاد فى الطبقات الوسطى والدنيا وتراكم رأس المال ، وأجيز الاشراء ، وبدا أن الله اختص البورجوازية بنعمته .

وأتاح تطوير التعدين فى الوقت ذاته موارد متزايدة من الفحم وقودا للصناعة . وكان الخشب الى ذلك الحين هو الوقود الأهم للبيوت والمتاجر ، ولكن الغابات كانت تتضاغل حتى أوشكت على الانقراض ، فمن بين تسع وستين غابة كبيرة عرفت انجلترا الوسيطة ، اختفت خمس وستون بحلول القرن الثامن عشر (٩) . واقتضى الحال استيراد الخشب من اسكندناوة أو أمريكا ، وكان يكلف أكثر فاكثرا ، وظهر الطلب على وقود أرخص . ولكن تعدين الفحم كان لايزال عملية بدائية ، وكانت المناجم ضحلة ، والتهوية رديئة ، والميثان وغاز الكربون يخنقان المعدنين ، وظلت مشكلة ضخ المياه من المناجم بلا حل حتى جاءت آلات سافرى ونيوكومن البخارية . والواقع أن هذه المشكلة كانت أكبر حافز لتطوير هذه الآلات . على أن انتاج الفحم تصاعد وانتشر رغم هذه الصعوبات ، فما وافى عام ١٧٥٠ حتى كان الفحم الذى يشعل فى البيوت والمصانع يحجب سماء لندن (١٠) .

كانت أهمية الفحم للثورة الصناعية تكمن بوجه خاص فى أعماله :

لتنقية خام الحديد ليصبح حديدا أصفى وأقوى وأطوع بفصل الفلز عن المواد المعدنية العالقة به . والتنقية استلزمت الصهر ، الذى استلزم درجة عالية من الحرارة ؛ وكانت هذه الحرارة منذ القرن الرابع عشر تنتج بإشعال الفحم النباتى (وهو الخشب المتفحم) فى أفران عالية تسلط عليها تيارات قوية من الهواء ؛ ولكن الفحم النباتى أصبح الآن أعلى ثمنا بسبب تناقص موارد الخشب . وفى ١٦١٢ أشار سيمون ستورتفانت باستخدام الفحم الحجرى وقودا صاهرا . وزعم « دد » ددلى (أى الفاشل) فى ١٦١٩ أنه خفض تكاليف صهر الحديد بهذه الوسائل الى النصف ، ولكن منافسيه الذين استخدموا الفحم النباتى تضافروا لاقصائه عن هذه الصناعة . وأخيرا (حوالى ١٧٠٩) وفق أبراهام داربى الأول ، الذى استوطن كولبروكديل حيث الفحم كثير ، فى صهر خام الحديد بنجاح وبتكاليف قليلة ، وذلك بتسخينه بفحم الكوك - أى الفحم المحرق بقدر يكفى لتخليصه من عناصره الطيارة . أما الكوك فكان معروفا منذ عام ١٥٩٠ . وطور أبراهام داربى الثانى استعمال الفحم أو الكوك فى الصهر ، وحسن الأفران العالية بمنفاخ يشغله دولاب مائى ، وسرعان ما استطاع أن يفوق فى مبيعاته كل أصحاب مصانع الحديد فى إنجلترا وفى ١٧٢٨ أنشئ أول مصنع إنجليزى للحديد لتمرير الحديد بين سلسلة من الأسطوانات تضغطه لخراج الأشكال المطلوبة . وفى ١٧٤٠ اخترع بنيامين هنتسمان طريقة البوتقة التى كان ينتج بها الصلب العالى الرتبة بتسخين المعدن وتنقيته فى قدور من الفخار . هذه التطورات فى المزوجة بين الفحم والحديد هى التى يسرت اختراع آلات الثورة الصناعية .

ج - الاختراع

لم يشهد النصف الأول من القرن الثامن عشر زيادة لافتة للنظر فى سرعة الاختراع بالقياس الى القرنين السابقين ، وقد نحتاج الى نصف مجلد لنعدد الاختراعات التى ورثها هذا العصر من سابقه . مثال ذلك أن الساعة الكبيرة ، التى لا غنى عنها فى العلم والصناعة والملاحة ، أبلغت مرتبة الكمال تقريبا فى القرن السابع عشر ، وبحلول عام ١٧٥٨ وصلت الى درجة من الدقة (لا يعدو الانحراف فيها دقيقة كل ستمائة

يوم) لم تتجاوز الا فى ١٨٧٧ (١١) . وكان العمال أنفسهم يثبطون المخترعات ، وان كانوا فى كثير من الاحيان مصدرها ، خشية أن تهددهم بالتعطيل التكنولوجى ، وهكذا فرض عداء العمال هجر أول منشرة خشب انجليزية (١٦٦٣) ، ولم تجدد المحاولة بنجاح الا سنة ١٧٦٧ . وزادت الطرق الرديئة من تعطيل الاختراع الصناعى ، ولم يكن هناك كبير حافز على زيادة الانتاج ما دامت صعوبات النقل تفوق توسيع السوق . على أن النقل البحرى كان آخذا فى التحسن ، وكانت المستعمرات ، التى غلبت عليها الزراعة ، تهافتت على طلب المنتجات المصنوعة ، هنا وجد حافز متزايد على الاختراع . وقد أعان عليه دافع الربح ، ومنح البرلمان حقوق امتياز تمتد أربع عشرة سنة . وجاء حافز آخر من المنافسة الأجنبية فى تجارة الصادر ، فحثت منسوجات الهند ، التى أنتجتها عمال مهرة منخفضو الأجور أصحاب المصانع الانجليز على الاقتصاد فى الانتاج باستعمال الأجهزة المكنية المحسنة . فصناعة النسيج اذن هى التى افتتح الاختراع فى ميدانها ذلك التغيير العظيم .

كان « المكوك الطائر » الذى ابتكره جسون كى (١٧٣٣) أول اختراع بارز فى انتاج المنسوجات ، ولنا أن نعتبر هذا التاريخ بداية للثورة الصناعية . فمن قبله كان عرض القماش المراد نسجه محدودا بطول ذراعى النسيج باستثناءات صغيرة - اذ كان عليه أن يقذف بالمكوك (وهو الاداة التى تمرر خيوط اللحام خلال خيوط السدى) من أحد جانبيه النول بيد ، ويلفقه باليد الأخرى فى الجانب المقابل . ورتب كى جهازا من العجلات ، والمطارق ، والعصى ، يتيح لدقة حادة باليد أن تجعل المكوك يمرق من أحد الجانبين الى وقفة أوتوماتيكية عذد أى عرض محدد سلفا ، مما ينجم عنه وفر كبير فى الوقت . فلما حاول تركيب اختراعه فى مصنع بكونتسستر اتهمه النساجون بأنه يحاول حرمانهم من قوتهم اليومى . ففر الى ليدز (١٧٣٨) وعرض اختراعه المسجل على أصحاب مصانع القماش لقاء رسم ، فاخذوا اختراعه ، ولكنهم قبضوا عنه اتاوته ، فرفع أمره الى القضاء ، واستنزفت مصاريف التقاضى كل ماله . فذهب الى وطنه فى برى ، ولكن الاهالى هاجوا عليه هناك (١٧٥٣) ، ونهبوا بيته ، وهددوه بالقتل . غير أن امرأة رحبت بآلته فى حماسة وصاحت قائلة بلهجتها العامية « حسنا ، حسنا ،

ان أعمال الله عجيبة ، ولكن حيل الانسان تغلبه تعالى في النهاية (١٢) «
ووجد كى قبولا أكثر في فرنسا ، التي تبذت حكومتها اختراعه وكافاته
بمعاش . ولم يتغلب المكوك الطائر على كل معارضة ويعم استعماله
الا عام ١٧٦٠ .

وعطل صناعة النسيج أن النساجين كانوا يستطيعون نسج الخيوط
بأسرع مما يستطيع الغزالون غزلها وامدادهم بها . وكان الغزل الى
سنة ١٧٣٨ غزلا يدويا ، على دواليب مازالت تجميل البيوت التي تجمد
الماضي . في ذلك العام سجل لويس بول ، وهو ابن مهاجر هيجونوتي ،
آلة غزل يبدو أنها مبنية على أسس اقترحها جون فيات ، وهي مجموعة
من البكر تسحب للخارج حبال القطن أو الصوف المشدودة لتصبح خيوطا
بأى رفع مطلوب ، وتغزلها على مغازل ، وذلك كله بأقل جهد . وباع
بول وفيات براءة الاختراع الى ادورد كيف ، صديق الدكتور جونسون ،
واقام كيف خمس آلات بمصنع نورثامبتن في ١٧٤٢ - وهو الأول في
سلسلة طويلة من مصانع الغزل في انجلترا القديمة والجديدة .

أما وقد تيسر الآن علاج الحديد لصنع الآلات القوية ، وتطلبت
الأحوال الاقتصادية الانتاج الواسع النطاق ، فقد بقيت مشكلة العثور
على قوة ميكانيكية يستعاض بها ، بثمن رخيص ، عن عضلات الرجال
وصبر النساء . وأقدم الحلول استخدم القوة المائية . ففي مائة قطر كان
الدولاب المائي العنلييم ، الذي يدور على مهل مع جريان الأنهار ، يسير
منذ زمن سحق المضخات ، والمنافخ ، والبكر ، والمطسارق ، لا بل
الآلات الحديدية الثقيلة منذ عام ١٥٠٠ . وظل المصدر الأهم للطاقة
الميكانيكية خلال القرن الثامن عشر . وقد عاش الى القرن العشرين ،
وما التركيبات الهيدروليكية في زماننا سوى قوة مائية حولت الى كهرباء
قابلة للنقل . ولا يمكن الركون الى القوة المحركة للرياح بهذا القدر ،
ولم ينتفع بها الا انتفاعا قليلا نسبيا في بلاد الجنوب الهادئة الريح ،
ولكن في العروض الشمالية سخرت التيارات الهوائية في ادارة طواحين
هواء توجه « قلووعها » الى « عين الريح » بونش في أسفلها يدار
باليد . وقد بلغت هذه الآلة الثقيلة ، التي لا يركن اليها ، أوجها في
الأقاليم المتحدة في القرن الثامن عشر ، ثم بدأت اضمحلالها الرائع .

وكان المخترعون خلال ذلك يجاهدون ليبلغوا بالآلة البخارية درجة الكفاءة المجزية . وكانت قد قطعت قبل ذلك شوطا طويلا ، من أبواب ولعب « هيرو » التى يشغلها البخار فى القرن الثالث الميلادى ، مروراً بجيروم كاردان (١٥٥٠) ، وجامباتستا ديلابورتا (١٦٠١) ، وسالمون دى كاوس (١٦١٥) ، وجوفانى برانكا (١٦٢٩) ، ومركيز ورسكو (١٦٦٣) ، وصموئيل مورلاند (١٦٧٥) وكريستيان هويجنز (١٦٨٠) ، ودنى بابان (١٦٨١) ، وتوماس سافرى (١٦٩٨) ، الى آلة توماس نيوكومن البخارية فى ١٧١٢ ؛ تلك قصة رويت ألف مرة . وهنا أيضا ، أى فى عام ١٧١٢ ، يمكن أن يبدأ تاريخ الثورة الصناعية ، لأن آلة نيوكومن « النارية » كانت مجهزة بمكبس ، وذراع متذبذب ، وصمام أمن ، واستخدمت بنجاح فى نزع الماء فى المناجم العميقة . وقد ظلت النموذج الاساسى للمتطلبات مدى ثلاثة أرباع القرن .

د - رأس المال والعمال

حين ازدادت الآلات حجما وتكلفة ، وتطلب تشغيلها القوة الميكانيكية ، وجد نفر من المغامرين أنه أربح لهم أن يستبدلوا بالصناعة فى البيوت مصانع تجمع الرجال النساء فى أبنية يحسن اختيار مواقعها قرب أنهار توفر الطاقة والنقل معا . والمصانع ، كما سلف ، لم تكن بدعا ، فقد كان منها مئات فى إنجلترا اليزابيث وفرنسة كولبير . غير أن « نظام » المصانع - إذا عرفناه بأنه اقتصاد صناعى يتم فيه الانتاج بصفة رئيسية فى مصانع - لم يكد يوجد فى أى مكان قبل القرن التاسع عشر . ولكن بعد اختراعات كى وبول بدأت مصانع المنسوجات تقوم بالمزيد من الغزل والنسيج الذى كان يتم فى البيوت ، وفى ١٧١٧ أنشأ توماس لوم فى داربى مصنع نسيج طوله ٦٦٠ قدما ، يشغل ثلاثمائة عامل يقومون على ٢٦٠٠٠ دولاب . وسرعان ما قامت منشآت مماثلة الضخامة فى ستوكبورت ، وليك ، وبرمنجهام ، وليومنستر ، ونورثامتن .

وشراء الآلات واياؤها ، والحصول على الخامات ، واستئجار العمال والادارة ، ونقل الناتج وتسويقه ، كل هذا يتطلب رأس المال . كذلك كان الرأسمالى - مقدم رأس المال أو مديره - ظاهرة قديمة ، ولكن بزيادة الطلب على رأس المال ازدادت الأهمية الاقتصادية والقوة السياسية

للرجال الراغبين فى المخاطرة بتقديمه . وقاومت الطوائف الحرفية ، التى كانت من الناحية النظرية لا تزال تحكم معظم الصناعة الاوربية ، التنظيم الرأسمالى للانتاج والتوزيع . ولكن نظام الطوائف الحرفية بنى على الحرف اليدوية لا الآلات ، وقد هبىء لتلبية الحاجات المحلية لا السوق القومية فضلا عن السوق الدولية ، ولم يستطع تلبية المطالب المتزايدة للجيش ، والمدن ، والمستعمرات ، وقد عوقه الولاء للوسائل والقواعد التقليدية ، وأخذ ينحدر الى درك « الشلل » من معلمى الحرف الذين يستغلون الصبيان وعمال اليومية . وكان الرأسمالى أقدر على تنظيم الانتاج الكبير والتوزيع البعيد ؛ فلقد كان عليما بذلك الفن البالغ الرهافة ، فن جعل المال يلد المال ؛ وظاهره برلمان تواق لأن تمون الكفاية الصناعية التجارة المترامية والحروب .

وبانتشار المصانع والرأسمالية تغيرت علاقة العامل بعمله . فلم يعد يملك أدوات حرفية ، ولا يحدد ساعات كده وظروفه . ولم يكن له غير نصيب صغير فى تقرير معدل أجوره أو نوعية ناتجه . ولم يعد حانوته مدخلا الى بيته ، ولا صناعته جزءا من حياته الأسرية . ولم يعد عمله ذلك التشكيل الفخور لأداة فى جميع مراحلها ، بل أصبح بحكم تقسيم العمل - الذى سيعجب آدم سمث كثيرا - التكرار اللا شخصي ، الممل ، لجزء من عملية لم يعد ناتجها المصقول يعبر عن حذقه وتفننه ؛ انه لم يعد صائعا ماهرا ، بل « يدا » أجيرة . وقد حدد أجره جوع رجال ينافسون النساء والأطفال على العمالة . فإذا كان عاملا فى منجم فمتوسط أجره شلن وستة بنسات فى اليوم ، وإذا كان فاعلا فى البناء تقاضي شلنين ، وسمكريا ثلاثة شلنات ، وقد اختلفت هذه المعدلات اختلافا يسيرا بين عامى ١٧٠٠ و ١٧٧٠ (١٣) . وكان النسيج يتقاضى حوالى سنة ١٧٥٠ ستة شلنات فى الاسبوع ، والنساجة خمسة شلنات وستة بنسات ، والطفل شلنين وستة بنسات . أما النساء الغزالات فمن شلنين الى خمسة فى الاسبوع ، وأما البنات من السادسة الى الثانية عشرة فشلن الى شلن ونصف (١٤) . على أن الأسعار كانت منخفضة ، وظلت ثابتة حتى ١٧٦٠ (١٥) . وكان يضاف الى هذه الأجور أحيانا علاوة للخبز والجة أثناء العمل ، وكان معظم عمال المناجم يعطون الفحم مجانا .

وكانت حجة أصحاب العمل أن عمالهم لا يستحقون أكثر من هذه الأجور ، لأنهم أدمنوا الكسل والسكر والاستهتار والفجور . وزعم أحدهم (١٧٣٩) أن السبيل الوحيد لجعل العمال عيوفين مجدّين « أن تفرض عليهم ضرورة الكد طوال الوقت الذى يستطيعون اقتطاعه من الراحة والنوم ليحصلوا على الضروريات العادية للحياة (١٦) » . وقال كاتب فى ١٧١٤ « ليس للفقراء ما يحفزهم للخدمة النافعة سوى الحاجة ، وهذه حال من الحكمة تخفيفها ، ولكن من حماقة شفاؤها (١٧) » أما يوم العمل العادى فيمتد من احدى عشرة ساعة الى ثلاث عشرة ، ستة أيام فى الأسبوع ، ويهوت من طول هذه الفترة ساعة ونصف لتناول الوجبات ، ولكن المتباطئين بلا مبرر فى تناولها يفقدون ربع اجر اليوم (١٨) . وشكا أصحاب العمل من أن عمالهم يتوقفون عن العمل ليختلفوا الى المهرجانات ، أو مباريات الملاكمة التكبسية ، أو مشاهد الشنق ، أو الاحتفالات بأعياد القديسين الشفعاء . ورغبة فى حماية أنفسهم من هذه المخالفات وأشباهها كان أصحاب العمل يحبون أن يكون لديهم رصيد من العمال المتعطلين فى المنطقة ، يستطيعون ان يعتمدوا عليه فى الطوارئ أو أوقات الطلب المتزايد (١٩) . فإذا كسدت الأحوال كان فى الامكان تسريح العمال وتركهم ليعيشوا على قروض من التجار المحليين .

ونشأت فى المدن ببطء برولتاريا تابعة . وكانت تجمعات الطبقة العاملة محظورة بمقتضى قانون قديم أصدره أدورد السادس ، فجدد البرلمان هذا الحظر فى ١٧٢٠ . ولكن عمال اليومية مضوا فى تنظيم أنفسهم ، ولجأوا الى البرلمان لتحسين أجورهم ، وأصبحت اتحادات هؤلاء العمال - لا الطوائف الحرفية - هى الرائدة لحركة النقابات العمالية التى تشكلت فى انجلترا فى نهاية القرن الثامن عشر . وفى ١٧٥٦ ، بناء على التماس من عمال النسيج فى جلومسترشير ، أمر مجلس العموم قضاة الصلح بالمحافظة على الحد الأدنى القانونى للأجر ، ويمنع تخفيض الأجور فى الصناعة ، ولكن هذا الأمر سحب بعد عام ، واتخذ البرلمان سياسة ترك تحديد الأجور للعرض والطلب على العمل (٢٠) . لقد بدأ عهد « المشروع الحر » وسياسة « عدم

التدخل "Laissez - Faire

هـ - النقل والتجارة

توقف نمو الاقتصاد على التحسينات فى المواصلات والنقل . وكانت إنجلترا تتمتع بميزة ساحلها البحرى وأنهارها ، وكان نصف السكان يعيشون على أبعاد معقولة من البحر ، ويستطيعون استخدامه فى نقل السلع ؛ وتغلغلت الانهار مسافات بعيدة فى الداخل ، فتاحت بذلك طرقا مائية طبيعية . ولكن حال الطرق الانجليزية كانت دائما قذى فى عين الحياة الانجليزية . فتربة هذه الطرق لينة ، وإخايدتها صلبة يغمرها الماء ، وكثير منها حولته أمطار الربيع أو الصيف الى نهيرات أو بالوعات من الوحل كان المرور عليها عسيرا بحيث اقتضى اخراج المركبات من فوقها استخدام أعداد اضافية من الخيل أو الثيران ، وكان على المسافرين على الأقدام أن ينحولوا الى الحقول أو الغابات القريبة . ولم تتكفل الحكومة ، لأغراض حربية ، ببناء مجموعة من الطرق الرئيسية « صالحة لمرور الجنود والخيول والمركبات على مدار السنة (٢١) » (١٧٥١) الا بعد أن قاد « الأمير تشارلى الجميل » رجاله الاسكتلنديين الثائرين وأوغل جنوبا حتى داربى فى ١٧٤٥ ، لأن حالة الطرق عرقلت مسيرة القوات الملكية الموجهة ضده . ومع ذلك ظل اللصوص يعيشون فسادا فى الطرق ، وكانت تكاليف النقل غالية .

وكان الناس يسافرون على ظهور الخيل أو فى مركباتهم الخاصة اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا . وكان فى امكانهم استئجار الخيل الجديدة فى نقط أو مواقع على الطريق Posts فى الرحلات الطويلة ، وانتشرت هذه البيوت Post - houses فى جميع أرجاء أوروبا الغربية . ثم استخدمت كلمة « بوست » (البوسطة) للدلالة على نقل البريد ، لأنه فى مثل هذه النقط كان حاملو البريد يستطيعون تسليم البريد أو تسلمه وتغيير الخيل ؛ وبفضل هذا النظام أمكنهم أن يقطعوا ١٢٠ ميلا فى اليوم . ومع ذلك كتب تشسترفيلد (١٧٤٩) يشكو الحال « أن رسائلنا على أحسن تقدير تنقل نقلا مضطربا ، وكثيرا ما تضيع تماما (٢٢) » . وذهب الى أن من « السرعة غير المألوفة » أن يستغرق خطاب مرسل من فيرونا ثمانية أيام ليصل الى لندن . وكان أكثر السفر بالمركبات العامة يجرها جوادان أو أربعة ولها سائق وحارس

مسلح خارجها ، وبداخلها ستة ركاب يترنحون . وكانت المركبات تغادر لندن بجدول منتظم صباحين أو ثلاثة فى الاسبوع قاصدة كبريات مدن جنوبى انجلترا ، ومعدل سرعتها سبعة أميال فى الساعة ، ورحلتها من لندن الى نيوكاسل تستغرق ستة أيام .

وظلت التجارة الداخلية بهذه الطرق المعوفة بدائية على نحو جدير بالتصوير . فكان تاجر الجملة يرافق عادة جياذ الحبل التى تنقل بضاعته من بلد الى بلد ، والباعة الجوالون يسرحون بسلعهم من بيت الى بيت . أما الحوانيت فتتميز عن البيوت بعلامات أهمها اللافتات الحافطة بالألوان ، وتحفظ السلع بداخلها ، وليس هناك عادة « أى عرض فى الفتريينات » . وكل متجر تقريبا متجر عام لمختلف السلع ، مثال ذلك أن « الخردجى » كان يبيع الثياب ، والعقاقير ، والمصنوعات الحديدية ، والببدال سعى باسم grocer لأنه يبيع بالجملة . gross ؛ فالببدال هنرى كوارد مثلا كان يبيع كل شئ من السكر الى المسامير . وكان لكل مدينة يوم سوق يعرض فيه التجار - اذا سمح الجو - عينات من بضائعهم . ولكن المراكز الكبرى للتجارة الداخلية كانت الاسواق السنوية التى تنعقد فى لندن ، ولين ، وبوسطن ، وجينزبورو ، وبفرلى ، وأهم منها كلها ستوربردج . فى هذه الاسواق ، فى أغسطس وسبتمبر من كل عام ، كانت تقوم مدينة حقيقية لها حكومتها وشرطتها وسحاكمها ، تتوفر فيها كل منتجات الصناعة الانجليزية تقريبا ، ويلتقى فيها رجال الصناعة من جميع أرجاء الجزيرة ليتبادلوا الحديث عن الأسعار والنوعيات والكوارث .

وكانت التجارة الخارجية بسبيلها الى التوسع لأن بريطانيا تسلطت على البحار . وزادت الصادرات الى أكثر من مثليها قيمة وكمية فى النصف الاول من القرن ، وارتفعت حمولة السفن المبحرة من الثغور الانجليزية من ٣١٧ر٠٠٠ طن فى عام ١٧٠٠ الى ٦٦١ر٠٠٠ فى عام ١٧٥١ الى ١٤٠٥ر٠٠٠ فى عام ١٧٨٧ (٢٣) . وضاعفت لفربول حجمها وأرصفتها كل عشرين سنة . واقبلت الواردات من عشرات الاقطار لتداعب احلام الاغنياء أو بطونهم ، أو تزين تسريحات كرائم السيدات بالعطور ومساحيق التجميل التى تخلب الالباب . وبلغت

أرباح شركة الهند الشرقية من شراء السلع رخيصة في الهند ، وبيعها غالية في أوروبا ، حدا أتاح لها أن تغرى بالانضمام الى مساهميتها خمسة عشر دوقا أو ايرلا ، واثنى عشرة كونتيسة ، واثنين وثمانين فارسا ، وستة وعشرين قسا وطبيبا (٢٤) . ولم تنظر الطبقة الأرستقراطية في انجلترا الى التجارة نظرة ستعلاء والازدراء كما فعلت في فرنسا ، ولكنها ساعدت على تمويلها وشاركت في رخائها . وقد أبهج رجلا من الطبقة الوسطى كفولتير أن يجد نبلاء الانجليز يهتمون اهتماما نشيطا بالتجارة . قال موجها حديثه الى فرنسا في ١٧٣٤ « ان لولع الانجليز بالتجارة وحده الفضل في أن بزت لندن باريس حجما وسكانا ، وفي أن انجلترا استطاعت أن تملك مائتى بارجة وتعين بالمال الملوك من حلفائها (٢٥) » .

وأصبح كبار التجار ينافسون الأرستقراطية القديمة المالكة للأرض ثراء وسلطانا ، فيقررون العلاقات مع الدول الأجنبية ، ويثيرون ويمولون الحروب ، في سبيل الاسواق والموارد والطرق التجارية . وسيطر القائمون على التجارة الانجليزية في السكر ، والتبغ ، والعبيد ، على حياة برستول ، وحكم أصحاب السفن لغربول ، وساد أصحاب مناجم الفحم على نيوكاسل . وكانت ثروة السير جوسيا تشايلد التاجر صاحب ٥٠٠٠٠ سهم في شركة الهند الشرقية ، تعدل ثروة الكثير من اللوردات وحدايقه في وانستد من أشهر مشاهد انجلترا . كتب هيوم في ١٧٤٨ يقول « في معظم أقطار أوروبا ترى أملاك الأسرة - أى الأملاك الوراثية - التي تميزها الألقاب والشارات التي يخلعها عليها الملك ، هي أهم أسباب التمايز . أما في انجلترا فان الاعتبار الأكبر للثراء الراهن (٢٦) » . وحدث قدر كبير من التبادل والامتزاج بين الطبقتين العليا والوسطى ، فتزوجت بنات التجار الأغنياء بأبناء النبلاء ملاك الأرض ، واشترى أبناء التجار ضياعا من الأرستقراطيين الذين افتقروا ودخل عليه القوم ميادين التجارة والقضاء والادارة . لقد كانت الأرستقراطية تتحول الى بلوتوقراطية (أى حكومة الأغنياء) ، والمال يحل محل النسب سبيلا شرعيا الى السلطان .

و - المسال

كان المصرفيون الأوروبيون الآن يؤدون جميع الخدمات المالية

تقريبا ، يتسلمون الودائع ، ويحمونها من الحريق والسرقة ، ويرتبون المدفوعات بين المودعين بمجرد النقل من حساب الواحد الى حساب الآخر ، ويصدرون أوراق النقد التى يمكن أن يستبدل بها الذهب أو الفضة عند الطلب . واذ لم يكن من المتوقع أن يطلب جميع حملة هذه العملة الورقية هذا الاستبدال فى وقت واحد ، فقد كان فى استطاعة المصارف أن تصدر أوراقا بلغت من خمسة الى عشرة أضعاف قيمة احتياطياتها المشتركة . وأتاح تداول النقود المتكاثرة على هذا النحو رأس مال اضافيا للمشروعات التجارية ، وشارك فى توسيع الاقتصاد الأوربى . وحفز المصرفيون الصناعة باقراض النقود بضمان الأرض أو المبنى أو المواد ، أو بمجرد التسليف على مسئولية شخص ما . ويسرت التجارة بخطابات تبادل أو ضمان مكنت رأس المال من الانتقال بمجرد نقل الوزن المصرفى حتى عبر حدود معادية .

وتالفت فى انجلترا شركات محاصة كما حدث فى هولنده وايطاليا وفرنسا . ونظم مؤسسوها ، الذين كانوا وقتها يسمون « أصحاب المشروعات » الاتحادات الصناعية أو التجارية ، وأصدروا أسهما ، ووعدوا بدفع أرباحها ، وأمكن تحويل شهادات الأسهم أو السندات من شخص الى آخر ، ولهذا الغرض أسست فى لندن سوق للأوراق المالية (بورصة) فى ١٦٩٨ . وشهد مطلع القرن الثامن عشر نموا سريعا فى المضاربة بأسهم الشركات ، وسماسرة للأوراق المالية يتلاعبون فى أسعار السوق رفعا وخفضا . وقد وصف ديفو فى ١٧١٩ واحدا من هؤلاء المتلاعبين فقال :

« لو خطر للمسير جوسيا تشايلد أن يشتري ، فان أول ما يفعله هو أن يكلف سماسرته بأن يتكلفوا العبوس والتجهم ، ويهزوا رموسهم ، ويلمحوا بأن هناك أخبارا سيئة من الهند . . وربما باعوا فعلا بعشرة آلاف أو ربما بعشرين ألف جنيه . وللتو ترى السوق . . وقد امتلأته بالبائعين ، ولا أحد يشتري ولو بشلن ، حتى تهبط الأسهم ستة ، أو سبعة ، أو ثمانية ، أو عشرة فى المائة ، وأحيانا أكثر . هنا يكون لدى السماسر الخبيث طاقم آخر منهم يستخدمه . . فى الشراء ، ولكن فى

٦ - قصة الحضارة

حكتم وتحوط ، حتى يشتري - بعد أن باع بعشرة آلاف جنيه بخساسة أربعة أو خمسة فى المائة - أسهما بمائة ألف جنيه ، بأقل من السعر بعشرة أو اثنتى عشرة فى المائة . وفى ظرف أسابيع ، بعكس هذه الطريقة لا أكثر ، يدفعهم جميعا للتهافت على الشراء ، فيبيعهم أسهمهم ثانية بربح يبلغ عشرة أو اثنتى عشرة فى المائة (٢٧) « » .

ولم تكد تفتتح أسواق الأوراق المالية ، حتى كان حرص الجمهور على تحقيق كسب دون عرق يثير موجات من المضاربة والانكماش . وقد جاء تضخم « فقاعة » بحر الجنوب (أى مشروعه الوهمى) فى انجلترا ، ثم انهيار المشروع تاليا ، فى اتفاق غير عادى ، لظهور وسقوط « فقاعة المسبى » وصاحبها جون لو فى فرنسا . ذلك أن الحكومة الانجليزية ، التى تأثرت بشكاوى بولنبروك ، وسويفت ، وغيرهما من أن الدين القومى - البالغ ٥٢ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه فى عام ١٧١٤ - يفرض على الدولة عبئا سنويا مدمرا قدره ٣ر٥٠٠ر٠٠٠ جنيه من الفائدة - فكرت فى خطة لتحويل ٣١ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه من الدين إلى شركة بحر الجنوب . وكانت الشركة قد أسست فى ١٧١١ بمنحها احتكارا للتجارة الانجليزية مع المستعمرات الأسبانية فى أمريكا وجزر المحيط الهادى . ودعى حملة الأوراق الحكومية ليستبدلوا بها أسهما فى الشركة . وأصبح الملك جورج الأول « محافظا » لها ، وبذلت كل الجهود لنشر الاعتقاد بأن مرسوم احتكارها يعد بأرباح عالية . وسرت العدوى من النجاح الظاهرى لنظام لو فى فرنسا المعاصرة إلى انجلترا ، فاعترتها حمى مضاربة مماثلة . وما مضت ستة أيام على عرض الشركة قبولهما الأوراق الحكومية ثمنا لأسهمها حتى قبل الاقتراح ثلثا حملة الأوراق واشترى كثيرون غيرهم أسهما ارتفعت فى ظرف شهر واحد من ٧٧ جنيها إلى ١٢٣ر٥ (١٧١٩) . ولكى يضمن مديرو الشركة استمرار التعاون الحكومى قرروا تقديم هدايا سخية من الأسهم لأعضاء الوزارة ولائنتين من خليات الملك (٢٨) . وقد حذر روبرت ولبول ، ولم يكن قد تولى منصب الوزارة بعد ، مجلس العموم من المشروع لأنه « مضاربة ... مؤذية » ، وقال أن المشروع يستهدف رفع قيمة الاسهم رفعا مفتعلا باثارة تهافت الناس عليها والابقاء عليه ، وبالوعد بأرباح من أموال لن تفى بالفرص ، وتنبأ ، فى دقة عجيبة ، بأن المشروع سيفشل ، وأنه لو ترك

ليورط جماهير الشعب لجر فشله سخطا شاملا وخطرا (٢٩) - وقال انه ينبغي وضع حد ما على الأقل لارتفاع أسهم الشركة . ولكن مجلس العموم أبى الاستماع الى تحذيره . وفى ٧ أبريل ١٧٢٠ وافق كلا مجلسي البرلمان على اقتراحات الشركة .

وفى ١٢ أبريل أصدرت الشركة أسهما جديدة بسعر ٣٠٠ جنيهه للسهم ، فتم الاكتتاب فيها على الفور . وفى ٢١ أبريل أعلنت ، وهى منتعشة ناضرة بفضل دفع الحكومة فائدة على الاوراق الحكومية التى أصبحت الآن ملكا للشركة ، أنها ستدفع أرباحا صغيرة تبلغ عشرة فى المائة ، واستغلت الحماسة التى أثارها هذا الاعلان لطرح اصدار آخر من الاسهم بسعر ٤٠٠ جنيهه (٢٣ أبريل) . فلم تمض ساعات حتى تم الاكتتاب فيه . ورفع التهافت على شراء الاسهم ثمنها الى ٥٥٠ جنيهها فى ٢٨ مايو ، والى ٨٩٠ جنيهها فى ٢ يونيو ، وفى يوليو بيع اصدار جديد بسعر ١٠٠٠ جنيهه للسهم . وتهافت المجتمع الراقى كله على الاكتتاب . الادواق والقساوسة والسياسيون والموسيقيون والشعراء ، فأصبح شارع البورصة مشهدا لمنافسة هائجة مائجة على الشراء لم ير لها نظير الا فى شارع كانكبوا بباريس فى الفترة ذاتها تقريبا ؛ فلقد كشفت طبيعة البشر عن نفسها عبر الحدود . وكان الناس يعقدون صفقات الاسهم فى الحانات ، ومشارب القهوة ، ودكاكين صانعات القبعات ، وفى كل ليلة يحسب الرجال والنساء أى ثراء أصابوا ، وما كان يمكن أن يصيبوا من مزيد لو أنهم اشتركوا فى تاريخ سابق ، أو قدرا أكبر من الاسهم .

وبلغت لهفة المال العام على المضاربة مبلغا أعزى الشركة بطرح اصدارات صغيرة بلغت ستة وثمانين اصدارا . وبيعت أسهم أصدرتها شركات أنشئت لتحويل المعادن الى فضة ، ولتشديد المستشفيات للأطفال غير الشرعيين ، ولاستخراج الزيت من الفجل ، ولأحداث الحركة الدائمة ، ولاستيراد الحمير من إسبانيا . وأعلن مؤسس عن « شركة لمواصلة مشروع عظيم النفع ، ولكن أحدا لن يعرف كنهه » الا فيما بعد ، فتلقى ألف اكتتاب كل منها بجنيهن قبل أن ينتصف النهار ، ثم اختفى بعد الظهر (٣٠) .

وكان شطط بعض هذه « الفقاعات » الصغرى (وهو الوصف الذى وصفهم به ذلك العهد) بداية رد الفعل ضد مشروع بحر الجنوب . وجدد ولبول وغيره تحذيراتهم وباعوا أسهمهم . وفى ١١ يونيو حرم الملك جميع اصدارات الأسهم الا للشركات التى رخص لها البرلمان بذلك . وسرعان ما انهارت المشروعات الصغرى ، فهذا فشلها من حمى المضاربة . وانتشرت شائعة بأن الحكومة الاسبانية أخذت تضيق تجارة الشركة فى المستعمرات الامريكية تضيقا شديدا . وفى يوليو وصل نبأ بأن مشروع لو أو « فقاعة المسبى » قد انفجرت فى باريس . وباع السير جون بلاونت وغيره من مديرى شركة بحر الجنوب أسهمهم سرا بربح كبير . وخلال أغسطس كله توالى هبوط الأسهم حتى اذا جاء ٢ سبتمبر لم يتجاوز سعرها سبعمئة جنيه .

هنا استحال التهافت على البيع ضربا من الهلع والذعر الجماعى ، فازدحمت مداخل شارع البورصة ازدحاما خانقا . وهبطت الاسهم الى ٥٧٠ جنيتها ، ثم الى ٤٠٠ جنيه ، ثم الى ١٥٠ جنيتها ، ثم الى ١٣٥ جنيتها (٢٩ سبتمبر) . وخسرت مئات الاسر الانجليزية مدخراتها فى هذا الانهيار . وسرت بين الناس قصص الافلاس والانتحار (٣١) . وأفلست المصارف التى كانت قد أقرضت المال بضمان شهادات أسهم شركة بحر الجنوب . وطالبت الاجتماعات العامة فى جميع أرجاء انجلترا بعقاب المديرين ، ولكنها غفرت للجُمهور غروره وجشعه . وعجل الملك بالعودة من هانوفر ودعا البرلمان للانعقاد . وفر أمين صندوق الشركة الى فرنسا مصطحبا الكثير من السجلات التى كانت ستدين المديرين . وفى يناير ١٧٢١ وجدت لجنة برلمانية بعد فحصها دفاتر الشركة ، « صورة للظلم والفساد (٣٢) » مذهلة حتى بمقاييس ذلك العهد ، حين كان التشريع عن طريق افساد البرلمان كانه جزء من دستور انجلترا . والظاهر ان المديرين كانوا قد انفقوا ٥٧٤,٠٠٠ جنيه فى رشوة كبار رجال الحكومة .

وطالب بعض أعضاء البرلمان بعقوبات عنيفة ، واقترح احدهم بان يخاطب المديرون المذنبون فى زكية ويلقوا أحياء فى التيمز (٣٣) . وحمى وطيس الجدل حتى تحدى الأعضاء بعضهم بعضا للمبارزة ،

وأصيب عضو منهم بأزمة ضغط مرتفع ومات فى الغد . ودعى المديروى
وزراء الحكومة الى المحاكمة أمام المجلس . فحكم على جون ايزلابى ،
وزير الخزانة ، بالسجن فى برج لندن ، وصودرت ممتلكات المديرين -
منهم ادورد جبون ، جد المورخ - فلم يترك لهم سوى عشرة فى المائة
من ثروتهم . ولوحظ أن السير جون بلاونت ، الذى كان من أوائل
منظمى الشركة ، ومن أول من بدأوا ببيع أسهمهم ، كان رجلا « ذا
مسلك غاية فى التقوى » وكان « دائما يهاجم ما يشين العصر من سرقة
وفساد » ويندد بجشع الأغنياء (٣٤) .

أما روبرت ولبول الذى برر الحدث تنبوءاته ، فقد أشار بالاعتدال
فى روح الثأر الذى اتسم به رد الفعل ، وخفف من انهيار الشركة باقناع
مصرف انجلترا وشركة الهند الشرقية بامتصاص نحو ١٨٠٠٠٠٠٠
جنيه من الأسهم الخاسرة . وقد وجد فى شركة بحر الجنوب من
الاحتياطات ما يسمح بدفع ثلاثة وثلاثين فى المائة لحملة أسهمها فى
وقت مبكر . وجردت الشركة من امتيازاتها وسحرها ، ولكنها كانت
تكسب من بيع العبيد ، فظلت على قيد الحياة ، فى حيوية هابطة
حتى عام ١٨٥٣ .

٢ - مظاهر الحياة فى لندن

يندر الاحصائيون الأجرباء سكان أوروبا بنحو ١٠٠ مليون نسمة
فى ١٦٥٠ ، و١٤٠٠ فى ١٧٥٠ . وقد قدر فولتير فى ١٧٥٠ سكان
فرنسا بعشرين مليونا ، وألمانيا والنمسا باثنين وعشرين ، وبريطانيا
العظمى وأيرلنده بعشرة ، وروسيا الاوربية بعشرة ، وأسبانيا والبرتغال
بثمانية ، وبولنده بستة ، وخص كلا من تركيا أوروبا ، والسويد ،
والدنمرك (مضافا اليها النرويج) والاقاليم المتحدة ، بثلاثة
ملايين (٣٥) . وذهب قانونى ألماني الى أن الزيادة فى سكان شمالى
أوروبا مردها الى حد كبير انتقال الرهبان والراهبات من حياة العزوبة
الى الأبوة والامومة نتيجة لحركة الاصلاح البروتستنتى ، وحض على
« اقامة تمثال للوثر بوصفه حافظ النوع الانسانى » (٣٦) . ولكن
علينا ألا نغالى فى عفة رهبان العصر الوسيط . وأغلب الظن أن زيادة

السكان مرجعها تحسينات الزراعة والنقل التى زادت من كميات الطعام وتوزيعه ، وخطوات النهوض بالصحة العامة والعلاج الطبى التى خفضت نسبة الوفيات فى الاطفال والبالغين . ويبدو أن سكان انجلترا وويلز الذين نيفوا على ثلاثة ملايين فى ١٥٠٠ ، بلغوا أربعة فى ١٦٠٠ وستة فى ١٧٠٠ ، وتسعة فى ١٨٠٠ (٣٧) . وكل الزيادة تقريبا كانت من نصيب المدن التى غدت الصناعة والتجارة وتغذت منهما . وفى عام ١٧٤٠ فاخرت لندن بنحو ٧٢٥٠٠٠ من الاهالى ، فأصبحت الآن أحفل مدن العالم بالسكان ، وندد بها ديفو فى ١٧٢٢ لأنها « تضخمت » (٣٨) وتلتها باريس التى بلغ سكانها ٦٧٥٠٠٠ فى ١٧٥٠ ، ثم امستردام وفيينا ، وناپلى ، وبلرمو ، وروما . وبلغ سكان لندن عشرة أضعاف سكان برستول ، التى كانت ثانى أكبر المدن الانجليزية ، وثمانية عشر ضعف سكان نورتش ، ثالث أكبر المدن الانجليزية . وكانت مراكز العواصم تجمع فى يدها خيوط الحياة الاقتصادية للامة ، وتحول كدّ الحقول والمناجم والمتاجر ومنتجاتها الى أرباح المال اللطيفة الرقيقة .

وأعان لندن موقعها على النمو مع نمو التجارة والمستعمرات الانجليزية . فكان فى استطاعة السفن عابرة المحيط أن تبحر مصعدة فى التيمز ، ومع أن أرصفة الميناء (حتى ١٧٩٤) لم يكن فى طاقتها أن تؤويها ، فإن جيشا من عمال التفويغ والشحن الغلاظ ، يستخدم اسطولا من ثلثمائة صندل ، كان مهيا لنقل البضائع من السفينة الى الساحل أو الى سفينة أخرى ، وهكذا غدت لندن مركز توزيع شاغيا بالحركة لاعادة تصدير الواردات من وراء البحار الى القارة . ولم يكن شاطئ النهر انيقا كما نجده الآن ، فقد كان يزخر بعمال الشحن المفتولى العضل ، والملاحين المتعطشين للجنس ، والنساء المتحلات ملبسا وخلقا ، القدرات مظهرا ولفظا ، الساكنات الاكواخ والحانات ، المنافسات للبحارة فى السكر والعنف (٣٩) . أما النهر نفسه فكان عجيب المنظر ، فيه خليط من السفن التى تتفاوت من قوارب الصيد الشراعية الى البوارج الضخمة ، بينما تعبر المعديات الصغيرة النهر غسدا ورواحا . وكان الملك ، وعمدة لندن ، ونفر من الاعيان ، يملكون « ذهبيات » انيقة ، ويستخدمونها للرحلة صعدا الى ونزور او غيرها من البلاد . وظل كوبرى لندن حتى ١٧٥٠ الطريق الوحيد لاختراق المدينة على الاقدام

من شمالها الى جنوبها ، ولكن فى ذلك العام تم بناء كوبرى وستمنستر ، وفى ١٧٥٧ أزيل عن كوبرى لندن عبء البيوت والمتاجر الذى كان يثقله . وقد أعجب الرسام البندقى أنطونيو كاناليتو ، الذى زار لندن فى ١٧٤٦ و ١٧٥١ ، بمشاهد الحركة التى يعج بها الماء فخلف لنا بعض الصور الشهيرة التى ترينا التميز كما عرفه وأحبه بوب وجونسون .

ولعل جونسون أحب شوارع لندن أكثر حتى من حبه لنهرها ، مع أنها كانت لاتزال سيئة الاضاءة رديئة الرصف ، لا ينظفها فى الغالب سوى ماء المطر الهاطل عليها . وكان قد تقرر فى ١٦٨٤ نظام لاضاءة الشوارع يقام بمقتضاه مصباح مضاء بالشمع عند كل عاشر بيت ، ولكن المصابيح لم تضاء الا فى الليالى التى يحتجب فيها القمر ، وحتى منتصف الليل فقط ، ومن عيد الملاك ميخائيل (٢٩ سبتمبر) الى عيد السيدة العذراء فقط (٢٥ مارس) . وفى ١٧٣٦ وافقت سلطات المدينة على اقامة خمسة عشر ألف مصباح زيتى فى أنحاء لندن كلها ، تظل مضيئة من غروب الشمس الى شروقها ، وكان هذا حدثا مشهودا فى حياة العاصمة . حسن كثيرا من أمن شوارعها فى الليل .

كان أكثر الشوارع منذ حريق ١٦٦٦ الكبير مرصوفا بالحجارة الصغيرة المدوّرة ، وظل الرصف بهذه الطريقة قاعدة متبعة الى القرن التاسع عشر . وكانت تجرى فى وسط كل شارع قناة تتلقى الكثير من النفايات . وتصرف المطر . ولم يكن هناك أفاريز بل صف من الشواخص حدد طريقا للمشاة عرضه ستة أقدام . وكانت الشوارع تعج بأصوات عربات النقل ، وخيول الجر ، والحناطير ، والمركبات الخاصة ، وكلها تجرها الخيل التى تقعقح حوافرها على أحجار الرصف ، كذلك كان هناك الباعة الجوالون - وكثير منهم نساء - يسرحون بعشرات الأطعمة أو الثياب ، والصناع المهرة المتنقلون يعرضون اصلاح ما فسد ، وسائقو العربات يتشاجرون والكلاب تنبح ، والمتسولون يستجدون ، ومغنىو الشوارع يصيحون بالأغاني الشعبية ، والأراغن تقفز بالحنانها من جدار الى جدار . وكان الناس يشكون من هذه الضوضاء ولكنهم يحبونها ، فهى السبيل الذى لا غنى عنه الى معاشهم . ولم يعمل من الناس فى صمت سوى النشالين والمومسات .

وبدا تثبت أرقام الشوارع على البيوت فى سنة ١٧٠٨ . وكان أكثرها فى سنة ١٧٥٠ مزودا بالمياه الجارية . واخذت وسائل النظافة تتحسن . وكان القانون يطالب رب كل أسرة بأن يحتفظ برصيف الشارع نظيفا أمام بيته ، ولكل حى زبال ينظم جمع القمامة . أما المراحض فكانت عادة مراحض خارجية توضع وتستتر فى الحديقة أو الحوش . وكان لبعض المناطق مجار ، ولكن لم يتح للندن نظام مجار عام إلا سنة ١٨٦٠ . أما المداخل فيطهرها منظفو المداخل ، الذين يتسلقونها بضغطة كيغانهم وركبهم على جدرانها الداخلية المصنوعة من الطوب أو بالحجر ، واستمر هذا التشويه القاسى لأجسام الأطفال حتى عام ١٨١٧ .

وكان شطر كبير من السكان يحشرون فى أحياء فقيرة مزدحمة تلوئها القمامة والفضلات فتولد عشرات الأمراض (٤٠) . وفى حييين من أحياء لندن - هما وابلنج ولايمهاوس - كان واحد من كل اثنين من السكان تقريبا يعيش عيش الكفاف ، معتمدا على الاحسان ، أو السرقة ، أو البغاء ، فى الحصول على المسكن والطعام . أما الأطفال فيجرون حفاة قذرين شعنا فى الشوارع لا تسترهم غير أسمال ولا يتعلمون غير الاجرام . فى هذه الشوارع الفقيرة ندر أن اهتم الرجال والنساء بالزواج فالعلاقات الجنسية حدث عابر ، وسلعة تسوق دون احتفال أو قانون . ولم يكد يوجد فى هذه الأحياء كنائس على الإطلاق ، أما دكاكين الجمعة والحانات فكثيرة . وفيها أيضا كانت بؤر اللصوص ، والنشالين ، وقطاع الطرق ، والقتلة المحترفين . وكان كثير من المجرمين ينتظمون فى عصابات . فاذا تعرض لهم الحراس جدعوا أنوفهم . وألفت جماعة منهم يدعون « الموهوك » أن يخرجوا الى الشوارع سكارى ، ويخزوا المارة بالسيوف ، ويكرهوا النساء على الوقوف على رموسهن ، ويسملوا عيون من يقاومونهم من ضحاياهم . أما لصوص العصابات الأقل ضراوة فكانوا يقنعون بكسر نوافذ الدكاكين والبيوت . ذكر سموليت فى ١٧٣٠ « أن اللصوص والسارقين أصبحوا الآن أشد استهتارا وضراوة مما كانوا فى أى عهد منذ عرف البشر الحضارة (٤١) » . وفى ١٧٤٤ حرر عمدة لندن وحاكمها خطابا للملك قررا فيه أن « عصابات شتى قوامها اعداد كبيرة من الأشخاص ذوى النزعة الشريرة ، المسلحين بالهسراوات ، والطنجات ، والسيوف ، وغيرها من الأسلحة الخطرة ، يعيشون فسطا

لا فى الازقة والممرات الخاصة فحسب ، بل فى الشوارع العامة وأماكن الاحتشاد العادية ، ويقتربون أخطر الاعتداءات على أشخاص رعايا جلالكم (٤٢) « . وقال هوراس ولبول فى ١٧٥٢ : « ان المرء ليضطرب الى السفر ، حتى فى الظهيرة ، وكأنه ماض الى ساحة قتال (٤٣) » .

وكانت العاصمة الكبرى بالطبع شيئاً أكثر كثيراً من هذه الحويلة المتكاثرة من الفقر والجريمة ، فلقد كانت الى ذلك بلد البرلمان والقصور الملكية ، ووطن ألف محام وتاجر وصحفى وشاعر وروائى وفنان وموسيقى ومعلم وكاهن ورجل بلاط . ويجب ونحن ماضون فى طريقنا أن نضيف الى رؤيتنا للندن القرن الثامن عشر بيوت الطبقات المتعلمة الفخمة وأخلاقها وعاداتها ، وجمهور المصلين فى الكنائس ، والشكاك ، والعلماء ، والفلاسفة ، وظرفاء « المجتمع الراقى » وحسانه وعشاقه ، وحدائق اللهو فى فوكسهول ورينلاج ، والمتنزهين فى الحدائق العامة وشارج بل مل ، وسباقات الزوارق والمهرجانات والذهبيات على نهر التيمز ، والأحاديث المتدولة فى مشارب القهوة والنوادر ، ودكاكين الحرنبيين ، وتجار الملابس ، والجواهرية ، وأسباب الترويج فى البيت والرياضة فى الخلاء ، والجموع المحتشدة فى معارك الديكة ، ومباريات الملاكمة التكمبية ، وعروض الدمى ، والمسارح ، والآوبرا - عندها فقط تكون رؤيتنا للحياة اللندنية منصفة كاملة الى حد معقول ، تتيح لنا أن نحس التاريخ فى كل نواحيه ينساب خلال أجساد وأرواح جيلين و ٧٠٠.٠٠٠ نفس .

٣ - المدارس

كانت الحياة فى انجلترا كما فى غيرها من الأقطار فى هذه الحقبة تبدأ بنسبة عالية من وفيات الاطفال ، يموت ٥٩ ٪ من مجموع الاطفال المولودين بلندن قبل أن يبلغوا الخامسة ، و ٦٤ ٪ قبل العاشرة (٤٤) . وكان كثير من الاطفال يلقون خارجا عقب ولادتهم ، ومن بقى من هؤلاء اللقطاء على قيد الحياة يربون على نفقة الدولة ثم يوضعون فى اصلاحيات للأحداث . ونجم الكثير من التشوهات الجسمية من أعمال المولدات والأمهات .

فاذا كان الابوان فقيرين لم ينل الطفل حظا من التعليم فى المدرسة اطلاقا . وكان هناك « مدارس خيرية » تقدم التعليم الاولى للجنسين ولجميع الطبقات مجانا ، ولكن حملة الملتحقين بها لم يتجاوز ٢٨٠٠٠ فى ١٧٥٩ ، وكانت لا تقبل المنشقين على الكنيسة الانجليكانية ، ولا تصل الا لنسبة ضئيلة من الفلاحين ، ولا تكاد تصل الى فقراء المدن اطلاقا . يقول حجة انجليزى « ان الكثرة العظمى من الانجليز كانوا يمضون الى قبورهم دون تعليم » (٤٥) . أما فى طبقة الصناع فالتلمذة الصناعية تعد خير تعليم . وأما أطفال الطبقة الوسطى فيجدون مدارس يقوم عليها عادة « رجال محطمو الاعصاب ، أو مفلسون ، أو مطرودون من وظائف أخرى » (٤٦) والى ذلك « مدارس نسوية » تعلم فيها المعلمات المتواضعات مبادئ القراءة والكتابة والحساب والكثير من الدين للصبيان والبنات الذين يستطيع آباؤهم دفع مصروفاتهم . وفى جميع المدارس كان التركيز على تعليم الطلاب القناعة بمرتبتهم التى ولدوا فيها ، وابداء الخضوع الواجب للطبقات العليا .

وكانت قلة قليلة تدخل المدارس الثانوية حيث يستطيع الصبيان أن يضيفوا شيئا من اللاتينية واليونانية الى مبادئ القراءة والكتابة والحساب ، لقاء رسوم متواضعة تبصر المعلمين بمكانهم الوصيع فى السلم الاجتماعى . وكان النظام صارما ، وساعات الدرس طويلة تمتد من السادسة الى الحادية عشرة والنصف صباحا ، ومن الواحدة الى الخامسة والنصف مساء . وأجود من هذه المدارس المدارس الخاصة ، وأشهرها ابنون ، ووستمنسر ، وويشستر ، وشروزبرى ، وهارو ، ورجبى - حيث بسنطع الشباب من الصفوة التحضير للجامعة نظير ستة وعشرين جنيها أو نحوها فى العام ، وادخار شارات كلاسيكية يتفخرون بها فى المستقبل . واذا كانت هذه المدارس الخاصة لا تقبل غير صبيان الكنيسة الانجليكانية ، فان المنشقين على هذه الكنيسة - من معمدانيين ، ومشيخيين ، ومستقلين ، وتوحيديين ، وكويكريين ، ومجمعيين ، ومثوديين - هؤلاء انشأوا أكاديميات لشبابهم قل التركيز فيها على الكلاسيكيات القديمة ، وازداد على اللغات الحديثة ،

والرياضيات ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والملاحة - وهو تعليم أنسب
لبناء الطبقة الوسطى .

وحرّم المنشقون من دخول الجامعات . وكان أكثر طلابها ينتمون
إلى أسر موسرة ، ولكن بعض الصبيان رقيقى الحال تلقوا منحا دراسية
من المحسنين أو المؤسسات الخيرية ، وبعض الطلاب الذين يقومون
بخدمات للجامعة لقاء مكافآت (ويسمون *servitors* أو *sizars*)
مثل نيوتن ، شقوا طريقهم خلال قاعات الدرس الواعية بالفوارق
الطبقية . وقد عانت أكسفورد وكمبريدج من الركود فى هذه الفترة بسبب
النزعة المحافظة فى المناهج والطرق والأفكار . وأبحدت كمبريدج استعدادا
أكبر للتوسع فى الدراسات العلمية على حساب الدراسات الكلاسيكية
واللاهوت ، ومع ذلك وصفها تشستر فيلد بأنها « غارقة فى أحلك
الظلمات » . أما أكسفورد فقد تشبثت باللاهوت القديم وبأسرة ستيوارت
الساقطة ، ولم تسمح للملك أسرة هانوفر الغشم بزيارتها . وقال آدم
سمث ، الذى كان يطلب العلم بأكسفورد فى ١٧٤٥ ، انه لم يتعلم فيها
إلا القليل ، أما جبون الذى درس فيها فى ١٧٥٢ ، فقد ندّد بمدرسيها
لأنهم سكيرون جهلة ، وندم على السنين التى ضيعها فى الجامعة .
وآثر الكثير من الأسر استخدام المدرسين الخصوصيين (٤٧) .

أما البنات فكان يتلقين تعليما أوليا فى مدارس القرية أو المدارس
الخيرية - فیتعلمن القراءة والكتابة ، والخياطة ، وأشغال الابرّة ،
والغزل ، وقليلًا من الحساب ، وكثيرًا من الدين . وتلقى بعضهن
التعليم على يد معلمين خصوصيين ، ومنهن من درس اللغات والآداب
الكلاسيكية خفية كما فعلت الليدى مارى ورتلى مونتاجيو . قالت الليدى
مارى « ان بنات جنسى تحظر عليهن عادة دراسات من هذا النوع ،
والجهل يعد مجالنا المناسب لنا ، بحيث أن أى اسراف فيه من جانبنا
يغتفر لنا أكثر مما يغتفر أقل تظاهر بمعرفة القراءة أو بالادراك السليم
... وليس فى الوجود مخلوق ... أشد تعرضا للسخرية العامة من
المرأة المثقفة » . وكانت تميل الى الظن بأن الرجال كانوا يبقون النساء
فى جهلهن ليستطيعوا اغواءهن بتكلفة أقل (٤٨) . وإذا كان لنا أن
نحكم من دخول محظيات الملك ، فإن النساء وفقن كل التوفيق بغير

الدراسات الكلاسيكية ، ولم يكن بهن حاجة الى شاعر كاوفيد ليعلنهن لعبة الحب .

٤ - الاخلاق

لعل العلاقات السابقة على الزواج كانت بين النساء اقل شيوعا هي ذلك العهد مما هي اليوم (١٩٦٥) ، ولكن البغاء ازدهر الى حد لم يكد يعرف ثمانية حتى يومنا هذا . وقد قدر مراقب اجنبي عدد المومسات بخمسين ألف في لندن ، يوجدن في حانات المدينة ، وفي الفنادق الصغيرة على الطرق ، وفي حدائق المدينة ، وفي المراقص العامة ، وحفلات الموسيقى ، والمسارح ، وكن في شارع اكستر وحى ستراند يجلسن الى النوافذ تشجيعا للمتكردين من الزبائن . وفي « درورى لين » (شارع المسارح بلندن) - كما تغنى الشاعر جون جاي في تمثيلته « تريفيلا » : هي التي تمشي في الليل بخطى وثيدة ، لا يضم جسدها اللدن مشد قاس ، وتحت المصباح تتوهج شرائطها المبهرجة ، والمعطف حديث التنظيف ، وسيماء المومس ٠٠٠ وباصوات التملق تستميل الأذن الساذجة قائلة « يا فارسي الهمام ! يا فاتنى ! يا حبيبى ! يا عزيزى ! » (٤٩) .

ولم تاخذ القانون بهن رحمة . فاذا أمسكت احداهن وهي تتحرش برجل ، زج بها في السجن وضربت بالسوط ووضعت في المشهرة (آلة التعذيب) . وقد وصفت « مجلة جرب ستريت » في عدد ٦ مايو ١٧٣١ مصير احدى هؤلاء « المدامات » فقالت « وقفت أمس الام نيدهام في المشهرة ببارك بليس قرب شارع سانت جيمس ، ونكل بها الجمهور تذكيرا شديدا . وقد اشتد بها الاعياء حتى استلقت بطول المشهرة ، ورغم ذلك ظلوا يحصبونها بقسوة ، ويظن انها ستموت بعد يوم او يومين (٥٠) .

ولكن لم يكن يصل الى المشهرة غير أفقر البغايا . فقد كن يتفادين القانون عادة بانرشا ، او يخرجهن صاحبهن بكفالة ، وأحسن بعض حفظة القانون - ربما لانهم تعرفوا فيهن على « مضيفات » سابقات لهم - بعض العطف على نساء عاقبتهن القوانين على فسق الرجال .

وأغلب الظن أنه لم يأت الى فراش الزوجية محتفظا بعفته عشرة من كل مائة ذكر من أهل لندن . لقد ندد القوم بالرديلة علانية ، ولكنهم احتقروا الفضيلة سرا . . . وكتاب جون كليلاند المسمى « مذكرات غانية » (١٧٤٩) ، والذي عرف فيما بعد باسم « فانى هل » ، وهو سلسلة من الاغواءات المفصلة ، كان (وما زال) من أفحش كتب ذلك القرن وأكثرها شعبية .

وألّف بعض الرجال جماعات للاستمتاع المتبادل فيما بينهم . وروت جريدة لندن فى عددى ٢٣ و ٣٠ أبريل ١٧٢٥ نبا القبض على سبعة لوطيين ، وفى ١٤ مايو سجلت نبا شنق ثلاثة آخرين بتهمة اللواط ، ثم أضافت « نمى الينا أنهم (أى الشرطة) اكتشفوا عشرين بيتا أو ناديا يجتمع فيها اللوطيون ، وهم يراقبون أيضا منتديات ليلية يلتقى فيها هؤلاء الوحوش فى جمع كبير » . وفى ٧ يوليو روت الجريدة أدانة « روبرت هويل ويورك هورنر بفتحهما بيوتا فى وستمنستر يستقبلان فيها هواة الرديلة المنكرة » . وفى ٢٣ يوليو أعلنت أن : « مرجريت كلاب ، التى أدينّت بفتحها بيتا سريا يستخدمه اللوطيون . . . حكم عليها بوضعها فى المشهرة ، ويدفع غرامة قدرها تسعون ماركا ، وبالسجن سنتين » (٥١) .

وينبئنا مصدر وثيق بان « نسبة كبيرة جدا من أهل لندن كانوا يعاشرون النساء حراما دون زواج (٥٢) » . وكانت زيجات الحب فى ازدياد ، على الأقل فى روايات رتشرسن وفيلدن ، ولكن معظم الزيجات كان يرتبها الآباء بعد الوزن الدقيق لمهر العروس بالقياس الى دخل العريس الفعلى أو المنتظر . وقد حرم قانون صدر فى ١٧٥٣ على الأشخاص دون الحادية والعشرين الزواج بغير موافقة والديهم أو الأوصياء عليهم . ولما كان هذا القانون لا ينطبق الا على انجلترا ، فان كثيرين من العشاق الفارين من آبائهم كانوا يعبرون الحدود الى اسكتلنده ، حيث يتبع المساومة فى قرية جريتنا جرين قانونا أكثر يسرا . وكان هناك مزيد من التيسيرات على العشاقين المتلهفين يوفرها رجال الدين الجشعون الذين يعقدون الزيجات السرية فى الحانات أو المواخير أو العليات أو غير ذلك من الأماكن فى شارع فليت أو على

مقربة منه (وفى الشارع سجن للمدينين) . وكان فى كل حانة تقريبا فى تلك المنطقة كاهن من هذا النوع على استعداد لتزويج أى انسان لقاء رسم ، دون أن توجه اليه أسئلة أو يطالب بترخيص . وشاع عن أحد هؤلاء المساوسة أنه كان يعقد ستة آلاف قران فى السنة . وكانت الزيجات تبرم فى عاطفة مشبوبة ، ثم تفسخ وقد ذابت حرارتها ؛ وكان آلاف النساء يهجرن رجالهن ، وكان البحارة يتزوجون وهم يقضون يوما على البر ، ويحدون ، ثم يرحلون . ورغبة فى القضاء على هذا المنكر أصدر البرلمان قانونا (١٧٥٣) بالألا يعتبر أى زواج شرعيا ، باستثناء زيجات الكويكرز أو اليهود ، ما لم يعقده قسيس أنجليكاني فى كنيسة أبرشية ، بعد نشر اعلان بالزواج فى الكنيسة على مدى ثلاثة آحاد متعاقبة ؛ وكل مخالف لهذا القانون يعاقب بالنفى الى المستعمرات .

ولم يكن الطلاق مسموحا به فى انجلترا (قبل ١٨٥٧) دون الحصول على قانون خاص من البرلمان (٥٣) ، وكانت تكاليف هذا الاجراء تجعل منه ترفا مقتصرا على الأغنياء . وفشا الفسق فى جميع الطبقات الا الوسطى ، وضرب جورج الأول والثانى مثلا فى ذلك - والناس على دين ملوكهم . ففى عام ١٧٠٠ كتب كونجرىف يقول « كل انسان فى هذا المجتمع ولد بقرون طالعة (٥٤) » . ولم تتغير الحال الا قليلا فى ١٧٢٨ ، حين جعل الكاتب المسرحى « جاي » السيدة بيتشم فى « أوبرا الشحاذ » تسال زوجها عن ابنتها « بالله لم يجب أن تشذ ابنتنا بوللى عن بنات جنسها فتقصر حبها على زوجها ؟ » . كل الرجال لصوص فى الحب ، ويزداد عشقهم للمرأة ان كانت ملك رجسلى اخر (٥٥) « . على أنه يمكن القول عموما بأن أخلاق النساء كانت فى انجلترا خيرا منها فى فرنسا ، وأنه فى الطبقات الوسطى ، التى ظلت التقاليد البيورطانية فيها قوية ، أوشتك العفة أن تكون افراطا فى الاحتشام ، وقد تجد من النساء زوجات من الطراز الذى يحلم به الرجال - صبورات ، مجدات ، وفيات . وكان المعيار ذو الوجهين مفروضا ومقبولا . فكانت النساء المهذبات يسمعن الكثير من الحديث النابى ويقرآن فيلدنج وسموليت ، ولكن كان ينتظر منهن أن تحمسر وجوههن خفرا مغريا ، وأن يغشي عليهن فى لمح البصر .

وكان ينظر الى المرأة فى جميع الطبقات على أنها أدنى من الرجل بحكم الطبيعة وبقضاء لا سبيل الى رده . ولقد ارتضت هذه النظرة حتى الملىدى مارى المتكبرة المتمردة ، ولو ساخرة كارهة :

« لست أحاول الآن المطالبة بمساواة الجنسين ، اذ لا شك فى أن الله والطبيعة قد ألّقا بنا فى مرتبة أخط ، فنحن جزء أدنى من الخليقة ، وعلينا اطاعة الجنس الأعلى والاذعان له ، وكل امرأة تسمح لغرورها وحماتها أن ينكرا ذلك اذا تمرد على ناموس الخالق ونظام الطبيعة الذى لا ينازع (٥٦) » .

وكانت فترة حكم البيورنان قد أنزلت المرأة عن مقامها الذى ارتقت اليه أيام اليزابيث . وحكم أحد الطلاب بأنه « حوالى عام ١٧٥٠ كانت النساء هى انجذره قد نزلن الى مستوى منحط جديد لم يكد يفضل وضعهن فى القرن الثانى عشر (٥٧) » .

وتردت الفضائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الى الدرك الأسفل . فالقمار الذى قاومته الملكة آن من قبل رد الى الخطوة الملكية بفضل جورج الأول والثانى . وكان موظف خاص يسمى « الحاجب » منوطا بالاشراف على القمار فى البلاط الملكى . وكان لعب الورق التسلية المفضلة للأغنياء والفقراء ، ونذر أن برىء من المراهنة ، وكثيرا ما شابه الغش . ولم يكن من غير المألوف للمتبحل المتلاف من أبناء الطبقة العليا أن يكسب أو يخسر مائتى جنيه فى جلسة واحدة ، وقد خسر دوق ديفونشير ضيعته فى لعبة واحدة ؛ وكان اللورد نينسترفيلد بقامر باستهتار فيما بين المحاضرات التى يلقيها على ابنه ، وأصبح القمار شهوة سيطرت على الناس أجمعين فى عهد جورج الأول الى درجة لعلها لم تضارع بعده . وفتحت ملاعب القمار فى نادى هوايت ، وفى تشيرنج كروس ، وفى لستر فيلدز ، وفى جولدنز سكوير ، وفى باث . وفى محفورة للمصور هوجارت سماها « رحلة الفاجر » نرى رجلا ونساء يقامرون فى نادى هوايت ، ولا يعباون بانذار بنبتهم بأن المنى يحترق ، فلا بد من مواصلة معركة اللعبة الى نهايتها الحاسمة* . وقد

★ احترق النادى الشهير عام ١٧٣٣ ، ولكنه رمم سريعا .

حظر جورج الثانى هذا القمار المنظم ، ولكنه اعتمد يانصيب الحكومة .
الذى كان قد تقرر فى ١٥٦٩ وعمر حتى ١٨٢٦ . وكانت تذاكر اليانصيب ،
تباع للجمهور بكل وسيلة من وسائل الترويج ، واشتد الانفعال والتحمس
لها الى حد أغرى الخدم بسرقة سادتهم ، والكتابة بسرقة أرباب عملهم ،
طمعا فى نصيب من الغنيمة (٥٨) .

ولعل السكر كان أكثر انتشارا من القمار . وكانت الجعة بنوعيتها
(البيرة والمزر ale) هى الشراب الوطنى . وكان الرجل اللندنى
يستهلك مائة جالون منها فى السنة ، أو ربع جالون فى اليوم ،
باعتبارها أسلم والطف مذاقا من الماء . وخلق المناخ الرطب طلبا على
الروم ، والبنش ، والبرندى ، والجن ، والكورديال ، والوسكى ،
وكان النبيذ دواء مفضلا . وانتشرت الحانات ومخازن الخمر فى كل
مكان ، وكان ١٣٥٠ بيتا من بين ٧٠٦٦ فى أبرشية هوبورن تباع
الخمر . وأغضى ملك الاراضي - والبرلمان اذن - عن تجارة الوسكى ،
لأنها فتحت سوقا اضافية لشعيرهم وقمحهم (٥٩) ، وكان ثلث الأرض
المنزعة فى انجلترا تقريبا يزرع شعيرا . وأخذ الوسكى يحل عذد عليه
القوم محل النبيذ لأن الحروب المتكررة مع فرنسا عاقت التجارة مع بوردو
وأوبورتو ، وأدخل الهولنديون والالمان الى البلاد تفضيل الخمور
القوية . وهنا ، كما فى القمار ، ضربت الحكومة المثل للشعب . فقد
روى عن هارلى ، رئيس وزراء المملكة آن ، انه كان يمثل بين يدى الملكة
مخمورا . وكان بولنبروك يسهر أحيانا الليل كله وهو يحتسي الخمر ،
أما روبرت ولبول فقد علمه السكر أبوه ، الذى عقد الذينة على الا يراه
مخمورا ابن له صاح (٦٠) .

وأزعج الحكومة ولع الجماهير بشراب الجن . فقد زادت الخمور
المقطرة فى بريطانيا من ٥٢٧٠٠٠ جالون فى ١٦٨٤ الى
٥٣٩٤٠٠٠ فى ١٧٣٥ ، دون ارتفاع مقابل فى عدد السكان ؛ لا بل
ان الأطباء أئذروا الحكومة بأن شرب الجن قد زاد معدل الوفيات
بسرعة فى لندن ؛ وعزت هيئة المحلفين الكبرى فى مدلسكس الكثير من
فقر العاصمة وجرائمها الى ذلك المسكر . وعلق باعة الجن بالتجزئة
لافتات تعهدوا فيها لزيائهم بأن يسكروهم نظير بنس ، وعرضوا عليهم
النوم على حصر من القش مجانا فى قبو المؤونة .

وحاول الحكام المرتاعون حظر شرب الجن بفرض الضرائب .
ففرض قانون أصدره البرلمان فى ١٧٣٦ رسماً على الجن قدره
عشرون شلناً للجالون ، واشترط دفع خمسين جنيهاً فى العام نظير
الترخيص ببيعه . وقام الفقراء الظامئون باضطرابات عنيفة . وأفضى
الحظر ، كما تنبأ ولبول ، الى تهريبه وتقطيره خفية والانجسار به
سراً . وارتفع عدد دكاكين بيع الجن الى سبعة عشر ألفاً ، وعدد
الجالونات المقطرة الى نيف وسبعة ملايين ، واستشرت الجريمة .
فتخلت الحكومة عن التجربة ، وخفض رسم الرخصة الى عشرين
جنيهاً ، والضريبة الى بنس للجالون ؛ واعتبته التسعير وراح يشرب
ما شاء . وفى ١٧٥١ أفضت سلسلة من التدابير المعتدلة الذكية (كجعل
الديون الصغيرة لتجار الخمر غير قابلة للإلغاء أمام القضاء) الى
تحسين خفيف (٦١) . وأثار الفيلسوف باركلى الموقف بننديده بالطبقات
العليا لما ضربوا لجماهير الشعب من مثل سيئ ، وبانذاره اياهم بأن
« أمة تشتعل عند طرفيها لابد أن تحترق سريعاً (٦٢) » .

بذلك كان المسئوى الخلقى : حدثاً فى ميدان المال والأعمال ،
فجنى بعضهم أموالاً طائلة من التهريب ، والقرصنة ، واقتناص العبيد
أو بيعهم . وشكا الناس من تلوث مياه التيمز بالآقاذ والنفايات
التجارية والبشرية ، ومن غش النبيذ بعصير التفاح وأرواح الحبوب ،
ومن خلط الخبز بالشبّ والجير ، ومن تنضير بشرة اللحوم الكبيرة
السن بالمكيماويات الخطرة على الصحة والحياة . فلما بذلت محاولات
للحد من هذه الأعمال تصايح أبطال التجارة مطالبين بالحرية وبحق
« كل انسان . . فى العيش على طريقته دون قيد (٦٣) » .

وتدخلت الحكومة فى الحريات ، ولكن تدخلها كان أكثره لأكراه
الرجال على الخدمات العسكرية . فلما أخفقت مختلف المرغبات المالية
فى تزويد البحرية بالرجال ، جردت الدولة (من ١٧٤٤ فصاعداً)
« كتائب تجنيد » لاقتناص الرجال أو تخديرهم ، أو لاقناعهم
بالانخراط فى سفن صاحب الجلالة . وكان أيسر هذه الوسائل أسكار
الضحية ، إذ كان فى الامكان وهو على هذه الحال أن يحمل على النزول

عن سنة أو أكثر من حياته . ذكر الأميرال فيرنون (١٧٤٦) أن هؤلاء الرجال ، بعد أن يؤتى بهم الى السفينة ، كانوا فى الواقع محكوما عليهم بالموت ، اذ لا يسمح لهم بتاتا بان تطأ أقدامهم البرّ ثانية ، ولكنهم ينقلون من سفينة الى أخرى ٠٠ دون أى اعتبار للمشاق التى يتكبدونها (٦٤) . ويقول صموئيل جونسون « لا يرضي رجل بان يكون بحارا اذا كان له من الحيلة ما يكفى لأن يدخل نفسه السجن ٠٠ فالسجين يحظى بمكان وطعام أحسن وبرفقة أفضل عادة (٦٥) » . وكان أكثر البحارة الذين يجندون كرها ضعاف الاجسام والعقول ، ولكن النظام الصارم والانتقاء القاسي بامتحان النار والجلد (كما هو موصوف ومبالغ فيه بلا شك فى قصة سموليت « رودريك راندوم ») جعل الباقيين منهم على قيد الحياة أصعب المقاتلين فى البحر مراسا وأشدّهم اعتدادا بأنفسهم .

وكانت القرصنة لا تزال تلقى الاغضاء عنها بوصفها ضربا من التجارة ، ولكنها أخذت تضمحل بازدياد قوة البحريةات . أما تجارة العبيد فقد زكت ، وتنافست السفن الانجليزية والفرنسية والهولندية والبرتغالية على امتياز بيع الزنوج الأفريقيين للمسيحيين الأمريكيين . وبمقتضى معاهدة أوترخت (١٧١٣) نقلت أسبانيا عقد « الأزينتو » ، الذى تمد بمقتضاه المستعمرات الاسبانية سنويا بـ ٤٨٠٠٠ عبد ، من فرنسا الى إنجلترا . ومن بين ٧٤٠٠٠ عبد نقلوا الى أمريكا فى سنة واحدة (١٧٩٠) نقل الفرنسيون ٢٠٠٠٠ ، والهولنديون ٤٠٠٠ ، والدنمركيون ٢٠٠٠ ، والبرتغاليون ١٠٠٠٠ ، والبريطانيون ٣٨٠٠٠ - وهو أكثر من نصف المجموع (٦٦) . يقول مصدر انجليزى وثيق « ان الانجليز وحدهم ، على أقل تقدير ، حملوا أكثر من مليونى زنجى الى أمريكا فى الفترة بين ١٦٨٠ و ١٧٨٦ (٦٧) » . واقتنت بعض الأسر الانجليزية عبيدا من الزنوج للخدمة فى البيوت . واشتملت الصحف على وعود بدفع مكافآت لمن يعيد العبيد الأبقين ، وعرض اعلان « صبيا زنجيا يناهز الثانية عشرة ٠٠ للبيع (٦٨) » ، وكان العبيد يباعون فى باريس حتى سنة ١٧٦٢ ، وحتى البابوات كانوا يقتنون عبيدا من سفن تشغيل العبيد التركية من القرن السادس عشر الى الثامن عشر (٦٩) . وفى ١٧٢٧ بدأ الكويكرز حركة لانهاة مشاركة بريطانيا فى تجارة العبيد . وناصرهم ستيل وبوب ، ودعم الميثوديون هذه الحرب

الدينية ، ولكن الحملة لالغاء الرق لم تتقدم تقدما يذكر قبل ١٧٧٢ .

كانت الاخلاق فى دنيا السياسة تعكس انتصار النزعة التجارية المتحجرة . فلم يكد عمل ينجز دون رسوة ولكل موظف تقريبا ثمنه ، والمناصب تباع ، والاصوات فى البرلمان تشتري كالسلع سواء بسواء . وقد باع أعضاء البرلمان امتياز اعفاء رسائلهم من أجرة البريد ، وباع كبار النبلاء المناصب فى بيوتهم (٧٠) ، و « وضعوا العراقيل أمام محاولات الحد من شراء الترشيحات للبرلمان ، أو شراء أعضاء مجلس العموم (٧١) » . وأرسلت الدوائر الانتخابية الفاسدة أو العفنة rotten boroughs التى لا يسكنها غير حفنة من الأهالى الى البرلمان عددا من الممثلين بعدل العدد الذى أرسلته أقاليم تزخر بالسكان والصناعة وأرسلت « أولد سارم » التى لا يسكنها انسان واحد ، ممثلين لها ، وكانت أمثال هذه الدوائر يتحكم فيها بسهولة ذوو الحساب أو المال . وكان رجال الأعمال ، توسلا لنفوذ سياسي مكافئ لسلطانهم الاقتصادي ، يشتررون الترشيحات أو المرشحين للبرلمان بنحو ١٥٠٠ جنيه للمرشح (٧٢) . ويمكن القول على الجملة بأن نصف القرن الذى نحن بصدده كان أقسى العهود فى التاريخ الانجليزى ، ومن العسير على المؤرخ أن يفسر كيف استطاعت بريطانيا أن تنهض من فساد ذلك العصر - حتى بلغت ذلك الصيت الذائع بأمانة رجال أعمالها ونزاهة حكومتها .

على أنه كان هناك الكثير من لمسات العاطفة الرحيمة يتخلل انحطاط الاخلاق والسياسة . فهناك ملاجىء - وان كانت سيئة الادارة - للمشيوخ والعجزة والفقراء ؛ وهناك طوائف حرفية كان المعلمون فيها آباء رحماء على صبيانهم ؛ وهناك أسر تؤوى الأيتام وتربيههم ؛ وهناك جمعيات - تسمى « أندية الصندوق » - للمعونة المتبادلة فى أيام العسرة . وضربت انجلترا مثلا رائعا - هو الأول فى التاريخ الحديث - للبر الدولى حين اكتتبت بمائة ألف جنيه للبرتغال ، حليفها الاقتصادية لاغاثة منكوبى زلزال لشبونة الذى وقع فى ١٧٥٥ (٧٣) ، وقد فتح فى الفترة بين ١٧٠٠ و ١٨٢٥ مائة وأربعة وخمسون مستشفى ومستوصف جدد فى بريطانيا ، منها أربعة فى لندن فى جيل واحد

(١٧٠٠ - ٤٥) . وكان أكثر هذه المؤسسات تموله التبرعات الخاصة .
وخير ما أسس منها فى النصف الاول من القرن الثامن عشر مستشفى
اللقطاء الذى نظمه الكبتن توماس كورام ، وقد صور هوجارث هذا
الكبتن عام ١٧٤٠ صورة أهداها الى المستشفى ، رجلا ممتلئ البدن ،
أبيض الشعر ، لطيفا ، يمسك بيمنه المرسوم الملكى ، وعند قدميه كرة
أرضية ، ذلك أن كورام جمع ثروته ضابطا فى البحرية التجارية . فلما
تقاعد هاله ارتفاع نسبة وفيات الأطفال فى لندن ، وكثرة الأطفال الذين
يلقون فى العراء أو تهجرهم أمهاتهم دون مال للعناية بهم أو اسم
أب يطلق عليهم ، وأقنع كورام بعض نساء الطبقة العليا بتوقيع ملتمس
بإنشاء مستشفى للقضاة ، وحصل من جورج الثانى على مرسوم والفى
جنيه ، ولقى النداء الذى ناشد فيه الناس التبرع للمستشفى سخاء غير
متوقع ، وتبرع هندل العظيم بأرغن وبموسيقى لحظه « المسية »
التي عظمت قيمتها الآن ، وأدار حفلاته موسيقية غلت عشرة آلاف
جنيه . وفى ١٧٣٩ عهد الأوصياء الى تيودور جاكوبسن بتصميم مجموعة
فسيحة من المباني والملاعب أصبحت من أروع مشاهد لندن .

٥ - الجريمة والعقاب

كان أهل انجلترا فى القرن الثامن عشر سلاة صلبة تمرست
بالمشاق والفت العنف ، سلاة قادرة على مغالبة كل صعب عسير
الا الموت . ومن الأمثلة على هذه الصفات أن عريقين اقتتلا بغير سلاح
حتى مات كلاهما ؛ وأن رقيبين تبارزا حتى أصيب كلاهما بجراح
مميقة ؛ وأن جنديا استأذن فى الزواج من إحدى مومسات الجيش فعوقب
بمائة جلدة . ثم مثل فى الغد وظهره كله مثخن بالجراح أمام الضابط
نفسه وأعاد الطلب ، فأجيب اليه هذه المرة . وفاخر قارع طبل بأنه
جلد ٢٦٠٠٠ جلدة فى الاعوام الاربعة عشر التى خدم فيها الجيش ،
ثم جلد أربعة آلاف أخرى فى عام واحد (١٧٢٧) وأفاق منها وهو
مبتهج ، وقيل فى وصف حالته بعد قليل انه « صحيح معافى ، لا يكدره
مكدر على الاطلاق (٧٤) » .

وكانت العقوبات الوحشية التى وقعت علنا مشجعا على انتشار

الوحشية بين الشعب . مثال ذلك أن قانونا ألغى فى ١٧٩٠ كان يقضى على المرأة التى تدان بخيانة وطنها أو بقتل زوجها بالحرق حية ، ولكن العرف كان يبيح خنقها قبل أن تحرق (٧٥) . أما الرجال المدانون بخيانة الوطن فيجذبون من على المشنقة وهم بعد أحياء ، وتخرج أمعاؤهم وتحرق أمام أعينهم ، ثم تفصل رءوسهم ويقطعون أرباعا . وعلقت المشانق فى كل أحياء لندن ، وكانت الاجساد تترك على كثير منها لتتغذى عليها الطير . وقد يظل الرجل مشنوقا نصف ساعة قبل أن يموت . على أنه كان من المألوف أن تخدر بالبرندى حواس المحكوم بإعدامه ، وإذا كان الجلاذ عطوفا شد ساقيه المتدليتين ليعجل بموته .

واضفت قسوة المتفرجين والمجرمين على مناظر الشنق طابع المهرجان ، فالناس يصطفون على جانبي الطريق ليشهدوا المحكوم عليهم يركبون العربات الى تيبيرن ، وتبيع الاكشاك والباعة المتجولون الجن والخبز المخلوط بالزنجبيل والجوز والتفاح للجمهور المحتشد ؛ وينشد المغنون الجوالون الاغانى الشعبية دون أن يجيدوا اجادة الكبتن مكبث فى « أوبرا الشحاذ » . وكانت الجماهير ، التى لم تتحمس قط للقوانين أو الشرطة ، ترفع الى مقام البطولة المجرمين الذين حالفهم التوفيق فى مغامراتهم ، أو الذين حين أمسكوا واجهوا المحاكمة والموت بالازدراء أو الابتسامات . فجاك شبرد ، و « روب روى » (وهو روبرت ما كجريجور) ، ودك تيرين ، وجوناثان وايلد - هؤلاء كلهم ترعرعوا وازدهروا فى هذه الفترة . أما جاك فقد وشي به جوناثان وايلد للشرطة بعد أن كان يمارس السرقة فى لندن أو قربها كل يوم تقريبا ، ففر ، وقبض عليه من جديد ، ثم فر ثانية ، وقبض عليه وهو يعاقر الخمر ، وشنق وهو بعد فى الثانية والعشرين على مرأى جمهور من آلاف مؤلفه يتوقعون منه أن يهرب حتى وحبل المشنقة يطوق عنقه . وقد روى ديفو واينزورث قصته فى روايات عادت عليهما بالريح ، ورسم السير جيمس ثورنهل صورته . أما تيرين فوزع النقود على المشيعين ليسيروا خلف عربته الى المشنقة فى موكب مهيب ، ولكن ما أذاع صيته هو الرواية الخيالية التى كتبها اينزورث عن رحلة دك تيرين الشديدة الخطر على جواده من لندن الى يورك . كذلك خلد كتاب فيلدنج « حياة مستر جوناثان وايلد العظيم » ذكرى هذا الوغد على مر القرون . ومعظم

ذلك الهجو الشديد مكتوب على صورة قصص خيالية ، ولكن الخيال هنا ليس أطرف من الواقع . فقد كان لجوناثان وجهان مثل جانوس ، ينظم اللصوص ويدير شئونهم ويستغلهم ، ويشترى بضائعهم المسروقة بالثمن الذى يفرضه ، ثم يشي بهم للقضاء اذا تمرد عليه شركاؤه . وفتح فى الوقت ذاته مكتبا لطيفا يستقبل فيه ضحايا السرقات ، وكان يعدهم لقاء مكافأة كبيرة بان يرد لهم بضائعهم أو مالهم ، ومن حصيلة هذا كله يحتفظ بعدة خليات ويعيش فى ترف قرابة خمسة عشر عاما . ولكن ثراهه فاق حكمته ، فقبض عليه بتهمة الاتجار فى بضائع مسروقة ، وشنق ، فابتهج جمهور غفير بشنقه (١٧٢٥) . وربما كان هو المثال الذى نسج على منواله مستر بيتشم فى « أوبرا الشحاذ » .

وساد العبث بالقانون المجتمع كله علوا وسفلا ، من النشال المهذب الى التاجر المهرب الى المبارز حامل لقب النبالة . وكان هناك مثلثات المبارزات ، جرى بعضها على قارعة الطريق ، وبعضها فى هايد بارك أو حدائق كنزنجتن ، ولكن أكثرها فى « حقل الأربعين خطوة » خلف قصر مونتاجيو (المتحف البريطانى الآن) . ونذر ان كانت المبارزات قتالة ، لأن المسدسات كانت رديئة الصنع ، وقل من الرجال من استطاع تصويبها بدقة على ثلاثين خطوة ، وأغلب الظن أن كثيرا من المقاتلين حرصوا على اطلاقها فوق رأس الغريم ؛ على أية حال كان الصلح يتم عادة بعد أول جرح . وكانت المبارزات غير مشروعة ، ولكن يغضى عنها بحجة أنها تشجع على التادب فى الحديث . ونذر أن اعتقل مبسارز الا فى الاصابات المميتة ، واذا استطاع الخصم الحى أن يثبت أنه اتبع قواعد اللعبة كان يفرج عنه بعد قضائه فترة قصيرة فى السجن .

وفى سنة ١٧٥١ نشر فيلدنج ، وكان يومها قاضيا ، « تحقيقا فى أسباب الزيادة الاخيرة فى عدد اللصوص ، الخ ، مشفوعا ببعض المقترحات لعلاج هذا الشر المتفاقم » . ولم يعز الزيادة فى أكثرها الى الفقر بل الى ظهور « الترف » بين الطبقات الدنيا ؛ فعامة الشعب لديهم الآن من المال ما يتيح لهم ارتياد الحانات ، وحدائق اللهو ، والمسارح ، والمراقص التنكرية ، والأوبرات ، وهناك يلتقون بأشخاص خبروا الفجور وحذقوا

الجريمة • أما السبب الثانى فى رأى الروائى العظيم فهو الزيادة فى استهلاك الجن • يقول :

« ان شراب الجن هو القوت الرئيسى (ان جاز لنا أن نسميه كذلك) لأكثر من مائة ألف شخص فى هذه العاصمة • وكثير من هؤلاء التوسعاء يترعون عدة أكواب من هذا السم خلال أربع وعشرين ساعة ، ومن سوء حظى أننى أرى وأشم أيضا كل يوم ما يخلفه هذا من آثار رهيبة (٧٦) » •

وأما السبب الثالث فهو القمار ، والرابع قصور القانون ، فقد ترك مهمة القبض على المجرمين لحراس أو خفراء :

« يختارون من بين أناس فقراء ، شيوخ ، عجزة ... يطلب اليهم وهم لا يحملون من السلاح غير عمود لا يكاد يقوى بعضهم على رفعه ، أن يؤمنوا أشخاص رعايا صاحب الجلالة وبيوتهم من هجمات عصابات أوغاد صغار السن ، شجعان ، أشداء ، مستهترين ، مدججين بالسلاح (٧٧) » •

وحتى اذا لم يهرب الحارس عنف اللصوص ، فان فى الامكان رشوته ، وكذلك الضابط الذى يرفع اليه بلاغاته ، وكذلك القاضي الذى ياتيه الضابط بمجرم • وكانت واجبات الشرطة فى لندن موكولة الى ١٠٠٠ ضابط ، و ٤٧٤ معاونا ، و ٧٤٧ حارسا • وبين القبض والادانة قام ٢٢١٤ محاميا بلندن بعضهم ذوو ثقافة قانونية ونزاهة معقولة ، وبعضهم لم يبلغوا هذا المبلغ تماما • قال الدكتور جونسن فى رجل برج الغرفة لتوه ، انه « لا يحب أن يغتاب انسانا ، ولكنه يعتقد أن الرجل محام (٧٨) » •

ولم يوافق فيلدنج على رأى كوك الذى ذهب الى أن « حكمة جميع الحكماء فى العالم ، لو اجتمعوا معا فى وقت واحد ، ما كانت لتعدل » فضائل الدستور الانجليزى • ولعله كان يسلم بأن ذلك الدستور

كما لاحظ فولتير ومونتسكيو قبيل ذلك ، دبر بطريقة تدعو الى الاعجاب حماية الفرد وممتلكاته من طغيان أى ملك ، ولعله كان يثنى على « الهابياس كوريس » ، ومحاكمة المتهمين على يد محلفين ، وعلى مدارس الحقوق العظيمة فى جميعات لندن القانونية . ولم يكن بالامر الهين حقا ان يحرم اعتقال أى شخص انجليزى دون اذن قانونى ، أو سجنه دون محاكمة ، أو عقابه دون ادانة من محلفين من نظرائه ، والا تفرض عليه ضرائب دون موافقة البرلمان ، وأن يكون فى استطاعته أن يجتمع مع زملائه شريطة ألا يخل بالنظام ، وأن من حقه أن يقول ما يشاء ، الا أن يكون ذلك تحريضا ، أو قذفا ، أو فحشا ، أو تجديفا . ولكن مشرعى انجلترا كانوا من الحرص الشديد على حماية الفرد من الدولة بحيث اخفقوا فى حماية المجتمع من الفرد . لذلك كان جهاز تنفيذ القانون ينهار أمام تفشي الجريمة وتنظيمها .

وكان يقوم على تنفيذ القانون العام قضاة صلح ، يمكن أن تستأنف قراراتهم أمام قضاة يقضون فى وستمنستر أو يسافرون ستة أشهر فى السنة ليعقدوا جلسات دورية فى مدن المقاطعات . وكان هؤلاء القضاة يتمتعون بمناصب مدى الحياة ، ويبدون مستوى معقولا من النزاهة . وبقيت المحاكم الكنسية على قيد الحياة وان اقتصررت على نظر القضايا غير الجنائية التى يتهم فيها الكهنة فقط ، أو الفصل فى صحة الزيجات ، أو تنفيذ الوصايا . وكان لمحكمة الأميرالية اختصاص على القضايا البحرية دون غيرها . وفوق هذه المحاكم كانت تقوم المحكمة العليا التى يرأسها قاضي القضاة . اما المحكمة العليا للبلاد فهى البرلمان ذاته ، يحاكم مجلس العموم عامة الناس ومجلس اللوردات النبلاء . وكانت المساواة أمام القانون لا تزال ناقصة ، لأن النبلاء كانوا عادة ينجون من العقاب . فقد أعدم ايرل فررز الرابع عام ١٧٦٠ لقتله وكيله ، ولكن حين حوكت دوقية كنجزتن أمام مجلس اللوردات فى ١٧٧٦ وأدين بتهمة الزواج برجلين فى وقت واحد ، أطلق سراحها دون عقاب سوى تخريمها الرسوم . وظلت اللاتينية لغة المحاكم حتى سنة ١٧٣٠ حين حلت الانجليزية محلها ، الامر الذى تألم له بلاكستن لأشد الألم .

وفى محاكمات الجنايات الكبرى (ومعظم الجنايات كانت كبرى)

كان يسمح للمتهم بأن يوكل محاميا اذا كان ميسور الحال ، وللمحامى أن يستجوب شهود الادعاء ، ولكن لم يكن مسموحا له أن يوجه خطابه الى المحكمة ، فهذا متروك للسجين ، الذى كثيرا ما كان ضعف بدنه أو عقله يعجزه عن تقديم دفاعه . فاذا برىء رد الى السجن حتى يدفع كل « البقاشيش » التى يفرضها عليه الحراس لقاء خدماتهم ، وقبل أن يلغى هذا النظام فى ١٧٧٤ كانت هناك عدة حالات لرجال ماتوا فى السجن بعد أن برئت ساحتهم . أما اذا أدين السجين فانه يواجه قانون عقوبات من أقسى ما عرف فى تاريخ القضاء .

لقد كان هذا القانون يفضل ما سبقه ، كما يفضل الاجراءات المتبعة فى القارة الاوربية ، بتحريمه التعذيب والعقاب على الدواب ، ولم يعد يجدد الانوف أو يصلم الاذان . ولكن فيما عدا ذلك كان يتسم بكل الوحشية التى كان الانجليز الشديدي المراس يومها يرونها ضرورية للسيطرة على جموع الانسان الفطرى . فاذا كانت العقوبة هى الجلد فى ذيل عربة تجر فى الشوارع ، كان منفذها أحيانا يتلقى مبلغا اضافيا ، يجمع من المتفرجين ، لكى يضاعف من شدة ضربات سوطه (٧٩) . وكان السجين الذى يرفض الاجابة فى تهمة كبرى يطرح بحكم القانون على ظهره عاريا فى حجرة مظلمة ، وتوضع أثقال من الحجر أو الحديد على صدره الى أن يعصر عصرا أو تزهرق روحه (٨٠) ، على أن هذا القانون لم ينفذ بعد ١٧٢١ ، ثم ألغى فى ١٧٧٢ .

وطوال القرن الثامن عشر أضافت قوانين أصدرها البرلمان الى عدد الجرائم التى يعاقب عليها القانون بالموت ، ففي ١٦٨٩ كان عددها خمسين ، وفى ١٨٢٠ ارتفع الى ١٦٠ . فالقتل ، والخيانة ، والتزييف وخرق الممتلكات عمدا ، وهتك العرض ، واللواط ، والقرصنة ، والتخريب المسلح ، والتزوير ، وتدمير السفن أو اشعال النار فيها ، والتفليس بالتدليس ، وقطع الطريق ، والسطو على المنازل ، وسرقة أكثر من أربعين سلنا ، وسرقة سلح من المتاجر تزيد قيمتها على خمسة سلنات ، وتشويه الماشية أو سرقتها ، واطلاق النار على موظف الضرائب ، وقطع الاشجار فى شارع أو متنزه ، واحراق غيظ غلال ، وارسال خطابات التهديد ، واخفاء موت زوج أو طفل ، والاشتراك فى

حادث شغب ، واطلاق النار على الأرانب ، وهدم بوابة طريق رئيسية والفرار من السجن ، وتدنيس المقدسات - هذه كلها ، وعشرات غيرها ، كانت تعد جرائم كبرى أيام جورج الأول والثانى والثالث . وقد عكست هذه القوانين تصميم البرلمان على حماية الملكية . وربما كانت الى حد ما النتيجة - والسبب - لما شاع بين الناس من تمرد على القانون ووحشية ولعلها أعانت على تكوين ما يتصف به الشعب البريطانى اليوم من عادات التزام القانون . وخفف من صرامة القانون رفض القضاة او المحلفين غير مرة أن يدينوا المتهمين ، أو ابطال الاتهام لخطأ فنى ، أو تحديد قيمة سلعة مسروقة تحديدا تعسفا بأقل من المبلغ الذى يجعل السرقة جناية كبرى . وفى وقت الحرب قد يصدر عفو عن المذنبين شريطة أن ينخرطوا فى الجيش أو البحرية .

أما عقاب الجرائم الأقل خطرا فكان السجن ، أو المشهرة ، أو الجند ، أو الأشغال الشاقة فى الاصلاحيات ، أو النفى الى المستعمرات . وقضى قانون صادر فى ١٧١٨ ببيع المسجونين المحكوم عليهم الى متعهد يشحنهم بالمراكب على نفقته الى ميريلاند و فرجينيا عموما ، ويبيعهم بالمزاد عادة « الى زراع التبغ نظير قضائهم المدة المحكوم بها عليهم » وأسفر سوء حال السجناء وهم فى الطريق عن نسبة عالية من الوفيات ، وعن انهاك الباقين منهم انهاكا يعجزهم عن العمل حيناً . وقدر أحد مؤلاء المتعهدين بأنه يخسر سبع شحناته البشرية فى الرحلة المتوسطة (٨١) . ولم يقض على هذه التجارة غير حرب الاستقلال الامريكية .

وكثيرا ما كان ترحيل المذنب يفضل على سجنه ، لان السجون كانت سيئة السمعة بسبب قسوتها وقذارتها . فقد كان السجين الجديد يكبل بمجرد دخوله بالاغلال التى تتفاوت ثقلا بتفاوت ما يدفعه للحارس . أما فراشه فمن القش . وأما طعامه فرطل من الخبز فى اليوم ، الا اذا استطاع استكماله بالهدايا من الخارج . واذا استقلنا سجن نيوجيت ، وجدنا أنه لم تبذل محاولات تذكر لتنظيف السجون . فكانت الاوساخ والجراثيم تتراكم فيها فتعدى كل سجين تقريبا بما سمى «حمى السجن» - وهى فى الغالب التيفوس أو الجدري . وذهب جونسن الى أن ٢٥٪ من السجناء كانوا يموتون بـ « حميات عفنة » . وبلغ نتن العفونة والمريض مبلغا كان يحمل القضاة

والمحلفين والشهود والمتفرجين على أن ينشقوا مرارا نشقات من الكافور أو الخل أو الاعشاب العطرية لتغلب على الرائحة الخبيثة . وفى مايو ١٧٥٠ جىء بمائة سجين من نيوجيت ليحاكموا فى «. للإولد بيلى » وهى محكمة جنايات لندن الكبرى . وبلغ من خبث الحمى التى أفسوها أن أربعة قضاة من الستة الذين نظروا القضية ماتوا ، ومات من المحلفين وصغار الموظفين أربعون ، وأمرت المحكمة بعد هذا الدرس بأن يغسل جميع السجناء القادمين للمحاكمة بالخل ، وأن توضع أعشاب زكية الرائحة فى قفص المتهمين (٨٢) .

وكان الرجل الذى يقاضى بسبب الدين ، ويدان ، ويعجز عن الوفاء بدينه أو لا يرغب فى الرفاء به ، يودع مثل هذا السجن حتى يوفى الدين أو حتى يسحب دأئنه الدعوى . وكان الدائن ملزما بحكم القانون بدفع أربعة بنسات فى اليوم مساهمة فى اعاشة سجينه ، ولكنه اذا لم يفعل لم يكن أمام المدين سبيل الا مقاضاته - وهذا يكلفه مالا . على أنه اذا استطاع الحصول على نقود من خارج السجن كان فى امكانه رشوة الحارس وغيره ليسمحوا له بالتمتع بفراش وطعام أفضل ، وبحريات أرحب ، وبالاتناس بزوجته ، لا بل بقضاء أجازة فى المدينة بين الحين والحين . أما المدين المفلس فقد يموت جوعا موتا بطيئا من ضالة جرائته من الخبز اذا عجز عن شراء الطعام . وقد قدر صموئيل جونس أن خمسة آلاف سجين من كل عشرين ألف مفلس يسجنون فى السنة فى المتوسط ، يموتون من الحرمان (٨٣) . وهكذا لم تجد انجلترا وسيلة أكثر رفقا لحماية طبقة رجال الأعمال الصاعدة من الاقتراض المستهتر أو الافلاس بالتدليس .

وارتفعت بعض الاحتجاجات الخفيفة على صرامة قانون العقوبات . ولاحظ جونس ، الذى لم يكن بالرجل العاطفى ، فى ١٧٥١ خطر اعتبار هذا العدد الغفير من الجرائم جرائم كبرى فقال : « ان تسوية السرقة بالقتل ... معناها التحريض على اقتراف جريمة أكبر منعا لاكتشاف جريمة أحقر (٨٤) » . وظهرت أقوى الانتقادات لادارة السجون فى روايات فيلدنج وسموليت وفى رسوم هوجارت . وقد لطف من قسوة هذا النظام تلطيفا متواضعا جيمس أوغلثورب ، الذى تكشف حياته العملية المنوعة النشيطة عن الجانب الانبل لجون بول . وفى ١٧١٤ ترك الكلية وهو

فى الثامنة عشرة لينخرط فى جيش يوجين أمير سافوى ، وقاتل فى عدة معارك ضد الترك . فلما عاد الى انجلترا انتخب عضوا فى البرلمان . واذ كان له صديق سجن بسبب الدين ومات فى سجنه بالجدرى الذى أصابه فيه ، فقد أقنع مجلس العموم بتعيين لجنة - عين على رأسها - للتحقيق فى أحوال سجون لندن . وأفزع القذر والمرض والفساد والظلم الذى أمارت التحقيق اللثام عنه ضمير انجلترا لحظة . فرفت بعض الحراس الذين وجه اليهم أكثر اللوم ، وخففت بعض اللوائح الجديدة من المفساد القديمة ، ولكن معظم المساوئ بقى على حاله ، وكان على الاصلاح الحقيقى للسجون أن ينتظر مجيء جون هوارد . والربع الأخير من القرن الثامن عشر . واتجه أوغلثورب الى الهجرة وسيلة لتخفيف وطأة الفقر فى انجلترا . ففى ١٧٣٣ أسس مستعمرة جورجيا ، وعمل فترة واليا عليها ، فحظر استيراد العبيد ، ورحب بالمورافيين ، وجون ويسلى ، واللاجئين البروتستانت من النمسا . ولما عاد الى انجلترا والبرلمان ، حصل على قانون يعفى المورافيين الانجليز من حلف اليمين أو حمل السلاح . وأصبح الصديق الحميم لجونسون ، وجولدسميث ، وبيرك ، وعمر الى التاسعة والثمانين . وتوج الشاعر بؤب هامته ببيتين قال فيهما « ان انسانا يدفعه حب الخير الشديد سيطيير مثل أوغلثورب من قطب الى قطب (٨٥) » .

٦ - آداب السلوك

ظل الرجال الذين يتنزهون فى الحدائق العامة أو فى بل مل - كما كانوا أيام اليزابيث أو عودة الملكية - هم الجنس الأفخم هنادما . يرتدون - فى غير العمل أو البيت - قبعات مثلثة الأركان ممالة ، تزهو غالبا بالشراريب أو الأشرطة أو العقد ، ويعقصون غداثرهم بـ «فيونكات» جميلة خلف العنق ، أو يغطون رؤوسهم بباروكة مبدرة . وكانت ستراتهم الجميلة التى تحدث حفيفا حول ركبهم تزهو بأزرار قصد بها أن تبهر الناظر أكثر مما تربط السترة ، وكانت الأكمام المصنوعة من القماش المقصب . الفاخر تعلن عن ثراء لابسها أو طبقته . واجتذبت صداريهم المزوقة الانظار بالوانها الفاقعة - الصفراء أو البرتقالية أو القرمزية أو القرنفلية أو الزرقاء - وتدلّت منها دلالية ساعة من الذهب على سلسلة ذهبية .

وكانت قمصانهم المصنوعة من الكتان الرفيع تغطى حواشيها بأهداب تخفى ملابس داخلية من الفانلا ، وكانوا يطوقون أعناقهم فى تائق بالاربطة (الكرافتات) المصنوعة من شاش « اللون » (وهو قماش مستورد من لاون بفرنسا) ، ويثبتون بنطلونات الركوب القصيرة بمشابك عند ركبهم ويثلاثة أزرار فى الخصر ، وثلاثة مخفاة فى لسان يغطيها . أما جواربهم الطويلة فهى عادة حمراء اللون ، ولكنها قد تكون من الحرير الابيض فى المحافل الرسمية . واقتضى الزى فى ١٧٣٠ أن تكون أحذيتهم حمراء عند الاصابع والكعب . على أن فتى العصر كان برغم هذا الجهاز كله يحس أنه عريان اذا لم يتقلد سيفاً . فلما صعدت الطبقات الوسطى فى سلم المجتمع استبدلت بالسيوف العصي التى كانت تتوج عادة بمعدن نفيس وتنقش نقشا بديعا ، ولكن بما أن الشوارع كانت لا تزال محفوفة بالخطر ، فان العصا كثيرا ما احتوت سيفاً . وكانت المظلات قد دخلت الصورة فى أواخر القرن السابع عشر ، ولكنها لم تعم حتى ختام الثامن عشر . واقتضى الركوب فى الحدائق العامة أو خلال الصيد بالكلاب ارتداء أزياء خاصة طبعا ، وقد حاول الشبان المغالون فى التائق (وكانوا يسمون المكرونى) جاهدين لفت الانظار بالاسراف فى الزينة أو التلون . وفريق آخر سمي « سلوفينز » غالوا فى الظهور بعبادات رثة وثياب مهملة ، فنكشوا شعورهم بعناية متمردة وتركوا بنطلوناتهم دون ربطها بالمشابك ، وتباهوا بالوحل على أحذيتهم ، اعلنا لاستقلالهم ودليلا على أصالة التفكير .

أما النساء فكان اذا طلعن على الناس يلبسن كما نتخيلهن فى شبابنا الدهش ، حين كان جسد الانثى سرا غامضا مبهرا عزيز الرؤية . وكانت تنوراتهن الكثيرة الوبر تنفخها عادة أطواق ترفعها فى خفة من خطوة الى خطوة وتكشف تكشف خاديفا عن كعوب متلاثلة وأقدام رشيقة . وكانت الأطواق التى قد تمتد تسع ياردات حول الجسم سدودا ، والمشدات تروسا ، فتطلبت غزوات الحب كل حماسة الفارس ينفذ الى الدروع ويتسلق الاسوار ، وكان هذا الوضع أحفز لخيال الشعراء . وضاع بعض ما لشعر المرأة من بريق وبهاء فى الطبقات المقواة التى علت فوق رأسها علوا اقتضى حمايتها من أن تحرقها الشرقيات . وأخفيت وجوه النساء وراء الغسولات والطلاءات ولصوق التجميل والمساحيق والحواجب

المتحركة ؛ وجندت كل جواهر الشرق لتزين شعورهن وآذانهن ونحورهن وأذرعتهن وثيابهن وأحذيتهن . وكانت المرأة العصرية ، من قبعتها الشامخة وغداثرها المعطرة حتى حذاثها الحريري المرصع بالاحجار الكريمة ، تلبس لتطيح بأى تردد من جانب الذكور المحدثين بها . وفى عام ١٧٧٠ كانت فنون التبرج قد بلغت من السحر حدا حمل البرلمان فى نوبة مرج على اقرار قانون قصد به حماية الجنس الطائش المتهور :

« كل النساء - أيا كان عمرهن أو مقامهن أو مهنتهن أو طبقتن ، وسواء كن عذارى أو صبايا و أرامل ، اللاتى يخدعن أو يغوين أو يوقعن فى الزواج - ابتداء من هذا القانون وبعده - أى ذكر من رعايا صاحب الجلالة بالعطور أو الطلاء أو دهانات التجميل أو الاسنان الصناعية أو الشعر المستعار أو الصوف الاسبانى أو الكورسيهات الحديدية أو الاطواق أو الاحذية العالية الكعوب الخ ، يقعن تحت طائلة العقاب بمقتضى القانون الذى يطبق الآن على السحر وما أشبه من جنح ، ويصبح الزواج بمجرد ادايتهن باطلا (٨٦) » .

وحاولت القوانين المنظمة للانفاق جاهدة أن تحد من الغلو فى الانفاق على اللباس ، ولكن العرف قضى على جميع البريطانيين المخلصين بارتداء ثوب جديد فى عيد ميلاد الملكة كارولين ، التى لبست عند تتويجها ثوبا تكلف ٢٤٠٠٠ ر. ٢٤٠٠ جنيه - أكثرها أحجار كريمة مستعارة .

وكان البيت مكانا يستطيع المرء فيه أن يخلق كل ملبس عسير يقتضيه الظهور ، فيرتدى فيه أى شيء أو أقل القليل من الثياب . ولم تكن النواذع معينة على الفضول لأن عددها خفصه قانون الى خمس ، وفرض على المزيد ضريبة باهتباره ترفا . وكان داخل البيوت مظلمة كتما لم يصمم ليساعد على التنفس . اما الاضاءة فبالشموع ، وهى عادة لا تزيد على شمعة فى وقت واحد لكل أسرة ؛ ولكن الأغنياء كانوا ينورون غرفهم بالثريات المتالقصة وبالمشاعل الزيتية . وفى قصور الموسرين كانت الجدران تجلد بخشب القرو ، والسلالم تصنع من الخشب الضخم والدرايزينات المتينة ، والمدفآت من الرخام الفاخر ، والكراسي تحشى بالشعر ، وتنجد بالجلد . أما الاثاث فمصمم بالطراز

« الجورجى » الثقيل ، تنشابك فيه النقوش ويتلأل بالتغشية بالذهب .
وحوالى ١٧٢٠ أدخل خشب « المجنة » من جزر الهند الغربية ، وكان
أصلب من أن تنفذ فيه الأدوات المستعملة آنذاك ، فصنعت أدوات أحد ،
وسرعان ما أبدع الخشب الجديد أروع قطع الأثاث فى البيوت
الانجليزية .

وكانت البيوت ندفًا بحرق الفحم فى المواقد و الافران المكشوفة أو
حرق الخشب فى مدفات واسعة . وكان هواء لندن غائما بالدخان .
وأصبح تنظيف البيوت مهمة عسيرة ولكن لا مناص منها بسبب ما يتهدهدها
دائما من غبار وسناج . واعتبر الفرنسيون أعداءهم الانجليز أحفل
الشعوب بنظافة بيوتهم بعد الهولنديين . كتب نيكولا دسوسير فى ١٧٢٦
بقول :

« لا يمضي اسبوع الا والبيوت المعنى بها تغسل مرتين فى الايام السبعة
علوا وسفلا ، لا بل تدعك معظم المطابخ والسلالم والمداخل كل صباح .
وينال الأثاث كله ، خصوصا آنية المطبخ جميعها ، أعظم قدر من النظافة .
وحتى المطارق الكبيرة والاقفال التى على الابواب تدعك حتى تلمع (٨٧) »

وهذا برغم غلاء الصابون وقلة الماء . أما غرف الاستحمام فكانت ترفا
لا يستمتع به غير الاقليات ، وكان أكثر الناس يستحمون بالوقوف فى حوض
ورش الماء على أجسادهم .

وكان العامة ينفقون أكثر ساعات البيت وأوقات الصحو فى المطبخ
يلوذون فيه بالموقد الكبير ، فيأكلون ويتجاذبون الأحاديث وأحيانا ينامون
فى المطبخ لأنها واسعة جدا . أما حجرات الطعام فللمناسبات الخاصة .
والغداء عند جميع الطبقات يكون بعد الظهر ، فهو عند الطبقات الوسطى فى
الساعة الثانية أو الثالثة ، وعند الأغنياء فى الخامسة أو السادسة ، فالحال
يومها هى الحال اليوم ، كلما كثر مالك طال انتظارك للغداء . وكانت النساء
فى البيوت العصرية يبرحن القاعة اذا فرغن من الطعام ، لأن الرجال يبدعون
عندها الشراب والتدخين وشرب الانخاب وقص الحكايات . وكان الغداء
وافرا ، ولكنه كان أول ما يتناوله بريطانى المدينة من طعام بعد الفطور
وتصبيرة فى الحادية عشرة صباحا . وقد أدهش الفرنسيين مقدار الطعام

الذى يأكله الانجليزى فى جلسة واحدة . وكان معظم الطعام فى الطبقتين العليا والوسطى من اللحم ، أما الخضر فزخرف لا يؤيه به ، والبودنج الدسم هو التحلية المفضلة والشاى شراب الجميع وان كان ثمن الرطل منه عشرة شلنات . وكان عشاء التاسعة مساء مسك الختام لمنجزات اليوم .

وكان أكثر الانجليز يلوذون بأمان بيوتهم فى الليل ، ويتسلون بالحديث والشرب والشجار والقراءة والموسيقى والرقص والشطرنج والداما والبليارد والورق . قالت دوقة ملبره « بربك لا تحدثنى عن الكتب فكل ما أعرف من كتب هم الرجال والورق (٨٨) » . وكان الاساقفة والقساوسة ، وحتى الوعاظ المتزمتون من أتباع المذاهب المنسقة على الانجليكانية ، يلعبون الورق ، وكذلك الفلاسفة ، فندب أن مضى هيوم الى فراشه دون أن يلعب دورا من الهويست (وهو البردج الآن) . وفى ١٧٤٢ نسق آدموند هويل قوانين الهويست فى « رسالة موجزة » . وبعدها وجب أن تلعب اللعبة « وثق قوانين هويل » ، وذلك حتى عام ١٨٦٤ . وكانت الحيوانات البيتية الأليفة ضرورة فى الأسرة ، ولا تقتصر على الكلاب والقطط ، بل قد تجد هنا وهناك سناسا أو اثنين (٨٩) . وكل امرأة تقريبا تربي الأزهار ، ولكل بيت تقريبا حديقة .

وجعلت انجلترا من تصميم الحدائق غراما قوميا ، وهى التى أغدقت عليها الطبيعة نعمة المطر حتى ضاقت به . وفى عهد تشارلز الثانى كانت الحدائق الانجليزية تنسج على منوال النماذج الفرنسية - لا سيما فرساي - ، فتصمم الحدائق « النظامية » على خطوط هندسية ، سواء المستقيمة أو المستطيلة أو نصف القطرية أو الدائرية ، وبوفر لها الأفق الجميل والمنظور الرائع (وقد دخلت هذه الألفاظ الثلاثة perspective, vista, picturesque اللغة الانجليزية فى القرن السابع عشر) ، والأشجار ومنابت الشجيرات ، والسيجات المقلمة فى خط منسق ، والتمائيل الكلاسيكية الموزعة توزيعا متناسقا . وكانت حدائق اللهو بفوكسهول ورينلاج نصمم على هذا النحو ، ونستطيع أن نجد عينة من هذا الطراز النظامى اليوم فى هامتن كورت . ومع أن الطراز كان منسجما مع أدب « العصر الاوغسطى » الكلاسيكى الجديد ، فان خير

ممثلى ذلك العصر من الادباء ، وهما اديسون وبوب ، تمردا على الحديقة النظامية ، والحا بادب فى المطالبة بـ « حديقة طبيعية » ، تترك على الاقل جزءا من سحاء الطبيعة وخصبها دون تشذيب أو تهذيب ، وتولد المفاجآت البهيجة باحتفاظها بشذوذات الطبيعة غير المتوقعة . وشاركت التأثيرات الصينية فى هذا التمرد ، فحلت هياكل الباجودا محل التماثيل فى بعض الحدائق ، وبنى دوق كنت فى حدائقه بكيو بيتا لكونفوشيوس . وكامنت الحديقة الطبيعية انعكاسا لطومسن وكولنز العاطفيين أكثر من اديسون المحتشم وبوب المتأنق المرتب ؛ وشاركت هذه الحديقة « شعراء الوجدان » فى سوبرانو « رومانسي » لباص كلاسيكى . واتفق بوب وطومسن فى اطراء الحدائق التى صممت على ضيعة « ستو » التى يملكها رتشرد تمبل ، فيكونت كوبم . وكان تشارلز بردجمان قد بداها على تصميم نظامى ، فأعاد وليم كنت ولانسلوت « كيابلتي » براون تشكيلها وفق نمط طبيعى ، فأصبحت حديث هواة فلاحه البساتين فى انجلترا وفرنسا ، وظفرت بثناء جان جاك روسو .

ومن وراء الحدائق انسابت النهرات يجدف فيها ركاب الزوارق ويحلم عندها هواة الصيد الكسالى باقتناص السمك ، والغابات يطلق فيها الرجال رصاصهم على الديوك البرية أو القطا أو الحجل أو الدجاج البرى ، أو يتبع فيها الصيادون ذوو الأردية القرمزية كلابهم ليلحقوا بالثعلب المحاصر فى ركن أو الأرنب البرى المرهق . أما البريطانيون الأقل يسارا فيتسلون بالكريكيت والتنس والفأيف (كرة اليد) والبولنج (الكرات الخشبية) وسباق الخيل ، وقتال الديكة ، وتحريش الكلاب بالدببة ، ومباريات الملاكمة - بين النساء أو بين الرجال على السواء . وكان المتكسبون بالملاكمة أمثال فج وبايبر معبودى كل الطبقات ، يجتذبون الى الحلبة الحشود الكبيرة ، ويتلاكمون - الى عام ١٧٤٣ - بقبضاتهم عارية بغير قفازات ؛ ثم أدخل استعمال قفازات الملاكمة ، ولكن سنين كثيرة انقضت قبل أن يغير المتفرجون رأيهم فيها ، وهى أنها ليست سوى وسيلة مخنثة لا تليق بجون بول . وكان من الملاحى التى أعلن عنها فى لندن فى ١٧٢٩ - ٣٠ ٨ - قصة الحضارة

« ثور هائج ترشق فيه الصواريخ ويطلق حرا » فى حلبة ، و « كلب ترشق فيه الصواريخ من فوقه ، ودب يطلق فى الوقت ذاته ، وقط يربط الى ذيل الثور (٩٠) » . وفى لعبة سموها « قذف الديوك » كان ديك يربط الى عمود ، ثم يقذف بالعصي من بعيد حتى يموت . وكانت أحب مباريات الديكة الى الشعب تلك التى تطلق فيها مجموعة منها تصل الى ستة عشر ديكا على مجموعة أخرى معادلة حتى يقتل كل الديكة فى أحد الجانبين ، ثم تقسم الديكة المنتصرة الى معسكرين متقاتلين ، يقتتلان حتى يفنى جميع الديكة فى أحدهما ، وهكذا دواليك حتى يموت الجميع الا ديكا واحدا . وكانت الاقاليم والمدن والقرى تحرش ديوكها بعضها ببعض بوطنية رفيعة ، وقد أطرى كاتب لطيف هذه الرياضات باعتبارها معادلا أخلاقيا للحرب (٩١) . وكانت كل الرياضات تقريبا تشفع بالمراهنات .

أما الذين لم ترقهم هذه المناظر فكان فى وسعهم أن يلتمسوا التسلية فى فوكسهول أو رينلاج ، ففى حدائقهما الظليلة يستطيعون لقاء شلن أن يستمتعوا بما تستشعره الجماهير من دعة وأمان شريطة أن يحرصوا على جيوبهم ، هناك يستطيعون أن يرقصوا أو يشاركوا فى الحفلات التثكورية ، ويجلسوا تحت أغصان مضادة بالمصابيح ، أو يرشفوا الشاي ويرقبوا سيدات المجتمع وفتيان العصر ونجوم المسرح العابرين بهم ، ويتطلعوا الى الصواريخ النارية أو الألعاب البهلوانية ، ويستمعوا الى الموسيقى الشعبية ، ويتناولوا الطعام فى أبهة رسمية ، أو يلتمسوا المغامرات فى أزقة العشاق المتوارية عن الانظار فى شكر وعرفان . وفى رينلاج ، تحت سقف قاعة « الروتندا » الكبرى ، كانوا يستطيعون أن يرقوا بأنفسهم الى موسيقى أسمى فى وسط قوم من طبقة أوجه . كتب هوراس ولبول فى ١٧٤٤ يقول « فى كل ليلة أذهب الى رينلاج التى هزمت فوكسهول هزيمة ساحقة ، فما من انسان يذهب الى غيرها ، وكل الناس يذهبون هناك (٩٢) » . وكانت فوكسهول ورينلاج تغلقان أبوابهما شتاء ، ولكن الانهار قد تتجمد ، وهنا تزدهر رياضات الشتاء . وحدث فى عيد ميلاد ١٧٣٩ أن تجمدت الانهار حتى التيمز ، وأبدى اللندنيون روحهم العالية بتنظيم كرنفال من الرقص والاكل على الجليد ، واستمتع بعضهم بنشوة ركوب العربات على النهر من لامبث الى كوبرى لندن (٩٣) . وأخيرا كان هناك المهرجانات الكبيرة حيث يلتقى المرم

بكل العالم من غير أصحاب الالقاب ، ويستمتع بثتى المشاهد من صندوق الدنيا الى الرجال الطائرين .

أما آداب السلوك ، فاننا اذا استثنينا بعض النساء المثقات ، وجدنا فيها الخشونة وفحش الكلام . وسيرينا المصور هوجارث حياة العامة ، ولكنه لن يرينا حديثهم . فالعاهرات ، والفساق ، وسائقو عربات الجر ، والمراكبية ، والجنود والبحارة ، كلهم كانوا أساتذة فى اللعن وفحش القول ، وقد خلد باعة السمك فى بلنجزجيت (واللفظ معناه لغة السوق) ذكرى سوقهم ببذاعتهم التى لا مثيل لها . وكان الحديث فى الفنادق والحانات أقل مرحا ولكنه متحرر الى حد البذاءة وكان الرجال حتى فى بيوتهم يروعون النساء بقصصهم وسبابهم وأنخابهم . ولم تكن السيدات أنفسهن يترفعن عن الشتيمة العنيفة أو يتورعن عن القباحة المرحه .

أما فى مشارب القهوة والأندية فاللغة أكثر تهذيبا . وقد كتب ستيل وسويفت وفيلدنج وكوبر وجونسن عن الحديث ، بوصفه فنا مهذبا . وفى وسعنا أن نتصور الرجال فى اجتماعاتهم التى يحرصون على اقضاء النساء عنها ، يرشفون قهوتهم أو جعتهم ، ويترعون خمرهم ، ويدخنون ببياتهم ، ويتجادلون حول المناقشات البرلمانية ، وحول شراء روبرت ولبول للأصوات ، والسياسة المنكرة التى ينتهجها

أولئك « الكلاب الفرنسيون » وراء المانش . وكان الضحك عميقا فى البطون ، عاليا فى الحناجر ، رغم مناشدات الأخلاقيين أمثال شافتسبرى وغيرهم ممن لا نزعاة أخلاقية تميزهم مثل تشسترفيلد ، بوجوب ترك الضحك للوضعاء ، ويان يخفف حتى يصل الى مجرد الابتسامه (٩٤) . أما تعاطى النشوق أو السعوط ، الذى ورد ذكره أول مرة فى ١٥٨٩ ، فكان قد بات شعيرة مرعية عند الجنسين ، وقد ظن القوم أن للنشوق (وهو التبغ المسحوق) قيمة دوائية كالقهوة ، فالعطس الذى يحدثه يظهر المسالك الأنفية ، ويشفى من الصداع ، والبرد ، والصمم ، والخمول ، وجهدي الأعصاب ، ويصلح الدماغ . ولم ير شخص ، رجلا كان أو امرأة كامل الهندام بغير علبة النشوق ، وعلى تلك الحاشية الملحقه

بصاحبها (أى العلبة) أفرغ الصائغ والجواهرى ، وصانع المينا ،
ورسام المنمنمات ، أرق ما جاد به فنههم .

وكانت مشارب القهوة الثلاثمائة فى لندن مراكز للقراءة كما كانت
منتديات للسمر . فقد اشتركت فى الجرائد والمجلات ، وإدارتها على
زيائنها ، ووفرت الأقلام والورق والحبر ، وتسلمت الخطابات لارسالها
بالبريد ، وقبلت أن تحفظ البريد المرسل الى عناوينها . وتطورت بعض
مشارب القهوة أو الكاكاو ، مثل مشرب هوايت ، فى هذه الفترة الى
اندية خاصة يطمئن الرجال الى أن يجدوا فيها الصحبة التى يؤثرونها
على غيرها ، ويستطيعون أن يلعبوا القمار بمنأى عن عيون الرقباء .
وما اختتم القرن الثامن عشر حتى كان عدد الاندية مماثلا لما كان عليه
عدد مشارب القهوة فى بدايته . ويبدو أن الماسون (البنائين الأحرار)
بدأوا تاريخهم الانجليزى على هيئة ناد سموه « المحفل الكبير » - نظم
بلندن فى ١٧١٧ . وشجعت الاندية الشرب والقمار والدس السياسى ،
ولكنها علمت الرجال على الأقل نصف فن الحديث . أما النصف الآخر
من هذا الفن فكان مفقودا ، لأن الاندية كانت خلوات للعزاب ، ولم يجد
الادب الأرفع والفكاهة الارق اللذان يتطلبهما وجود النساء ما يحفزهما
هناك . فلقد كانت انجلترا بلد الرجال ، أما النساء فلم يكن لهن فى
حياتها الثقافية الا حظ ضئيل ، ولم يكن بها صالونات ، فلما حاولت
المليدى مارى مونتاجيو أن تقيم صالونا نظرت القوم اليها كأنها مخلوق غريب
الاطوار لا يعرف أين مكانه (٩٥) .

واستطاعت النساء فى الطبقات العليا أن يستخدمن مهارتهن فى
الاستقبالات ، والمراقص ، وحفلات الموسيقى فى البلاط أو فى بيوتهن .
وكانت نهاية الاسبوع فى بيوت الريف حدثا جميلا فى الحياة الانجليزية
لا يكدره بعض الشيء غير تلك « البقاشيش » الكبيرة التى ينتظر الخدم
أن ينفحوا بها ، وكان على الضيف وهو يغادر البيت أن يغامر بالمرور
وسط الاتباع ، والسقاة ، والخدم ، والقهرمانات ، والبسوابين ،
والخادومات ، والطباخين وغيرهم من الخدم والحشم يقفون فى صفين
صند الباب ، فى حين ينتظر مائق المركبة وسائس الخيل خارجا فى
عبوس وتجهم . وما ذاع عن ولاء الخدم البريطانيين لسادتهم لم يكن

له كبير سند من الواقع فى النصف الاول من القرن الثامن عشر ، فقد كانوا فى كثير من الحالات عديمى المبالاة ، وقحين ، متمردين ، لا يترددون فى التنقل من بيت الى بيت لقاء أجر أفضل . وكان كثير منهم يسرقون رب البيت وربته والضيوف اذا استطاعوا ، ويشربون خمر مولاهم ، وتلبس الخادما حلى سيداتهن أو ملابسهن .

وكانت قمة انتماء شخص ما الى المجتمع العصرى ، بعد أن يقبل فى البلاط الملكى ، أن يلم بمنتج للمياه المعدنية ، يشرب فيه المياه الطبية ، أو يستحم مع صفوة القوم بعيدا عن البحر المختلط . واشتهرت تنبردج بينابيعها ، ولكن روادها كانوا اخلاطا . أما عيون ابسوم فكانت تقدم لروادها الموسيقى ، ورقصات المريسة ، والكلاب المؤدية للالعاب ، والمياه المسهلة وان لم تجمع بعد معادنها فى « أملاح ابسوم » . ولم يكن الاستحمام فى البحر رياضة محببة ، وان لحظ تشستر فيلد شيئا منه فى سكاربرو ، ولكن فى ١٧٥٣ تدفقت الى البحر موجة بشرية بفضل كتاب الدكتور رتشرد رسل « فى سل الغدد وفائدة مياه البحر فى أمراض الغدد » ، وتفتحت قرى ساحلية مثل برايتون لتزدهر منتجعات للاستحمام ، مع أنها لم تعرف من قبل غير أسر صيادى السمك المتواضعة .

أما الأرستقراطيون ففضلوا مدينة باث . فهناك ، وسط أرقى البريطانيين من ذوى الأسقام ، يشرب الرواد - ويستحمون فى مياه خبيثة الرائحة موصوفة لشفاء أوصاب من اتخموا بالغذاء الطيب . وكانت مدينة الينابيع الصغيرة قد فتحت أول غرفة ذات مضخة فى ١٧٠٤ ، وأول مسارحها فى ١٧٠٧ ، وبعد عام أول « غرف اجتماعاتها » التى نوهت بها قصص فيلدنج وسموليت . وفى ١٧٥٥ اكتشف الحمام الرومانى الكبير . وأعاد جون وود وابنه بناء المدينة بالطراز الكلاسيكى كما سنرى . وفى ١٧٠٥ ، أصبح ناش « الجميل » ، وكان محاميا ومقامرا ، دكتاتور حياتها الاجتماعية . فحظر السيوف فى ماكن اللهو العامة ، ووفق فى أن يجعل المبارزات - فى باث - عملا ضارا بالسمعة . وأقنع الرجال بأن يلبسوا الأحذية المكشوفة بدلا من الطويلة . وكان ذو ذاته يلبس قبعة بيضاء هائلة ، وسترة كثيرة الوشي

غنية التطريز ، ويركب عربية تجرها ستة خيول يتحتم أن تكون شهياء ،
ويعلن عن قدومه بنفير فرنسي مرح . وقد أصلح من شأن الطرق
والمباني ، وخطط الحدائق الجميلة ، ووفر الموسيقى ، وسحر الجميع
الا قلة منهم بلطفه وظرفه . وتوافد نبلاء الانجليز على مملكته ، لأنه
وفر لهم موائد القمار كما وفر الحمامات ، فلما سنت قوانين تحرم القمار
ابتكر ألعاب حظ جديدة تتفادى القوانين . واخيرا وفد على باث جورج
الثانى ، والملكة كارولين ، والأمير فردريك لويس ، وغدت باث حينها
بلاطا ثانيا . ولا ريب فى أن ايرل تشسترفيلد الذى كان يعيش المدينة
كان مطبقا على صفوتها ذلك الوصف الذى وصف به جميع البلاطات
بقوله أنها أماكن « يجب أن تتوقع أنك ستلتقى فيها بارتباطات دون
صداقة ، وعداوات دون ضغينة ، ونباله دون فضيلة ، ومظاهر تنقذ
وحقائق تضحى ؛ آداب حسنة مشفوعة بأخلاق سيئة ، وكل الرذائل
والفضائل مقنعة ، حتى أن كل من كان يميز بينها بعقله فقط لن يتبين
الواحدة من الأخرى حين يلقاها أول مرة فى البلاط (٩٦) » .

٧ - تشسترفيلد

فلننفق نصف ساعة مع هذا النبيل المرهف الحس . فقد تمثلت فيه
خصائص ارسقراطية العصر الانجليزية ، اللهم الا تاليفه كتابا حسنا .
ذلك أن هذا الكتاب « رسائل لولده » ، الذى درج الناس على الغض
من قدره ، هو خزانة من الحكمة فى نثر مشرق ، ومرشد محكم لعادات
طبقتة ومثلها العليا ، واعلان جذاب عن ذكاء مرهف مهذب .

كان اسمه بالعماد (١٦٩٤) فليب دورمر ستانهوب ، بن فليب
ستانهوب ، ايرل تشسترفيلد الثالث ، والليدى اليزابث سافيل ، ابنة
جورج سافيل ، مركز هاليفاكس ، المسائر الماكر للعهود الملكية
السابقة . ماتت أمه فى طفولته ، وأهمله أبوه ، فكفلته مركيزة
هاليفاكس . وحذق تعلم الكلاسيكيات واللغة الفرنسية على يد معلم
خاص ، فأصبحت ثقافة روما وفرنسا إبان نضجهما جزءا من عقله .
وانفق سنة فى كمبردج ، ثم انطلق فى ١٧١٤ فى الرحلة الكبرى . وفى
لاهاى قامر بمبالغ كبيرة ، وفى باريس جرب عيئات من النساء تجرية

الفاسق الذواقة للنساء ، ومن باريس كتب (٧ ديسمبر ١٧١٤) يقول :
« لن أبدى لك رأيي في الفرنسيين ، فكثيرا جدا ما يخالني الناس
واحدا منهم ، وقد حياني العديدون منهم بأسمى تحية يمكن - في
اعتقادهم - أن يحيوا بها انسانا ، وهي : « سيدى ، انك على شاكلتنا
تماما » حسبى أن أقول اننى وقح ، كثير الكلام ، على الصوت ،
أمر ناه ، أغنى وأرقص أثناء سيرى ، وأهم من هذا كله اننى انفق مبلغا
باهظا على شعرى ، ومساحيقى ، وريشي ، وقفازى الأبيض (٩٧) » .

فلما عاد الى انجلترا عين وصيفا لمخدع أمير ويلز وقتها (الذى
أصبح جورج الثانى) . وكان جيمس ستانهوب ، الوزير الاثير لدى
جورج الاول ، قريبا لفليب . وعثر له على دائرة يمثلها في البرلمان ،
فظل أحد عشر عاما عضوا من أعضاء حزب الأحرار في مجلس العموم .
فلما أصبح ايرل تشستر فيلد الرابع بعد موت أبيه (١٧٢٦) نقل الى
مجلس اللوردات ، الذى قال في وصفه فيما بعد انه « مجلس ذوى
الأمراض المستعصية » . وحين أوفد الى لاهاي سفيرا (١٧٢٨) قام
بمهمته خير قيام ، فخلع عليه وسام ربطة ساق الفروسية وعين وكيلا
أكبر للبيت الملكى . وفى ١٧٣٢ أنجبت له خلية تدعى الآنسة بوشيه
ولدا هو فليب ستانهوب ، الذى وجهت اليه فيما بعد « الرسائل » التى
كتبها أبوه . وبعد عام تزوج الكونتيسة ولزنجهام ، ابنة جورج الاول
غير الشرعية من دوقة كندال . ولعله توقع أن تأتية بمهر ملكى ،
ولكنها لم تفعل ، فكان زواجا شقيا شقاء ارستقراطيا .

وكان من الجائز أن يرتقى الى منصب ارفع لولا معارضته مشروع
قانون لولبول بفرض ضريبة انتاج على التبغ والنيذ . وقد عاون على
هزيمة القانون ، وما لبث أن طرد من الحكومة (١٧٣٣) . وكافح
ليسقط ولبول ، وضيع صحته ، واعتكف في القارة (١٧٤١) ، وزار
فولتير في بروكسل ، واختلط بفونتنيل ومونتسكيو في باريس . فلما
قفل الى انجلترا واصل سياسة المعارضة للحكومة . وقد أبهجت المقالات
التي كتبها تحت اسم « جفرى برودبوتوم » لصحيفة جديدة تدعى
« انجلترا القديمة » سارة ، دوقة ملبره ، فاوصت له بعشرين ألف جنيه .
وفى ١٧٤٤ فاز حزبه ، حزب « البرود بوتوم » (الأحرار) . وانضم

الى بلام فى الوزارة ، واوفد الى لاهاي ليقنع الهولنديين بالانضمام الى انجلترا فى حرب الوراثة النمساوية . فادى المهمة بلباقة وحذق ، ورقى الى منصب نائب الملك فى ايرلنده (١٧٤٥) وكانت السنة الوحيدة التى قضاها فى ايرلنده أنجح سنى حياته . فقد أنشأ المدارس والصناعات وطهر الحكومة من الفساد والرشوة ، وصرف شئون الحكم بكفاية ونزاهة . وأنهى اضطهاد الكاثوليك ، ورقى العديدين منهم الى مناصب الحكومة وبلغ من اكتسابه احترام السكان الكاثوليك له أنهم حين غزا المطالب الشاب بالعرش الانجليزى انجلترا من اسكتلنده ، وتوقعت انجلترا ثورة فى ايرلنده تنشب فى الوقت ذاته ، رفضوا أن يثوروا على تشستر فيلد .

ورد الى انجلترا وزيرا (١٧٤٦) . ولكن استاذ الرفق واللباقة اقترب غلطة مدمره . ذلك أنه تودد الى خليطة الملك لا الى الملكة ، فنجحت كارولين فى تدبير سقوطه . وفى ١٧٤٨ طلق الحياة العامة ، وانكفا كما قال الى « حصانى ، وكتبى ، وأصحابى (٩٨) » وعرض عليه جورج الثانى لقب الدوقية ، ولكنه رفضه . وفى ١٧٥١ قاد حركة تبنى التقويم الجويجورى ، وتحمل وطأة استياء الشعب من « السرقة البابوية » لأحد عشر يوما من الشعب الانجليزى . وفى ١٧٥٥ سلب عليه جونسن ناره بمناسبة اهداء المعجم الذى ألفه ، وسنلقى نظرة على هذه المعركة الصاخبة فى موضع لاحق .

وكان خلال ذلك يكتب الرسائل لولده منذ ١٧٣٧ . وينم حبه لهذه الثمرة الجاذبية لسفارته الأولى فى هولنده على الحنان الذى أخفاه عن الجماهير خلال أكثر حياته . قال للفتى : « منذ رأيت عيناك نور الحياة أصبح شغلى الشاغل ، المحبب الى نفسي ، أن أجعلك أكمل ما يسمح به قصور الطبيعة البشرية (٩٩) » . وقد خطط لتعليم فليب ، لا ليحمله مسيحيا مثاليا ، بل ليعده للسياسة والدبلوماسية . وبدأ والغللام فى الخامسة بخطابات عن الأساطير الكلاسيكية والتاريخ القديم . وبعد عامين راج يعزف النغمة التى لن يفتا يلح عليها فى رسائله . يقول :

« فى خطابى الأخير كتبت لك عن أدب المجتمع العصرى ،

كاولئك الذين ألفوا ارتياد القصور ، وهم القطاع الانيق من النـوع الانسانى . وأدبهم عفوى طبيعى ، وعليك أن تميز بينه وبين تادب الدهماء والريفيين ، وهو تادب مقيّد أو مزعج دائما . فالرجل المهذب يبدى رغبة دائمة فى أن يسر من يتحدث اليه ، ويحرص على ألا تكون تحياته مزعجة . وقل من الانجليز من يتصفون بالأدب الكامل فهم اما خجلون واما وقحون ، فى حين تجد معظم الفرنسيين طبيعيين مؤدبين فى سلوكهم . وبما أنك بحكم النصف الأفضل فرنسي صغير ، فانى أرجو أن تكون على الأقل « نصف » مهذب . وستكون أميز وأبرز فى بلد ليس الأدب فيه فضيلة غالية (١٠٠) » .

وعليه فحين بلغ فليب الرابعة عشرة أرسله أبوه الى باريس باعتبارها المدرسة التى تنهى صقل عاداته وان كان عليما بأنها ستنتهى فضائله أيضا . وكان على الفتى أن يتعلم أساليب الحياة أن أراد ان ينفع حكومته . والدراسة المناسبة لرجل الدولة هى دراسة الانسان ، فبعد أن علم الوالد ولده العلوم الكلاسيكية وفنون الأدب عن طريق المعلمين الخصوصيين والرسائل ، رده الايرل - الذى كان خبيرا بهذه العلوم والفنون - من الكتب الى البشر . قال :

« يا صديقى العزيز ، ان قلة قليلة من المفاوضين المشهورين هم الذين برزوا بفضل علمهم . . . فدوق ملبرة الراحل ، الذى كانت كفايته مفاوضا تعدل على الأقل كفايته قائدا حربيا ، كان جاهلا جهلا مطبقا بالكتب ، ولكنه كان خبيرا بالرجال ، فى حين ظهر ان جروتويس العلامة كان وزيرا خائبا غاية الخيبة ، سواء فى السويد أو فى فرنسا (١٠١) » .

فاذا شاء فليب أن يلتحق بالحكومة فينبغى له أولا أن يدرس الطبقات الحاكمة ، بيئتهم ، وأخلاقهم ، وعاداتهم ، وغاياتهم ، ووسائلهم ؛ والا يقرأ غير أجود الأدب ليكتسب أسلوبا حسنا فى الكتابة ، لأن هذا أيضا جزء من فن الحكم ؛ وأن يلم بالموسيقى والفنون ، ولكن ، حذار أن يتطلع لأن يكون مؤلفا أو موسيقيا (١٠٢) . وينبغى له أن يدرس بعناية تاريخ الدول الأوروبية الحديث ، ملوكها ووزرائها ، قوانينها ودساتيرها ، مائياتها ودبلوماسيتها ، وليقرأ ما كتبه لاروشفوكو ولابروير

عن طبائع البشر ، انهما حقا « كلبان » ، ولكنك لن تخطىء خطأ كبيرا ، فى السياسة على الأقل ، ان اذت توقعت من كل انسان أن يسعى لتحقيق مصلحته كما يراها ، ولنسى الظن باى سياسي يتظاهر بغير هذا . ولا نتوقع من الناس أن يكونوا معقولين ، بل خذ فى حسابك أهواءهم . « ان أهوانا هى خيلاتنا ، اما العقل فهو الحيلة على أحسن تقدير ، يسمع كثيرا جدا بلا ريب ، ولكن نادرا ما يعبا به (١٠٣) » تعلم أن تتملق ، لأنه لا يمتنع على الملق سوى أحكم الحكماء وأقدس القديسين ، ولكن كلما صعدت وجب أن يكون تملقك أرهف وأحوط . وأدرس اسباب اهم الأسر ، لأن البشر أكثر افتخارا بأنسابهم منهم بفضائلهم (١٠٤) ، وتودد للنساء ، أولا لتحصل على معونتتهن ، فحتى الحكام الأقوياء يتاثرون بالنساء الضعيفات ، لا سيما اذا لم يكن أزواجهم .

أما فى مسائل الجنس ، فان نصيحة تشسترفيلد لولده أضحت الفرنسيين وروعت الانجليز . فقد ذهب الى أن طرفا من العلاقات الغرامية الحرام اعداد ممتاز للزواج والذئج . واكتفى بالاصرار على أن تكون خليلات فليب نساء مهذبات ، حتى يصقلنه وهن ياثمن معه . وزكى له مدام دويان لما كانت عليه من « حسن التربية ورقة الطبع (١٠٥) » ولقن ابنه فن الاغواء . فعليه الا يقبل أى تمنع وهو مستسلم ، لأن :

« أكثر النساء فضيلة لن يسوءها أن يبوح لها رجل بحبه ، بل ان ذلك يشبع غرورها شريطة أن يكون بأسلوب مؤدب لطيف . فاذا استمعت اليك ، وسمحت لك أن تفصح ثانية عن حبك ، فثق أنك ان لم تغامر بالباقي كله سخرت منك . فاذا لم تلق منها أذنا مصغية فحاول ثانية ، وثالثة ، ورابعة . وثق ، اذا لم يكن المكان قد احتل من قبل ، أن فى الامكان غزوه (١٠٦) » .

ثم أفضي الايرل ، الذى لم يكن محظوظا فى الزواج ولا مولعا به ، الى ولده برأيه فى النساء ، وهو رأى لم يكن بالحسن جدا :

« فى هذا الموضوع سأفضي اليك ببعض الاسرار التى سيفيدك جدا ان تلم بها ، ولكن عليك أن تحرص أشد الحرص على اخفائها وعلى ألا تبدو

ملما بها . فاعلم اذن أن النساء ما هن الا أطفال كبار ، فيهن ثرثرة مسلية ، وأحيانا ذكاء ، أما من حيث التفكير الرصين والادراك السليم ، فما عرفت فى حياتى امرأة أتيح لها هذان ، أو فكرت أو تصرفت منطقيا ولو أربعا وعشرين ساعة كاملة . . . والرجل الفطن انما يلهو بهن ، ويلعب معهن ، ويلطفهن ، ويتملقهن . . . ولكنه لا يستشيرهن أبدا فى الخطير من الأمور ولا ياتمنهن عليها وان موته عليهن كثيرا بانه يفعل الاثنين ، وهو أشد ما يفخرن به فى هذه الدنيا ، لأنهن ولوعات بالتسلى بالتجارة (التى يفسدنّها دائما) . . . وليس هناك ملق يرينه فوق ما يستأهلهن أو دونه ، انهن يبتلعن أبلغ الملق فى شراة ، وبقبلن أقله فى شكر وعرفان ، وفى وسعك أن تتملق أى امرأة مطمئنا ، بادئا بقوة ذكائها ومنتهيا بذوق مروحتها الرفيع . وخير ما تتملق به النساء الجميلات و القبيحات جمالا أو قبحا غير منازع هو الاشادة بذكائهن (١٠٧) .

وقال الايرل أن النساء فى فرنسا يجب تملقهن فى مثابة وكياسة لسببين : فان فى استطاعتهن أن يقررن مصير الرجل فى بلاط الملك ، وأن يطمئن لطائف الحياة وفنونها . فالنساء يحتفظن بسحرهن برشاقة الحركة والسلوك والحديث لا بجمالهن ، فالجمال بغير الرشاقة لا يجتذب الرجل ، وأما الرشاقة بغير الجمال فما زالت لها القدرة على الفتنة . « ان النساء هن المذهب الأوحد لكفاية الرجال . صحيح أنهن لا يستطعن اضافة وزن لها ، ولكنهن يصقلنها ويضيفن عليها بريقا (١٠٨) » . وحذر الايرل ولده من الكلام بسوء عن النساء ، فهذا أمر مبتذل ، سوقى ، أحق ، ظالم ، لأن النساء اقترفن فى هذه الدنيا من الأذى أقل كثيرا مما اقترفه الرجال . ثم انه ليس من الحكمة أبدا مهاجمة « فئات بجملتها » أو طبقات أو جماعات ، « فقد يصفح الأفراد ، أما الهيئات والجماعات فلا (١٠٩) » .

ولم يمل تشسترفيلد من تلقين ولده أصول السلوك المذهب . « فالعادات المذهبة هى الوسيط الثابت المستقر للحياة الاقتصادية ، كما أن نوع السلعة هو الوسيط المقرر فى دنيا التجارة . والناس يتوقعون عائدا فى الحالين على السواء ، وهم لا يقدمون احترامهم لانسان فظ ، أكثر مما يقرضون مالهم لانسان مفلس (١١٠) » .

ومما يعين فى هذا المجال أستاذ رقص قدير ، فهو يعلمنا على الأقل كيف نقعد ، أو نقوم ، أو نمشي دون تبديد فى الجهد والطاقة . واذ كان الايرل أرسقراطيا ، فقد سمى السلوك المهذب « تربية طيبة » ، فلقد تبين دون وعى منه ، وربما محقا ، كيف يصعب على انسان اكتساب العادات المهذبة دون أن يكون قد ربى فى أسرة وتحرك فى محيط لهما هذه العادات . « ان من سمات الرجل الطيب النشأة ان يتحدث الى من هم أدنى منه دون صلف ، والى من هم أعلى منه باحترام ويسر (١١١) » فعلى المرء الا يستغل علوا فى المقام جاء وليد الصدفة .

« لا تستطيع أن تحسب ، وأنا واثق أنك لا تحسب ، أنك أرقى بحكم الطبيعة من ذلك السافواوى الذى ينظف حجرتك ، أو الخادم الذى ينظف حذاءك ، ولكن لك أن تغتبط ، وبحق ، لما حبسك به الحظ دون غيرك . فاستمتع بتلك المزايا ، ولكن دون اهانة أولئك الذين قضى القدر بحرمانهم منها ، أو حتى الاتيان دون موجب باى عمل قد يذكرهم بذلك الحرمان . وأقول لك عن نفسى اننى أشد حرصا على سلوكى نحو خدمى وغيرهم ممن يدعون أدنى منى ، منى نحو نظرائى ، مخافة ان أتهم بتلك العاطفة القبيحة الوضيعة ، وهى الرغبة فى اشعار غيرى بذلك الفارق الذى أوجده الحظ بيننا ، ربما دون استحقاق على الاطلاق (١١٢) » .

والسلوك المهذب يصدق على العقل كما يصدق على الجسم ، وكلا النوعين يتأثر بعشرائنا .

« هناك نوعان من الخلطاء المهذبين ، الأول وهو المسمى المجتمع الراقى "beau monde" ، وهم اصحاب الصدارة فى قصور الملوك وفى الجوانب المرحية من الحياة ، والثانى هم أولئك الذين يتميزون بكفاية خاصة ، أو يتفوقون فى فن أو علم خاص عظيم القدر . أما عن نفسى فاقصد الفت أن أرانى وأنا جالس الى (الكاتب) اديسون أو (الشاعر) بوب فى صحبة أشخاص يعلنون عنى علو جميع ملوك أوربا وأمرائها لو جلست اليهم (١١٣) » .

ومن الحكمة أن يسلك المرء فى كلتا الصحتين بشيء من التحفظ ،
فلا يسرف فى الكلام ولا يغالى فى الصراحة ، وأن يكون « من الحذق
بحيث يخفى حقيقة دون أن يكذب » ، وأن يبدو صريحا وهو
متحفظ :

« تظاهر بأنك مراتب حتى حيث تكون على يقين من الأمر ...
وان شئت أن تقنع غيرك فليبد عليك استعدادك للاقتناع . وأودع علمك
كما تودع ساعتك جييا خاصا فلا تبرزه .. لمجرد الاعلان عن
نفسك (١١٤) . وهم من هذا كله ، احذر الحديث عن نفسك
ما استطعت (١١٥) .

« وأمسك عن الحديث فى الدين ، فلو أنك أطريته لابتسم أصحاب
الثقافة والحكمة ، ولو ذمته لحزن الشيوخ الناضجون . وسوف يفيدك
أن تقرأ توارىخ فولتير ، ولكن احترس من جماعة « الفلاسفة » الذين
يهاجمون الدين .

« لا يبد عليك أنك توافق على تلك الأفكار الأباحية التى تهاجم
الاديان على السواء ، أو أنك تشجعها أو تصفق لها ، والتى هى الحديث
الحقير المهلهل الذى يخوض فيه أنصاف العقلاء وصغار الفلاسفة .
وحتى أولئك الذين بهم من الحمق ما يجعلهم يضحكون على نكاتهم ،
لهم وزعم ذلك من الحكمة ما يشككهم ويبغضهم فى أخلاقهم ، ذلك أننا
حتى لو وضعنا الفضائل الخلقية فى أسمى مكان لها ، والدين فى أدناه ،
فلا بد رغم ذلك من أن نعتزف للدين بأنه ضمان اضافى على الأقل
للفضيلة ، وكل انسان حصيف يؤثر الركون الى ضمانين خيرا من
ضمان واحد . لذلك فأينما اتفق وجودك فى صحبة أصحاب « العقول
القوية » المزعومة هذه ، أو فى صحبة اباحيين عديمى التروى ممن
يسخرون بالدين كله اعلنا عن ذكائهم وظرفهم ، فلا تدع كلمة أو نظرة
تبدر منك دليلا على أقل استحسان لما يقولون ، بل على العكس من هذا
فلتفصح رزانتك الصامته عن كرهك له ، ولكن لا تخض فى الموضوع
واجتنب مثل هذه المجادلات العقيمة النابية (١١٦) » .

وفى ١٧٥٢ تبين تشسترفيلد فى التهجم على الدين اول مراحل الثورة الاجتماعية ، « اتذبأ أنه قبل أن ينقضى هذا القرن لن تبلغ صناعة الملك والقسيس نصف ما بلغته من احترام الى الآن (١١٧) » . وفى ١٧٥٣ ، بعد ظهور « الموسوعة » المعادية لرجال الدين بعامين ، كتب الى ابنه يقول :

« ان احوال فرنسا . . . تزداد خطورة ، وفى ظنى انها ستمضى فى هذا قدما كل يوم . فالملك محتقر . . . والامة الفرنسية تفكر فى أمور الدين والحكم بغير قيود ، وهو ما لم تفعله قط من قبل ، وقد بدأت تصبح « محايدة » فى هذه الأمور ؛ كذلك يفعل الموظفون ، وباختصار توجد الآن فى فرنسا ، وتزداد كل يوم ، جميع الأعراض التى صادفتها دائما فى التاريخ قبل وقوع التغييرات والثورات الكبرى فى الحكم (١١٨) » .

وقد كون اثنان من قرائه ، بعد دراسة ممتعة لصفحات تشسترفيلد الثمانمائة ، رأيا ممتازا عن عقله ، ان لم يكن عن أخلاقياته . أما معاصروه الانجليز فكانوا لعدم قراءتهم رسائله أميل الى أن يسلكوه ، دون ترو ، فى زمرة الأدباء الظرفاء لا الفلاسفة . وطابت لهم ملاحظته فى مجلس اللوردات حين قال « من حقنا يا سادتى اللوردات أن نشكر السماء لأن لدينا شيئا نركن اليه خيرا من أدمغتنا (١١٩) » . وراؤه يقامر مقامرة المستهترين ؛ و الحمقى ، وعرفوا أنه لم يكن مثالا يحتذى فى العفة (وهو ما اعترف به لولده) . وقد وصف جونسون الغضبوب « الرسائل » بأنها تغرس فى النفس « أخلاق عاهرة وسلوك معلم رقص (١٢٠) » . وفى هذا الحكم ، كما فى الكثير جدا من أحكام هذا « الخان الأكبر » بعض القصور والتحامل ، فلقد كان تشسترفيلد يعلم الفتى أخلاق جيله وطبقته ، وعادات المجتمع السياسي المتأدب ، وعلينا أن نتذكر أنه كان يهيبه ولده للدبلوماسية ، وما من دبلوماسي يجرؤ على تطبيق المسيحية وراء حدود بلاده .

غير أن الكثير من التعليم الخلقى الذى محضه فليب كان رغم هذا ممتازا . « لقد طالما أخبرتك فى رسائلنى الماضية (وهو حق بكل تأكيد)

أنه ما من شيء يكسبك احترام البشر وتقديرهم غير أشد ضروب الشرف والفضيلة صرامة وتدقيقا (١٢١) « . وأغلب الظن أن نصيحته له فى أمر الخليلات كانت محاولة لصرف الفتى عن الفوضى الجنسية . لاحظ هذا التحذير « أما عن الجرى وراء النساء ، فإن نتائج تلك الرذيلة إنما هى فقدان المرء أنفه ، والتدمير الشامل لصحته ، وطعنات السلاح تصيبه فى حالات غير قليلة (١٢٢) » . وقد ذهب جونسن نفسه ، فى لحظة غافرة ، الى أن « رسائل اللورد تشسترفيلد لولده قد يخرج منها كتاب لطيف جدا ، وإذا انتزعت منه الجانب اللا أخلاقى ، وجب أن يوضع فى يد كل شاب مهذب (١٢٣) » . وربما كان فى « الرسائل » قصور فى غرس مبادئ الشرف واللياقة والشجاعة والوفاء . ولكن ليس صحيحا أن تشسترفيلد حسب الثراء أو المنصب فضيلة أو حكمة . وقد أمتدح ملتن ، ونيوتن ، ولوك أكثر كثيرا مما أمتدح سياسى زمانه ، ورأيناه ينشد صداقة خيرة كتاب عصره . وقد أوتى تقديرا حارا للأدب الجيد ، حتى ولو لم يفتنه معجم من معاجم اللغة . وقد كتب هو نفسه انجليزية لم يبرزها كاتب فى النثر المعاصر له ، لغة بسيطة ، قوية ، واضحة ، فيها من الخفة والمرح القدر الذى يكفى لتعويم الفكر الذى يثقله . وقد أثر الألفاظ الانجلو - سكسونية القصيرة المفعمة بالحياة رغم احاطته بالكثير من اللغات ، وغزارة علمه بالكلاسيكيات . وفى رأى فولتير أن الرسائل « أفضل ما كتب اطلاقا فى التربية (١٢٤) » . ووصفها سانت - بوف بأنها « كتاب غنى ، لا تقرأ فيه صفحة دون أن تحملك قراءتها على أن تتذكر ملاحظة سعيدة (١٢٥) » .

ولو حكمنا على عمل ما بثمراته المباشرة لقلنا أن الرسائل فشلت . ذلك أن الفتى فليب ستانهوب لم يتغلب قط على روحه البليدة ، وعاداته الرثة ، وأسلوبه المتثاقل ، وحديثه المتردد ، فبعد كل هذا الحث والحض ، كما تقول فانى بيرنى ، « كان حظها من حسن التربية ضئيلا كأتى رجل لقيته (١٢٦) » . ويبدو أن انحرافا سببه مولد الفتى أو ظروفه أبطل فعل خمسة أربطال من التعاليم . لقد كان فليب يعانى من معوق هو أن له أبا غنيا ومكانا مضمونا ومريحا ، فلا خوف الجوع ولا كره الخضوع حقزاه الى الطموح و المغامرة ؛ لقد افتقد الدفعة الحية للروح " vivide vis animi " كما قال له أبوه المغلوب على أمره

« تلك القوة التى تهمز الشباب وتثيرهم للارضاء ، والتساق ، والتفوق (١٢٧) » . ومن المؤثر أن نرى الايرل المسن يصدق كل هذه النصائح الحكيمة والحب الابوى فلا يجنى غير هذه الثمرة الهزيلة . كتب لولده حين كان فى الرابعة عشرة « ثق أننى سأحبك حبا جما ما دمت تستأهله ، ولكن لن احبك لحظة واحدة بعد هذا (١٢٨) » ، على أن رسالته الاخيرة لولده بعد اثنتين وعشرين عاما فيها حرارة المحبة والتوسل (١٢٩) . ولم يمض عليها شهر حتى مات فليب فى باريس (١٧٦٨) وهو فى السادسة والثلاثين تاركا أرملة وولدين . فلقد تزوج دون علم أبيه ، ولكن تشستر فيلد غفر له ، وراح الايرل الآن يكتب للزوجة الثكلى رسائل هى نماذج فى المجاملة والاحترام (١٣٠) .

أما هو فكان فى تلك الفترة كثير التردد على باث بعد أن أقعده النقرس وأصابه الصمم الى حد محزن . « اننى أزحف فى هذا المكان على أرجلى الثلاث ، ولكن يعزىنى عن محنتى هذه اخوانى الزاحفون معى ؛ ان نهاية لغز أبى الهول تقترب ، وسأختم حياتى بعد قليل كما بدأتها ، على أربع (١٣١) » . وقد اهتم بتربية حفيديه ، ولا غرو فالأمل لا يخبو أبدا فى الصدر العجوز . فلما عاد الى ضيعته فى بلاكهيث اتبع نصيحة فولتير وزرع حديقته فخورا بشمامه وتفاحه ، وقال انه قانع بأن « يحيا حياة راكدة فى صحبتها (١٣٢) » . وكتب له فولتير رسائل معزية ، مذكرا اياه بأن الهضم الجيد (الذى احتفظ به الايرل) أجلب للذة من الاذان السليمة . وقابل النهاية بمرح لم يفتر . قال عن نفسه وعن صديقه اللورد تيرولى ، وكان مثله شيخا مقعدا ، (وربما كان فى قوله هذا متذكرا فونتنيل) « لقد كنت وتيرولى ميتين فى السنتين الاخيرتين ، ولكننا لا نود أن يعرف عنا هذا (١٣٣) » . ومات فى ٢٤ مارس ١٩٧٣ بالغا التاسعة والسبعين ، غير عالم أن رسائله التى منع نشرها قد احتفظ بها ابنه وتركها فى وصيته ، وانها بعد طبعها فى العام التالى ستسلكه فى عداد أساطين الحكمة الدنيوية وفحول النثر الانجليزى .

الفصل الثالث

الحكام

١ - جورج الأول : ١٧١٤ - ٢٧

كان الانجليز أكثر حذقا من الفرنسيين فى شئون الحكم ، كما سيطرين ذلك عما قليل فولتير ومونتسكيو . فبعد أن قطعوا رأس ملك ، وأرسلوا آخر يهرول رعبا عبر المانش ، استوردوا الآن ملكا خلف قلبه وعقله وراءه فى المانيا ، ملكا يقضى الأجازات الطويلة فى وطنه هانوفر ، ولا يصعب أن يهيمن عليه برلمان لم يوفق هذا الملك قط فى فهم أساليبه ولغته .

كان بيت هانوفر يمد جذوره فى المانيا الوسيطة ، ويرجع بنسبه الملكى الى أدواق برنزويك - لونبورج ، ثم الى هنرى الاسد (١١٢٩ - ٩٥) ، ومن قبله الى أجداده الولف أو الجويلف . وقد أصبحت هانوفر نفسها امارة ناخبة للامبراطورية الرومانية المقدسة فى ١٦٩٢ . وتزوج ناخبها الأول ، ارنت أوغسطس ، من صوفيا حفيدة جيمس الأول ملك انجلترا . وبعد موت ارنت أصبحت أرملته وريثة للعرش. الانجليزى بقانون تموية الوراثة الذى أصدره البرلمان فى ١٧٠١ .

ولكن ولدها جورج لويس ، ناخب هانوفر الثانى ، كدر هناة هذا الميراث السعيد بزواج تعس . ذلك أن زوجته صوفيا دوروثيا قد استنكرت خياناته ، فدبرت أن تهرب مع الكونت فليب فون كوينجزمارك ، قائد الحرس الجميل . واكتشف جورج المؤامرة ، ولم يسمع بخبر للكونت بعدها قط ، وأغلب الظن أنه أعدم (١٦٩٤) . وقبض على صوفيا دوروثيا وحوكت ، وأبطل زواجها ، وزج بها فى السجن طوال لأعوام الاثنين والثلاثين الباقية من عمرها فى قلعة آلدن . وكانت قد ولدت لزوجها بنتا أصبحت أم فردريك الأكبر ، وولدا أصبح جورج الثانى ملك انجلترا .

٩ - قصة الحصار

وما تت صوفيا ، ناخبة هانوفر الارملة ، فى ١٧١٤ ، قبل أن تموت الملكة آن ، ففقدت بذلك منصب الملك ، ولكن ولدها نودى به على الفور ملكا لبريطانيا العظمى وارنبداه باسم جورج الأول . وفى سبتمبر وصل الى انجلترا ، بادئا عهدا جديدا فى التاريخ الانجليزى . وجلب معه ابذه وزوجة ابنه ، وعددا من المساعدين الالمان ، وخليفتين ، شارلوت فون كيلمانريجي ، التى خلع عليها لقب كونتيسة دارلنجن ، والكونتيسة ميلوزيذا فون در شولبورج ، التى خلع عليه لقب كونتيسة كندال ، وربما تزوجها . ولعل انجلترا كانت متقبلة هذا الترتيب باعتباره متفقا وأخلافيات ذلك الزمان ، لولا أن كلتا السيدتين كانت فى عيون البريطانيين قبيحة غالية التكلفة ، فميلوزينا تباع نفوذها بأثمان باهظة ، حتى أن ولبول شكا منها وهو رب السداد والرشوة ، وكان جواب جورج أن سال ولبول : الا بتقاضي هو نفسه اتعابا لقاء نوصياته على طلاب المناصب (١) ؟

فى ١٧١٤ كان جورج الأول فى الحادية والخمسين من عمره ، فارغ الطويل عسكرى السميت ، « رجلا بسيطا فظلا » . لا يكثرث مثقال ذرة للكتب ، ولكنه كان قد أثبت بسالته فى أكثر من ساحة قتال . وقد قالت الميلى مارى مونتاجيو فى وصفه انه « رجل انه أمين (٢) » ، ولكنه لم يكن بالغباء الذى يبدو عليه ، وقد اعترفت بأنه « كان طيبا على نحو سلبى ، يود أن يستمتع الناس جميعا بالهدوء لو أنهم تركوه بفعل ذلك (٣) » . وما كان أحد يتوقع أن هذا الرجل سيشعر بالاطمئنان والبسر فى بيئة غريبة عليه كهذه البيئة ، ومنصب قلق كهذا المنصب . فلقد استأجرته أولجاركية بريطانية ليحول دون رجوع الملكية الاستيوارتية مرة أخرى ؛ ثم رأى أن هؤلاء الانجليز المسيطرين ، الذين هممنوا على البرلمان ، مصممون على الهيمنة عليه هو أيضا ؛ ولم يستطع أن يغتفر لهم تحدثهم بالانجليزية . واعتقد أنهم أدنى من عشرائه الهانوفرين . فاعتكف فى خلوات قصر سانت جيمس ، وهرب الى هانوفر كل سنة تقريبا ، وبذل ما وسعه من جهد ليوجه الأموال والسياسة الانجليزية لحماية امارته المحبوبة .

وضاعف من محبته كره ابنه له لأنه اعتبره قاتلا . ذلك أن جورج

أوغسطس ، الذى أصبح الآن أمير ويلز (ولى العهد) ، ندد بسجن أمه المتصل ، وتمرد على سطوة خليلات الملك وغطرستهن ، وتساجر مع وزراء الملك ، وأفصح عن آرائه فى صراحة حملت أباه على اقصائه عن القصر . واعتزل الأمير وزوجته كارولين ، اللذان فصلهما أمر ملكى عن أبنائهما ، ليفتتحا بلاطا منافسا فى قصر لستر (١٧١٧) . ووفد عليهما نيوتن ، وتشستر فيلد ، وهرفى ، وسويفت ، وبوب ، وسيدات المجتمع المغرور الأكثر حيوية ومرحا ، فوجدوا الأمير أشد فظاظة وغباء حتى من الملك .

وكان هذا التصعد فى الأسرة المالكة منسجما فى عمومته مع انقسام الأقلية الحاكمة والبرلمان الى حزبي التورى (المحافظين) والهويجز (الأحرار) . وقد قدر فولتير أن نحو ثمانمائة رجل هيمنوا على الحكم فى المجالس البلدية ، والانتخابات البرلمانية ، والتشريع القومى ، والادارة والفضاء (٤) . وتوقف كل حديث مزعج عن الديمقراطية ، كذلك الذى أثاره « مستقلو » كرومويل « والمسوون » . وكان التصويت للبرلمان وقفا على أصحاب الملكيات - وهم لم يتجاوزوا ١٦٠.٠٠٠ فى هذه الحقبة (٥) - وهؤلاء كانوا عادة يقبلون المرشح الذى يزيكه الملك الرئيسى للأرض أو اللورد (٦) المحلى . وانتمى الساسة لأحد الحزبين حسب تأييدهم اما للنبلاء أصحاب اللقاب ، واما للأعيان وأصحاب المصالح التجارية . فأما « رجال الكنيسة الانجليكانية » فاتبعوا مذهب المحافظين ، واما المنشقون على الكنيسة فأيدوا الأحرار . وكان المحافظون قد عارضوا فى أن يخضع الملك للبرلمان ، وتشبثوا مع الكنيسة الرسمية بنظرية حق الملوك الالهى ، وفكروا قبيل وفاة الملكة آن فى رد الاستيوارتيين المنفيين الى السلطة ؛ أما وقد تربع بيت هانوفر الآن على العرش فقد كان طبيعيا أن يزيحهم الأحرار المعادون لأسرة استيوارت ، وبينما كانت الوزارة الى ذلك الحين تضم عادة رجلا من كلا الحزبين ، نرى جورج الأول يقصر المناصب العليا على الأحرار ، وهكذا أرسى نظام الحكم بواسطة الحزب عن طريق مجلس للوزراء . فلما توقف الملك بعد قليل عن رئاسة اجتماعات الوزارة لعدم فهمه الانجليزية ، أصبح العضو المهيمن « وزيرا أول » أو رئيسا للوزارة ، وتقلد شيئا قشينا المزيد من وظائف الملك وسلطاته .

ورأى الوزارة جيمس ستانهوب مبع سنيين . ومن اول قوانينه واكثرها شعبية رده جون تشرشل ، دوق ملبره - الذى اتهمه المحافظون من قبل - لجميع مناصبه السابقة ، خصوصا القيادة العامة للجيش ، وبعد عودة الدوق من منفاه اعتكف فى قصر بلنهييم ، وهناك عانى الام المرض الطويل ، ومات فى ١٦ يونيو ١٧٢٢ ، أما الامة التى اغتفرت له مقتنياته وتذكرت انتصاراته المتعاقبة ، فقد قبلت هذا الحكم الذى اصدره عليه بولنبروك - « لقد كان رجلا عظيما الى حد لا أتذكر معه هل كانت له اخطاء او لم تكن (٧) » . وأما أرملته ، وهى سارة تشرشل التى ظلت عشر سنوات تحكم حكم الملكات ، فقد أنفقت اثنتين وعشرين سنة تقديس ذكراه وتذود عنها . فلما طلب الدوق سمرست يدها أجابت « لو أننى عدت صبية جميلة كما كنت ، لا عجوزا ذابلة كما أنا الآن ، ولو كان فى وسعك أن تطرح ملك الدنيا بأسرها تحت قدمى ، لما استطعت أبدا أن تفتسم قلبا ويذا كانا فى يوم من الأيام ملكا لجون تشرشل (٨) » . وفى ١٧٤٣ ، قبل وفاتها فى الرابعة والثمانين بعام ، فكرت فى احراق رسائلها الغرامية القديمة ، ولكنها حين أعادت قراءتها شعرت « بأننى لم أستطع أن أحرقها » ، فتركها لتعيش (٩) . ولا بد أنه كان هناك خير كثير فى امرأة استطاعت أن تحب بهذا القدر من الوفاء ، وفى رجل استطاع أن يظفر بمثل هذا الحب من امرأة عصبية الى هذا الحد .

وحل بولنبروك محل ملبره فى المنفى . ذلك أنه بعد أن طرده جورج الأول من الحكومة ، وهدد بتقديمه للمحاكمة بتهمة التفاوض سرا مع الاسرة المالكة التى سقطت ، وكرهه الأحرار والمنشقون على الكنيسة الذين وخزهم بسخريته وخزا موجعا ، واجتنبه رجال الكنيسة لاذرائه اللاهوت المسيحي - بعد هذا كله فر الى فرنسا (مارس ١٧١٥) ؛ وانضم الى جيمس الثالث ، وأصبح وزير دولة لدولته التى لا وجود لها ، وعاون على تنظيم تمرد استيوارتى فى انجلترا ، واقترح غزوها من فرنسا . فاعلن البرلمان ادانته بالخيانة ، وصادر ثروته ، وحكم عليه بالاعدام .

واوشكت حركة رد الاستيوارتيين أن تطيح بعرش جورج الأول

فالمحافظون الكارهون للهانوفريين لأنهم أحلاف غاصبون ! وعامة الناس فى إنجلترا ، الراسخون فى الولاءات القديمة ، والتواقون سرا للأسرة المنفية ؛ وطبقات اسكتلنده العليا والدنيا ، الفخورة بانها أعطت إنجلترا ملكا اسكتلنديا ، الضيقة أشد الضيق بقانون الاتحاد (١٧٠٧) الذى قضي على البرلمان الاسكتلندى - كل أولئك كانوا على استعداد للتحريض على غزوة يقودها الشاب الذى اعترف به لويس الرابع عشر ملكا شرعيا أوحد على إنجلترا .

وكان جيمس فرانسس ستيوارت قد بلغ الآن (١٧١٥) السابعة والعشرين ، وان عرفه التاريخ باسم « المطالب المسنّ بالعرش » . كان قد ربح فى فرنسا ، وأشره المذهب الكاثوليكي معلومه الرهبان ومعاناة أبيه جيمس الثانى اشرابا رفض معه حجة بولنبروك الذى زعم له أنه سيتوى الميل لأسرته فى إنجلترا اذا هو وعد باعتراف البروتستنتية . قال له بولنبروك وهو يحاوره ، كيف يمكن حمل الاسكتلنديين المشيخين (اتباع كلفن) ، والانجليكان المحافظين ، على تأييد رجل يأتى الى عرشهم بالمذهب الذى قاتلوا للاطاحة به طوال قرن حافل بأشد الاضطراب ؟ ولكن جيمس كان صلبا لايلين ، فصرح بأنه يؤثر أن يكون كاثوليكييا بغير عرش ، على أن يكون ملكا بروتستنتيا . أما بولنبروك ، البريء من الايمان والمبادئ ، فقد حكم على جيمس بأنه أصلح للرهبنة منه للملك (١٠) . وكان البرلمان خلال ذلك (أغسطس ١٧١٤) قد عرض دفع ١٠٠.٠٠٠ جنيه مكافأة لمن يقبض على جيمس الثالث اذا وطئ تراب بريطانيا .

ثم بدا أن عاملا شخصيا يحول الاحداث الى خدمة قضية المطالب بالعرش ، ذلك أن جون ايرسكين ، ايرل مار ، كان وزيرا لشئون اسكتلنده فى السنوات الاخيرة للملكة آن . فلما طرده جورج الاول ، وضع الخطط لثورة استيوارتية فى إنجلترا ، ثم أبحر الى اسكتلنده واستنفر الاسكتلنديين لينضوا تحت لواء ثورته (٦ سبتمبر ١٧١٥) وظاهره نفر من النبلاء ، فارتفع عدد قواته الى ستة آلاف راجل وستمائة خيال ؛ ولكن أدنبره وجلاسجو والمسهول الجنوبية ظلت موالية للملك الهانوفرى . وقررت الحكومة البريطانية الاعدام عقابا للخيانة

واختباءه الملكة لجميع العصاة . وعبأت ثلاثة عشر ألف رجل ، ودعت ستة آلاف آخرين للأسطول ، ثم أمرت دوق أرجيل قائد حاميتي ادنبره وستيرلنج بأن يخدم التمرد . فالتقى بقوات مار عنسد شريفموير (١٣ نوفمبر ١٧١٥) فى معركة لم يستطع أى الفريقين أن يدعى لنفسه فيها نصرا حاسما . وتقدمت قوة اسكتلندية أخرى فى تهور الى ثلاثين ميلا من ليفربول بدلا من أن تنضم الى مار ، مؤملة عبثا أن تثير ونحى حركات التمرد الاستيوارتية فى المدن الانجليزية . وفى برستون طوفها جيش حكومى واكرها على التسليم دون قيد أو شرط (١٤ نوفمبر) .

ولا بد أن جيمس الثالث كان على علم بهذه الأحداث قبل أن يتلع من دنرك فى ٢٧ ديسمبر . وكان بولنبروك قد أنذره بان ثورة استيوارتية لن تنشب فى انجلترا . ولكن المطالب بالعرش دثية للمغنى فى هذه المغامرة ايمانته بالشرعية الالهية لقضيته ، مضافا اليه ١٠٠.٠٠٠ كراون من الحكومة الفرنسية وثلاثين ألفا من الفاتيكانيان . فلما رسا على أرض اسكتلنده انضم الى جيش مار فى بيرث ، ووضع الخطط لحقل لتتويج مهيىب فى « سكون » . ولكن صمته واكتنابه ، وشكواه من أنه خدع فى مدى انتشار التمرد ، كل أولئك لم يصف شبا الى حماسة الاسكتلنديين ، فشكوا بدورهم من أنهم لم يروه قط يبنسم ، ونادرا ما سمعوه يتكلم (١١) . أضف الى ذلك أنه كان يرتعد من الملايا ، ولم يحتمل شتاء الشمال . ورأى مار أن جنده لا يصلحون للمعركة ، فأمرهم بالتقهقر الى مونتروز ، وبحرق جميع المدن والثرى والمحاصيل فى اثرهم لتعطيل أرجيل عن مطاردته . وأسف جيمس على هذا التدمير ، وترك نقودا ليعوض بعض ما خسر أولئك الذين تضررت املكهم . فلما اقترب جيش أرجيل الذى كان متفوقا جدا من مونتروز فر جيمس ، ومار ، وغيرهما من قادة الثورة مسرعين الى الساحل ، وأبحروا الى فرنسا (٤ فبراير ١٧١٦) . واستسلمت القوات النائرة أو تفرقت فى كل مكان .

ورحل معظم الأسرى ليخدموا عبيدا فى المستعمرات ، وأعدم سبعة وخمسون ، وتقرر أعدام اثنى عشر نبىلا اسكتلنديا التجاوا الى فرنسا ، لذا عادوا منها . وكان جيمس قد راوده الامل فى أن يرسل فليب أورليان

جنودا يخفون لنجدته فى اسكتلنده ، ولكن فرنسا كانت الآن تفكر فى التحالف مع انجلترا ، فحثت جيمس على أن يرحل عن أرض فرنسا . ومن ثم أقام حيناً فى أفنيون البابوية ، ثم فى روما .

وبقى بولنبروك فى فرنسا حتى ١٧٢٣ ، واذا كان يجيد الفرنسية فإنه انطلق على سجيته فى الصالونات بين الفلاسفة . وكان يحذق كل شيء الا السياسة ، فاشتري أسهما فى مشروع لو ، ثم باعها بربح كبير قبل أن تنفجر « الفقاعة » . واذا كان قد ترك زوجته فى انجلترا ، فإنه اتصل اتصالاً كاد يكون شريفاً بمارى ديشان دمارسى ، وهى مركيزة فيلييت الارملة . وكانت فى الأربعين ، وهو فى الثامنة والثلاثين . وكانت ككثيرات جداً من النساء الفرنسيات قد احتفظت بجاذبيتها مع أنها فقدت بعض جمالها ، ولعل تهذيبها وحيويتها وذكاءها هو ما جذبها اليها ، فعشقها ، ولما ماتت الليدى بولنبروك تزوج المركيزة ، وذهب ليعيش معها فى لاسورس . وهناك زاره فولتير كما سبق الفول (١٧٢١) . قال الفيلسوف الشاب « وجدت فى هذا الانجليزى الشهير كل علم أمته ، وكل أدب أمتنا (١٣) » .

على أن قمع الثورة كان قد أطاح برعوس بعض النبلاء ، ولكنه لم ينتقص من العطف على الاستيوارتيين فى بريطانيا . وقد قضت القوانين الثلاثية الاعوام التى صدرت فى ١٦٤١ و ١٦٩٤ بالا يستمر أى برلمان أكثر من ثلاث سنين . ومن ثم واجه أول برلمان لجورج الأول فى ١٧١٧ احتمال انتخابات قد تعود فيها أغلبية للمحافظين والمتشيعين ، للاستيوارتيين . وتفادياً لهذا الخطر قرر البرلمان ، بمقتضى قانون السبع السنين الذى أصدره فى ١٧١٦ ، أن يمد فى عمره أربع سنوات أخرى ، وقضى بأنه يجوز بعد ذلك لجميع البرلمانات أن تستمر سبع سنين . قال المبع حفة ملبره « كان هذا أجراً وأكمل تأكيد لسيادة البرلمان عرفته انجلترا الى ذلك الحين (١٣) » . وصدق جورج الأول على القانون الجديد لخشيته هو أيضاً من فوز المحافظين ، وكان معنى هذا فعلاً أن الهاخوفريين اضطروا للتخلى عن سلطتهم لكى يملكو .

ورغبة فى المزيد من الحماية للأسرة المالكة الجديدة أبرم ستانهويه

مع فرنسا وهولنده (١٧١٧) حلفا ثلاثيا أنهى التأييد الفرنسي لمطالب
امرة ستيوارت ، والتأييد الانجليزى لاسبانيا ضد فرنسا . وفى ١٧٢٠
وقعت فرنسا صلحا ينطوى على الخضوع ، واستطاع جورج الاول أن
يتربع على عرشه الأجنبى فى السنين السبع الباقية له من أجله بقدر
أكبر من الاطمئنان . وفى ١٧٢٦ أرسلت اليه زوجته التى ما زالت
حبيسة خطابا مرا ، وتحدثته أن يلقاها بعد عام أمام كرسي قضاء الله .
وما لبثت أن ماتت بالحمى المخية . وتقول رواية أن عرافا تنبأ بأن
جورج الاول لن يعمر أكثر من عام بعد زوجته . وفى ١٧٢٧ بدأت صحة
الملك تتدهور . وفى يونيو غادر انجلترا ليزور بلده الحبيب هانوفر .
وقرب اوزنابروك القيت فى عربته ورقة مطوية ، وكانت تحوى لعنة
تركتها له زوجته وهى فى النزاع . فلما قرأها الملك اضطرب اضطرابا
شديدا .، وما لبث أن قضى نحبه فى ١١ يونيو (١٤) .

٢ - جورج الثانى والملكة كارولين

وتلقى ابنه وعدوه النبا كانه القصاص العادل الذى أصدرته
العناية الالهية وأمهلت تنشيذه امهالا غير معقول . وحين قدم رئيس
اساقفة كنتربرى لجورج اوغسطس وصية الملك الراحل حشاها فى جيبه
ولم يذعها قط . وقال بعضهم انه تكتم أمرها لأنها اقترحت الفصل بين
تاجى هانوفر وانجلترا ، وزعم آخرون أنها تركت لحفيده فردريك
لويس ، ولخيلته أو زوجته دوقة كندال ، ولابنته ملكة بروسيا ، مبالغ
كبيرة كانت كفيلة بالانتقاص من ثروة الملك (١٥) . ولكن التساريخ
يجعل الحقيقة .

كان جورج الثانى كابيه جنديا باسلا ، ففي الخامسة والعشرين أبلى
بلاء حسنا تحت قيادة يوجين وملبره فى معركة أودينارد (١٧٠٨) .
وفى الستين سيفود جنده الى النصر فى ديتلجن (١٧٤٣) . وكثيرا
ما كان ينقل عادات المعسكر الى البلاد ، فيصيح غاضبا ، ويغدى على
وزرائه نعوتا مثل « الأوغاد » و « الشديدي الغباء » و « المهرجين » (١٦) .
ولكنه جاهد ليتقن صناعة الملك ، وتكلم الانجليزية دون خطأ وان شابتها
مكنه وستفالية ثقيلة (١٧) ، ولاحظ فى ضيق ولكن فى حذر تلك القيود

التي فرضها البرلمان على سلطاته ودخله ، وظل ثلاثة عشر عاما يساند ولبول في جهوده لتمكين جون بول من ايفاء ديونه ونشر السلام في ربوعه . وكان كابييه كثير التردد على هانوفر ، الامر الذي أبهج كل من يعنيههم الامر . ثم تشاجر كابييه مع أمير ويلز (ولي العهد) لأنه « كان من بعض تقاليد الأسرة الموروثة كراهية الابن البكر (١٨) » كما قال هوراس ولبول . وكان له كابييه خليلات ، ولو لمجاراة المجتمع العصري ، ولكنه على عكس أبيه أحب زوجته حبا جما .

كانت كارولين ، ابنة الحاكم جون فردريك أمير برندنبورج - أنزباخ ، قد نشأت في بلاط شارلوتنبورج ، وهو بلاط أخت جورج الأول ، صوفيا شارلوت ، أول ملكة على بروسيا . وهناك التقت بليبنتز واستمعت بمناقشات الفلاسفة ، واليسوعيين ، واللاهوتيين البروتستانت ، وبلغت درجة فاضحة من التحرر والتسامح الدينيين . وقد عرض عليها شارل السادس ، الامبراطور « الروماني المقدس » يده وعقيدته ، فرفضتهما جميعا ، وتزوجت (١٧٠٥) من جورج أوغسطس ، أمير هانوفر الناخب « القصير القامة الأحمر الوجه (١٩) » ، وظلت وفيه مخلصا له الى النهاية رغم حدة طبعه وطبعها ، وخلال كل عثراته وخليلاته . وكان جورج يعنف في معاملتها ، ويكتب لها الرسائل الطويلة عن علاقاته الغرامية ، ولكنه كان يحترم عقلها وخلقها احتراما كفى لتركها تحكم انجلترا (بمساعدة ولبول) خلال فترات غيابها الطويلة ، وتوجه سياساته حين يعود .

ولم يكن لها - فيما عدا شبابها البض النضر - من مفاتن الجسد النى تسيطر بها على زوجها غير يدين حلوتين ، ، وبعض لطائف في السلوك و الحديث ؛ ولكنه كان معجبا بتكوين صدرها ، وأمرها أن تعرضه عرضا مقنعا (٢٠) . وازدادت بدانة مع كل حمل ، وترك الجدرى في وجهها ندوبا ، وكان صوتها عاليا صادرا من الحنجرة ، وكانت تحب الدس وتولع بالسلطة . ولكن الانجليز بدعوا شيئا فشيئا يحبون دعابتها المصادرة من القلب ، وأدركوا آخر الامر أى تضحية من صحتها وسعادتها كانت تبذل لتكون زوجة وملكة سالحة ؛ ورأى مفكرو انجلترا في دهشة أن هذه البرندنبورجية الجلفة كانت تملك ذهنا وأذنا يتذوقان

أدب العصر ، وعلمه ، وفلسفته ، وموسيقاه .

وكاد بلاطها يستحيل صالونا . فقد استقبلت فيه نيوتن ، وكلارك وباركلى ، وبطلر ، وبوب ، وتشترفيد ، وجاى ، والليدى مارى مونتاجيو . وأيدت المبادرة التى اتخذتها الليدى مارى فى التطعيم ضد الجدري . وانتشلت ابنة الملتن من وهدة الفقر ، وناصرت هندل طوال نزوات الجمهور والملك . وتبرعت من جيبها الخاص بالمال اللازم لتشجيع المواهب الشابة التى تفتقر الى المال (٢١) ، وأنقذت المهرطق هويستن بمعاش أجرته عليه . وعلقت الحرية الدينية للاسكتلنديين المتشيعين لأسرة ستيوارت ودبرت تعيين الاساقفة الأنجليكان على أساس علمهم لا سلامة عقيدتهم . وكانت هى نفسها من القائلين بالربوبية المتشككين فى الخلود (٢٢) ؛ ولكنها رأت ان الكنيسة الرسمية يجب ان تمويلها الدولة باعتبارها معينا للشعب على الفضيلة والهدوء (٢٣) . قال فولتير « لا شك أن هذه الاميرة ولدت لتشجيع الفنون ولخير النوع الانسانى . . انها فيلسوفة لطيفة تتربع على عرش (٢٤) » .

وكان لها من الفلسفة حظ بصرها بالجانب الفكه فى مآسى الحياة ، حتى فى ساعة احتضارها . وكانت مصابة اصابة قاتلة بفتق اخفته طويلا عن الجميع الا الملك ، فنصحته وهو يومها فى الخمسين بان يتزوج ثانيا بعد موتها . وكشف جوابه ، وهو مخلص فى حزنه ، عن طبيعة عصره « لا ، سأخذ خليلات » قالت « رباه ، هذا لا يمنعك من الزواج (٢٥) » وقد بكاه بعاطفة لم تعهد فيه فقال « لم أر قط امرأة تستحق أن تربط حذاءها (٢٦) » . وبعد ثلاثة وعشرين عاما ، وتنفيذا لوصيته ، فتح نعشها فى كنيسة وستمنستر لترقد عظامه الى جوارها .

٣ - روبرت ولبول

لقد كان لانتصارها الباسل لولبول أمام عصابة من الأعداء طلاب المناصب وتجار الحروب الفضل فى تمكينه من أن يعطى انجلترا عشرين عاما من الرخاء والسلام . ولم يكن ولبول « بالولى » أو القديس ، ولعله كان أفسد وزير عرفته انجلترا فى تاريخها ، ولكنه كان أيضا من خيرة

وزرائها ففي ذلك العصر الفاسد ما كان للحكمة أن تحكم الا عن طريق الرشوة والفساد .

كان روبرت قد نذر للكنيسة باعتباره أصغر الأبناء في أسرة نورفوكية عريقة ، وفي اينن التي زامل فيها غريمه المستقبل بولنبروك كان هذا هدف دراسته . ولكن موت اخوته الكبار جعله الوريث لثروة الأسرة ؛ ولما كانت الأسرة تسيطر على ثلاث دوائر انتخابية ، فانه لم يجد عناء في التحول بنجاح من اللاهوت الى السياسة . وحين بلغ الخامسة والعشرين دخل مجلس العموم عضوا في حزب الأحرار (١٧٠١) ، وعين وزيرا للحرب (١٧٠٨) بفضل اتصالاته ، وماله ، وذكائه المحاضر ، وتمكنه من المالية الادارية . وفي ١٧١٢ عزله المحافظون الفائزون ، وزجوا به في برج لندن بتهمة الفساد ، ولكن رائحة الذهب كانت قد غدت من الثبات وقوة السلطان بحيث أحدثت تبليدا في الأنوف نذم يلبث أن أفرج عنه ، وأعيد انتخابه ، وعين وزيرا للخزانة (٧١٥) . وحملته تعقيدات السياسة على الاستقالة في ١٧١٧ . وفي ١٧٢٠ أقنع انهيار شركة بحر الجنوب وتبرير انذاراته الجميع حتى خصومه بأنه أصلح الرجال لرد انجلترا الى حالة الاستقرار المالي . فلما عاد الى منصب وزير الخزانة (١٧٢١) أوقف حالة الذعر كما سبق القول ، بوضعه مصرف انجلترا ظهيرا للالتزامات الشركة ، وسدد بالتدريج كل دين الشركة للشعب وقدره ٧٠٠٠٠٠٠٠ جنيه (٢٧) . وكافا المقامرون الشاكرون ولبول باثنين وعشرين عاما من السلطة .

وقطع اعتقال جورج الثاني العرش سلطان ولبول برهة . ذلك أن الملك الجديد كان قد أقسم ليكون خصما لدودا لكل من خدموا أباه ؛ فعزل ولبول ، وطلب الى السير سبنسر كونتن أن يشكل وزارة جديدة . ولكن سرعان ما أظهر كونتن قصور مواهبه واعترف به . فنصحت كارولين زوجها بأن يرد ولبول الذي دعم حجتها بوعده الملك والملكة بمراتب أكبر . وقبل السير سبنسر لقب الايرل شاكرا ، واستعاد ولبول حكمه . وكان أول من أطلق عليه لقب « الوزير الأول » ، على سبيل التحقير (كما كانت الحال في ألفاظ « المسيحي » ، و « البيورتاني »

و « المثودى ») . وكان أول رئيس للوزراء يتخذ داوونج ستريت قصرا رسميا له .

ويلقى خلقه بعض الضوء على فن النجاح السياسي . فهو لم ينفق فى الجامعة غير سنة ، وكان ضعيفا من حيث الاعداد التعليمى المعهود فى روعساء الوزارات البريطانيين . ولم يكن فى سلوكه أو كلامه كبير تائق . يقول ماكولى انه « اذا كف عن حديث السياسة لم يستطع أن يتحدث الا عن النساء ، وكان يفيض فى موضوعه المحبب بحرية صدمت حتى ذلك الجيل الذى لم يتحرج فى الفاظه (٢٨) » . ولم ير ابنه هوراس أن فيه قصورا لأنه لم يقرأ من الكتب الا القليل ، « فلقد عرف البشر ، لا كتاباتهم ، واسترشد بمصالحهم لا بنظمهم (٢٩) » . وكان ملما بقدر من اللاتينية يكفى لاستعمالها وسيط تفاهم بينه وبين جورج الأول ، لأن ذلك الملك كان يجهل الانجليزية ، وولبول لم يعرف لا الالمانية ولا الفرنسية . وكانت له كل صفات جون بول ، اللهم الا المشاكسة ، فهو بدين ، صريح ، مخلص ، ودود ، عملى ، يستمتع بالولائم والشراب ، ولكنه يكذب ويكدح اذا دساه داعى العمل ؛ وربما كان فيه أيضا من أوجه الشبه بجون بول انه أثر خشخشة كيسة على صليل سيفه .

اما الاخلاق فلم يكذب يملك منها أى حظ . فقد عاش سنين فى زنا مفضوح دون أن يبدى كبير احترام للياقة المهذبة التى تراعيها الأرستقراطية فى رذيلتها . وكان يمزج مع الملكة كارولين عن خليلات زوجها ، فلما ماتت نصح بناتها بدعوة وصيفات الشرف ليسرين عن الملك المحزون . وكان يسخر من الدين ، وحين دنت منية كارولين أرسل فى طلب رئيس أساقفة كنتربرى قائلا « لا بأس بتمثل هذه المهزلة ، وان رئيس الاساقفة لكفيل بحسن تمثيلها . ولكم أن تطلبوه بأسرع ما تريدون . فلن يضر الملكة ، ولن ينفعها ، وسيرضى هذا جمع المغفلين العقلاء الطيبين ، الذين سينعتوننا بالكفر اذا لم نتظاهر باننا مثلهم من كبار المغفلين (٣٠) » . ولم يكثرث للدوافع النبيلة أو ادعاءات التجرد من الانانية . وقد توسل بمنصب الدولة لجمع ثروة خاصة كما فعل ملبره . ووجد المناصب السياسية المجسزية لولده هوراس وغيره من ذوى قرباء . وانفسق

٢٠٠٠ ر. ٢٠٠٠ جنيه ليشتيد بيوتا فخمة في ضيعة بهوتون ، وزينها بلوحات قدرها هوراس بمبلغ ٤٠.٠٠٠ جنيه ، وكان بيته فيها مفتوحا لأهل نورفوك ، جميعا (٣١) . وكان في سخاء جون بول لأنه (اذا صدقنا خصومه) لم يستطع أن يفرق تفريقا واضحا بين مال جون بول وماله الخاص .

واستعمل المال ليشتري أعضاء البرلمان كما استعمله ريشليو ليشتري الجيوش ، وهنرى الرابع ليستكت الأعداء . وكان ولبول يستخدمه ملادا أخيرا بعد أن تعييه الجج الأكثر لينا . ذلك أن الفساد البرلمانى الذى ظهر فى عهد تشارلز الثانى بلغ النقطة التى لم يمكن عندها التعامل مع البرلمان ، خيرا كان الهدف أم شرا ، الا « بالتشحييم » على نطاق واسع . واحتفظ ولبول باحتياطى سرى - وحتى بحجرة خاصة - لشراء الكراسي والأصوات ومحرمى الصحف ، وقبل انه أنفق ٥٠.٠٠٠ جنيه كل عام لاعانة الدوريات لتشرح وجهة نظره (٣٢) . وفى ١٧٢٥ حث جورج الأول على انشاء « وسام الحمام الأسمى » الذى يتألف من الملك ، ورئيس أكبر ، وستة وثلاثين فارسا من الزملاء ، فقد رأى لولبول ، كما رأى نابليون من بعده ، أن حكم الرجال بالأوشحة أقل تكلفة من حكمهم بالمال .

وقد استخدم هذه الأساليب الفاسدة ليحتفظ لانجلترا بالرخاء والهدوء . ولم تبرر غاياته وسائطه ، ولكنها كشفت عن الجانب الأفضل فى خلقه . فلقد كان رجلا حسن النية ، عقد العزم على أن يحفظ لبلده الاستقرار والثبات رغم كل زعازع السياسة الحزبية ، وأنواء المصالح الطبقية ، وصيحات غلاة الوطنية المطالبين بالحرب . وقال ان شعاره ان يترك الشر نائما . واذا كان هذا المبدأ قد نرك حكمه غير متميز بفتوح او اصلاحات ، فانه اكتسب ثناء المنصفين . واضطر خصومه الى الاعتراف بأنه لم يكن محبا للثأر ولا حقوقا ، وأنه كان أجدر بالثقة ، لا بل أكثر ايمانا ، فى صداقاته مما ينتظر من انسان خبر جوانب البشر الأكثر انحطاطا (٢٣) . ولم يكن لديه خطط بعيدة للمجد والعظمة ، ولكنه عالج كل مشكلة حين تعرض له بالكثير من الدهاء والتسامح واللياقة ، حتى اغفرت له انجلترا فى النهاية كل أخطائه الا حبه للسلام .

وقد وفق تشريعه الاقتصادى بين الاعيان ملاك الأرض وطبقة

رجال الاحمال . فحاول ان يخفف الضرائب على الارض ، وايد العقوبات البصارمة على العدوان على الملكية . ثم رحب فى الوقت ذاته بظهور الرأسمالية . وخص التجار . ورجال الصناعة بمنح التصدير ورسوم الاستيراد ، وبدا غير مكترث لفقر العمال المحرومين من الارض فى القرى ، والبرولتاريا المتكاثرة فى المدن ؛ والظاهر أنه أحس أن سوء توزيع الثروة نتيجة لا مفر منها لسوء توزيع الطبيعة للكفايات . واذا استثنينا تلك المنح والرسوم فإنه نادى بسياسة حرية التجارة قبل الفزيوقراطيين الفرنسيين وآدم سمث بزمان طويل ؛ وقد خفض الضرائب على ١٠٦ سلعة تصدير فى سنة واحدة ، وعلى ثمان وثلاثين سلعة استيراد ، وأزال الكثير من القيود على تجارة المستعمرات الامريكية ، وكان رايه أن الاقتصاد الانجليزى يزكو فى ظل أقل القليل من التشريع الحكومى . وقد برر الزمن رايه ، فنمت الثروة القومية بسرعة رغم ما شابها من سوء توزيع ، وزادت ايرادات الحكومة ، وبفضل التصرف فيها بقصد وكفاية كسب ولبول الثناء عليه باعتباره « خير وزير للتجارة أنجبتة البلاد (٣٤) » .

على أن مشروع قانونه الخاص بضريبة الانتاج منى بافدح الهزائم (١٧٣٣) . ذلك أن مهربى التبغ والنبذ كانوا يحرمون الخزائنة من الرسوم الجمركية ، ويحملون الملكيات بأكثر من نصيبها فى الضرائب . وتفاديا لهذا الضرب من المشروعات الحرة اقترح ولبول ضريبة انتاج (وهى شريحة « تجنب » للحكومة) تفرض على هذه السلع حيثما اختزنت أو بيعت فى انجلترا . وخول لموظفى الضرائب (« رجال الانتاج ») أن يفتشوا أى بيت فى أى وقت ، وكان الأشخاص الذين يتضح أنهم اخفوا سلعا خاضعة للضريبة يعاقبون بالغرامة أو السجن . وهب الى الاحتجاج كل من له صلة باستيراد التبغ أو النبذ أو تهريبهما أو بيعهما أو استهلاكهما . وندد خصوم ولبول فى مجلس العموم بالضريبة ، وطريقة تنفيذها ، قائلين انها اجراء تعسفى من طاغية مستبد ، وعدوان فظيع على الحرية البريطانية . « لقد أخبر أعضاء البرلمان ولبول بانهم لا يرون ياسا فى أن ينقدهم اجرا على شروهم العادية ، أما هذا الاقتراح فهو يتجاوز حدود فسادهم (٣٥) » كما أوضح فردريك الاكبر - أو لعلمهم أملوا أن يحطوا محله فى الاشراف على

المال العام . وراجحت المنشورات من آلاف النسخ . تسبب الوزير بلغسة سوقية مفعمة بالحماسة . وتقاطرت الحشود حول وستمستر هول ، وأحرقوا دمي تصور ولبول في عشرات الحرائق ، وحاولوا تمزيقه اربابا وهو يغادر كنيسة القديس ستيفن ؛ لقد استثيرت الأمة الى شفا الثورة . وخافت الملكة كارولين على ولاء الجيش ، وارتعدت فرقا على سلامة الاسرة المالكة الجديدة . وسحب ولبول القانون مسلما بالهزيمة ، ومن هذه اللحظة أضمحل سلطانه . وتكتل خصومه ليجهزوا عليه .

٤ - بولنبروك

وكانوا خصوما كثيرين متنوعين . فتآمرت جماعة منهم مازالت متشيعة لأسرة ستيوارت ، مع المطالب بالعرش ، وسنراها بعد قليل تنتشي بمغامرة « الأمير الجميل الشاب تشارلي Bonnie Prince Charlie » و « شلة » أخرى راحت ترقص حول فردريك لويس ، أمير ويلز (ولي العهد) ، عدو الملك ووريثه . وكان أعظم كتاب العصر الانجليز يناوئون الوزير - سويفت ، وبوب ، وفيلدتج ، وأريتنوت ، وطومسن ، واكينسايد ، وجاى ؛ تهكموا بسلوكه ، وفضحوا أخلاقه ، وعابوا سياساته ، ولاموه على قطع تلك المعونة السخية التي كانت تغدق على المؤلفين والتي تفردت بها الحكومة في عهد وليم الثالث والملكة آن . أما المحافظون المتعطشون لرحيق المنصب فقد استعدوا عليه اصحاب السلطان سرا ، واستعانوا بالشعراء واثاروا ثائرة البرلمان في عزمهم على أن يخلفوا هذا الوزير الشبيه بفولستاف على مزود الوزارة . وعبر وليم بلتنى ، وتشسترفيلد ، وبنت الصاعد ، بأصواتهم عن قضيتهم ، ودافع عنها بولنبروك في غير هوادة بقلمه القتال .

وكان بولنبروك قد نال في ١٧٢٣ عفوا ملكيا يسمح له بالعودة الى انجلترا واستعادة أملاكه ، ولكنه أبعد بنفوذ ولبول عن مناصب الدولة وعن عضوية البرلمان باعتباره رجلا تعددت خياناته وشك في ولائه . على أن هذا لم ينتقص من سلطانه . ففي بيته بلندن التقت صفوة انجلترا ، مفقونة بوسامته والمعيقه وعبير اسمه . هناك ، وفي بيته الريفى ، راح يتراقش بالمسخرات مع سويفت ، وبالهرطقات مع

بجوب ، وبالأغاني الشعبية مع جاي ؛ وهناك نافضل ليوحسد بين المحافظين الجياع وبين الأحرار الذين لم يظفروا بما يشبعهم من الرشا ، فى معارضة متكثلة ضد ولبول ؛ وهناك نظم محررى وبرنامج مجلة - سميت أولا (١٧٢٦) « السيد الريفى » ثم « الفنان » - راحت تكيل اللطمات ، أسبوعا بعد أسبوع ، لكل شيء صنعه ولبول أو أراد أن يصنعه ، وكتب بولنبروك بقلمه أشد المقالات أذى ، وهى أروع نثر سياسي شهده العصر بعد اضمحلال سويفت . وقد أهدى سلسلة من تسعة عشر خطابا (١٧٣٣ - ٣٤) « رسالة فى الأحزاب » - الى ولبول تهكما منه . كتب تشستر فيلد لابنه يقول « لم أكن أعرف مبلغ قوة اللغة الانجليزية حتى قرأتها (٣٦) » .

أما آفة بولنبروك فكانت خلقه . فلقد كان أدبه الجم (وهو ناموسه الخلقى الوحيد) يفارقه اذا أحبطت مشيئته أو عورضت آراؤه . وفى يونيو ١٧٣٥ تشاجر مع بلنتى الزعيم الاسمى للمعارضة وعاد غاضبا الى فرنسا . وهناك استقر مع مركيزته قرب فونتنبلو وواسي جراحه بالفلسفة . وفى كتابه « رسائل فى دراسة التاريخ وفائدته » (الذى ألفه فى ١٧٣٥) وصف التاريخ بأنه معمل هائل أجرت فيه الأحداث تجارب لا حصر لها على الرجال ، والاقتصاد ، والدول ، ومن ثم كان خير مرشد الى طبيعة البشر ، واذن فالى تفسير الحاضر والتنبؤ بالمستقبل . « ان التاريخ هو الفلسفة التى تعلم بالمثال . . . فنحن نرى الرجال بطولهم الكامل فى التاريخ (٣٧) » . وينبغى « أن نعكف عليه بروح فلسفية » وألا يقتصر همنا على فهم الأسباب والآثار والذات المتماثلة ، بل نجاوز هذا الى الطرق التى نبين الى الآن أنها معينة على تطور البشر وسعادتهم (٣٨) . والعقبة فى مثل هذه الدراسات هى « أن قلبلا من كتب التاريخ يخلو من الأكاذيب ، وليس بينها كتاب يخلو من الأخطاء . . ولقد سرت روح الكذب من المؤرخين الكنسيين الى غيرهم (٣٩) » . ولكن قد يستطيع الطالب القوى العزم بمواجهة كاذب بأخر أن يشق طريقه بينهما الى الحقيقة . وفى ١٧٣٦ عاد بولنبروك الى حلبة السياسة بكتابه « رسائل فى الروح الوطنية » الذى هاجم فساد حكومة ولبول ودعا الى روح جسيديدة من الولاء المنكر للذات فى السياسة الانجليزية .

« لا مونتيني وهو يكتب « مقالاته » ، ولا ديكرت وهو يبني عوالم جديدة ، ولا ٠٠٠ نيوتن وهو يكتشف ويرسي القوانين الصحيحة للطبيعة على التجربة وعلى هندسة رفيعة ، لا أحد من هؤلاء شعر بابتهاج عقله أكثر من الوطنى الصادق الذى يسخر كل قوة فهمه ، ويوجه كل أفكاره وأفعاله ، لخير وطنه (٤٠) » .

وتطلع أمه الى الجيل الأصغر . فلما زار إنجلترا فى ١٧٣٨ سعى الى صداقة الأمير فردريك لويس ، ولى العهد ، الذى كان الآن يقود حركة المعارضة لولبول . ووجه بولنبروك الى سكرتير فردريك الخاص أشهر كتبه وهو « مفهوم الملك الوطنى » . وقد مات فردريك فى ١٧٥١ ، ولكن ابنه ، وهو الذى سيصبح جورج الثالث ، استقى من هذه الصفحات بعض مواد عقيدته السياسية (٤١) . وكان اقبال فى جوهره دعوة لنظام ملكى خير كذلك الذى سيحلم به فولتير و « الفلاسفة » فى الجيل التالى . فقد زعم بولنبروك أن إنجلترا قد تردت فى هوة لا يقوى على انتشالها منها سوى ملك يرتفع فوق الشيع والأحزاب ، لا بل فوق البرلمان ، ملك يفض على زمام السلطة ، ويعاقب الرشوة ، ويحكم كما يملك . ولكن الملك الوطنى سينظر الى سلطته لا على أنها حق الهى بل أمانة عامة ؛ لا مطلقة ، بل مقيدة بالقانون الطبيعى وحرىات رعاياه وحرية الصحافة وتقالييد المملكة ؛ وسيحكم على جميع المسائل حسب تأثيرها فى رخاء الشعب وسعادته (٤٢) . سيشجع التجارة باعتبارها أهم مصدر لثروة الأمة ؛ وسيقوى البحرية فى بريطانيا باعتبارها الحارس للاستقلال القومى ولتوازن القوى فى القارة .

كان « مفهوم الملك الوطنى » محاولة لبناء حزب جديد من المحافظين يلبس مبادئ الأحرار ويتألف من المحافظين الذين أقصوا عن الحكم والأحرار الساخطين ؛ حزب يرفض الولاء للاستيوارتيين ، يستهدف التوفيق بين الأرض والتجارة ، وبين الامبراطورية والحرية ، وبين الخدمة العامة والثروة الخاصة ★ . فلما نشر المقال (١٧٤٩) أصبح

★ قارن عبارة اللورد بيركنهد التى اجملت فكرة بولنبروك : « ذهب الأحرار للاستحمام ، فسرق بولنبروك ملابسهم (٤٣) » .

الصيحة التي احتشد حولها الشباب المتحمس الذين تطلّعوا الى الملكية بوصفهم « أصدقاء الملك » لتظهر حكومة انجلترا . وقد شكل الفلسفة السياسية لصموئيل جونسن وبت الأب والابن . وأوحى بالمحافظ — الليبرالية التي دان بها بنيامين دزرايلي ، الذي أشاد كتابه « دفاع عن الدستور الانجليزي » (١٨٣٥) ببولنبروك أبا للديمقراطية المحافظة ، والرجل الذي أرمي بإعادة تنظيمه العقل العام تنظيما كاملا الأساس لعودة المحافظين الى الحكم (٤٤) . لقد كان تأثير بولنبروك ودزرايلي هو الذي صب من جديد حزب التورى المهزوم ليخرج منه حزب « المحافظين » التقدمى فى انجلترا اليوم .

٥ - كيف تنزلق الدول الى الحرب

وخلال ذلك تعاونت دعاية بولنبروك مع تلك الروح المقاتلة ، التي تسم بها برلمان تسلط المال على تفكيره ، على انتهاء حكم ولبول الطويل وكان الوزير الحذر ، الذى أقام سلطته على صون السلام ، ينفر من التورط فى خصومات مع الدول الأجنبية ، فاتفق مع الكردينال فلورى — الذى كان يحكم فرنسا وفق مبادئ مماثلة — على الاحتفاظ أطول ما يستطيع بالسلام الذى أرسته معاهدة أوترخت ، وترك فيما عدا ذلك إدارة العلاقات الخارجية لأخيه الكفء أوراثيو . ولكن احتفاظ انجلترا بجبل طارق ، وتنافس انجلترا وأسبانيا على السيطرة على أمريكا والبحار ، ولدا عنفا أشد بمضى الزمن . وكان جورج الأول ووزيره ستانهوب قد أكدا لفليب الخامس ملك أسبانيا فى يناير ويونيو ١٧٢١ أن انجلترا ستتخلى عن جبل طارق حالما تسمح بذلك مالية بريطانيا ويرتضيه مزاج البرلمان . ولكن الشعب البريطانى أبى أن يرتضى هذا الاستسلام (٤٥) . فلتتابع الآن الرواية الانجليزية لكيفية انزلاق انجلترا الى الحرب ، قهى تبين غلو الجماهير فى وطنيتهم ونزاهة المؤرخين البريطانيين (٤٦) .

تقول الرواية ان شركة بحر الجنوب « استغلت استغلالا فاضحا » بذلك الامتياز الذى منحته أسبانيا لانجلترا ، وهو السماح لها بارسال سفينة تجارية واحدة فى السنة الى الممتلكات الأسبانية فى الدنيا

الجديدة ، وأن « تجارة كبيرة غير مشروعة قامت » ، تدبر الشركة بعضها ، وتغضي عن بعضها الآخر . وكان رد أسبانيا على هذا تفتيش السفن الانجليزية المشتبه في قيامها بالتهريب . وزعم روبرت جنكنز أنه في أحد هذه التفتيش (٧٣١) فقد احدى أذنيه ، وقد احتفظ بها ، وعرضها على الناس في بريطانيا ، وطالب عاليا بالانتقام . وصادر الأسبان بعض السفن الانجليزية المشتغلة بالتجارة المشروعة ، وأبقوا الأسرى الانجليز راسفين في الأغلال ، وقبض القراصنة الانجليز على بعض الأسبان وباعوهم رقيقا في المستعمرات البريطانية . واستمر التهريب ، واحتجت الحكومة الاسبانية ، وتباطأ ولبول الذي كان يكره الانتقام من دخل شركة بحر الجنوب المكافحة للبقاء ، رغم انه اشتد في عقاب التهريب على السواحل الانجليزية . وحبذت طبقة التجار الانجليز الحرب ، واثقين من التفوق البحري ، آمنين من الغزو ، متطلعين الى أسواق جديدة وتجارة متسعة . واثارت نائرة الشعب قصص الوحشية الاسبانية ، الصحيح منها والباطل . وكان الانجليز المطالبون باتخاذ اجراء في الامر يشاد بهم وطنيين بوسائل ، أما الذين نصحو بالاعتدال فرموا بالجبن والخور . وعرض جنكنز على البرلمان أذنه في زجاجة (مارس ١٧٣٨) ، فالقى بلتنى ، وبث ، وغيرهما من المعارضين لولبول خطبا حماسية عن شرف انجلترا ★ . وفي لحن عسكري معارض نددت جماهير الشعب الأسباني بالانجليز كلابا مهرطقين ، وانطلت عليها قصة زعمت أن ضابطا انجليزيا أكره أسبانيا نبيلاً على جدد أنفه وأكله .

أما الحكومتان فقد تصرفتا تصرفا معقولا . فنشر لاکوادرا ، كبير الوزراء الأسبان ، للاستهلاك الجماهيري خطبا ساخنا وجهه الى ولبول ، ولكنه أخبره سرا بأن أسبانيا ترحب بتسوية النزاع بعد المفاوضة . ثم وقعت الحكومة البريطانية - في تحد لهذه المسورة

★ يقول هوراس ولبول أنه حين مات جنكنز تبين أن له اثنين سليمتين تماما . وتحدث بيرك عن « خرافة أذني جنكنز (٤٧) » . ونسبت رواية أخرى سلم الأذن لقرصان عاقبته بعد ذلك الحكومة الامبالية (٤٨) -

الجماهيرية الصاخبة - اتفاقية البارود مع أسبانيا (١٤ يناير ١٧٣٩)
وفيها نزل كل من الجانبين عن أشياء ، وشكلت لجنة لتسوية كل الشكاوى
المعلقة . وقبل نصف الشعب الاسباني المعاهدة ، ولكن انجلترا باكملها
تقريبا أعلنت سخطها عليها . وشكت شركة بحر الجنوب من أن المعاهدة
ستنتقض من دخلها وأرباحها انتقاصا شديدا ، وكان السفير الانجليزى
بمدريد وكيلًا للشركة أيضا . يضاف الى هذا أن « الأزينتسو » الذى
سمحت أسبانيا بمقتضاه لانجلترا بامداد أمريكا الأسبانية بالعبيد
الزنجى انتهى أجله فى ٦ مايو ١٧٣٩ ، ورفض فليب الخامس تجديد
العقد (٤٥) . ومع ذلك استدعى ولبول الأسطول الانجليزى من البحر
المتوسط مواصلا سياسته السلمية ، ثم ألغى الأمر بعد أن اشتبه خطأ
فى أن أسبانيا تبرم حلفا سريا مع فرنسا ، وأمر الأسطول بحماية جبل
طارق . واحتج لاكوادرا ، وقطع ولبول المفاوضات مستسلما لنوبة الحرب ،
التي أصابت البرلمان والشعب ، وفى ١٩ أكتوبر ١٧٣٩ أعلنت انجلترا
الحرب على أسبانيا . واغتنب الشعب الذى كان لا يزال ينعى ولبول
بالجبن ، وراحت أجراس الكنائس تقرر فى انجلترا طولا وعرضا .
وكتب الآن جيمس طومسن أغنيته الشعبية المثيرة « احكمى يا بريطانيا »
التي أقسمت أن « البريطانيين لن يذلوا أبدا » .

وما من شيء يشد من أزر الحكومة عادة أكثر من اعلان الحرب ،
فعندها تكتم المعارضة المخلصة للوطن مدافعها . بيد أن وزارة ولبول
كانت استثناء للقاعدة . فلقد أحس خصومه بحق أن وزارته غير متحمسة
للجيوش الزاحفة أو للأساطيل التي تنفث النيران ؛ وحملوا سوء ادارته
تبعه الهزائم العسكرية كلها ، وعزوا كل الفضل فى انتصار بحرى عند
بورتو بيللو (على برزخ بنما) لعبقرية الاميرال فيرنون الذى كان أحد
أعضاء المعارضة . وفى فبراير ١٧٤١ أقترح صموئيل سسانديز على
البرلمان أن ينصح الملك باقالة رئيس وزرائه . وهزم الاقتراح ، ولكنه
لم يهزم ألا بفضل استجداء ولبول لأصوات الاستيوارتيين . وأفسح له فى
الوزارة عاما آخر ، غير أنه أدرك أن قد حان حينه ؛ وأن البلاد تريد
تغييرا .

ثم انه أرهق . كتب أبنه يقول . « هذا الذى كان فى السنين الماضية

يستغرق فى النوم حالما يمس رأسه الوسادة . لا ينام الآن أبدا أكثر من ساعة دون أن يصحو ؛ والذي كان على المائدة ينسى دائما أنه وزير ، وكان أكثر مرحا وخلوا من الهموم من جميع رفاقه ، يجلس الآن دون كلام ، وعيناه جامدتان ، ساعة بطولها (٥٠) . وجاءت الانتخابات الجديدة ببرلمان معاد له عدااء ساحقا ، فهزمه فى أمر قليل الشأن ، وفى ١٣ فبراير ١٧٤٢ استقال . واذا كان أعجز من أن يواجه صخب مجلس العموم ، فانه لم يجد مشقة فى اقناع جورج الثانى بأن يمنحه لقب إيرل أكسفورد ، ويوصفه هذا هبط صعدا الى مجلس اللوردات . وكان قد جمع ثروة طائلة تحسبا ليوم سقوطه .

ومات فى ١٨ مارس ١٧٤٥ بالغا الثانية والستين ، بعد أن تجلد لمرض طويل مؤلم . وودعت إنجلترا السلام ، وانطلقت لتتخزو العالم بزعامه « بت » بعد « بت » .

٦ - أيرلنده : ١٧١٤ - ٥٦

لم يعرف التاريخ أمة ظلمت كما ظلم الأيرلنديون ، الا فيما ندر . فطوال الانتصارات المتكررة التى أحرزتها الجيوش الانجليزية على الثورات الوطنية ، شُرعت مجموعة من القوانين قيدت الأيرلنديين بالأغلال جسدا وروحا . فصدورت أرضهم حتى لم يبق غير حفنة من الملاك الكاثوليك ، وامتلكها كلها تقريبا بروتستنت عاملوا فلاحهم معاملة العبيد . يقول تشستر فيلد « ان الفقراء فى أيرلنده يلقون من الملاك والسادة معاملة أسوأ مما يلقاه الزوج (٥١) » . ويقول ليكى « لم يكن من الغريب فى أيرلنده أن يكون للكبار ملك الأراضى سجون دائمة فى بيوتهم لعقاب الطبقات الدنيا عقابا عاجلا (٥٢) » . وكان كثير من الملاك يعيشون فى إنجلترا ، وينفقون فيها (حسب تقدير سويفت) ثلث الأيجارات التى يدفعها المستأجرون الأيرلنديون (٥٣) . أما المستأجرون - الذين طحنتهم الأيجارات التى يؤدونها للمالك ، والعشور التى يؤدونها للكنيسة الرسمية التى يمتقونها ، والفروض التى يؤدونها لقساوستهم - فكانوا يسكنون أكواخا من الطين يرشح الماء من سقفها ، ويمشون نصف عراة ، ويتضورون جوعا فى أكثر

الإحياء ، وذبح سويقت الى أن « المستأجرين الارلنديين يعيشون حياة أسوأ من حياة المتسولين الانجليز (٥٤) » . وأما الملاك الذين ظلوا يقطنون ارلندة ، وكلاء الملاك الغائبين ، فكانوا يستعينون على همجية بيقتهم وعدائهم يحفلات الطعام والشراب الصاخبة المخمورة ، والضيافة المسرقة ، والشجار والمياوزة ، والمقامرة على رهانات كبيرة .

ولما كان للبرلمان البريطاني مطلق السلطان على ارلندة ، فانه خنق أى صناعة تنافس انجلترا . وقد رأينا فى غير هذا الموضع كيف قضى قانون صدر فى ١٦٩٩ على الصناعات الصوفية الوليدة بحظره تصدير الاصواف الارلندية الى أى بلد كائنا ما كان . وبالمثل خنقت القوانين الانجليزية بغير رحمة كل ما احتفظت به ارلندة من تجارة خارجية وسط زعازع السياسة وخراب الحروب . فاثقلت المصادرات الارلندية برسوم التصدير التى عزلتها عن جميع الأسواق تقريبا الا انجلترا (٥٥) ، وكان كثير من الارلنديين يعيشون على تربية الماشية وتصديرها لانجلترا ، ولكن قوانين ١٦٦٥ و ١٦٨٠ حظرت استيراد انجلترا لماشية ارلندة أو اغنامها أو خنازيرها ، أو لحم البقر أو الضأن أو الخنزير ، حتى الزبد أو الجبن . وكانت ارلندة تصدر حاصلاتها للمستعمرات الانجليزية ، فاشتراط قانون صدر فى ١٦٦٣ الا تستورد سلع أوربية للمستعمرات الانجليزية ، باستثناءات قليلة ، الا من انجلترا ، فى مراكب انجليزية ، بحارتها انجليز . وماتت البحرية التجارية الارلندية . يقول سويقت « ان مزايا الموانئ والمراقىء التى سخت بها الطبيعة على هذه المملكة ، ليست أكثر فائدة لنا من حلم جميل يراود رجلا حبس فى زنرانة (٥٦) » .

وأرهقت القوانين التى شرعتها انجلترا لرعاياها الارلنديين البروتستنت كما أرهقت الكاثوليك ؛ وفى مناسبة مشهودة انضموا الى الكاثوليك فى التمرد على الحكم البريطانى . وكان تصدير مال الايجارات للملاك الغائبين عن ارلندة قد خلق عجزا فى العملة المعدنية بارلندة فى ١٧٢٢ . وعرض ولبول تخفيف هذا العجز بإصدار عملة نحاسية . وكانت الخطة معقولة ، ولكن لوثها الفساد المألوف ، فقد « نهبحت دوقه كندال امتياز سك النقود الجديدة ، فباعته لوليم وود صاحب مصانع الحديد نظير ١٠٠٠٠ جنيه ؛ ولكى يجمع ولیم هذا المبلغ مضافا اليه ربحه

اقترح أن يسك ٨٠٠ر١٠٠ جنيه أنصاف بنسات أو أرباعها . ولما كانت حملة عملة أيرلندة المعدنية آنئذ لا تتجاوز ٤٠٠ر٠٠٠ جنيه ، فقد احتج الأيرلنديون بأنه سيكون ضروريا استعمال النقود النحاسية فى المدفوعات وفى الصرافة ، ودفع الحسابات الأجنبية بما فيها إيجارات الملاك الغائبين بالفضة أو العملة الورقية ، وأن العملات الأرخص ستحمل الناس على اختزان العملات الأفضل أو تصديرها ، وأنه لن يكون فى أيرلندة عما قليل عملة غير النقود النحاسية المزعجة . ورغبة فى علاج هذه الشكاوى وافقت الحكومة البريطانية على خفض الإصدار الجديد إلى ٤٠ر٠٠٠ جنيه وقدمت تقريرا من إسحاق نيوتن ، مدير دار سك النقود ، يقرر أن أنصاف بنسات وود وافية من حيث محتواها المعدنى بشروط الامتياز ، وأنها أفضل كثيرا من العملات الموروثة عن العهود السابقة .

عند هذا المنعطف دخل الجدل جوناثان سويفت ، الناظر الانجليكانى لكاتدرائية القديس باتريك بدبلن ، بنشره سلسلة من الرسائل تحت اسم مستعار هو م. ب. درابير ، هاجم فيها العملة الجديدة بكل ما فى روحه من عنف وما فى جعبته من هجو ، لأنها محاولة لغش الشعب الأيرلندى . وزعم أن العملة التى أرسلت إلى نيوتن لاختبارها سكت خصيصا لهذا الغرض ، وأن الكثرة الغالبة من أنصاف بنسات وود تساوى أقل كثيرا من قيمتها الاسمية ؛ والواقع أن بعض الاقتصاديين أيدوا دعواه بأن قدروا أن أيرلنده ستخسر ٦٠ر٤٨٠ جنيهها بالإصدار الذى اقترح أولا (٥٧) . وفى الرسالة الرابعة انتقل سويفت إلى اتهام قوى للحكم الانجليزى كله فى أيرلنده ، ووضع هذا المبدأ « أن كل حكم بغير رضى المحكومين ما هو إلا العبودية بعينها (٥٨) » . واستجاب الأيرلنديون ، بما فيهم أغلبية البروتستنت لهذه النعمة الجريئة فى لهفة ، وراح الناس يغنون فى الشوارع أغانى شعبية تحض على مقاومة إنجلترا . ووجدت الحكومة الانجليزية نفسها تتقهقر أمام قلم واحد ، وهى التى تحدثت شعبا بأكمله قرونا طوالا . وقدمت مكافأة من ثلاثمائة جنيه للقبض على الكاتب ، ولكن أحدا لم يجرؤ على اتخاذ إجراء ضد الناظر العلبس وإن عرفه المئات منهم . كذلك لم يجرؤ أى أيرلندى على أن يواجه غضب الشعب بقبوله العملة الجديدة . وسلم ولهبول بالهزيمة ، وألغى الإصدار ، وعرضه

وود بمبلغ ٢٤٠٠٠ جنيه نظير مصروفاته التى أنفقها عبثا ومكاسبه التى تبخرت .

وقد استحالت كل مقاومة للسيطرة الانجليزية الا ان تكون من فعل الغوغاء أو عنف الأفراد ، وذلك بسبب بنیان السياسة الارلندية . ذلك أن البرلمان الارلندى بعد ١٦٩٢ كان كله من البروتستانت ، لأن شرط المنصب كان الولاء للكنيسة الانجليزية (٥٩) ، وكان الآن خاضعا كل الخضوع لانجلترا . وفى ١٧١٩ أكد البرلمان الانجليزى من جديد حقه الاعلى فى التشريع لارلنده . فالقوانين التى حمت الحرية البرلمانية أو الفردية فى انجلترا ، كقانون هابياس كوريس وقانون الحقوق ، لم تطبق على ارلنده ؛ أما الحرية النسبية للصحافة ، التى كانت تتمتع بها انجلترا ، فلم يكن لها وجود فى ارلنده . ولم يكن بين البرلمانين شبه الا فى فساد ناخبتهما وأعضائهما . وكان بينهما خلاف آخر فى غلبة نفوذ الاساقفة الانجليكان فى مجلس اللوردات الارلندى .

كانت الكنيسة الرسمية تضم نحو سبع السكان بين أتباعها ، ولكنها تعتمد على العشور التى تجنى من الفلاحين ، وكل هؤلاء تقريبا كاثوليك . واتبعت نسبة صغيرة من السكان المذهب المشيخى (الكلفنى) أو غيره من المذاهب المنشقة ، ونالت قسما من التسامح ، الا حقها فى مناصب الدولة . ولم يقتصر حرمان الكاثوليك على مناصب الدولة فقط بل تجاوزته الى كل المهن الراقية الا الطب ، وكل سبيل تقريبا الى التعليم العالى ، أو الثروة ، أو النفوذ (٦٠) . وحظر عليهم شراء الأرض ، أو الاستثمار فى رهون على الأرض ، أو حيازة أى ايجار طويل الأجل أو ذى قيمة . وحظر عليهم أن يكونوا محلفين الا عند الافتقار الى محلفين بروتستانت . ولم يكن فى استطاعتهم التعليم فى المدارس ، ولا التصويت للمناصب البلدية أو القومية ، ولا الزواج زواجا شرعيا من بروتستانتية (٦١) . وكان شرط عبادتهم أن يقوم بها كاهن سجل اسمه فى الحكومة وأقسم يمين التخلّى التى تنبذ الولاء لأسرة ستيوارت . أما غير هؤلاء من الكهنة فعقابهم السجن . ولكن هذا القانون نادرا ما طبق بعد ١٧٢٥ ؛ وفى ١٧٣٢ فكرت لجنة فى البرلمان الارلندى فى تقرير لها أن فى ارلنده ١٢٤٥٥ كاهنا ، و ٢٢٩ كنيسة كاثوليكية ،

و ٥٤٩ مدرسة كاثوليكية . وبعد ١٧٥٣ خفف الانجليز من غلوائهم وتحسنت حال الكاثوليك فى ايرلندا .

وتضافر اضطراب الحياة الدينية ، وفقر الشعب ، واليأس من التقدم الاجتماعى ، ليهبط كل أولئك بمعنويات الحياة الارلندية . فهاجر الى فرنسا أو أسبانيا أو أمريكا أكثر الكاثوليك كفاية وجراً ، ممن كانوا قادرين على النهوض بمستوى الكفاية والذكاء والأخلاق الارلندية . وانحدر الكثير من الارلنديين الى درك التسول أو الجريمة اتقاء الموت جوعاً . واختبأت عصابات اللصوص فى الريف ، واتخذ المهربون ولصوص السفن الغارقة من السواحل مكمناً ، واحتفظ بعض أصحاب الملكيات « ببلطجية » وصل عددهم أحياناً الى الثمانين لتنفيذ أوامره ، ضاربين بالقانون عرض الحائط . وذبحت العصابات الجوابة آلاف الماشية والاعنام ، انتقاماً كاثوليكياً - على ما يبدو - من الملاك البروتستنت . وكان عسيراً على شعب أن يحترم القوانين التى يصدرها برلمان ايرلندى طالما تحدثت عن الكاثوليك - وهم ثلاثة أرباع السكان - بوصفهم « العدو المشترك » .

على أن الحياة الارلندية لم تخل من عناصر أكثر اشراقاً . فقد بقى للشعب مزاجه البشوش ، الهادئ ، الضحوك ، خلال شدائده كلها ، وأحاطت خرافاته وأساطيره حياته بالسكر والشعر دون أن تفضي به الى عنف كذلك الذى اتسمت به اضطهادات السحرة والساحرات فى اسكتلندا وألمانيا . وكان بين الكليروس الأنجليكانى فى ايرلندا علماء أفذاذ (كالأسقف آشر ، أسقف أرما) ، وفيلسوف نابه (هو جورج باركلئ أسقف كلوين) ، وأعظم كتاب الانجليزية قاطبة فى الربع الأول من القرن الثامن عشر ، وهو جوناثان سويفت ، ناظر كتدرائية القديس باتريك . وجاهدت جمعية دبلن المؤسسة فى ١٧٣١ لتحسن التكنولوجيا فى الزراعة والصناعة ، وتحفز الاختراع ، وتشجع الفن . وكان هناك أمثلة كثيرة لأفراد من البروتستنت مدوا يد المعونة للكاثوليك الفقراء ، وقضاة لانوا فى تطبيق اللوائح الوحشية التى تضمنها قانون العقوبات .

ولكن صورة الحياة الارلندية كانت فى جملتها من اشد ما حواه التاريخ خزيا وعارا . فقر مذل ، وتمرد فوضى على القانون ، واملاق مترحل ، و ٣٤٠٠٠ متسول ، وعدد لا حصر له من اللصوص ، وطبقة عليا تعيش فى اسراف مخمور بين فلاحين يتضورون جوعا ، وكل اخفاق فى المحصول يجبر مجاعة واسعة الانتشار - « فالشيوخ والمرضى يموتون وينتفون من البرد والمجاعة والقذارة والحشرات (٦٢) » - على حد قول سويفت . هذه الصورة الرهيبة يجب أن تجسد مكانا فى مفهومنا عن الانسان . وبعد الصقيع الطويل القاسى الذى اصاب ارلندة فى ١٧٣٩ جاءت مجاعة ١٧٤٠ - ٤١ القاسية ، التى هلك فيها حسب أحد التقديرات عشرون فى المائة من السكان ، مخلفين الكثير من القرى المهجورة . وفى مقاطعة كرى هبط عدد دافعى الضرائب من ١٤٣٤٦ فى عام ١٧٣٣ الى ٩٣٧٢ فى عام ١٧٤٤ . وقدر باركللى أن « الأمة فى أغلب الظن لن تعوض هذه الخسارة بعد قرن (٦٣) » ولكنه أخطأ التقدير . فما لبثت النساء أن ولدن الاطفال فى صبر ليعوضن من فقد من الموتى . وفترت الحماسة الدينية بين البروتستنت بانتشار التعليم ، واشتدت بين الكاثوليك كلما وحد الدين بينه وبين صراع الأمة فى سبيل الحرية . وسرعان ما عوضت النسبة العالية للمواليد ، التى حبذتها الكنيسة الكاثوليكية سلاحا سريا لها ضد معارضة ، عما ساء به المجاعة والوباء والحرب ؛ فما حلت سنة ١٧٥٠ حتى ارتفع سكان ارلندة من قرابة ٢٠٠٠٠٠ فى ١٧٠٠ الى نحو ٢٣٧٠٠٠ وفى نهاية الشوط غلب ايمان المظلومين وخصوبتهم سلاح الغزاة وجشعهم .

٧ - اسكتلندة : ١٧١٤ - ٥٦

لم كان حظ اسكتلندة مختلفا اشد الاختلاف عن حظ ارلندة ؟ أولا لأن اسكتلندة لم تقهر قط ، بل انها على العكس من ذلك أعطت انجلترا ملكا اسكتلنديا . وكان لها فى شيوخ قبائل مرتفعاتها (الهايلاندز) الذين لم يذلوا بعد ، طبقة من المقاتلين قادت الاسكتلنديين المرة بعد المرة فى غزوات لانجلترا . وكان اهل سهولها سلالة انجلو - سكسونية ، ينتمون أساسا الى الاصل الذى ينتمى اليه الانجليز . أما تربتها فظلت ،

في قبضة أهلها الشديدي المراس . وأما دينها ، شانه شأن الانجليكانية ، فكان نقاج حركة الاصلاح البروتستنتي ، لا تركة موروثه عن الكنيسة الوسيطة ، وقد وحد صفوف الأمة بدلا من أن يقسمها ، وبعد قانون الاتحاد (١٧٠٧) شاركت اسكتلندة بنسبة السكان في انتخاب البرلمان الذي أصبح الآن يسمى البرلمان البريطاني (أى الانجليزى - الويلزى - الاسكتلندى) ، وأذعنن لأن تحكم من لندن ، ولكن بعد أن انتزعت تنازلات تجارية اثرت الشعب الاسكتلندى . وحاولت كل أبرشية في اسكتلندة أن تنشئ مدرسة لأطفالها ، ووفرت أربع جامعات بها أفضل ما وجد في الجزر البريطانية آنئذ من تعليم عال . وقد ازدهر هذا النشاط التعليمى خلال القرن الثامن عشر في حركة « تنوير اسكتلندى » دفعت الفكر الانجليزى دفعة قوية - أبطالها هيوم ، وهتشسن ، ورايد ، وروبرتسن ، وآدم سميث .

على أن هذا الانجاز الرائع اقتضى تحقيقه الكفاح الطويل ، وانقضت خمسون عاما قبل أن يؤتى الاتحاد أكمله . فقد كانت اسكتلندة فى ١٧١٤ لا تزال قطاعية النظام . كل اقليم فيها خارج المدن يحكمه نبيل كبير بوساطة أتباعه المقطعين ، والأرض تفلحها طبقة من المستأجرين الفلاحين ، موالين لسادتهم ، ولاحظ لهم من التعليم . ولكن الاتحاد السياسى مع انجلترا أخذ الآن يقوض ذلك البناء . كان النبلاء يسيطرون على البرلمان الاسكتلندى ، فلما اختتم عهد ذلك البرلمان وجد الممثلون الاسكتلنديون فى البرلمان البريطانى أنفسهم فى بيئة ينافس فيها نفوذ التجارة والصناعة نفوذ الأرض ؛ فتبنوا الأفكار والتكنولوجيا الانجليزية ، وما وافت سنة ١٧٥٠ حتى كان أصحاب صناعات اسكتلندة وتجارها يتحدون الزعامة القومية التى احتكرها الارجيليون ، والاثوليون ، والهاملتونيون ، والماريون . وكانت مغامرة ١٧٤٥ الاستيوارتية آخر انتفاضة من انتفاضات السلطة الاقطاعية الاسكتلندية ، فلما أخفقت اندمجت حياة اسكتلندة الاقتصادية فى الاقتصاد الانجليزى ، وبدأ حكم الطبقات الوسطى . وفتح الاتحاد المستعمرات الانجليزية للتجارة الاسكتلندية ، وفى ١٧١٨ أطلقت جلاسجو أول سفينة اسكتلندية لتعبر الاطلنطى ، وما لبث التجار الاسكتلنديون أن انتشروا فى كل مكان . وتحسنت التكنولوجيا الزراعية

ووسائل النظافة الصحية فى المدن ، وهبطت نسبة الوفيات ، وزاد السكان من ١٠٠.٠٠٠ر ١٠٠.٠٠٠ فى ١٧٠٠ الى ١٠٠.٠٠٠ر فى ختام القرن وكانت ادنبره بسكانها البالغين خمسين الفا فى ١٧٥١ ثالثة اكبر المدن فى بريطانيا العظمى ، فلم يفقها غير لندن وبرستول .

وظلت الكنيسة المشيخية على ولائها للاهوت الكلفنى ولاء يقرب من التعصب . ففى كل أحد يمشي الناس - احيانا ميلين او ثلاثة - ليختلّفوا الى كنائس عطلت من الزينة عطلا صارما ، ويستمتعوا الساعات الى عظات وصلوات تؤكد حتمية الجبر وأحوال الجحيم . وكان الكتاب المقدس الالهام اليومى لكل أسرة اسكتلندية . وفدّر هيوم ، حتى سنة ١٧٦٣ ، فى مبالغة مّرة ، أن لكل رجل وامرأة وطفل فى اسكتلدة كتابين مقدسين (٦٤) ؛ أما الوعاظ فقليلو الحظ من التعليم ولكن فيهم تقوى صادقة وورعا مؤثرا ، يعيشون فى بساطة متقشفة ، وتدعم قدوتهم وتعاليمهم من ثبات الخلق الاسكتلندى ونزاهته . وكان شيوخ كل كنيسة وراعيها يراقبون فى تشدد كثير سلوك الرعية وكلامهم ، يوزعون العقوبات على الحلف ، والنميمة ، والشجار ، والسحر ، والفسوق ، والزنا ، وأى كسر ليوم الرب (الأحد) ، وأى انحراف عن عقيدتهم الرهيبة . وادان الرعاة الرقص ، وحفلات الزفاف ، والتفرج على المسرح . واستمروا يعقدون المحاكمات بتهمة السحر وان اخذت احكام الاعدام بسببها تقل . ففى ١٧٢٧ ادينّت ام وابنتها بهذه التهمة ، وفرتّ البنت ، ولكن الام أحرقت حتى الموت فى برميل من القار (٦٥) . فلما ألغى البرلمان الانجليزى (١٧٣٦) القانون الذى يعاقب السحر بالموت ، ندد شيوخ الكنائس الاسكتلندية بالالغاء لأنه انتهاك لأمّ صريح أصدره الكتاب المقدس (٦٦) .

وكانت مدارس الأبرشيات التى تتفق عليها الكنيسة الاسكتلندية ، ومدارس الحضر التى تعينها المدن ، تعد الطلاب للجامعات . فوفد على ادنبره وأبردين وسانت أندروز وجلاسجو شبان تواقون للعلم من كل طبقة - من المزارع والمصانع ومن قصور الاقطاعيين وقاعات البارونات على السواء ، يدفعهم الشوق الى المعرفة ، ويتحملون فى سبيلها كل عناء ؛ يعيش كثير منهم فى حجرات باردة على السطوح ، ويصيبون

أكثر غذائهم من زكيبه من الشوفان يحملونها دوريا من مزارع آبائهم . وكذلك كان الأساتذة قوما ذوي جلد وزهد ، ندر أن تقاضي أحدهم أكثر من ستين جنيها في العام . وكاد اللاهوت في الجامعات أن يكون لب المنهج - كما كان في مدارس الأبرشيات . ولكن الآداب الكلاسيكية كانت تدرس ومعها قليل من العلوم ؛ وتأثر الذهن الاسكتلندي بفكر أوروبا العلماني . من ذلك أن فرانسيس هتشسن ، الذي شغل كرسي الفلسفة الأخلاقية في جلاسجو (١٧٢٩ - ٤٦) ، نَحى الجدل الدجماطيقى ، وأرسى علم الأخلاق على أسس طبيعية . وشابت الهرطقة الأريوسية عقيدة الطلاب والأساتذة على السواء - وهي التي زعمت أن المسيح ، رغم الوهيته ، لم يكن معادلا لله الأب أو مساويا له في أزليته . وذكر مؤلف اسكتلندي في ١٧١٤ « الرواج الشديد بين شباب الأعيان والطلاب » لأفكار هوبز وسبينوزا (٦٧) . وكونت جماعات صغيرة من الشبان الذين ثملوا بخمر التحرر أندية - مثل « الجمعية الكبريتية » و « نار الجحيم » و « الفرسان سيئى السمعة » - تبشر بالاحاد في تفاخر ؛ ولعلمهم اختلطوا بالساخطين الاستيوارتيين . ذلك أن اسكتلندة - اذا استئنيا طبقات التجار التي ارتبطت بالاقتصاد الانجليزى - كانت لا تزال تنتشي بذكرى أسرة ستيوارت ، وتحلم باليوم الذى يقود فيه جيمس الثالث ، أو ابنه ، الاسكتلنديين مرة أخرى عبر الحدود ليرد أسرة اسكتلندية الى العرش البريطانى .

٧ - الأمير تشارلى الجميل : ١٧٤٥

كان جيمس الثالث قد أفنى نفسه فى محاولات عقيمة لقيادة حملة على انجلترا أو اسكتلندة . وفى ١٧١٩ تزوج ماريما كلمنتينا سوبيسكا ، حفيدة أشهر ملوك بولنده ، وكان الزواج تعسا ، ولكنه أعطى جيمس ولدا كان وجهه الحلو وطبعه المرح - اللذان ربما ارتدا الى ماري ملكة الاسكتلنديين - مفخرة ومشكلة لأبويه . وأطلقت انجلترا على تشارلز ادورد ستيوارت هذا لقب « المطالب الشاب » ، أما اسكتلندة فسمته « الأمير تشارلى الجميل » . وشب تشارلز دون أن ينال من التعليم حظا كبيرا لأنه نشأ فى بيت يسوده الشقاق ، وتعلم مذهبين متناقضين على يد مذهبيه الكاثوليك والبروتستنت ، ولكنه - وهب كل مفساتن الشباب -

الرياضي ، وكل حماسة الرأس الملهوف على تاج . وقد افقتن دون ليريا بما كان عليه الغلام من « جمال رائع » ، بعينييه العسليتين المرحتين ، وشعره البنّي الفاتح ؛ فهو راكب جرىء ، وهداف ماهر ، ذو قوام فارغ طوله ستة أقدام خلق للحرب ، و « لاعب جولف جبار » ، وموسيقى ماهر ، وراقص رشيق - وقال الدوق ان هذا « على الجملة أكمل أمير لقيته (٦٩) » وكان تشارلز عليما بفضائله ، وهو ما جعله صعب المراس أحيانا . وفي ١٧٣٤ ، حين كان غلاما بعد لا يجاوز الرابعة عشرة ، سمح له بأن يذوق طعم الحرب في الجيش الأسباني في جايبا ، فلما أيقظ روحه خوض أول معاركه ، راح يترقب الفرصة على أحر من الجمر للاستيلاء على إنجلترا . وبدت الفرصة مواتية حين بدأ البرلمان البريطاني ، رغم معارضة ولبول ، الاستباكات مع أسبانيا (١٧٣٩) . واستفحل هجوم فردريك الأكبر على سيليسيا (١٧٤٠) حتى أفضى إلى حرب الوراثة النمساوية . وأرسلت إنجلترا جيشها الرئيسي إلى القارة ، فأى وقت أنسب من هذا ليضرب فيه الاستيوارتيون ضربة سريعة أخرى للظفر بالعرش الانجليزي ؟ ومن ثم كونوا في سكتلندة « الرابطة » (١٧٣٦) التي التزمت بتلك المغامرة ، وأوفدوا المبعوثين إلى إنجلترا ليحرضوا على قيام ثورة استيوارتية ، وأرسلوا النداءات إلى فرنسا طالبين المال ، والسلاح ، والجنود . وأمر لويس الخامس عشر سبع سفن حربية وأحدى وعشرين ناقلة جنود بالتجمع في برست والاستعداد لنقل عشرة آلاف مقاتل نحت امرة المريشال دساكس من دنرك إلى إنجلترا . وانتظر الأمير تشارلز في ايطاليا بفارغ الصبر دعوة من باريس لينضم إلى الحملة . ولكن الدعوة لم تصل ، فغادر روما في ١٠ يناير ١٧٤٤ ، وركب ليل نهار إلى فراسكاتي ، وليريتشي ، وجنوة واستقل سفينة إلى أنتيب ، وركب كالمجنون إلى باريس . أما أبوه المسن فظل في روما ، ولم تقع عليه عيناه بعد ذلك قط . واستقبل الملك تشارلز بالترحيب ، وأمدّه بمعونة مالية معتدلة . فمضى إلى جرافلين ، وانتظر بصبر نافذ الأوامر بالابحار مع المرشال دساكس ، الذي انتظر الأسطول الفرنسي هو الآخر بصبر نافذ .

وحالفت الرياح والأمواج إنجلترا كالمعدة . فصادف الأسطول الفرنسي بعد اقلاعه من برست (٦ فبراير) « بحرا رهيبا » و « ريحا

معاكسة كل يوم » . واصطدمت مراكبه ، وتحطمت صواريخه ، وعمت الفوضى حين وصل نبا بأن أسطولاً انجليزيا من اثنتي عشرة وخمسين سفينة يقترب . وفر الفرنسيون رجوعاً الى برست ، ولكن كثيراً من سفنهم فقد ، واصيب الباقي بضرر بليغ من الأنواء . ومع هذا النبا المثبط وصل فرنسا نبا بأن الاستيوارتيين الانجليز مختلفو النظام خائرو العزيمة ، وأنه لا أمل في معونة منهم اذا وصل الفرنسيون . وأخبر لويس ساكس بوجود الاقلاع عن مشروع الغزو . أما انجلترا ، التي لم تدخل بعد الحرب مع فرنسا رسمياً ، فشكت من أن وجود تشارلز على أرض فرنسا انتهاك لالتزامات المعاهدة . وأما تشارلز فقد اختبأ في باريس متنكراً ، وأقسم لأصحابه أنه سيغزو انجلترا ولو اضطر الى الذهاب وحيداً في زورق مكشوف . وأرسل له أبوه رجاء بأن يحذر الاندفاع » الذي قد ينتهي بدمارك ودمار كل من يشاركوك فيه (٧٠) . وفي أثناء ذلك كان مؤيدو تشارلز يدس بعضهم لبعض سعيًا وراء النفوذ والمنح ، ويتهم بعضهم بعضاً عنده ، حتى كتب يائسا « لقد ابتليت بلاء يزهديني في الحياة » (١٦ نوفمبر ١٧٤٤) .

وأخيراً ، ورغم كل التحذيرات ، ودون استشارة البلاط الفرنسي ، قرر أن « يجرب حظّه » و « يغزو أو يموت » وأرسل عملاً الى اسكتلندة ليثير العشائر ، وبلغ عدم استعداد هؤلاء مبلغاً جعلهم يفكرون في منعه من المجيء ، وكان المتشيعون من الانجليز لأسرة ستيوارت ، يلتمسون التراضي مع جورج الثاني ، محتذين في ذلك حذو بولنبروك . ورغم ذلك اقترض تشارلز ١٨٠.٠٠٠ جنيه ، وقبل عرضاً بسفينتين مسلحتين ، وأبحر الى اسكتلندة (١٥ يوليو ١٧٤٥) . وعلى مقربة من « لاندز اند » التقت القافلة الصغيرة ببارجة بريطانية ، ولحق باحدى سفينتي تشارلز من العطب ما حملها على العودة الى برست . وانطلق هو في الأخرى شمالاً الى غربي انجلترا ، وفي ٣ أغسطس رسا على أرض اسكتلندة عند اريسكا ، في جزر الهبريد الخارجية . ونصح زعيم عشيرة بأن يعود الى وطنه . فاجاب الأمير « اننى فى وطنى » . وأذير بأن الحكومة البريطانية قد أعلنت فى أول أغسطس عن مكافأة تبلغ ٣٠.٠٠٠ جنيه لمن يأتى به أسيراً ، حياً أو ميتاً . وكان جواب تشارلز أن صرف السفينة التى اقلته ، وهكذا قطع على نفسه خط

الرجعة . وفى ١٩ أغسطس رفع رايته فى جلينغينان باقليم المرتفعات ، ودعا كل أنصار أسرته ليعينوه .

وظل معظم زعماء العشائر متحفظين ، وتآمر بعض من زعموا انهم أتباع له ليشوا به ، وأعلن ستة إشراف انضمامهم اليه ، وكان ألف ومائتان من بين رجاله الألفين من عشيرتى مكدونلد وكمرون . وقاد تشارلز جماعته جنوبا متحاشيا قوات الحكومة التى يقودها السرجون كوب . وفى ١٧ سبتمبر دخل أدنبره ، واستولى على المحرس والبوابات ، وثبت رئيسهما فى قصر هوليرود ، الذى كان يوما ما القصر الملكى الذى جادلت فيه مارى ستيوارت جون نوكس ، ونسي فيه جيمس السادس والأول أمه . وكان مظهر الأمير البالغ من العمر آنئذ خمسة وعشرين ربيعا يأخذ بالآلباب فى بزة أهل المرتفعات ، بسرويله المخملية الحمراء وقلنسوته المخملية الخضراء ، وعقدة شريطها البيضاء . وركب كثير من الاسكتلنديين الذين ظنوا أن مجد أمتهم قد عاد من جديد فى شخص ذلك الفتى المليح وقبلوا يده ، وصلت كل النساء من أجله وهفت قلوبهن اليه . وما كاد يذوق حلاوة استقباله حتى نمت اليه نبا اقتراب كوب من أدنبره فى الفين من جنوده . وفى ٢١ سبتمبر قاد تشارلز رجاله الذين بلغوا الآن ثلاثة آلاف ، والتقى بجيش كوب برستونبانز ، ودحره ، وأسر أسرى كثيرين ، وترفق بهم ، ثم عاد الى هوليرود مكللا بالغار ، وبدأ أنه قد ظفر باسكتلنده .

وأمر تشارلز وهو مطمئن شهرا بعد المعركة بالطعام والثياب لجنده ، ورحب بانضمام عشائر أخرى اليه . وبعث له لويس الخامس عشر بالمال والسلاح من فرنسا . وفى ٨ نوفمبر عبر الأمير السعيد الحدود راجلا الى انجلترا على رأس ٥٠٠ مقاتل ، وحاصر كرليل واستولى عليها ، ولقى الترحيب فى مانشستر ، ثم سار حثيثا الى داربى ، آملا بتقديمه المثير أن يحمل انجلترا على استقباله ملكا شرعيا لها . وأذاع منشورا تعهد فيه بأنه لن يصيب الانجليكان والمشيخيين بعد اليوم منه ، وهو الكاثوليكي الرومانى ، اذى أكثر مما أصابهم على يد جورج الأول اللوثرى (٧٢) . غير أن انجلترا لم تصدقه ، وكرهت أن تعاود من جديد ذلك الصراع المضى الذى بإخاذه المذهب الجديد ضد القديم .

ومع أن أحداً في إنجلترا لم يكذب يهيباً ليقاوم تشارلز ، فإن حفنة من الجند الانجليز فقط هي التي خفت لنجدته . واتخذ الانجليز المتشيعون لأسرة ستيوارت موقف الحذر والسلامة .

وكان جورج الثانى قد هرع عائداً من هانوفر ليحمى عرشه المهدد وأمر ثلاثة جيوش انجليزية بالتجمع فى داربى . وكان رأى تشارلز أن يتجاهلها ويندفع فى طريقه الى لندن بألافه الستة ، ولكن زعماء عشائره الاسكتلنديين أبوا أن يتبعوه . ونبهوه الى أن كل جيش من جيوش الحكومة الثلاثة عدته عشرة آلاف مقاتل ، وأن هؤلاء اذا لحقوا بمؤخرة جيشه ضيقوا عليه الخناق وتكاثروا عليه بعد قليل ، وأن الانتفاضة الاستيوارتية التى وعدهم بها لا أثر لها ، وأصروا على العودة الى اسكتلندة حيث يحتاج لهم أن يثيروا مزيداً من العشائر ويتلقوا الامداد من فرنسا . وأذعن تشارلز ، وقاد التقهقر الالىم من داربى الى جلاسجو . وعند فالكرك القريبة منها هزم بتسعة آلاف مقاتل قوة انجليزية عدتها عشرة آلاف بقيادة هولى (١٧ يناير ١٧٤٦) . ولكنه كان نصراً باهظ الثمن ، فقد أضعفت جيشه الخسائر وهروب الجنود منه ، وكانت أمداده آخذة فى النضوب ، ورواتبه تدفع دقيقا ، وقواده يتشاجرون شجار العشائر . وعادوا ينصحونه بالتقهقر ، ودافع الأمير عن رأيه فى الصمود ، فهو لم ير فى المزيد من التقهقر غير التفكك والدمار ، فلم يهربون من عدو ليس أقوى من ذلك الذى هزموه من قبل ؟ ثم أذعن مرة أخرى ، ولكنه أيقن الآن أنه مغلوب . وعاد الجيش الاسكتلندى متجهاً الى اقليم المرتفعات . وسرى تشاؤم قواده بقوة فى صفوف الجند ، فبلغ الهاربون منهم الوفا ، وما بقى كان أقرب الى الحشد المختل اليائس منه الى الجيش .

وخلال ذلك دخلت القوة الانجليزية الرئيسية بقيادة دوق كمبرلاند اسكتلندة ، وسيطرت على الساحل الشرقى ، وتلقت عند ليث تعزيزاً من خمسمائة هسي جلبهم جورج الثانى من النمسا . وزحف كمبرلاند بجيش عدته ٨٨٠٠ مقاتل شمالاً مخترباً مقاطعة انفرنيس . وهناك التقى به تشارلز عند كلودن مور فى ٦ أبريل ١٧٤٦ ، بسبعة آلاف مقاتل

سيئى السلاح والغذاء والقيادة ، قاتلوا ببسالة اسكتلندية ، ولكن بطشت بهم مدفعية كمبرلاند المتفوقة التى قذفت قنابل الشظايا (كما قال شاعر اسكتلندى) « أكياسا من الرصاص حصدتهم حصدا ، أجل بالعشرات ، كما يتساقط العشب أمام المنجل (٧٣) » . وركب تشارلز هائجا ، وحاول جمع شتات رجاله المتقهقرين ، ولكنهم لاذوا بالفرار منطلقين فرادى ، وأرغمه مساعدوه على الانسحاب من المعركة بالقبض على عنان جواده . ففر فى نفر من أصحابه وقد تحطمت روحه ، وهام على وجهه مختبئا من ملجأ الى آخر ، مكررا مأساة تشارلز الثانى ، بعد أن فارقه المجد . وأخيرا (٢٠ سبتمبر) وجد مركبا أقله لفرنسا .

وطارد كمبرلاند أعداءه المدحورين وأصدر أوامره لجيشه « بالا تاخذه بهم رحمة » . نكل اسكتلندى ثائر يجب قتله فورا . وفتشت البيوت ، وضرب بالنار على عجل كل الاسكتلنديين الذين عثر على سلاح معهم . وأطلقت العشائر الموالية لجورج الثانى على تلك التى انضمت الى الثورة ، وأحرقت مئات المنازل (٧٤) . وقال الدوق « ان الاجراءات المعتدلة لن تجدى ، وكل الخير الذى صنعناه ليس الا قصدا ضئلا لم يشفر من الجنون وان خففه (٧٥) » . والحق أن العشائر المتدردة حاولت المرة بعد المرة أن تجدد النمرd . وظل دعاية الاستيوارتية الاسكتلنديون يتغنون ويحلمون بهزائم الماضي وانتصارات المستقبل ، الى أن تحطم ايمانهم بالانحلال الذى أصاب من كان يوما أميرهم الجميل فى روما .

ذلك معاهدة اكس - لا - شابل (١٧٤٨) المبرمة بين انجلترا وفرنسا اشترطت طرد تشارلز من الأرض الفرنسية . ولكنه رفض الرحيل ، فأكبره عليه الجنود الفرنسية ، وعاد متنكرا الى باريس ، لا بل الى لندن فى ١٧٥٠ ، وعبثا حاول أن ينفخ روحا جديدة فى قضية الاستيوارتيين ، وأن يعد بالتخلي عن المذهب الكاثوليكي (٧٦) . وأخيرا ، وبعد أن سلم بالهزيمة ، تردى فى مهاوى السكر والفسق ترديا حمل كل القوى الكاثوليكية الكبرى على التنكر له . ومات فى روما عام ١٧٨٨ ، بالغا الثامنة والستين . وكان فولتير قبل ذلك

بفلائين عاما قد كتب قبرية منصفة للثورة الاستيوارتية الثانية قال فيها:

« وهكذا ، (برجوع تشارلز الى فرنسا فى ١٧٤٦) انتهت مغامرة كان من الجائز أن توفق فى أيام الفروسية الجواله بحثا عن المغامرات ، ولكن ما كان يمكن أن تنجح فى عصر يقرر فيه الانضباط العسكرى ، والمدفعية ، وأهم من ذلك المال ، كل شيء فى نهاية الامر (٧٧) » .

٩ - صعود وليم بت : ١٧٠٨ - ٥٦

أسلم سقوط ولبول انجلترا الى سلسلة من الوزارات الصغيرة التى تخبطت فى فوضى سياسية وحروب غير حاسمة . فحكم اللورد ولنجتن بوصفه وزير الخزانة (١٧٤٢ - ٤٣) فى أرض الوطن بينما كان جورج الثانى يقاتل ببطولة مسرحية ، ولكنها حقيقية ، فى معركة ديتنجن (٢٧ يونيو ١٧٤٣) . كتب فردريك الأكبر يقول « لزم ملك انجلترا مكانه على رأس كتيبته الهانوفرية طوال المعركة ، وقدمه اليسرى الى الخلف ، وسيفه فى يده وذراعه مبسوطة ، أشبه ما يكون بمعلم المثاقفة (٧٨) » ، ولكنه على أى حال ألهم رجاله بشجاعته ، فى حين أطاع فى تواضع أوامر قواده . وأعادت وزارة هنرى بلام (١٧٤٣ - ٥٤) انجلترا الى حظيرة السلام ، ولكنها واصلت طريقة الحكم بشراء الأصوات فى الدوائر والبرلمان . وحدد أخوه دوق نيوكاسل تسعيرة لسان انجلترا ، ضمنها - لدواعى الموازنة - جدولا بسعر السوق الحالى لكل نفس (٧٩) وأبقى مائة لهاتين الوزارتين أنهما ضمتا الرجل الذى صنع الامبراطورية البريطانية ، والذى برز فى زمانه المضطرب ذاك شخصية من أقوى شخصيات التاريخ .

ولد وليم بيت (١٧٠٨) ابنا للمال ، لأن جده توماس بت كان جمع ثروة طائلة فى الهند . وكان توماس نفسه رجلا يحسب له حساب . فقد عمل بحارا فى سفينة تجارية واستقر فى البنغال ، واشتغل بالتجارة فى منافسة مشروعة لشركة الهند الشرقية التى كان البرلمان قد منحها احتكارا . وقد غرم ١٠٠٠ جنيه ، وواصل منافسته للشركة ، وأكرهها على الصلح ، ثم انضم اليها ، وظل اثنتى عشرة سنة حاكما على

مدراس . فما حل عام ١٧٠١ حتى كان قطبا ماليا بملك من المال ما مكنه من شراء « ماسة بت » الشهيرة بعشرين ألفا من الجنيهات ، ومن الذكاء ما مكنه من بيعها لفليب أورليان ، الوصي على عرش فرنسا ، بمبلغ ١٣٥٠٠٠ جنيه ، وهى محفوظة الآن - بعد أن ارتفعت قيمتها الى ٤٨٠٠٠ جنيه ، بين مجوهرات الدولة الفرنسية فى متحف اللوفر شاهدا متالفا على هبوط العملات . واستثمر توماس مكاسبه فى العقارات الانجليزية ، واشترى مقعدا فى البرلمان ، ومثل فيه دائرة أولد ساروم « العفنة » من ١٧١٠ الى ١٧١٥ . وأوصى بممتلكاته لروبرت بت ، أكبر أبنائه الذى تزوج هاربيت فليبس ، التى أنجبت له سبعة أطفال ، كان وليم بت ثانى ولد فيهم .

واحتج وليم على النظام المفروض على الطلاب وهو فى 'بتن' ، وذهب الى ن تسخير كبارهم لصغارهم يحطم روح الطلبة ؛ على أنه لم يحطم روحه . وقد اشتهر فى اكسفورد بمعاناته من النقرس وهو فى الثامنة عشرة . واذ راوده الامل فى البرء من هذا الداء اذا عاش فى مناخ أدفا ، فانه ترك الجامعة دون أن يحصل على درجة منها وسافر الى فرنسا وايطاليا ، ولكن النقرس ظل صليبه الذى حملته طوال انتصاراته . ومع ذلك انخرط فى الجيش ، وخدم فيه أربع سنين ، ولم يشهد معركة ، ولكنه خرج مقتنعا بان الحرب هى فيصل التاريخ وقدر الدول . وفى ١٧٣٥ اشترت له أسرته أصوات دائرة أولد ساروم ، رغم أنها تركته فى فقر نسبى باعتباره ابنا أصغر ، وهكذا بدأ سيرته فى البرلمان .

وسرعان ما أسمع الناس صوته هناك ، لأنه كان أبلغ خطيب عرفه كهف الجدل والمناظرة ذاك اطلاقا . فلقد سكب فى خطبه كل قوة خلقه العاطفى المشبوب ، وكل تصميمه على الوصول الى السلطة ، وعزمه على خلع ولبول ، وعلى السيطرة على البرلمان والملك ، وأخيرا إعادة تشكيل أوربا على هواه . وتحقيقا لهذه الأهداف توسل بالمنطق ، والدراما ، والخيال ، والحماسة ، والشعر ، والعبارة الطنانة ، والقبح والتهكم ، والهجو واستنفار الروح الوطنية ، واستثارة المصلحة والمجد الشخصيين والقوميين . وبمضي السنين طور براعته الخطابية حتى

استوعبت كل أفانين الخطباء المفوهين كديموستين أو شيشرون ؛ فكان فى وسعه أن يحطم خصما بعبارة واحدة . وقد اتبع قاعدة ديموستين فجعل الحركة حياة الخطاب ، فكان لكل سطر ايماعته ، وكانت كل عاطفه تشكل وجهه التشبيه بوجه الصقر وتنقد فى عينيه الغائرتين ، حتى لينفعل بدنه كله وكان الكلمة صارت جسدا . لقد كان أعظم ممثل أجنذب خشبة المسرح .

ولم يكن وليا ولا قديسا . فالطمع كان صارى خلفه والريخ النى ندفع فى قلوعه . ولكن هذا الطمع كفر عن نفسه بانتظامه انجلترا بأسرها ، وأفنى نفسه بجريه انجلترا ، رضيت أو كرهت ، فوق البحار الامبراطورية لبلوغ السيادة على العالم . واذ شعر وليم بأنه الصوت المعبر عن الدولة أكثر من أى صوت حلقى هانوفرى ، أو أى رشا ولبولية ، فقد اتخذ لنفسه مبدأ الحكومات الخلقى - وهو أن كل ماينفع الدولة فهو خير ؛ وإذا كان فد توسل بالخديعة ، والافتراء ، والتخويف ، والدس ، ونكران الجميل ، والحنث باليمين ، والغدر ، فإن تلك بضاعة رجل الدولة ، ولا يحكم عليها الوعاظ بل الملوك . وكان فى كل خطوة تقريبا فى صعوده يتنكر لموقف دافع عنه قبيل ذلك بكل سمو العاطفة الخلقية (٨٠) ، ونذر أن توقف ليُفسر أو يعتذر ، بل كان يركب كل مركب يُبلِغه هدفه ، وقد أضفى نجاحه - الذى كان نجاحا لانجلترا - القداسة على ذنوبه وطوق رأسه بهالة المجد والفسار . وكان فى كبريائه شي جليل ؛ فقد كان يحتقر شراء الترقى بالنذل ، واحتفظ بنظافة يده وسط الفساد والرشوة ، وحقق غاياته بقوة شخصية عاتية لا يقف فى طريقها عائق .

وقد طارد ولبول لأنه رأى بائعا يتجر بالسلام ، وانسانا جبانا لا يجروا على خوض حرب ضد اسبانيا ، شديد الخنوع للملك يبدى - فى رأى بت - « نحو هانوفر تحيزا سخيلا ناكرا للجميل غادرا » ، ملك « لا يعتبر انجلترا غير اقليم من أقاليم امارة حقيرة (٨١) » . ولقد واصل الخطيب الغيور سياسته الحربية فى قوة وحده حملت دوفة ملبره وهى على فراش الموت سنة ١٧٤٤ على أن توصي لبت بعشرة آلاف جنيه ، ولا غرو فقد ورثت سارة ولع زوجها الدوق الراحل بالحرب .

فلما تقلد بلام الوزارة طلب الى الملك تعيين بت وزيرا للحرب ؛ ورفض جورج الثانى وكان لا يزال محترقا بنار بت ، ولكن بلام الح ، ووصف بت بأنه « أكفأ وانفع رجل بيننا ، شريف حقا وأمين بكل ما فى الكلمة من معنى (٨٢) » ، وأذعن الملك ، وفى ١٧٤٦ دخل بت الوزارة ، أولا بوصفه مناويا لوزير الخزانة الارلندية ، ثم خازنا للقوات المسلحة . وكان هذا المنصب قد أصبح بحكم التقاليد منجم ثروة لمن يتقلده ، فالخازن يأخذ لنفسه نصفاً فى المائة من جميع الاعانات التى يقررها البرلمان للأمراء الاجانب ، ويستثمر بالفائدة - التى يحتفظ بها لنفسه - الرصيد السائل الكبير المتروك لديه لدفع رواتب الجند . وأبى بت أن يأخذ غير راتبه الرسمى ، فلما ألح عليه ملك سردانيا فى أن يقبل هدية تعادل الاستقطاع العادى من اعانته رفض الهدية . وصفقت انجلترا لفرازة بت الشاذة ، وهى التى طالما اعتبرت مثل هذه المنح اشباعا عاديا لطبيعة الانسان ، وأصغت فى شوق الى مراقباته المطالبة ببريطانيا شامخة الرأس فوق العالم بأسره .

وفى يناير ١٧٥٥ ، ودون اعلان للحرب ، نشب القتال بين انجلترا وفرنسا فى أمريكا . وفى يناير ١٧٥٦ وقعت انجلترا معاهدة مع بروسيا . وفى مايو أبرمت فرنسا حلفا دفاعيا مع النمسا . وفى نوفمبر أصبح بت ، وزير الخارجية الآن ، صوت انجلترا وذراعها فى حرب السنوات السبع تلك التى ستقرر خريطة أوربا حتى الثورة الفرنسية .

الفصل الرابع

الدين والفلسفة

١ - الموقف الدينى

كان لقصة القرن الثامن عشر فى غرب أوربا موضوع ذو شقين ، انهيار النظام الاقطاعى القديم ، والانهيار الوشيك للدين المسيحى الذى أضفى على ذلك النظام سنده الروحى والاجتماعى . فقد كانت الدولة والدين مرتبطين برباط المعونة المتبادلة ، وبدأ أن سقوط الواحد يجر الآخر الى مأساة مشتركة .

وقد لعبت انجلترا الفصل الأول فى كلتا ناحيتى هذا التغيير العظيم . ففى المسرح السياسى سبقت حربها الاهلية (١٦٤٢ - ٤٩) الثورة الفرنسية بمائة وسبعة وأربعين عاما فى خلع أرستقراطية اقطاعية وضرب عنق ملك . أما فى مجال الدين فان نقد الربوبيين للمسيحية سبق الحملة الفولتيرية فى فرنسا بنصف قرن ، وسبقت مادية هوبز مادية لامترى بقرن ، وسبقت رسالة هيوم « فى الطبيعة البشرية » (١٧٣٩) ومقاله « فى المعجزات » (١٧٤٨) هجوم « الفلاسفة » الفرنسيين على المسيحية فى « الموسوعة » (١٧٥١) . وكان فولتير قد تعلم شكوكيته فى فرنسا - وبعضها أخذه عن بولنبروك الانجليزى المبعد عن وطنه - قبل أن يحضر الى انجلترا ولكن السنوات الثلاث التى قضها فى انجلترا (١٧٢٦ - ٢٨) روعته بمشهد السنية وقد أصابها الانحلال والكاثوليكية وقد ذلت ، والبروتستنتية وقد تفرقت شيعا مستضعفة ، والربوبيين يتحدون كل شيء فى المسيحية الا الايمان بالله - وهو بالضبط التحدى الذى سيحمله فولتير الى فرنسا . يقول فولتير « فى فرنسا ينظر الناس الى على أننى مقلد فى الدين ، وفى انجلترا على أننى مسرف فيه (١) » .

وقد كتب مونتسكيو بعد أن زار انجلترا فى ١٧٣١ يقول « ليس

فى انجلترا دين (٢) « . وهذا بالطبع تدريب على المبالغة اللافتة للأنظار ، لأنه فى تلك الفترة بعينها كان جون وتشارلز ولى يؤسسان الحركة الميثودية فى اكسفورد . ولكن مونتسكيو ، وهو رجل ارسقراطى ، تنقل أكثر ما تنقل بين أقطاب النبالة أو العلم ، وهو يخبرنا أنه فى هذه الجماعات « اذا ذكر الدين ضحك الجميع (٣) » . وهذا أيضا يبدو غلوا فى القول ؛ ولكن لنستمع الى اللورد هرفى ، الذى كان يعرف تقريبا كل رجل وامرأة ومنحرف بين عليّة القوم :

« ان خرافة المسيحية هذه . . . قد نسفت الآن (١٧١٨) فى انجلترا ، حتى ليكاد أى رجل عصرى أو ذى مكانة يخجل من الاعتراف بمسيحيته خجله فى الماضي من الجهر بتجرده من أى دين . وحتى النساء اللائى كن يفخرن بذكائهن حرصن على أن يفهمن الناس ان الميول المسيحية هى ما يحتقرن الالتزام به (٤) » .

فى تلك الطبقات أو العقول الرفيعة كان الدين يعنى اما نعاس صلاة القداس الانجليكانى أو « حماسة » المذاهب المنشقة ، وعمّا قليل سيعرف الدكتور جونسون الحماسة بأنها « ايمان مغرور بالالهام الخاص » . وبالمعنى الحرفى « إله فى باطن الانسان » . وكانت الكنيسة الرسمية قد فقدت كرامتها ونفوذها بمساندتها الاستيوارتيين ضد الهانوفريين وحزب الأحرار المنتصر ؛ وخضعت الان للدولة ، وغدا نساوستها أتباعا أذلاء للطبقة الحاكمة . وكان القسيس الريفى هو الهدف المفضل لهجو الأدباء أو سخرية السوقة ، وقد كرم فيلدنج من شذوا عن هذه القاعدة فى شخص النفس ادمز . وغلبت الفوارق الطبقيّة فى الكنائس ، فكان للأغنياء مقاعد خاصة قرب المنبر ، وجلس عامة الناس أو وقفوا فى المؤخرة ، فاذا فضيت الصلاة لزم العامة أماكنهم ريثما يخرج صف الكبراء فى وقار بطىء (٥) . وفى بعض كنائس لندن ، حين يكثر عدد الفقراء القادمين للعبادة ، كان المصلون من أصحاب البوارىك يهربون بعد أن يقفلوا مقاعدهم خلفهم (٦) ، ملتجئين هواء أكثر نقاء .

وكان بعض الأساقفة الاسجليكان أمثال بطر ، وباركلى ، ووربرتون ، رجالا متبحرين فى العلم ؛ وكان اثنان من هؤلاء على خلق عظيم ، ولكن

أكثر كبار الكليروس كانوا فى مناوراتهم للترقى يشاركون فى لعبة السياسة شكاك البلاط ومحظياته ، ويفنون فى حياة الترف دخول كثير من الأبرشيات . وقد روى أن الأسقف تشاندلر دفع ٩٠٠٠ جنيه لترقيته من لتشفيلد الى درم ، أما ويليز أسقف ونشستر ، وبوتر رئيس أساقفة كذتريرى ، وجبسن وشرلوك أسقفا لندن ، هؤلاء جميعا ماتوا « أغنياء غنى مخزيا » وبلغت ثروة بعضهم ١٠٠.٠٠٠ جنيه (٧) . ولم يكن تكرى يطيقهم ، فقال :

« قرأت أن الليدى يارموث (خلية جورج الثانى) باعت أسقفية لكاهن بمبلغ ٥٠٠ رة جنيه كان هو الحبر الوحيد فى عصره الذى قادته أيد كهذه الى المحراب ؟ اننى اذ اختلس النظر الى داخل قصر سانت جيمس الذى يقطنه جورج الثانى ، أرى الثياب الكهنوتية الكثيرة تحدث حفيفا وهى تصعد السلم الخلفى لسيدات البلاط ؛ قساوسة متسترين يدسون أكياس النقود فى حجورهن ، وذلك الملك العجوز الفاجر يتثائب تحت مظلمته فى المصلى الملكى أثناء عظة القسيس ، الواقف أمامه ، (أو) يثرثر بالألمانية . . . بصوت يبلغ من علوه أن القسيس . . . انفجر صارخا فى منبره لأن حامى الايمان وموزع الاسقفيات لا يريد الاصغاء اليه ! (٨) » .

وكان من سمات العصر أن الكنيسة الرسمية أصبحت شديدة التسامح مع عقائد أعضائها وطقوسهم المختلفة . وقد وصفها بت بأنها « عقيدة كلفنية ، وطقوس بابوية ، وأكليروس أرمنيوسي (٩) » أى أن العقيدة الرسمية كانت جبرية ، والطقوس شبيهة بطقوس روما الكاثوليكية ، ولكن روحا متحررة سمحت للقساوسة الأنجليكان برفض حتمية كلفسن واعتناق تعليم المهترق الهولندى أرمنيوس القائل بحرية الإرادة . لقد ازداد التسامح لأن الايمان اضمحل ، وآية ذلك أن هرطقات كهرطقة هيوم ، كانت تروغ انجلترا القرن السابع عشر لو جهر بها انسان ، لم تحدث غير موجة طفيفة على نهر الفكر البريطانى . وقد وصف هيوم نفسه انجلترا بأنها « استكانت الى حال من عدم الاكتراث الهادىء بأمور الدين لا تجدها فى أى أمة أخرى من أمم الأرض (١٠) » .

وكان كل الانجليز ملزمين بالعبادة الانجليكانية حسب نص القانون . فكل متخلف عن صلوات الاحد عرضة لتغريمه شلنا عن كل تهرب ، وكل من يسمح لهذا المتخلف بمساكنته يعاقب بغرامة عشرين جنيهها فى الشهر (١١) ؛ على ن هذه القوانين ندر أن طبقت . وكانت العبادة الكاثوليكية محرمة ، قانونا أيضا لا تطبيقا . فالقس الكاثوليكي الذى يؤدى وظيفة كهنوتية عقابه الحبس المؤبد . ومثل هذه العقوبة فرضت لثنى أى كاثوليكي عن فتح مدرسة ؛ وحرم على الوالدين ارسال أبنائهم الى الخارج ليتعلموا تعليما كاثوليكييا والا غرموا ١٠٠ جنيه . ولا يحق شراء الأرض أو ورثها إلا للمواطنين الذين أقسموا يمينى الولاء والسيادة (اللتين تعترفان بملك انجلترا رأسا للكنيسة) وقرروا رفضهم لعقيدة التحول . وكل كاثوليكي يرفض أداء هاتين اليمينين يحرم من المناصب المدنية أو العسكرية ، ومن ممارسة المحاماة ، ومن اقامة أى دعوى أمام القضاء ، ومن العيش فى نطاق عشرة أميال من لندن ؛ يضاف الى هذا أن هذا الكاثوليكي يجوز فى أى وقت نفيه من انجلترا والحكم عليه بالاعدام اذا عاد اليها . على ان الذى حدث فعلا أيام جورج الاول والثانى هو أن الكاثوليك كانوا يورثون ثروتهم وعقيدتهم بانتظام لابنائهم ، ويستطيعون الاستماع الى القداس فى كنائسهم الصغيرة وبيوتهم دون معوق ، وأن الكثيرين منهم أدوا اليمينين المطلوبتين مع تحفظ بينهم وبين أنفسهم (١٢) .

وكان كل البروتستانت الانجليز الغيورين الآن يتبعسون المذاهب المنشقة على الكنيسة الرسمية . وقد ضحك فولتير واغتبط لكثرة عددهم : مستقلون (بيورتان) ، ومشيخيون ، ومعمدانيون ، ومجمعيسون ، وكويكريون ، وتوحيديون . فاما المشيخيون (البرزيتيريون) فكانوا فى طريقهم الى التسامح بعد أن فقدوا سلطتهم السياسية ، ولم يأخذوا عقيدة الجبر مأخذ الجد الشديد ، وكان كثير منهم قانعاً فى صمت بمسيح بشرى (١٣) . وفى ١٧١٩ قرر مجمع للقساوسة المشيخيين بأغلبية ٧٧ الى ٦٩ أن التعهد بالتزام عقيدة الثلاث التقليدية ينبغى ألا يكون شرطاً يفرض على المرشحين رعاة للكنيسة (١٤) . وأما الكويكريون فكانوا فى نمو لا فى العدد بل فى الثراء ، وكلما ارتقوا فى مدارج المجتمع أصبحوا أكثر تقبلاً لاساليب حياة البشر وذنوبهم . على أن ميلا الى الاكتئاب

أصاب كل المنشقين تقريبا حتى وهم ينعمون بالثراء ، وبينما كانت طبقات المجتمع العليا تجعل من يوم الأحد يوم جذل كانت الطبقة الوسيطة الدنيا - حيث يتكاثر المنشقون - تواصل « الأحد العبوس » الذى ورثته عن البيورتان . فى ذلك اليوم كانت الأسرة عقب صلوات الصباح فى البيت تمضي الى قاعة الاجتماع لحضور خدمة دينية تمتد ساعتين ، فاذا عادت الى البيت قرأ الأب الكتاب المقدس أو الكتب التقوية على زوجته وأبنائه الذين قد يجلسون على وسائل فوق أرض مغطت من الأبسطة . وكانوا عادة يذهبون ثانية الى خدمات دينية تقام عصرا ومساء ، ويمسكون جماعة ، ويسمعون عظة أخرى ، ويجدون بعض اللذة فى ترتيل الترانيم الجهنورية . ولم يكن مسموحا بأى غناء فى ذلك اليوم المقدس ، ولا بلعب الورق ، ولا بأى تسلية من أى نوع كانت بصفة عامة . ويجتنب السفر فى يوم الرب ، فيعطى قطاع الطرق بهذه الطريقة يوم راحة .

ووجد فولنير فى معرض وصفه للمشهد الدينى فى انجلترا الكثير مما به لاج درسا لفرنسا التى مازال التعصب يحكمها . قال :

« انظر الى بورصة الأوراق المالية الملكية بلندن ... هناك يجرى اليهودى والمسلم والمسيحى معاملاتهم معا وكانهم من دين واحد ، ولا ينتحون بالكفر غير المفلسين . هناك يثق المشيخى بالقائل بعماد الكبار ، ويعتمد الانجليكاني على كلمة الكويكرى . فاذا انفض هذا الجمع الحر مضي بعضه الى مجمع اليهود ، وبعضه ليشرب كأسا من الخمر . هذا الرجل يذهب ويعتمد فى حوض هائل باسم الأب والابن والروح القدس ؛ وذاك يأمر بختان ولده ويتمتمة طائفة من الكلمات العبرية التى يجهل كل الجهل معناها فوق الطفل ؛ وآخرون (الكويكرىون) يمشون الى كنائسهم - حيث ينتظرون الوحي وقبعاتهم على رموسهم ؛ والكل راضون .

« ولو أن انجلترا لم تسمح بغير دين واحد ، لأصبحت الحكومة فى أغلب الظن مستبدة ؛ ولو كان هناك دينان ، فستلذبح الناس بعضهم بعضا ؛ أما الأديان بهذه الكثرة ، فانهم جميعا ، يشون فى سعادة وسلام (١٥) » .

٢ - التحدى الربوبى

تضافرت عوامل كثيرة على تقويض صرح العقيدة المسيحية فى إنجلترا : ارتباط الكنيسة بصعود الاحزاب السياسية وسقوطها ؛ وازدياد الثروة ومطالب اللذة فى طبقات المجتمع العليا ، ودولية الافكار بفضل التجارة والسفر ، والامام المتزايد بالاديان والشعوب غير المسيحية ، وتكاثر الملل وتبادل النقد فيما بينها ، وتطور العلم ، وازدياد الايمان بالاسباب الطبيعية والقوانين الثابتة ، والدراسة التاريخية والنقدية للكتاب المقدس ، واستيراد أو ترجمة كتب خطيرة مثل « معجم » بيل و « الرسالة اللاهوتية السياسية لسبينوزا » ، والكف عن رفاة الدولة على المطبوعات (١٦٩٤) ، ومكانة العقل الصاعدة ، والمحاولات الجديدة للفلسفة ، فى أعمال بيكون ، وهوبز ، ولوك ، لتفسير العالم والانسان تفسيرات طبيعية و - تلخيصا لكثير من هذه العوامل - حملة الربوبيين (المؤلهة) Deists لاختزال المسيحية الى مجرد الايمان بالله والخلود .

وكانت تلك الحركة قد بدأت بكتاب « الحقيقة » لهربرت لورد تشربرى فى ١٦٢٤ ، ونمت خلال القرن السابع عشر ومطلع الثامن عشر بتشارلز بلاونت ، وجون تولاند ، وأنتونى كولنز ، وواصلت الان سيرها بأثر متراكم فى أعمال هويستن ، وولستن ، وتندال ، ومدلتن ، وتشب ، وآنت ، وبولنبروك ، وقد طرد وليم هويستن الذى خلف نيوتن استاذا « لوكازيا » للرياضة فى كمبردج من منصبه ذاك (١٧١٠) لأعراجه عن بعض الشكوك فى الثالث ، فدافع عن أريوسيته فى كتاب « احياء المسيحية البدائية » (١٧١٢) ، وأجهد نفسه ليثبت أن تنبؤات العهد القديم لا تشير الى المسيح . فلما ألقى المدافعون عن المسيحية عن اتخاذ الحجج من التنبؤات ، وبنوا الوهية المسيح على المعجزات المروية فى العهد الجديد ، أطلق توماس وولستن مورته التى خلت من التوقير للمسيحية فى « ستة أحاديث عن معجزات مخلصنا » (١٧٢٧ - ٣٠) . يقول فولتير « لم يهاجم المسيحية قط مسيحى بمثل هذه الجراءة (١٦) » . وقد زعم وولستن أن بعض المعجزات لا تصدق ، وبعضها غير معقول . ووجد أن مما لا يصدقه

العقل أن يلعن المسيح شجرة تين لأنها لم تثمر تينا فى وقت مبكر من العام كوقت الفصح . وتساءل ماذا كان مربو الأغنام لصوفها فاعلين بيسوع لو أنه دفع أغنامهم الى الموت كما فعل بخنازير الجديين ؛ انهم كاذو « يستصدرون حكما باعدامه سنقا » ، لأن القانون الانجليزى يعتبر هذا العمل جناية كبرى (١٧) . وذهب وولستن الى ان قصة قيامة المسيح خدعة مفتعلة خدع بها الرسل سامعيهم . وغطى هذا كله بتأكيدات زعم فيها أنه ما زال مسيحيا « قويا كالصخرة » . ومع ذلك أهدى كل حديث الى أسقف مختلف ، مع التنديد بكبرهم وجشعهم تنديدا حملهم على رفع دعوى القذف والتجديف عليه (١٧٢٩) . وحكمت عليه المحكمة بدفع غرامة قدرها مائة جنيه ، وبتقديم ضمان لسلوكه سلوكا حميدا فى المستقبل . فلما عجز عن جمع المبالغ المطلوبة زج به فى السجن . وفدم فولتير ثلث المبلغ ، وجمع الباقي ، وأفرج عن وولستن . ولا شك أن المحاكمة كانت اعلانا عن « الاحاديث » ، فبيع منها ستون ألف نسخة فى بضع سنوات (١٨) . روت « سيره لوولستن » بقلم كاتب مجهول (١٧٣٣) كيف أنه وهو سائر فى سانت جورجز فيلدرز ، « لقيته شابة وسيمة وخاطبته بهذه الكلمات ... أيها الوغد العجوز ، ألم تشنق بعد ؟ » فأجابها وولستن « أيتها المرأة الطيبة ، أنا لا اعرفك . ففولى لى من فضلك بم أسأت اليك » ؛ فأجابت المرأة « لقد هاجمت محلصي ، فما الذى يحدث لنفسى الخاطئة المسكينة ، لولا مخلصي الحبيب ؟ - مخلصي الذى مات من أجل الخطاة الأشرار ، مثالى (١٩) » .

وبلغت الدعوى الربوبية ذروتها فى ماتيو تندال ، زميل كلية جميع النفوس باكسفورد . فبعد حياة هادئة محترمة كان اهم ما ميزها اعتناقه الكاثوليكية ثم تحوله عنها ، نشر وهو فى الثالثة والسعين أول مجلد من كتابه « المسيحية قديمة قدم الخليقة » (١٧٣٠) . وخلف عند موته بعد ثلاث سنوات مخطوطة مجلد ثان وقع فى يد أسقف فائتلفه . وفى وسعنا أن نقدر وقع المجلد الأول من الردود التى حاولت مناقضته وعددها ١٥٠ ، وهذا الكتاب هو الذى ابتعث كتاب الأسقف بطرر « أوجه الشبه بين الدين والطبيعة » وكتاب الأسقف باركلي « السيفرون » (أو الفيلسوف الصغير) .

وقد طوفتندال فى غير ترفق بكل أوهام اللاهوت . فتساءل لم أعطى الله وحيه لشعب صغير واحد هم اليهود ، وجعله حكرا عليهم أربعة آلاف سنة ، ثم أرسل اليهم ابنه بوحى آخر مازال بعد ألف وسبعمائة سنة مقتصرأ على أقلية من الجنس البشرى . فأى نوع من الالهة يمكن أن يكون هذا الاله الذى استعمل هذه الطرق السقيمة بمثل هذه النتائج البطيئة الناقصة ؛ وأى اله رهيب هذا الذى عاقب آدم وحواء على طلب المعرفة ، ثم عاقب كل ذرايرهم لمجرد أنهم ولدوا ؟ يقال لنا ان السخافات التى يتضمنها الكتاب المقدس سببها أن الله وفق كلامه للغة سامعية وأفكارهم . فياله من هراء ! لم لم يستطع أن يحدثهم بالحقيقة البسيطة بصورة مفهومة ؟ ولم استخدم الكهنة وسطاء له بدلا من أى يتحدث مباشرة الى نفس كل انسان ؟ ولم سمح بأن يصبح دينه الموحى لشعب بعينه أداة اضطهاد ، وارهاب ، وحرب ، لا يخرج منه البشر بعد قرون من هذا التدبير الالهى أكثر فضيلة منهم عن ذى قبل ؟ - بل جعلهم فى الواقع أشد ضراوة وقسوة عما كانوا فى ظل العبادات الوثنية ! أليس فى كونفوشيوس أو شيشرون فضيلة أرفع مما فى مسيحية التاريخ ؟ ان الوحي الحقيقى موجود فى الطبيعة ذاتها ، وفى عقل الانسان المنوح من الله ؛ والاله الحقيقى هو الاله الذى كشف عنه نيوتن ، المهندس لعالم عجيب يعمل بعظمة وجلال وفق قانون ثابت ؛ والفضيلة الحققة هى حياة العقل فى انسجام مع الطبيعة ، « نكل من ينظم ميوله الفطرية بحيث تؤدى الى أقصى حد لاستخدام عقله ، وصحة جسده ، ولذات حواسه ، مجتمعة كلها معا (لأن فى هذا سعادته) - له أن يثق بأنه لا يمكن أن يغضب خالقه الذى اذ يحكم كل الانسياء حسب طبائعها فهو لابد يتوقع من مخلوقاته العاقلة أن تسلك وفق هذه الطبائع (٢٠) » . تلك هى الخدمات الحققة ، تلك هى المسححة الحققة « القديمة قدم الخليقة » .

وواصل كونيرز مدلتن الهجوم من الزاوية التاريخية . فبعد أن تخرج فى كلية ترنتى بكمبريدج رسم قسيسا ، وبينما كان يكيل الضربة تلو الضربة للإيمان السننى ، واصل الممارسات الخارجية للعبادة المسيحية . وقد كتب طرفا من أفضل النثر فى عصره ، وكتابه « سيرة شيشرون » (١٧٤١) ما زال الى اليوم سيرة رائعة رغم كثرة

ما استعارة من سير شيشرون التي سبقته . وقد أبهج زملاءه القساوسة حين أرسل الى انجلترا « رسائل من روما » (١٧٣٩) ، التي بين فيها بتفصيل ينم على علم ودراية رواسب الطقوس الوثنية المتخلفة فى مجموعة الطقوس الكاثوليكية - البخور ، والماء المقدس ، وآثار القديسين ، والمعجزات ، والقرايين المنذورة والأنوار القائمة أمام المزارات المقدسة ، و « كبير الاحبار Pontifex Maximus » القديم الذى أصبح كبير أحبار روما Pontiff . وصفقت انجلترا البروتستنتية للرسائل ، ولكنها سرعان ما تبينت أن ولج مدلتن بالتاريخ يمكن أن يكدر صفو اللاهوت البروتستنتى كالكاثوليكي سواء بسواء . فلما دافع دانيال ووترلاند عن حرفية صدق الكتاب المقدس ووحيه ردا على تندال ، أنذر مدلتن فى « رسالة الدكتور ووترلاند » (١٧٣١) اللاهوتيين البروتستنت بأن تشبههم بكل أساطير الكتاب المقدس باعتبارها تاريخا فعليا ليس الا عملا انتحاريا ، لأن تقدم المعرفة سوف ينبذ أن عاجلا أو آجلا مثل هذه الخرافات ويكره المدافعين المسيحيين على التقهقر فى خجل الى موقف أكثر تواضعا . ثم لجأ مدلتن الى حجة فضحت ما كان لدراسته للتاريخ من أثر فى ايمانه الدينى فقال : « حتى ولو كان اللاهوت المسيحى لا يصدق ، فان المواطن الصالح سيساند المسيحية والكنيسة المسيحية باعتبارهما درعا للنظام الاجتماعى يوفر روادع ممتازة للهمجية الكامنة فى طبيعة البشر (٢١) » .

وأخيرا أصدر مدلتن أهم أعماله ، « تحقيق حر فى القوى الاعجازية المزعوم أنها وجدت فى الكنيسة المسيحية خلال العصور المتعاقبة » (١٧٤٨) - وهو كتاب عدّه هيوم بعد ذلك أسمى من مقاله المعاصر « فى المعجزات » (١٧٤٨) . وقد بدأ بالتسليم بحجية المعجزات المنسوبة فى الاسفار القانونية من العهد الجديد الى المسيح أو رسله ، وأراد أن يظهر فقط أن المعجزات المنسوبة الى آباء الكنيسة وقديسيها وشهادتها بعد القرن الميلادى الاول غير جديرة بالتصديق ، ومجرد سرد تلك القصص يكفى للكشف عن سخفها . وقد أمّن بعض آباء الكنيسة على مثل هذه القصص وهم يعلمون زيفها ؛ ونقل مدلتن عن موزهايم ، المؤرخ الكنسي العلامة ، تصريحه بالخوف من أن « الذين يبحثون بشيء من العناية كتابات أعظم وأقدس لاهوتى القرن الرابع

سيجدونهم كلهم ويلا استثناء ميلين الى الخداع والكذب كلما اقتضت ذلك مصلحة الدين (٢٢) » .

وفى كتاب مدلتن عيوب كثيرة . ففد فاته انه هو ايضا زكى الخداع بالجملة دعما للمسيحية ، وغفل عن ان من التجارب الغريبة ، كاخراج « المس الشيطاني » ، او كسماع الفديس انطونيوس للشيطان واقفا ببابه ، ما يمكن ان ينشا عن قوة الايحاء او الخيال ، وربما بدت هذه التجارب من قبيل المعجزات لمن رووها بأمانة . على اى حال كان من اثر هذا « التحقيق الحر » انه سلط على معجزات العهد القديم ثم على معجزات العهد الجديد ، طرق النقد ذاتها التى طبعها مدلتن على عصر آباء الكنيسة ، وكان خصومه الكاثوليك محقن تماما حبن زعموا ان حججه من شأنها اضعاف كل الاساس الاعجازى للانسان المسيحى . ولعل مدلتن قد قصد الى هذا . ولكنه احتفظ بترقياته الكنسية الى النهاية .

كان اعتناق بولنبروك الربوبية سرا مخفى وعدوى متفشية فى الطبقة الارستقراطية . ففى كتاباته التى حسها عن النشر فى حياته صوب قدحه المفعم بالازدراء الى جميع الفلاسفة تقريبا فبما عدا ببيكون ولوك . فلقب افلاطون بابى الكذب اللاهونى ، وسمى القديس بولس « حالما متعصبا » ولينتر « مشعوذا كيميائيا (٢٣) » والميتافيزيقيين « مجانين منقفين » ووصف كل القائلين بتميز النفس عن الجسد بانهم (٢٤) « معتوهون روحبون » وسحر من العهد القديم لانه خليط من الهراء والاكاذيب (٢٥) . ولقد صرح بايمانه بالله ، ولكنه رفض ما بقى من العقيدة المسيحية . فكل المعرفة عنده نسبية وغير يقينية . يقول : « ينبغى لنا دائما ان نكون غير مؤمنين . . . ففى الدين ، والحكم ، والفلسفة ، ينبغى ان نتشكك فى كل شيء مقرر (٢٦) » والقى وراء ظهره بآخر تعزيات الشكاك وهى الايمان بالتقدم ؛ فكل المجتمعات تمر بدورات « من النشوء الى الفساد ، ومن الفساد الى النشوء (٢٧) » .

وفى ١٧٤٤ ورث بولنبروك ضيعة الأسرة فى باترسى ، وغادر

فرنسا لينفق هناك آخر سنى صراعه مع المرض والياس . وهجره أصحابه القدامى لانهيأ نفوذه السياسي وحدة طبعه . وأنهى موت زوجته الثانية (١٧٥٠) اهتمامه بشئون البشر ، « فى كل سنة أزداد عزلة فى هذه الدنيا (٢٨) » وهذا عقاب الأنانية . وفى ١٧٥١ ابتلى بالسرطان الذى انتشر من وجهه فأملى وصية تتسم بالتعوى ، ولكنه رفض أن يسمح لأى قميس بالاهتمام بروحه (٢٩) . ومات فى ١٢ ديسمبر بعد ستة شهور من العذاب ، بغير أمل لا لنفسه ولا للبشر . لقد أخذ اضمحلال الايمان الدينى يولد ذلك الشاؤم الذى سيصبح العلة الخفية التى تبتلى بها النفس العصرية .

٣ - الدشع الدينى

أما المدافعون عن المسيحية فلم يقابلوا الهجسرم الربوبى بأى استسلام أو هزيمة ، بل انهم على العكس من ذلك ردوا الهجوم بكل ما أوتى تذال أو مدلتن أو بولنبورك من قوة عارمة ، وعلم واسع ، وأسلوب مقذع . واعتمد المدافعون الأضعف شأنا ، مثل تشاندلر أسقف لتشفيلد ، ونيوتن أسقف لندن ، على الحجج البالية ، وهى أن اليهود كانوا ينتنلرون فى حرارة وشوق مجيء « المسيا » حين أتى المسيح ، وأن كثيرا من النبؤات اليهودية تحققت على يديه ؛ أو رجعوا - كما فعل شرلوك أسقف لندن وبيرس أسقف روتشستر - الى الشواهد الكثيرة على قيامة المسيح . وركز شرلوك وغيره على أن الادلة على معجزات المسيح غامرة ساحقة ، وفيها الكفاية لدعم ألوهية المسيح والمسيحية . وقال شرلوك ان رفض حدث توافرت الأدلة على صدقة لأنه يناقض تجربتنا عمل شديد الخطر ، فعلى الأساس نفسه رفض سكان المدايرن أن يؤمنوا بحقيقة الثلج . فاذا زعمنا أن الأشياء لا يمكن أن تكون غير ما عرفناها ، « تجاوزنا اعلام حواسنا ، وقامت النتيجة على الهوى لا على العقل (٣٠) » . وليس فى امكاننا التأكد من أن الانسان لن يقوم من الاموات برغم تجربتنا الواسعة ، الضيقة فى حقيقتها . فانظر كم من العجائب التى نقبلها الآن على أنها أحداث عادية فى حياتنا كنا من قبل نظنها بعيدة التصور !

أما جورج باركلي ، الذى ترك بصمته على الفلسفة فى السنوات ١٧٠٩ - ١٣ ، فقد أدلى بدلوه فى الجدل من جزيرة رود بكتابه « السيفرون » أو الفيلسوف الصغير (١٧٣٣) ، وهو حوار يتالق بالتفكير الجرىء والأسلوب المرح . والسيفرون هذا يصف نفسه بأنه رجل حر التفكير ، تقدم من التسامح الدينى الى الربوبية الى الالحاد ، وهو الآن يرفض الدين كله باعتباره خداعا يموه به الكهان والحكام على الناس ؛ وهو يأبى الايمان بأى شيء غير الحواس ، والعواطف ، والميول الفطرية ؛ وينذر بوفرانور (لسان حال باركلي) الربوبيين بأن عقيدتهم مفضية الى الالحاد ، وأن الالحاد سيفضي الى انهيار الفضيلة . قد يكون هناك بعض الملحددين الأفاضل ، ولكن ألا تولد عقيدتهم ، اذا ما قبلتها الجماهير ، الاباحية والتمرد على القانون ؟ وهؤلاء المتشككون فى الدين ينبغى أن يتشككوا فى العلم أيضا ، لأن كثيرا من دعاوى العلماء - كما هى الحال فى الرياضة العليا - تتجاوز تماما شهادة حواسنا أو تناول فهمنا . وما من شك فى أن عقيدة التثليث ليست أعصى على الفهم من الجذر التربيعى لناقص واحد .

وأما وليم وربرتن فلم يكن بالرجل الذى يرسى ايمانه أو موارده الكنسية على أساس واه كجذور باركلي الصماء . فبعد أن تدرب لممارسة المحاماة ، ورسم قسا أنجليكانيا ، شق طريقة وسط غابة اللاهوت بكل ما أوتى الذهن القانونى من براعة يقظة . ولعله كان أصلح للجيش منه للمحاماة أو لرداء الكهنوت ، فإذ كان يستطيب العراك ، وما كان يستطيع النوم فى الليل الا اذا أردى خصما فى النهار . وقد وصف حياته بأنها « حرب على الأرض ، أى على المتعصبين والمنحليين ، الذين أعلنت عليهم الحرب الأبدية كما فعل هانيبال أمام المذبح (٣١) » . واتسع مرمى سهامه وبعد ، فاذا أخطأت الخصوم قتلت الأصدقاء . وقد وصف معاصريه بأوصاف محكمة . فجونسن « بلطجى » خبيث وقح ، وجاريك « اذا انحرف مرة وتكلم كلاما له معنى كان أقرب الى الهراء » ، وسموليت « اسكتلندى متشرد » يكتب « لغوا مضروبا فى عشرة آلاف » ، وفولتير « وغد » يتمرغ فى « أقذر حالوعات التفكير الحر (٣٢) » .

وقد ظهرت رائحته الضخمة ذات المجلدين فى ١٧٣٧ - ٤١ بعنوان « رسالة موسى الالهية مفسرة طبقا لمبادئ ربوبى دينى » وكانت حجتها مبتكرة وفذة . فالإيمان بحالة مستقبله من الثواب والعقاب لا غنى عنه للنظام الاجتماعى (وهو ما وافق عليه الكثير من الربوبيين) ، ولكن موسى وفق فى تنظيم الحياة اليهودية وأبلاغها حالة من الرخاء والفضيلة بغير ذلك الإيمان ، ولا تفسير لهذه المعجزة الا بالارشاد الالهى لموسى واليهود ، ومن ثم فرسالة موسى ونواميسه الهية ، والكتاب المقدس كلمة الله . وأحس وبرترن أن هذا الايضاح « قريب كل القرب من اليقين الرياضى (٣٣) » ولم يكن زملاؤه اللاهوتيون سعداء كل السعادة برأيه فى أن الله أرشد اليهود خلال ٦١٣ قانون وأربعة آلاف سنة دون أن يعلمهم أن نفوسهم خالدة . ولكن المؤلف القوى ملا صفحاته ببحوث علمية - عن طبيعة الفضيلة ، وعن التحالف الضرورى بين الكنيسة والدولة ، وعن ديانات الاسرار والشعائر فى العصور القديمة ، وعن أصل الكتابة ، وعن معنى الرموز الهيروغليفية ، وعن التاريخ المصرى ، وعن تاريخ سفر أيوب ، وعن أخطاء أحرار الفكر ، والآثريين ، والعلماء ، والمؤرخين ، والتوحيديين ، والآتراك ، واليهود - حتى لقد ذهلت انجلترا بأسرها لثقل علمه واتساع مداه . وتقدم وبرترن من معركة الى معركة - ضد كروساز ، وثيوبولد ، وبولنبروك ، ومدلتن ، ووسلى ، وهيوم - حتى بلغ أسقفية جلوستر المريحة المجزية .

وأما جوزف بطلر فكان ألين عودا ولكنه أكثر رهافة وتهذبا ، رجلا بالغ الرقة والتواضع والاحسان ، حَزَّ فى نفسه كثيرا أن يرى الدين الذى أعان على فطم الحضارة الأوروبية من الهمجية ، يواجه امتحانا من أجل حياته . وقد صدمه الاقبال الذق لقيته مادية هوبز فى الطبقات العليا . فلما عرضت عليه (١٧٤٧) رأسه أسقفية كنتربرى - وهى أعلى منصب كنسى فى انجلترا - رفضها معتذرا بأن قد « فات وقت محاولة دعم كنيسة متداعية (٣٤) » . وفى ١٧٥١ أعرب عن خزعه « لما أصاب الدين من التحلل شامل فى هذه الامة .. فتأثيره يبنى أكثر فأكثر فى أذهان الناس ... وعدد الذين يجهرون بالكفر فى ازدياد ، وتحمسهم للكفر يزداد بتزايد عددهم (٣٥) » . وقد أدهش

صديقه « دين تكرر » بسؤاله : الا يجوز أن تصاب الامة كما يصاب الفرد بالجنون ؟ وكأنه شعر أن شعبا من الشعوب قد يصاب بفقد الذاكرة الروحية اذا تخلص عن تراثه الدينى والخلقى .

ومع ذلك كرس حياته فى محاولة لرد اعتبار عقلى للايمان المسيحى . فنشر وهو ما زال قسيما شابا فى الرابعة والثلاثين « خمس عشرة عظه » (١٧٢٦) لطف فيها من تحليل هوبز المتشائم للطبيعة البشرية ، فزعم أن الانسان وإن كان فى نواح كثيرة شريرا بطبيعته ، الا أنه بطبيعته أيضا كائن اجتماعى أخلاقى ، فيه احساس فطرى بالحق والباطل . وقال ان العناصر الاسمى فى كيان الانسان تدين بأصلها لله ، الذى هى صوته ، وعلى هذا الاساس أقام نظرية عامة تقول بأن هناك قصدا الهيا يتخلل العالم . وأعجبت كارولين بحجته ، وفى ١٧٣٦ عين بطلر كاهنا خاصا للملكة .

فى ذلك العام نشر كتابا ظل طوال قرن أهم حصن لحجج المسيحية ضد الالحاد ، واسمه « وجه الشبه بين الدين الطبيعى والموحى ، وبين تكوين الطبيعة ومسلكتها » وقد كشفت مقدمة الكتاب عن مزاج العصر :

« لقد انتهينا - ولا أدري كيف انتهينا - الى حال أصبح فيها من القضايا المسلمة عند الكثيرين ، أن المسيحية ليست موضوعا يكثر فيه البحث والتحقيق الا لانه قد تبين آخر الامر أنها ديانة زائفة . ومن ثم يتناولونها وكان هذا بات الآن نقطة يجمع عليها كل أصحاب الفطنة والتمييز ، فلم يبقَ الا أن يجعلوا منها هدفا رئيسيا للهزء والسخرية ، وكأنهم يعاقبونها لأنها قطعت على الناس لذات الدنيا هذا الزمان الطويل (٣٦) »

واذ قدم بالكتاب أن يكون ردا على الربوبيين ، فإنه افترض وجود الله . رداً على الدين الطبيعى « الذى يدين به الربوبيون يقبل « اله الطبيعة » ، مخطط العالم وصانعه الاعظم ، ولكنه يرفض الاله الذى صورته الكتاب المقدس ، وهو اله ظالم ظلما بينا ، لأنه لا يتفق أبدا وهذا المفهوم السامى . وأراد بطلر أن يبين أن فى الطبيعة من علامات الظلم

والقسوة ما لا يقل عما فى « يهوه » كما صورته العهد القديم ؛ وأنه لا تناقض بين اله الطبيعة واله الوحى ؛ وأن الذين قبلوا أحدهما ينبغي منطقيا أن يقبلوا الآخر . ويبدو أن كاهن الملكة الخاص ، الطيب ، لم يدر بخلده قط أن بعض الشكاك الوقحين قد يخلصون من هذه الحجة (كما خلص جيمس مل) الى أنه لا هذا الاله ولا ذاك جدير بأن يعبدته المتحضرون .

واقام بطرر حجته فى وجود الالهين ، وفى أنهما واحد ، على الترجيح والاحتمال . فقال ان عقولنا ناقصة ، وأنها عرضة لكل ضروب الخطأ ، فليس فى امكاننا أن نصل الى اليقينية لا فى مر الله ولا فى أمر الطبيعة ؛ وحسبنا الترجيح ، والترجيح يؤيد الايمان بالله والايمان بالخلود . وواضح أن النفس أسمى من الجسد ، لأن أعضاء الجسد أدوات النفس وخدامها . والنفس ، التى من الواضح أنها جوهر الانسان ، لا داعى لفنائها مع الجسد ، وأغلب الظن أنها عند الموت تبحث عن أدوات جديدة فى مرحلة أعلى . وليس من المريح للطبيعة أن يتغير كائن من صورة أدنى الى صورة أعلى - كتغير الكائنات الزاحفة مثلا الى كائنات مجنحة ، أو تغير الخادرة الى فراشة ؛ وقياس آخر يرجح أنه سيكون فى حياة النفس بعد موت الجسد ألوان من الثواب والعقاب - مع الافتراض دائما بأن الله موجود . فكما أننا نعاقب المجرمين على جرائمهم ضد المجتمع ، كذلك تعاقب الطبيعة فى معظم الحالات الناس على ما اقترفوا من آثام ؛ ولكن بما أن هناك أمثلة كثيرة لا تلقى فيها الرذيلة عقابا واضحا ، ولا الفضيلة ثوابا واضحا ، فى هذه الحياة ، لذلك كان مما لا يصدق أن الله لن يعيد ، فى حياة أخرى ، علاقة أكثر انصافا بين السلوك والمصير . وضميرنا ، حسنا الخلقى ، لا يمكن أن يكون قد جاعنا الا من لدن اله عادل .

وأكثر ما لحجج بطرر من أهمية فى عصرنا هذا مرجعه أنها توضح مرحلة فى تطور العقل العصرى . ونحن اذا نظرنا اليها باعتبارها موجهة أصلا ضد الربوبيين وجدنا فيها فكرة لا يستهان بها ؛ فالذين قبلوا شهادة القصد الالهى فى الطبيعة ، لا مبرر لهم فى رفض الكتاب المقدس بسبب الاله القاسى المعلن عنه فى العهد القديم ، لأن اله الطبيعة

لا يقل عنه قسوة . لقد كانت طريقة غاية فى الأصالة فى الدفاع عن المسيحية . والظاهر أن بطر لم يتوجس من أن هذه الحجة قد لا تقضى الى المسيحية ، بل الى شيء أشد دفعا الى اليأس من الكفر - الى النتيجة التى خلص اليها توماس هنرى هكسلى ، وهى أن القوى المطلقة فى الكون أو وراءه غير أخلاقية ، تتناقض إشد التناقض مع ذلك الاحساس بالحق والباطل الذى بنى عليه بطر ، كما بنى عليه كانط ، الكثير من لاهوته . على أية حال كان كتاب « وجه الشبه » خطوة الى الأمام ولو فى هدوئه ولطفه ، فهنا لا تجد كراهية لاهوتية ، ولا قدحا دينيا ، بل محاولة جادة من الكاتب للتأدب حتى مع أولئك الذين بدوا أنهم يدمرون أعز آمال البشر . ورحبت الملكة كارولين بالكتاب لأنها رأت فيه أفضل دفاع ظهر الى ذلك الحين عن العقيدة المسيحية . وأوصت وهى على فراش الموت بترقية بطر ، فعينه جورج الثانى أسقفا على برستل ، ثم ناظرا على كتدرائية القديس بولس ، وأخيرا أسقفا على درم . وهناك ضرب بطر المثل لزملائه بالعيشة البسيطة والتصدق على الفقراء بجانب كبير من دخله .

وقد ترك كتابه للكفر منافذ كثيرة حتى أن كثيرا من رجال الكنيسة أشاروا بالكف عن هذا الجدل ، وأثروا أن يرسوا إيمانهم على الحاجات والعواطف الدينية بعيدا عن سهام العقل . مثال ذلك أن كتاب « هنرى دودويل » المسيحية دون أساس من الجدل « (١٧٤٢) يرفض الجدل العقلى فى المسائل الروحية ، لأنه لا يهدى الى الحقيقة ، وأقل من ذلك الى السعادة ، إنما هو رقصة موهنة تترعص فيها الحجج المؤيدة والمعارضة ، وما من انسان يقيم إيمانه على مثل هذه الأسس المائتة . وذهب دودويل الى أن حجج كلارك ، ووربرتن ، وبيطر ، وغيرهم من المدافعين المسيحيين ، قد هزت من الايمان الدينى أكثر مما قوت ، وربما لم يكن هناك الحاد لولا أن المحاضرين فى محاضرات بويل التذكارية دأبوا كل عام على تفنيد الالحاد . ان المسيح لم يجادل ، بل علم كمن له سلطان . فانظر الى أى شخص متدين حقا ، تجد فيه اقتناعا باطليا ، لا استنتاجا عقليا ؛ فالإيمان للنفس البسيطة يجب أن يكون تقليدا مقبولا ، وللروح الناضجة يجب أن يكون شعورا مباشرا بواقع فوق الطبيعة .

أما وليم لو ، فبعد أن ترك بصمته على الجدل مع الربوبيين ، دفعته قراءة يعقوب بومى الى التحول من الجدل الى الصوفية ؛ وفى نصف القرن الذى نحن بصدده ، والمتسم بالمادية والكلبية الظافرتين ، كتب عن الوجود الباطن للمسيح ومحبه الفادية بحرارة وثقة كأنه توماس أكيميس مولودا من جديد دون أن يطرأ عليه تغيير . وقد ضحى بكل المطامح الدنيوية برفضه حلف اليمين التى تعترف بجورج الأول رأسا للكنيسة لانجليزية ؛ فحرم زمالته بكمبردج ، واستتردت درجاته الجامعية . ثم أصبح معلما خاصا لأبى ادورد جييون ، ومكث مع تلك الأسرة ردحا كفى لأن يذكره المؤرخ (جييون) . قال هذا الشاك « لقد ترك فى أسرتنا سمعة الرجل الفاضل التقى الذى يؤمن بكل ما يصرح به ، ويمارس كل ما يأمر به (٣٧) » وقد أثنى جونسن على كتاب لو « دعوة جادة الى حياة تقية مقدسة » (١٧٢٩) وقال انه « أروع قطعة من اللاهوت الوعظى فى أى لغة (٣٨) » فمن المؤكد أن صوفية الكتاب أصبح من تلك التى تتوه فى روعى خارقة ، سماوية كانت أو جهنمية . كتب لو يقول : ليس هناك شيء خارق للطبيعة فى نظام فداثنا كله ، فكل جزء فيه له اساس فى أعمال الطبيعة وقواها ، وكل فداثنا انما هو الطبيعة مصححة . « وليست الجحيم مكانا ، بل هى حالة النفس المضطربة ، ولا الجنة مكانا ، ولا « حالة غريبة ، منفصلة ، مفروضة » ، بل هى سعادة نفس فى نظام وسلام (٣٩) . ومع أن لو كان عضوا مخلصا فى الكنيسة لانجليزية ، فانه كان يحلم برهبنة مجددة بروتستنتية . يقول :

« اذن لو أن أشخاصا من الجنسين . . . تواقين الى الكمال ، تجمعوا فى جماعات صغيرة ، تنذر الفقر الاختيارى ، والنبذ ، والعزلة ، والعبادة ، حتى تخفف صدقاتهم حاجة البعض ، ويتبارك الجميع بصلواتهم وينتفعوا بقدوتهم . . . هؤلاء لا يتعرضون للاتهام بآى ميل للخرافة أو تعبد أعمى . . . بل يمكن أن يقال حقا وصدقا أنهم يستعيدون تلك القوى التى كانت فخر الكنيسة ومجدها على حياة قديسيها العظام (٤٠) » .

وقد أثرت مثل لو العليا ونثره الرائع فى عمدة جييون

هستر جييون ، تأثيرا حملها هي وأرملة غنية على الذهب للعيش بقربه في مسقط رأسه كنزكليف بنورثمتونشير ، وكرستا أكثر دخلهما لأعمال البر تحت إشرافه . وقد وجد هذا الرجل سعادته في توزيع الطعام والثياب والعظاات على الفقراء والمرضى والمحرومين ، وهو الذى كان فى يوم ما طالب علم شغوبا بالبحث ، محبا للصحة المثقفة المهذبة . وغالى فى تقشفه ، فأنكر جميع لذات الدنيا تقريبا ، ووجد الحملة البيورتانية على المسرح باعتباره « بيت الشيطان » أو على الأقل « شرفة الجحيم (٤١) » . ولم يكن الخلق الانجليزى ، ولا مزاج العصر ، حفيين بصوفية لو ، وبدا أنه مختتم حياته فى خمول ذكر عقيم ، وإذا جون وسلى يأتى ليجلس عند قدميه .

٤ - جون وسلى : ١٧٠٣ - ٩١

إذا أردنا أن نفهم مكانه من التاريخ رجب أن نذكر أنفسنا ثانية بأنه حين أسس هو وأخوه تشارلز الحركة الميثودية Methodism فى أكسفورد (١٧٢٩) كان الدين فى انجلترا أخط منزلة مما كان فى أى فترة من فترات التاريخ الحديث . فلم يكن يختلف الى الكنيسة من أعضاء مجلس العموم أكثر من خمسة أو ستة (٤٢) . وكان رجال الكليروس الانجليكانى قد غالوا فى قبولهم العقلانية غلوا جعلهم يبنون كل كتاباتهم تقريبا على الجدل العقلى . ونذر أن ذكروا الجنة أو النار ، وكانوا يؤكدون على الفضائل الاجتماعية دون الغيبيات . والعظة الانجليزية كما وصفها فولتير كانت « رسالة جدية ولكنها جافة أحيانا ، يقرؤها رجل على الشعب دون إيماء ودون أن يرفع صوته رفعا ملحوظا (٤٣) » . ولم يكن الدين نشيطا حارا الا فى المذاهب المنشقة التى تتبعها الطبقة الوسطى . وكان عمال المدن مهملين اهمالا كليا تقريبا من الكليروس الانجليكانى ، « كان هناك فرقة ضخمة تتألف من أدنى الطبقات ، أفرادها بعيدون عن تناول التعليم أو الدين ، لا دين لهم ، ولم يعلموا ديننا على الإطلاق (٤٤) » ، وقد أسلموا الى فقر لا يضيئه نور الأمل الدينى الا قليلا . فى هذه الخلفية أحيأ جون وسلى وجورج هوايتفيلد العقائد والأداب البيورتانية أحياء قويا وأسسوا الكنيسة الميثودية .

كان اللاهوت والثورة يجريان فى عروق آباء وصى . فجدده الأكبر يرتلميو وصى طرد من وظائف القسوسية فى دورست لانه واصل العبادة المنشقة بعد أن ردّ الاحتكار الكنسى فى انجلترا للكنيسة الانجليكانية . وأصبح جد جون ، جون وصى ، قسيسا فى دورسيت ، وسجن لرفضه أن يستعمل كتاب الصلاة العامة ، وطرد من القسوسية ، وأصبح راعيا منشقا فى بول . وأسقط والد جون ، واسمه صموئيل وصى ، حرف التاء من اسمه ، وشق طريقه الى أكسفورد ، وهجر المنشقين ، ورسم قسيسا أنجليكانيا ، وتزوج سوزانا آنزلى (وكانت بنت واعظ) وأصبح قسيسا ايبورث فى لنكولنشير ، ومات من أبنائه التسعة عشر ثمانية فى طفولتهم - وفى هذا بيان لشقاء النساء ، وفحولة القساوسة المستهترة ، ونوعية الطب فى انجلترا القرن الثامن عشر . وكان الأب مؤدبا صارما فى البيت وعلى المذبح ، نشأ أبناءه على الخوف من اله منتقم ، وأدان احدى رعايا أبرشيته بالزنا ، وأجبرها على السير فى الشارع فى مسح التوبة (٤٥) . وكانت زوجته ضريبا له فى الصرامة والتقوى . فلما بلغ ابنها الأشهر التاسعة والعشرين شرحت له فلسفتها فى التربية الخلقية فقالت :

« اننى أصر على قهر ارادة الأطفال فى وقت مبكر ، لأن هذا هو الأساس القوى والمعقول الوحيد للتربية الدينية ، الذى بدونه لا يكون للتعاليم ولا للقدوة جدوى . ولكن متى قهرت هذه الإرادة قهرا تاما أصبح فى الامكان أن يحكم الطفل بعقل أبويه وتقواهما ، الى أن يبلغ فهمه درجة النضج ... فاذا بلغ الطفل عاما كانوا (أى أطفالها) يعلمون أن يخافوا العصا ويبكوا بصوت خافت ، وبهذه الطريقة وفروا هلى أنفسهم الكثير من العقاب الذى كان يصيبهم ان لم يفعلوا (٤٦) » .

وأصبح أكبر أبنائها ، صموئيل وصى الثانى ، شاعرا وعالما وقسيسا أنجليكانيا أنكر على أخويه مذهبهما المثودى . وكان الطفل الثامن عشر هو تشارلز وصى ، الذى دعم مواعظ أخيه جون دعما قويا بترانيم بلغ

عددها ٦٥٠٠ . أما جون فكان الخامس عشر ، وهو مولود بايبورث فى ١٧٠٣ . فلما بلغ السادسة احترق بيت القسيس ، وتركته الأسرة وسط النيران ظنا منها أنها قضت عليه ، ولكنه أطل من شباك فى الطابق الثانى ، فأنقذه جار وقف على كتفى آخر ، وسمى نفسه بعد ذلك « جمرة اختطفت من بين المحترقين » ولم يتغلب قط على خوفه الشديد من اللججيم . وفى بيت أبيه كانت أى ضوضاء غير واضحة السبب ، تفسر على أنها وجود خارق للطبيعة ، شيطانى أو الهى .

وحين بلغ جون الحادية عشرة أرسل الى مدرسة تشارتر هاوس الحرة ، وفى السابعة عشرة الى كرايست تشيرش باكسفورد . وقد تغلب على ضعف صحته بادمان المشي والركوب والسباحة ، فعمر حتى بلغ الثامنة والثمانين . وقرأ كثيرا ، واحتفظ بمذكرات ومقتطفات من قراءته توخى فيها التدقيق والعناية . وكان أحب الكتب اليه كتاب جيريى تيلر « الحياة المقدسة والموت المقدس » ، وكتاب توماس أكببس « محاكاة المسيح » . وبدأ - حتى فى أيام دراسته بالكلية - تلك اليومية التى هى احدى آيات الأدب الانجليزى والتقوى البروتستنتية . وقد كتب بعضها بالشفرة والاختزال . وفى ١٧٢٦ عين زميلا بكلية لنكولن ، وفى ١٧٢٨ رسم قسيسا أنجليكانيا .

وأخوه تشارلز هو الذى بدأ بجمع فى اكسفورد جماعة صغيرة من نحو خمسة عشر طالبا ومعلما اعتزموا ممارسة المسيحية بدقة منهجية . وأعداؤهم هم الذين خلعوا عليهم تهكما وازدراء اسمى « النادى المقدس » و « المثوديين » . وكانوا يقرءون معا العهد الجديد اليونانى والأدب القديمة ، ويصومون كل أربعاء وجمعة ، ويتناولون العشاء الربانى كل أسبوع ، ويتفقون المسجونين والمرضى ليقدموا لهم العزاء والأمل الدينى ، ويرافقون المحكوم باعدامهم الى المشنقة . ووصل جون وسلى الى تزعم الجماعة بفضل شدة حماسه وتقواه ، فكان يستيقظ كل يوم فى الرابعة - وهى عادة احتفظ بها حتى وهو طاعن فى السن،

ويخطط منهجيا فى كل صباح الاعمال التى تؤدى فى كل ساعة من ساعات اليوم . وكان يعيش على ثمانية وعشرين جنيها فى العام ، ويوزع باقى دخله على أعمال البر . وقد أكثر من الصوم حتى بدا مرة أنه قد دمر صحته تدميرا لا براء منه . وكان يحج راجلا الى وليم لو يلتمس منه النصيحة ، وأصبح كتاب لو « دعوة جادة الى حياة تقية مقدسة » مرشده الروحى . تقول يومياته أنه من هذا الكتاب « فاض النور على نفسي بقوة حتى ظهر كل شيء فى صورة جديدة (٤٧) » .

وفى ١٧٣٥ دعا الجنرال أوغلثورب جون وتشارلز ليرافقاه مبعوثين دينيين الى جورجيا . واذ كان أبوهما قد مات فانهما التمسنا مشورة أمهما . فقالت لهما « لو كان لى عشرون ولدا لأبهجنى أن يدعوا الى مثل هذا ، حتى ولو لم أرهم بعد ذلك أبدا (٤٨) » . فليت شعرى أنى لنا نحن المجريدين من التقوى أن نفهم هذه التقوى ؟ وأرجئت جلسات « النادى المقدس » الى أجل غير مسمى ، وفى ١٤ أكتوبر أبحر جون وتشارلز و « مثوديان » آخران على السفينة « سيموندر » قاصدين سافانا . وفى السفينة أثرت فيهم التقوى المرحمة التى أنسوها فى بعض « الأخوة المورافيين » الذين قدموا من ألمانيا ليستوطنوا أمريكا ، فلما هاجمت عاصفة هوجاء المركب الصغير لم يبد على المورافيين أثر لخوف ، وقارعوا رياح العاصفة بترانيمهم القوية ، وأحس الوسليان أن هذا ايمان يفوق ايمانها قوة .

فلما بلغا جورجيا (٥ فبراير ١٧٣٦) اتخذوا منصبين مختلفين ، فأصبح تشارلز سكرتيرا للحاكم أوغلثورب ، وجون راعيا للجالية الجديدة ، ومرسلا بين الحين والحين للهنود الحمر المجاورين . وأثنى أول الأمر على الهنود لشوقهم الى تقبل الانجيل ، ولكنه وصفهم بعد عامين بأنهم « شرهون ، لصوص ، مراعون ، كذابون ، قتلة لأبائهم ، قتلة لأمهاتهم ، قتلة لأبنائهم » ، وقيل انه « لم يوفق مع الهنود (٤٩) » . أما السكان البيض ، الذين كانوا يضمون مئات من

المجرمين المنفيين ، فقد أنكروا لهجته الأكسفوردية وروحه الأمرة الناهية وأصراره على أدق قواعد الطقوس والنظام . ففى العباد اشترط للتغيطس الكامل ثلاث مرات ، فاذا اعترض والد رفض أن يعمد الطفل . وإذا كان لا يزال « كنسيا طقسيا من النوع الشديد التزمتم (٥٠) » . فإنه أقصى عن تناول القربان رجلا كريما اعترف بأنه من المنشقين ، وأبى أن يقرأ صلاة الجنازة على مستعمر لم ينكر مذهبه المنشق قبل موته ، وحرّم على النساء من رعيته أن يلبسن الملابس الغالية أو الحلّى الذهبية ، وأقنع الحاكم أن يحرم صيد السمك وقنص الحيوان فى يوم الأحد - وهو اليوم الوحيد الذى كان يحتاج فيه لرعيته فراغ من الوقت للصيد أو القنص . وقد افتتن بصوفيا هوبكى ، ابنة أخت كبير قضاة مسافنا البالغة من العمر ثمانية عشر ربيعا . ولكن أصحابه المورافيين لم يرضوا عنها . فلما سئمت تردده تزوجت رجلا يدعى ولكنسون . وحين تقدمت لتناول القربان أبى أن يناولها السر بحجة أنها لم تتناول سوى ثلاث مرات فى الشهور الثلاثة الأخيرة ، وأنها أهملت أن تطلب الى راعيها اذاعة اعلان زواجها . فرفع زوجها عليه الدعوى لتشهيره بخلق زوجته ، وأدانت المحكمة سلوكه وسلى خطيبا وخدماته كاهنا ، شرفض الاعتراف بحقها فى محاكمته ، وتفاقم عدااء الشعب له ، ففر الى تشارلزتون واستقل سفينة الى انجلترا (٢٢ ديسمبر ١٧٣٧) .

وفى لندن استأنف تقشفاته أملا فى أن ترد اليه ثقته بنفسه ، ولكن بيتر بولر ، وكان واعظا مورافيا فى طريقه الى أمريكا ، أكد له أن ايمانه مازال ناقصا ، وأنه مهما كانت فضائله كاملة وتقواه وطقسيته حاريتين ، فسيظل فى حالة الهلاك الأبدى ، حتى يدرك - بومضة الهية من الاشرار واليقين ، مختلفة كل الاختلاف عن أى عملية استدلال عقلى - أن المسيح قد مات لأجله هو ، وأنه كفر عن خطايا هو ! فبعد هذا التغير دون سواه يكون الانسان فى مأمن من ارتكاب الخطايا وعلى ثقة من الخلاص . وقد خلد وسلى فى يوميته ذلك « اليوم المشهود » ٢٤ مايو ١٧٣٨ الذى وافته فيه هدايته النهائية ، قال :

« ذهبت فى المساء على مضض شديد الى جمعية فى شارع أولدرزجيت ، حيث كان أحدهم يقرأ مقدمة لوثر لرسالة بولس الى أهل رومية . وفى نحو التاسعة الا ربعا ، بينما كان يصف التغيير الذى يحدثه الله فى القلب بالايمان بالمسيح ، شعرت بقلبي يدفا على نحو عجيب . شعرت بأننى فعلا أثق بالمسيح ، والمسيح وحده ، للخلاص ، واعطيت تأكيدا بأنه نزع خطايائى ، خطايائى أنا ، وخلصنى من ناموس الخطية والموت . وبدأت أصلى بكل ما أوتيت من قوة لأجل أولئك الذين أساءوا الى واضطهدونى أشد من غيرهم . ثم شهدت علانية لجميع الحاضرين بما شعرت به الآن فى قلبى لأول مرة (٥١) » .

ويمكن القول بايجاز أنه لخص تطور المسيحية من الخلاص بالايمان والاعمال ، الى الخلاص بالايمان وحده (لوثر) ، الى الخلاص باسراق شخصي والهى (الكويكرز) . وعبر وصى البحر الى المانيا فى صيف ١٧٣٨ وهو عارف بصنيع بولر ، وأنفق عدة أسابيع فى هرنوت ، القرية السكسونية التى أنشئت فيها مستعمرة للاخوة المورافيين على ضياع كونت زرنندورف .

وكان تشارلز وصى خلال ذلك قد جاز بتغيير مماثل عند عودته الى انجلترا ، وبدأ بطريقته الأكثر رقة فى وعظ المسجونين فى نيوجيت والوعظ من كل منبر يسمح له بارتقائه ، وأهم حتى من هذا أن شخصية لا يبرزها قوة غير شخصية جون وصى كانت فى طريقها الى الصدارة فى الحركة الميثودية ، وهى شخصية جورج هوايتفيلد . وقد ولد لصاحب نزل بجلوستر فى ١٧١٤ . وعمل سنة أو أكثر ساقى خمر لضيوف أبيه . ثم شق طريقه الى كلية بمبروك باكسفورد ، وكان من الرعييل الأول فى « النادى المقدس » . وتبع الوصلين الى جورجيا فى ١٧٣٨ ولكنه عاد الى انجلترا فى خريف ذلك العام ليرسم قسيما أنجليكانيا . ولذا كان غير قانع بالفرص المتاحة له فى المنابر ، تواقا لأن ييث الهام إيمانه فى جماهير الشعب ، فقد بدأ فى فبراير ١٧٣٩ ، فى الخلاص

قرب برستل ، وعظ عمال المناجم الفحم الذين ندر أن جرءوا على دخول كنيسة أو اهتموا بدخولها . وكان فى صوته من الوضوح والقوة ما مكنه من الوصول الى أسماع عشرين ألف مستمع ، وأثرت مقدرته الخطابية المنسوبة فى هؤلاء الرجال المتحجرين ، المرهقين ، تأثيرا جعله يرى (كما قال) « المسارب البيضاء التى أحدثتها دموعهم التى هطلت بغزارة على خدودهم السوداء (٥٢) » وأتارت خيال انجلترا سمعة الواعظ الجديد ، وأخبار عظاته فى الهواء الطلق . فكانت الحشود الهائلة تتجمع أبنا ذهاب لتستمع اليه .

ولم يكن وعظه بالشىء الذى ينسى . فهو لم يدع !غسه تبجرا فى العلم ، ولكنه ادعى أنه يتكلم كلاما حميما مع الله (٥٣) . ويقول ولى أن لغته كانت تميل الى « الحلاوة والحب » وأنه يستعمل فيها بعض الأخيلة المذهلة ؛ من ذلك أنه كان يقول عن المسيح أنه « كالمشوى بغضب الآب ، ومن ثم يوصف بحق بأنه حمل الله (٥٤) » . وكما فعلت فى البرلمان كذلك فعل هوأيتفيلد فى الحقول ، إذ استعان فى خطبه بفنون التمثيل ، فكان فى قدرته أن يبكى فى التو والساعة بكاء من الواضح أنه اقترن بعاطفة صادقة ؛ وكان فى قدرته أن يشعر سامعيه بالاحساس بالخطيئة ، ورهبة الجحيم ، ومحبة المسيح ، احساسا قويا فوريا . وقد اعترف بقوته الخطباء أمثال بولنبروك وتشستر فيلد ، والشكاك أمثال فرانكلين وهيوم ، والممثلون أمثال جاريك . واذا كان يلقي الترحيب أينما حل ، فإنه جعل انجلترا ، وويلز ، واسكتلندا ، واربلى ، وأمريكا ، أبرشيتة . فعبر المحيط إلى أمريكا ثلاث عشرة مرة ، واخترق اسكتلندا اثنتى عشرة مرة . ولم يكن غريبا عليه أن يعظ أربعين ساعة فى الأسبوع . فما بلغ الخمسين حتى حل به الارهاق ، وخفض برنامجه بعد فوات الوقت الى « الحد الدقيق المسموح به » - أى أنه اكتفى بالوعظ مرة واحدة كل يوم من أيام الأسبوع ، وثلاث مرات فقط يوم الأحد . وفى ١٧٦٩ قام بزيارته السابعة للمستعمرات ، ومات فى نيويورك بولاية ماساتشوستس فى العام التالى .

وحين عاد جون ولسلى من هيرنوت ، لم يستطع أن يوافق تماما على طريقة هوايتفيلد الخطابية ، وتردد فى الاقتداء به فى الخطابة فى الخلاء . قال : « اذ كنت طوال حياتى (الى عهد قريب جدا) شديد التمسك بكل قواعد اللياقة والنظام ، . . . فقد كان المفروض أن أرى فى تخليص النفوس شيئا يكاد يبلغ مبلغ الخطيئة اذا لم يتم فى الكنيسة (٥٥) » . على أنه تغلب على نفوره هذا ، وحمل رسالتى الى الحقول والشوارع ، « وسلمت بأن أكون أكثر نزولا الى العامة فى الخلاء » (ابريل ١٧٣٩) . وكانت خطابته أقل حرارة من خطابة هوايتفيلد ، ولغته لغة العالم والجنّلمان ، ولكنه هو أيضا خاطب عواطف سامعيه ، وجعل الحياه اليومية لسطاء الناس تبدو كأنها جزء من مسرحية هائلة ، نبيلة ، نفوسهم فيها ساحة معركة بين الشيطان واسيح ، فتحركوا معه فى عالم من العجائب والمعجزات ، وسمعوا فيه (أى فى ولسلى) - كما زعم - صوت الله . وبينما ألف هوايتفيلد أن يعظ الجمع ثم ينصرف عنه ، راح ولسلى ينظم أتباعه فى « جماعات صغيرة » فى المدينة تلو المدينة ، ويرشدهم الى الثبات والاستمرار . وكانت اجتماعاتهم احياء للقاءات المحبة التى استنباها المسحيون الاولون - اعياد من الفرحة الدينية ومحبة الجماعة ، يعترف بعضهم لبعض بخطاياهم ، ويخضعون لفحص حياتهم الخلقية ، ويشتركون فى الصلاة وترتيل الترانيل الورعة . وكان جون قد ألف أو ترجم بعض الترانيم المؤثرة ، وكان تشارلز قد بدأ مجموعة ترانيله الضخمة . وفى ١٧٤٠ كتب تشارلز أشهر نرائيمه الرائعة الكثيرة « يسوع يا حبيب روحى » .

فى هذه الجماعات المتحمسة درب جون ولسلى وعازلا علمانيين حملوا البشارة الجديدة الى حيث لا يستطيع القادة البقاء . فقد انتشر هؤلاء « المساعدون » - دون رسامة ، ودون أى أبرشيات محددة ، بمنبر أو بغير منبر - فى أرجاء إنجلترا ، واسكتلندا ، وويلز ، وأوصلوا مخاوف وآمال اللاهوت البروتستنتى للطبقات العاملة ، وحضروا للزيارات الانعاشية التى سيقوم بها ولسلى وهوايتفيلد . وكان

وسلى نفسه يسافر - الى اقصى اركان انجلترا راكبا جواها او مركبة او راجلا - وكثيرا ما كان يقطع ستين ميلا فى اليوم ، وبلغ متوسط ما قطعه اربعة آلاف ميل فى السنة على مدى اربعين عاما . وكان يعظ فى كل فرصة . فى المسجون للمسجونين ، وفى المركبات لرفاقه الركاب ، وفى الفنادق للمسافرين ، وفى السفن العابرة البحر الى ايرلندة او من ثغر الى ثغر . وفى ايبويرت ، حين منع من الوقوف على منبر أبيه ، وعظ فى فناء الكنيسة واقفا فوق قبر أبيه .

فماذا كان يعظ ؟ العقيدة البيورتانية أساسا ، تلك التى خيل للناس أن الفوضى الخلقية التى صاحبت عودة الملكية للاستيوارتية عصفت بها عصفا مميتا . لقد رفض الجبرية (التى قبلها هوايتفليد) ، وأصر على ما دان به الجناح الارمذيوسي من الكنيسة الرسمية ، وهو أن للانسان من حرية الارادة ما يكفيه لتقرير ما يختاره أو يرفضه من النعمة الالهية . ورفض كل لجوء الى العقل ، وأحس أن الدين يصل الى أبعد مما يصل اليه المنطق الذى صنعه الانسان ، وأنه يعتمد على الوحي الالهى والافتناع الباطن ، ولكنه ابتعد عن الصوفية بحجة أنها تترك كل شيء لله ولا تحفز الانسان الى التقوى النشيطة . وشارك طبقته وزمانه معظم خرافاتهما : فكان يؤمن بالاشباح ، وبالأصل الشيطانى للصوات الغريبة ، وبحقيقة السحر واجرامه ؛ وقال ان التخلّى عن الايمان بوجود السحر معناه التخلّى عن الايمان بالكتاب المقدس . ولم يساوره شك فى المعجزات ، وذهب الى أنها تحدث كل يوم بين أتباعه . فكان الصداغ ، أو الورم المؤلم ، أو الفتق الشديد ، أو الساق المكسورة ، تشفى بصلواته أو صلوات الجماعة المثودية ؛ وحكى عن فتاة كاثوليكية كانت تفقد بصرها كلما قرأت كتاب القديس الكاثوليكي ، ولكنها تستعيده دائما حين تقرأ العهد الجديد . وقد قبل روايات النساء اللاتى زعن أنهن رأين الملائكة أو المسيح أو الجنة أو النار ، وسجل فى يوميته عددا من الحالات التى عوقب فيها خصوم المثودية بعقوبات خارقة (٥٦) .

وقد بلغ وعظه من الحيوية مبلغا أفضى بالكثيرين من جمهوره الى الهستريا والتشنجات . وتنبئنا اليومية عن خطاة غلبهم الألم البدنى بعد سماعه فراحوا يتقلبون على الارض من فرط العذاب ، بينما ركع مؤمنون آخرون الى جوارهم وصلوا لخلاصهم من مس الشيطان (٥٧) . وبصف وسلى اجتماعا فى شارع بلدوين بلندن فى ١٧٣٩ فنقول :

« لم يكد صوتى يسمع وسط أنين البعض وصراخ الآخرين . . . وساء كويكريا واقفا يتفرج . . . أن يسقط هو نفسه على الأرض كأنه المصعوق . وكان الكرب الذى يعانيه رهيبا حتى لمن يشهده . وقد تضرعنا الى الله ألا يؤاخذ به بالحماقة والجهل ، وسرعان ما رفع رأسه وصاح « الآن أعرف أنك نبي من أنبياء الرب (٥٨) » .

وبصف شاهد عيان نقل عنه وسلى اجتماعا للمثوديين بافرتن فى ١٧٥٩ كما يلى :

« كان بعضهم يصرخون ، وبعضهم يجارون . . . وأكثر ما سمع كان شهيفا عاليا كذلك الذى يصدر عن قوم نصف مخنوقين يلهثون طلبا للحياة ؛ أن الصيحات كلها تقريبا كانت كصيحات مخلوقات آدمية تعالج سكرات الموت الأليم . وكان الكثيرون يبكون دون ضجيج ، وغيرهم سقطوا كالأموات . . . ووقفت على مقعد كما فعل شاب فى المقعد المقابل ، وكان ريفيا قويا نضرا صحيح البدن ، ولكن حين بدا أنه لم يخطر له شيء آخر خر على الارض فى عنف لا يتصوره الانسان . . . وسمعت خبط أقدامه يكاد يحطم الألواح الخشبية وهو راقد يتشنج تشنجات شديدة فى أسفل المقعد . . . وأكثر الذين وضع الله عليهم يده احمرت وجوههم احمرارا شديدا أو كادت تسود . . . وسقط وراءه على الجدار رجل غريب حسن الهندام كان يقف أمامى ، ثم خر على ركبتيه وهو يعصر يديه ويهدر كالثور . . . ثم قام وراح يخطب الحائط حتى أمسك به مستر كبلنج ورجل آخر . وصرخ قائلا « أواه ماذا أصنع ، ماذا أصنع ؟ أواه ، ليت لى قطرة واحدة من دم المسيح ! » وبينما كان يتكلم حرر الله روحه ، فعلم أن خطاياه مَحِيَت ، وبدا أن نشوة الفرح التى غمرته أعظم من أن تحتملها الطبيعة البشرية (٥٩) » .

ولعل هذه التفجرات الهستيرية سببتها أحوال أثرت فى الضحايا قبل الاجتماع المئودى ، فجاءت كعظة عن نار الجحيم وكانت مجرد تقويج لذروة لا يمكن السيطرة عليها . أما وسلى فقد فسر هذه التشنجات بأنها مس شيطانى أعقبه شفاء الهى . وذهب الى أنها أحيانا لم تأت باصلاح دائم للسلوك أو الخلق ، ولكنه أحس بأنها فى كثير من الحالات طهرت النفس من الخطيئة وافتتحت حياة جديدة .

وقد حققت المئودية أعظم نجاح لها بين الفقراء . فقد كان الوعاظ أنفسهم رجالا ذوى ثقافة متواضعة ، بسطاء فى مشاعرهم وحديثهم ، ولم يقم حاجز طبقى أو ثقافى بينهم وبين جمهورهم . وقد حملوا رسالتهم ، رسالة الخطيئة والتوبة ، الى الفلاحين وعمال المناجم والمجرمين ؛ ومع أنهم بشرى بايمان قام على الخوف أكثر مما قام على المحبة ، فانهم أعطوا غير المتعلمين ناموسا أخلاقيا شارك بنصيب فى رد اعتبار الأخلاق الى انجلترا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . هذه الأخلاق البيورتانية هى التى انتقض عليها عصرنا انتقاضا متطرفا . لقد كان وسلى عدوا لكل الوان الترفيه تقريبا . صحيح انه سمح بلعب الورق ، ولكنه رأى أن من الاثم الذهاب الى المهرجانات ، ولبس الحلى أو الملابس الغالية ، والاختلاف الى المسرح أو المرقص . ولم يخصص أى وقت للعب فى المدرسة التى انتسها فى كنجرود ، لان « من يلعب وهو طفل سوف يلعب وهو رجل (٦٠) » . ولكن الأخلاق البيورتانيه انسجمت مع الخلق الانجليزى ، واستطاع أن يتحملها الرجال الاشداء والنساء الصبوريات ، وقد منحت الطبقات العاملة الانجليزية احساسا هخورا بالاختيار سندها فى الفقر وجعلها عدوا لآى ثورة تتشكك فى المسيحية . وأحس المحافظون بعد حين بعرفان الجميل لوسلى لانه انقذ الفقراء البريطانيين من الربوبية والالحاد ، وحوّل تطلعاتهم من الثورة الاجتماعية الى الخلاص الفردى ، ومن عالم مثالى على هذه الارص الى فردوس بعد الممات (٦١) .

وكان وسلى نفسه يميل الى المحافظة فى السياسة . وقد تقدم طبقته فى المطالبة ببعض الاصلاحات التى طال تأخرها : فندد بنظام « الدوائر العفنة » ، وبتفاوت التمثيل النيابى فى البرلمان ، وبفساد

السياسة الانجليزية الصارخ ، وبوحشية الرق ، وبأهوال السجون البريطانية . ولكنه تقبل الهيكل الطبقي للمجتمع باعتباره طبيعيا وعادلا ، وعارض أى انفراج فى القوانين الموجهة ضد الكاثوليك ، وكانت ميوله كلها مع جورج الثالث فى ثورة المستعمرات الأمريكية .

وقد ظل أنجليكانيا بالعقيدة ، ولكنه رفض الرأى الأنجليكانى القائل بأن رسالة القسيس لا تكون قانونية الا على يد أسقف فى سلسلة الأساقفة الرسولين ؛ ورسم هو بنفسه قساوسة لاسكتلندة وأمريكا . وحين قال « ان العالم أبرشيتى (٦٢) » كان يقصد أنه سيعظ حيثما شاء ، دون اذن أو تعيين أسقفى ، والى هذا الحد كان انشغاله على الكنيسة الرسمية . ولكنه حض أتباعه على حضور الخدمات الأنجليكانية ، وتجنب الاجتماعات والعقائد المنشقة على هذه الكنيسة ، والامتناع عن مخاصمة الكليروس الأنجليكانى . وفتحت أول الأمر بعض المنابر الأنجليكانية للقساوسة المثوديين ، ولكن حين اتخذ وعاظ وصى العلمانيون لأنفسهم حق مناولة القربان ، وارتدت العقيدة المثودية الى توكيد العصر الوسيط على الجحيم والانشغال البيورتنى بالخطيئة ، سحب الكهنة الأنجليكانيون تاييدهم ، تماما كما انسحب أرزم من لوثر ، وآنروا تطورا منظما ، وتقصوا المثوديين عن المنابر الأنجليكانية .

وكان الاضطهاد الذى ابتلى به المذهب الجديد على يد الكنيسة الرسمية أقل كثيرا من ذلك الذى جاءه من العامة البسطاء الذين لم يطبقوا الطرق الجديدة فى التبشير بالأفكار القديمة . وفى المدينة بعد المدينة هوجم وعاظ الهواء الطلق - كما سيهاجم نظرائهم الملاحقون الذين سيبشرون بانجيل اجتماعى جديد - من غوغاء أسعدهم أن يكونوا قساة دون خوف ولا لوم . وفى مونتموث ضرب واعظ علمانى على رأسه بصخرة فمات من الضربة . وفى وندزبرى حطم جَمْعُ بيوت المثوديين ، وأذى نساءهم ، وضرب رجالهم . فلما ظهر وصى طالب الجميع بدمه ، وصفق للذين ضربوه بالهراوات ، وصلى هو بصوت عال ، فأطلق الجمع سراحه . وفى بولتن أغار جمع غاضب على البيت الذى كان يعظ فيه ، وواصل هو عظته الى النهاية وسط وابل من الحجارة والبلاط والبيض . وفى ديفيزيه صوبت طلम्بة مائية على مسكن تشارلز وصى ، وأطلقت الكلاب البولدوج على

أتباعه • وفى اكستر رجم هوايتفيلد حتى كاد يلقى حتفه • وفى هوكستن دفع ثور بمهماز الى محفل مثودى ، وفى بنسفورد سيق عجل هاجه تحريش الكلاب به الى المائدة التى كان جون وسلى يعظ عندها • وراقت شجاعة الوعاظ الخلق الانجليزى ، وأكسبتهم التسامح والتأييد •

كان وسلى رجلا قصير القامة ، طوله خمسة أقدام وثلاث بوصات ، ووزنه ١٢٨ رطلا • وكان فى شيخوخته يقع من نفوس ناظريه وقعا طيبا بشعره الأبيض ، ولكنه كان من قبل فى كهولته يسترعى الاهتمام بقسماته الدقيقة المتقشفة وعينييه المسيطرتين • وكان من القضايا المسلمة عنده أنه خلق ليحكم ، ووضع نشاطه العصبى وقوته الذهنية فى مكان الزعامة بحكم الطبيعة ، واشتطت به أحيانا ثقته بنفسه ثقة لا يتشكك فيها الى اعتداد بالنفس ، رأى فيه أسقف مثودى « غطرسة » شديدة (٦٣) • ولم يكن بالرجل الذى يسهل الانسجام معه ، لأنه كان يفكر ويتحرك بسرعة لا يستطيع الآخرون أن يجاروه فيها • وتزوج فى ١٧٥١ ، بعد أن أحب كما نحب كلنا الممرضة التى اعتنت به فى مرضه • وسافرت معه زوجته فى جولاته المحمومة طوال عامين ، ثم انهارت صحتها وأعصابها فتركته كما يقفز انسان من فوق ظهر حصان جموح • وكان يعزو الفضل فى صحته وحيويته لرحلاته المتصلة راكبا أو راجلا ، وقد نضيف أن الخطابة رياضة تهوى الرثتين • وفى ١٧٣٥ أصبح نباتيا ، وبعد عام قرر هو وصديق له أن يعيشا على الخبز القفار دون غيره ، وأن « يجربا امكان الحياة بلون واحد من الطعام كما هى ممكنة بمختلف ألوانه ••• ولم تكن أشد قوة وعافية منا حين لم نذق طعاما آخر (٦٤) » ، ولكنهما سرعان ما انتكسا الى التنويع فى الطعام •

ماذا كانت نتائج الوعظ المثودى ؟ فى جيل واحد أصبح الدين ، الذى لاح من قبل أنه يموت من أثر الوقار الانجليكانى والشكوك الربوبية عنصرا مدويا فى الحياة الانجليزية ، لا يعلو عليه الا السياسة والحرب • فلما مات وسلى (١٧٩١) كان أتباعه يعدون ٧٩ر٠٠٠ فى انجلترا ، ٤٠ر٠٠٠ فى أمريكا الشمالية ، وفى ١٩٥٧ كان هناك ٢٢٥ر٠٠٠ر٠٠٠ مثودى فى بريطانيا العظمى ، و ١٢ر٠٠٠ر٠٠٠ فى الولايات المتحدة و ٤٠ر٠٠٠ر٠٠٠ فى العالم (٦٥) • وفضلا عن تكاثر أتباع المذهب كان

له تأثير فى المذاهب الاخرى ؛ مثال ذلك ما حدث فى الكنيسة الانجليكانية التى رفضت الميثودية ، اذ بعثت المثل الميثودية العليا الحركة « الانجيلية » فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ولعلها دخلت فى حركة اكسفورد فى القرن التاسع عشر . أما من الناحية السياسية فان النتائج كانت استسلاما محافظا بين الطبقات العاملة حتى ١٨٤٨ . وأما من الناحية الخلقية فان الميثودية حسنت السلوك الشخصى والحياة العائلية بين الفقراء وشاركت فى تقليل الفساد الانتخابى والرسمى ، وأخزت الكثيرين من طبقة السادة فأقلعوا عن الطيش والرذيلة ، وهيات لنفور الانجليز من تجارة الرقيق . وأما من الناحية الثقافية فان الحركة كانت سلبية . لقد أعطت الشعب ترانيم مقدسة ، ولكنها واصلت العداء البيورتنانى للفن . وأما من الناحية الفكرية فانها كانت خطوة الى الوراء فقد أرست عقيدتها على الخوف ، وشعائرها على العاطفة ، وأدانت العقل بوصفه فخا للانسان . وفى الصراع الكبير بين الايمان والعقل علقت كل آمالها على الايمان ، ولم تضع أى ثقة فى تقدم المعرفة والعلم ، وتجاهلت أو احتقرت « التنوير » الذى أخذ يشعل النار فى فرنسا . وشعرت أن هدف الحياة ومعناها الوحيد هو الهروب من الهلاك الأبدى ، وأن الشيء الوحيد المطلوب لهذه الغاية هو لايمان بالموت الفادى الذى ماته المسيح .

وفى يناير ١٧٩٠ ، حين بلغ وصى السادسة والثمانين ، كتب فى يوميته يقول « بتّ الآن شيخا متهدما من رأسى الى قدمى . عيناى معتمتان ، ويمناى تهتز بشدة ، وفمى ساخن جاف كل صباح ، وتنتابنى حمى طويلة كل يوم تقريبا . ولكنى بفضل الله لا أخفق من جهدى . ففى استطاعتى أن أعظ وأكتب الى الآن (٦٦) » . وبعد شهرين بدأ جولة خطابية اتصلت خمسة أشهر وجابت به أرجاء انجلترا واسكتلندا . وقضى نحبه فى العام التالى (٢ مارس ١٧٩١) . ولو حكمنا على عظمة الأفراد بمدى تأثيرهم لقلنا انه - باستثناء بت - كان أعظم الانجليز فى زمانه .

٥ - فى النحل والبشر

هناك شخصيتان أقل شأنا توقفنا فى طريقنا الى ديفد هيوم .
أولهما برنارد ماندفيل ، وكان طبيبا لندنيا من أصل فرنسي ومولد
هولندى ، نشر فى ١٧٠٥ كراسة فى عشر صفحات تباع بست بنسات ،
مكتوبة بشعر مرح عنوانها « الخلية المتذمرة » . وموضوعها مفارقة
مؤداهما أن رخاء الخلية راجع الى رذائل أفرادها من النحل - الى
جشعها ، الأنانى ونشوتها التناسلية ومشاكستها الجماعية . وبتطبيق هذا
التناقض على الخلية الانسانية ، ذهب الطبيب الخبير الى أن ثروة
الدولة وقوتها لا تعتمدان على فضائل مواطنيها بل على الرذائل التى
يندد بها الأخلاقيون المتذمرون بحماقة . فلنتصور ما يحدث لو كفت
فجأة كل ضروب حب التملك والغرور والخيانة والمشاغبة - لو لم يأكل
الرجال والنساء من الطعام الا بقدر ما يحتاجون اليه ، ولم يلبسوا من
الثياب الا ما يقيهم القر والحر ، ولم يغشوا أو يؤذوا بعضهم بعضا ، ولم
يتشاجروا ، وأدوا ديونهم دائما ، واحتقروا أسباب الترف ، وكانوا أوفياء
لأزواجهم . لو حدث هذا لتوقف المجتمع كله فجأة ، فترى المحامين
يتضورون جوعا ، والقضاة يتركون بغير قضايا أو رشا ، والأطباء يذوون
لانعدام المرضى ، وزراع الكروم يفلسون ، والحانات تغلق أبوابها لانعدام
شاربى الخمر ، وملايين الصناع المهرة الذين ينتجون الغريب من الأطلعمة
أو الحلى أو الملابس أو البيوت يتعطلون ؛ ولن يرغب أحد فى أن يكون
جنديا ؛ وما يلبث المجتمع أن يقهر ويستعبد .

وعطل تأثير الخلية المتذمرة صياغتها فى شعر هزلى محطم الوزن ،
وغاظ هذا الطبيب المغرور ، الجشع ، المشاغب ، فأعاد إصدارها ثانية
فى ١٧١٤ ، وثالثة فى ١٧٢٣ ، باسم « خرافة النحل » موسعا أياها المرة
بعد المرة بالمقدمات ، والملاحظات ، والتعليقات التى بلغت بالصفحات
العشر مجلدين . وأصغت انجلترا وفرنسا هذه المرة ، لأن هذه الملاحق
كانت من أقذع ما كتب من تحليلات للطبيعة البشرية .

واتخذ ماندفيل من ايرل شافتسبرى الثالث هدفا رئيسيا لكتابه
بكل معنى الهدف . ذلك أن الأيرل كان قد فسر الطبيعة البشرية ببلاغة

متفائلة ، فافترض فى الانسان « احساسا باطنيا بالصواب والخطأ ... فطريا فينا كالمحبة الفطرية ، وهو مبدأ أول فى كياننا » . ورد ماندفيل على هذا بأنه هراء بديع ؛ فالطبيعة البشرية قبل التربية والتدريب الخلقى لا تميز بين الفضيلة والرذيلة ، إنما تحكمها المصالح الذاتية دون غيرها . وقد وافق اللاهوتيين على أن الانسان بطبيعته « شرير » (متمرّد على القانون) ، ولكنه بدلا من أن يهدد الناس بالجحيم ، هناهم على الملاعبة البارة بين رذيلة الفرد وخير المجتمع . فالبغاء السرى مثلا يحمى العفة العامة ، والنهم للانتاج والخدمات يحفز الاختراع ، ويدعم الصناعة والتجارة ؛ والثروات الكبيرة تتيح البر بالناس والفن الضخم . وبينما بشر اللاهوتيون بالتقشف ، دافع ماندفيل عن الترف ، وحجته أن الرغبة فى الكماليات (وهى أى شيء خلاف الضروريات المجردة للحياة) هى أصل الصناعة والحضارة ؛ فلو أزلنا الترف كله "عدنا همجا" . وبينما يفترض فى الأخلاقيين أن يدينوا الحرب قال ماندفيل ان الأمم عاشت بفضل قدرتها على شن الحرب ، لأن معظم الدول وحوش ضارية .

ولم ير فى الطبيعة أى فضيلة . فالخير والشر كلمتان تصدقان على الأفعال الاجتماعية أو المعادية لمصلحة المجتمع فى الانسان ، أما الطبيعة نفسها فلا تأبه بكلماتنا أو عظائنا ، وهى تحدد الفضيلة بأنها أى صفة تعين على البقاء ؛ وعالم الطبيعة فى عباراتنا المتحيزة مسرح للجشع والشهوة والقسوة والقتل والتبديد الذى لا معنى له . ومع ذلك فمن ذلك الصراع الرهيب ، كما يقول ماندفيل ، طور الانسان اللغة والنظام الاجتماعى والنواميس الأخلاقية أدوات للتماسك الاجتماعى وبقاء المجتمع . والثناء واللوم لا تبررهما الطبيعة ، ولكنهما مبرران باعتبارهما وسائل نستعين بها - لأنها تروق غرور الانسان وخوفه وكبريائه ، - على ان نشجع فى غيرنا ألوانا من العمل مفيدة لنا أو للجماعة .

ومعظم الذين سمعوا بماندفيل رموه بالنزعة المادية الكلبية ، ولكن فولتير اتفق معه على نفع الكماليات ، وصفق فزيوقراطيو فرنسا القائلون بسياسة « عدم التدخل » لرايه فى أن عدم التدخل فى طمع الانسان

كفيل بأن يجعل عجلات الصناعة تدور . وأغلب الظن أن الطبيب الكثير النزوات كان مسلما بأن مفارقتة هذه ، « الرذائل الخاصة هي فضائل عامة » كانت الى حد كبير لعبا بالفاظ فضفاضة التعريف . ان « الرذائل » كحب الاقتناء ، والعشق الجنسي ، والمشغبة ، والكبرياء ، كانت يوما ما « فضائل » في الصراع البدائى للبقاء . ولم تصبح رذائل الا حين مورست في المجتمع ممارسة تجاوزت الخير الاجتماعى ؛ وقد أصبحت منافع عامة بفضل التحكم فيها بالتعليم ، والرأى العام ، والدين ، والقانون .

وشتان بين فرانسس هتشسن وبين هذا الطبيب المفترى . وقد ولد هتشسن فى ارلندة لقس مشيخى ، ثم انحرف عن جادة أبيه وفتح معهدا خاصا فى دبلن . واذ كان شديد الوعى بالتزامه بأن يجعل من المتوحشين الصغار مواطنين ، فقد كتب من معهده « تحقيقا فى الخير والشر الأخلاقيين » (١٧٢٥) عرّف فيه المواطن الصالح بأنه ذلك الذى يعزّز الخير العام ، ووصف فيه الخير العام (بعبارة سبقت بحذافيرها صيغة بنتام فى مذهب المنفعة) فقال انه « أعظم سعادة لأكبر عدد من الناس (٦٩) » فلما رقى الى كرسي الفلسفة الأخلاقية فى جامعة جلاسجو ، أزعج المشيخين بدفاعه عن حق الفرد فى اصدار حكمه على الأشياء ، وعن مشروعية اللذة ، وعن « الفنون الابداعية كالموسيقى والنحت والتصوير ، وحتى الملاهى الرجولية » (٧٠) ، ولم يشارك ماندقيل فكرته المتشائمة عن الطبيعة البشرية . وقد سلم بأخطاء الناس وذنوبهم ، وبشهواتهم الجامحة وجرائمهم العنيفة ، « ولكن الجانب الأكبر من حياتهم يستخدم فى القيام بمهام من المودة الطبيعية ، أو الصداقة ، أو حب الذات البرىء ، أو حب الوطن » . ثم اُضيف تحذيرا نافعا للمؤرخين فقال :

« ان الناس ميالون الى اطلاق العنان لخيالاتهم فى أمر جميع ما سمعوا عنه أو قرعوا فى التاريخ من سرقات ، وقرصنات ، وجرائم قتل ، وإيمان كاذبة ، وتزويرات ، ومذابح ، واغتيالات ، فيستنتجون من هذا كله أن النوع الانسانى كله شرير جدا ، وكأن دار القضاء هي المكان الصحيح لتقييم أخلاق البشر ، أو المستشفى لتقييم ملائمة المناخ

للصحة . أفلا يجدر بهم أن يروا أن عدد المواطنين والمزارعين الشرفاء يفوق كثيرا عدد كل أنواع المجرمين فى أى دولة . . . وأن ندرة الجرائم بالقياس الى الأفعال البريئة أو الخيرة هى التى تلفت انتباهنا لها ، وتبعث على تسجيلها فى التاريخ ، فى حين تغفل أفعال شريفة سمحة مألوفة ، تفوقها بما لا يقاس ، لا لشيء الا لأنها عادية جدا ؛ وما أشبه هذا بخطر جسيم واحد ، أو شهر يقضى فى المرض ، فيصبح قصة تتردد كثيرا ، خلال حياة طويلة من الصحة والسلامة .
ذلك عقل سليم !

٦ - ديفد هيوم : ١٧١١ - ٧٦

١ - الفيلسوف الشاب

كان هتشن جزءا متواضعا من حركة « التنوير الاسكتلندى » ، أما هيوم فكان ألمع كواكبها . وهو يروى لنا فى ترجمته الذاتية البسيطة ، ذات الصفحات الست ، أنه ولد بأدنبره فى ٢٦ أبريل ١٧١١ ، « لأسرة طيبة أباً وأماً ، فأسرة أبى فرع من إيرل Home أو Hume * وكانت أمى ابنة السر ديفد فوكنر عميد كلية الحقوق » . ومات الأب فى ١٧١٢ ، تاركا ممتلكاته لشقيق ديفد الأكبر ، جون هيوم ، ولديفد دخلا يبلغ ثمانين جنيها فى السنة - يكفى لمعيشة متقشفة . أما الأسرة التى كانت كلها تدين بالمذهب المشيخى ، فقد أشربت الصبى اللاهوت الكلفنى اشرابا قويا تخلف على شكل الحتمية فى فلسفة ديفد . كان فى بكرة كل أحد يختلف الى صلاة فى الكنيسة تتصل ثلاث ساعات ، منها ساعتان من الوعظ ؛ ثم يعود عشية كل أحد الى الكنيسة ساعة ؛ يضاف الى هذا صلوات الصباح فى البيت (٧٢) . ولم يكن مندوحة من أن ينتقض ديفد على هذا كله بالانحراف الى الهرطقة ما دام فيه ذرة من صلابة الخلق .

وحين بلغ الثانية عشرة دخل جامعة أدنبره . ثم تركها بعد ثلاث

* كان سليل لذلك الايرل رئيس وزراء لبريطانيا العظمى فى ١٩٦٤ . والاسم Home كان ومازال يلفظ Hume « هيوم » .

سنوات دون درجة ، عازما على أن يفرغ بكليته للأدب والفلسفة . وفى السادسة عشرة كتب الى صديق يلوم نفسه

« لأن سلامى العقلى لا تدعمه الفلسفة دعما يكفى للثبات للطمات القدر . فعظمة النفس وسموها هذا لا سبيل اليه الا فى الدرس والتأمل . . . فاسمح لى بأن أتكلم هكذا كفيلسوف ، فذلك موضوع أطيل التفكير فيه ولا يعينى الحديث فيه اليوم كله (٧٣) » .

وسرعان ما تبخر ايمانه الدينى :

« وجدت ضريبا من جرأة الطبع يملكنى ، وهى جرأة لا تميل الى الخضوع لآى سلطة فى هذين الموضوعين (الفلسفة والأدب) . . . فلما ناهزت الثامنة عشرة بدا كأنه قد انفتح أمامى مشهد جديد من الفكرة ، أطربنى منتهى الطرب ، وحملنى بحماسة الشباب الطبيعية على أن أنبذ كل لذة أو شغل آخر لأعكف عليه العكوف كله (٧٤) » .

وقال فى فترة لاحقة أنه « لم يشعر بأى ايمان بالدين منذ بدا قراءة لوك وكلارك (٧٥) » . فما ان بلغ السابعة عشرة حتى كان قد خطط لرسالة فى الفلسفة .

وألح عليه اقرباؤه فى أن الفلسفة وثمانين جنيها هى العام لن يتيحاً له سوى عيش ضئيل ، وأن عليه ان يقنع بضرورة التكسب . فهل فى استطاعته أن يدرس القانون ؟ وحاول ذلك طوال ثلاث سنوات مؤلمة (١٧٢٦ - ٢٩) . وانهارت صحته ، وأوشكت روحه أيضاً أن تنهار ، وفقد اهتمامه بالأفكار فترة . « رأيت دراسة القانون شيئاً يثير فى « الغثيان » (٧٦) ، فطلقها ، وعاد الى الفلسفة ، ربما باتحراف واحد . ففى أواخر فبراير ١٧٣٤ رحل عن ادنبرة الى لندن « لأبذل محاولة هزيلة جدا لولوج مجال من الحياة أكثر نشاطا (٧٧) » . وفى ٥ مارس مثلت آجنس جلبريث أمام القس جورج هيوم (عم ديفد) ، واعترفت بانها حبلى . فلما جرى بها أمام جلسة لمجلس الكنيسة المشيخية صرحت بأن « المستر ديفد هيوم . . . هو أبو الطفل » وارتاب المجلس فى صدقها فأحالها الى الاجتماع التالى للمجلس المشيخي

المحلى ؛ وأمام هذا المجلس فى ٢٥ يونيو ، كررت التهمة . وقد جاء فى محضر مجلس تشيرنسايد :

« ان رئيس الجلسة ... ناشدها أن تقول الصدق وتعترف هل أذنب معها شخص آخر ... ويعد أن نظر المجلس فى الأمر ، وأحيط أعضاؤه علما بأن ديفد هيوم المذكور خرج من المملكة ، أحالوها الى دائرة مجلس تشيرنسايد امثالا لقواعد الكنيسة (٧٨) » .

وهذا يتطلب مثولها فى المسرح أمام الكنيسة وعرضها فى المشهرة ثلاثة آحاد . وفى ١٧٣٩ أديننت أجنيس مرة أخرى بالزنا .

ومضى هيوم الى برستل بعد أن توقف فى لندن ، واشتغل فى مكتب تاجر « ولم تمض على شهور حتى وجدت ذلك الجو لا يلائمنى اطلاقا » فعبر البحر الى فرنسا ، حيث المعيشة أرخص منها فى انجلترا . ومكث فترة فى رانس ، ثم رحل الى لافليش (على نحو ١٥٠ ميلا جنوب غربى باريس) ، لأن كلية اليسوعيين فيها كانت تملك مكتبة كبيرة ، واتصل الاسكتلندى المدبر اتصالا وديا بالكهنة فسمحوا له باستعمال كتبهم . وقد وصفه أحد الآباء فى نظرة لاحقة بأنه « كان شديد الاعتداد بنفسه ... فى روحه حيوية أكثر مما فيها من التماسك وفى خياله توقد أكثر مما فيه من العمق ، وقلبه أشد انغماسا فى الأشياء المادية والعجب الروحى من أن يتغلغل الى الخفايا المقدسة للحقائق الالهية (٧٩) » .

وفى ظل اليسوعيين ألف هيوم أول جزئين من رائعته الشكوكية « رسالة فى الطبيعة البشرية » . وفى سبتمبر ١٧٣٧ ، عاد الى انجلترا مثقلا بمخطوطته . وقد لقى عنقا مع الناشرين ، لأنه كتب فى ديسمبر الى هنرى هيوم يقول : « اننى الآن أجب كتابى ، أى اقتطع منه أجزاءه الممتازة ، محاولا أن أقلل ما استطعت من أيدائه لشعور الناس (٨٠) » . وكان أهم ما حذف منه « مناقشات حول المعجزات » فنحاهما لاستعمالها فى أوقات أسلم . أما الباقي ، الذى ضمن أنه يدق على أفهام المتشبهين بالقديم ، فقد نشره جون نون اللندنى غفلا من اسم المؤلف فى مجلدين فى يناير ١٧٣٩ . وباع هيوم المجلدين اجمالا

بخمسين جنيها واثنتى عشرة نسخة - وهى صفقة ليست خاسرة جدا بالنسبة لكتاب فى المنطق ونظرية المعرفة بقلم شاب مغمور فى السابعة والعشرين . على أنه كان قمة من قمم الفلسفة الحديثة .

ب - الغض من شأن العقل

كشف « الاعلان » الذى تصدر الكتاب عن ثقة هيوم فى قدراته . فقد قال فيه انه يستهدف دراسة الطبيعة البشرية من حيث الفهم والانفعالات ، ثم فى مجلد ثالث قادم من حيث الاخلاق والسياسة . وشرع فى تحليل « الانطباع » (الاحساس) ، والادراك الحسى ، والذاكرة ، والخيال ، والفكر ، والعقل ، والاعتقاد . وهذا البحث فى كيفية وصولنا الى أن « نعرف » بحث أساسى ، لأن صحة العلم والفلسفة والدين والتاريخ تتوقف على طبيعة المعرفة ، وأصلها ، وإمكان وثوقنا بها . وهو فرع من الدراسة عسير ، لأنه يتناول الأفكار المجردة لا الأشياء المحسنة ، والفكر آخر شيء يحاول الفكر أن يفهمه .

وبدأ هيوم بقبوله تجريبية لوك نقطة انطلاق لبحثه ، فكل الأفكار مستقاة فى النهاية من التجربة بطريق الانطباعات . وهذه اما أحاسيس خارجية كالضوء والصوت والحرارة والضغط والروائح والذوق ؛ واما داخلية كالخدر والجوع واللذة والألم . والادراك الحسى احساس مفسر ؛ « فالضوضاء » احساس ، ولكن « نقرة على الباب » ادراك حسى (وهيوم ليس دقيقا أو ثابتا دائما فى استعماله هذين المصطلحين) . والمولود أعمى أو أصم ليس لديه « فكرة » عن الضوء أو الصوت ، لأنه لم يكن لديه احساس بأحدهما . وفكرتا المكان والزمان نابتان من التجربة ، فالأولى « فكرة نقاط مرئية أو محسوسة موزعة بنظام معين » ، والثانية ادراك التعاقب فى انطباعاتنا (٨١) ولا تختلف الأفكار عن الانطباعات الا فى ضعف « القوة والحيوية التى تقع بهما على الذهن (٨٢) » . والاعتقاد « ليس الا فهما أكثر حيوية وحدة لأى فكرة ... انه شيء يشعر به الذهن ، يميز أفكار الحكم عن خرافات الخيال (٨٣) » .

ويبدو أن هيوم فى تعريفاته هذه يرى فى « الذهن » كيانا أو أداة

حقيقية تمارس الانطباعات أو الأفكار ، أو تمتلكها ، أو تتذكرها ، أو تحكم عليها . على انه اذ يمضي فى البحث ينكر وجود أى ذهن ملحق بالحالات النفسية - الاحساس ، أو الادراك الحسى ، أو الفكرة ، أو الشعور ، أو الرغبة التى تشغل الوعى فى لحظة بعينها يقول :

« ان ما نسميه «الذهن» ليس الا كومة أو مجموعة من مختلف الادراكات الحسية توحدت معا بشتى الارتباطات ، ويفترض فيها - وان كان الفرض خطأ - أنها وهبت غاية البساطة والتطابق ... أما أنا فأننى حين أتغلغل فيما أسميه «نفسى» أعثر دائما على ادراك حسى معين أو آخر ، للحرارة أو البرودة ، للضوء أو الظل ، للحب أو الكره ، للألم أو اللذة . ولا أستطيع اطلاقا ان ألحظ شيئا غير الادراك الحسى . فاذا زالت عنى ادراكاتى الحسية أى فترة ، كما يحدث بالنوم العميق ، فأننى طوال هذه الفترة أكون عادم الحس « بنفسى » ، ويمكن القول حقا اننى غير موجود . واذا زالت ادراكاتى الحسية كلها بالموت ، فعجزت عن التفكير والشعور والابصار والحب والكره بعد تحليل جسمى ، فأننى أمحق محقا ، ولست أتصور ما يلزم بعد ذلك لجعلنى عدما فى عدم ... واذا ضربنا صفحا عن بعض الميثافيزيقيين .. فقد أجرؤ على التاكيد بأن باقى البشر ليسوا سوى حزمة أو مجموعة من مختلف الادراكات الحسية التى يعقب بعضها بعضا بسرعة فائقة ، والتى تتدفق تدفقا دائما ... وهذه الادراكات الحسية المتعاقبة ... تشكل الذهن (٨٤) » .

وهكذا بضربة واحدة من هذا الفتى المتهور سقطت ثلاث فلسفات : الفلسفة المادية ، لأننا (كما أثبت باركلى) لا ندرك « المادة » أبدا ، ولا نعرف غير عالمنا العقلى عالم الأفكار والمشاعر ؛ والفلسفة الروحانية ، لأننا لا ندرك أبدا « روحا » ملحقة بمشاعرنا وأفكارنا الخاصة ؛ وفلسفة الخلود ، لأنه ليس هناك « ذهن » يبقى حيا بعد الحالات الذهنية العابرة . وكان باركلى قد هدم المادية برده المادة ذهنا ، فضاعف هيوم التدمير برده الذهن أفكارا . فلا « المادة » ولا « الذهن » موجودان . لا لوم على ظرفاء العصر اذن أن « يرفضوا الفيلسوفين جميعا بهذه

العبارة « No matter, never mind » (وفيها تورية ، لايهم (لا مادة) ،
لا بأس (ولا ذهن)) .

وحرية الإرادة في هذه النظرة المدمرة مستحيلة ، فليس هناك
ذهن يختار بين الأفكار أو الاستجابات ، وتعاقب الحالات النفسية
يقرره ترتيب الأحاسيس ، وترابط الأفكار ، وتناوب الرغبات ؛ أن
« الإرادة » ليست سوى فكرة تناسب فتصبح حركة ، والهوية الشخصية
هى شعور الاستمرار حين تستحضر حالة نفسية حالات سابقة وترتبط بينها
بفكرة العلة .

ولكن العلة أيضا ليست سوى فكرة ؛ فليس قى قدرتنا أن نثبت
أنها واقع موضوعى . فإذا أدركنا أن : أ (اللهب مثلا) تعقبه بانتظام
ب (الحرارة) ، استنتجنا أن أ كانت العلة فى ب ، ولكن كل ما لاحظناه
هو تعاقب الأحداث ، لا عملية عليية ، فليس فى استطاعتنا أن نعرف أن
ب ستعقب أ دائما . « كل استدلالنا العقلية المتصلة بالسبب والنتيجة
لا مصدر لها غير العادة (٨٥) » . وليست « قوانين الطبيعة » التى
نتحدث عنها الا تعاقبات مألوفة فى تجربتنا ؛ لا روابط ثابتة وضرورية
فى الأحداث ، ولا ضمان أنها ستصدق غدا . فالعلم اذن تراكم للاحتمالات
المعرضة للتغيير دون انذار . والميتافيزيقا مستحيلة اذا زعمت أنها نسق
من الحقائق حول واقع مطلق ، لأنه لا سبيل الى معرفة « الأسباب »
الكامنة وراء النتائج ، ولا « المادة » الكامنة وراء الأحاسيس ،
ولا « الذهن » الذى يقال انه كامن وراء الأفكار . وما دما بنى ايماننا
بالله على سلسلة من الأسباب والنتائج يفترض أنها ترتد الى « محرك
أول لا يتحرك » ، فان علينا أن نتخلى عن تلك السفسطة الارسطاطالية .
ان الأشياء كلها تتدفق ، وما اليقينية الا حلم من الاحلام .

وبعد أن ينشر هيوم الدمار من حوله بسيف عقله البتار ، يتوقف
لحظة تواضع فيقول « حين أتأمل القصور الفطرى فى حكمى ، تقل
ثقتى بآرائى عنها حين أتأمل الأشياء التى أتناولها بالاستدلال (٨٦) »
فهو يعلم مثلنا أن اليقينية ليست ضرورية للحياة ، ولا للدين ، ولا حتى
للعلم ؛ وان درجة كبيرة من الاحتمال تكفى لعبور شارع او بناء

كتدرائية أو لتخليص نفوسنا . ويسلم فى تذييل للكتاب بأنه قد يكون هناك رغم ذلك نفس وراء الأفكار ، وواقع وراء الأحاسيس ، وعلاقة عليّة وراء التعاقبات المتصلة . وهو ثابت على موقفه نظريا « لم يسعدنى الحظ الى الآن بأن اكتشف أى إخطاء جسيمة فى الاستدلالات المعروضة فى المجلدين السابقين (٨٧) » . ولكنه يعترف فى لطف أنه ، غمليا ، يتخلى عن شكوكيته حالما يضع قلمه .

« لو سئلت هل أوافق مخلصا على هذه الحجة التى بذلت هذا الجهد فى اقرارها ، وهل أنا حقا واحد من هؤلاء الشكاك الذين يذهبون الى أن كل الاشياء غير يقينية ... لأجبت ... اننى لا أنا ولا أى شخص آخر دان بهذا الرأى فى أى وقت باخلاص وثبات (٨٨) ... اننى أتناول غذائى ، وألعب النرد ، وأتحدث وأسمر مع أصحابى ، فاذا عدت بعد ثلاث أو أربع ساعات من الترويح الى هذه التأملات ، بدت لى باردة مفتعلة سخيّة جدا بحيث لا أستطيع أن أجد فى صميم نفسى ما يدفعنى لمزيد من الأيغال فيها (٨٩) ... وهكذا يواصل الشاك استدلاله العقلى واعتقاده ، وإن أكد أنه لا يستطيع الدفاع عن استدلاله العقلى بالعقل ؛ وعلى هذه القاعدة نفسها يجب أن يوافق على مبدأ وجود الجسد وإن عجز عن الادعاء بأى حجج من الفلسفة بأنه أثبت صحته (٩٠) » .

وأخيرا يتنكر هيوم للجدل العقلى باعتباره هاديا للحياة ويضع ثقته فى الايمان الحيوانى ، فى الاعتقاد القائم على العرف بأن الواقع عقلانى تتخلله العلية . وحين يؤكّد هيوم أن « الاعتقاد هو على الاصح فعل من أفعال الجانب الحساس لا الجانب العارف من طبائعنا (٩١) » فانه — وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره — يلتقى بجان جاك روسو ، ذى الستة والعشرين ، فى الشباب والنظرية ، كما قدر له أن يلتقى به بعد ذلك فى الصداقة والمأساة . ولم يقتصر أبرع المجادلين العقليين فى عصر العقل على اتهام المبدأ العلى للعقل ، بل انه فتح بابا لرد الفعل الرومانسي الذى سينزل العقل عن عرشه ويجعل من الوجدان الها له .

و « الكتاب » والمجلد الثانى من « الرسالة » يواصل انزال العقل

عن عرشه . فنرى هيوم يرفض محاولات الفلاسفة بناء مبدأ أخلاقى على تحكم العقل فى العاطفة . وهو يعنى بكلمة العاطفة الرغبة الوجدانية . « لكى أثبت مغالطة هذه الفلسفة بأكملها ، سأحاول أن أثبت أولاً أن العقل وحده لا يمكن أن يكون دافعا لآى فعل من أفعال الارادة ؛ ثانيا أنه لا يستطيع اطلاقا معارضة العاطفة فى اتجاه (ضد قوة) الارادة (٩٢) » . « فلا شيء يستطيع مقاومة أو تعطيل دافع العاطفة الا عاطفة مضادة » (أهذا صدق لسبينوزا ؟) . ويضيف هيوم امعانا منه فى ترويع المتشبهين بالقديم « أن العقل عبد ، وينبغى أن يكون عبدا ، للعواطف (الأداة المنيرة والمنسقة للرغبات) ولا يمكن أن يزعم لنفسه أى وظيفة أخرى سوى خدمتها وطاعتها (٩٣) » .

ثم يمضي الى تحليل دقيق للعواطف - وأهمها الحب ، والكراهة ، والعطف ، والغضب ، والطمع ، والحسد ، والكبرياء . « أن العلاقة التى تحدث فى الكثير الغالب عاطفة الكبرياء هى علاقة الملكية (٩٤) » . وكل العواطف تقوم على اللذة والألم ، وتمييزاتنا الاخلاقية تنبع فى النهاية من هذا المنبع الخفى ذاته « اننا نميل الى اطلاق اسم الفضيلة على أى صفة فى الآخرين تعطينا اللذة لأنها تعين على نفعنا ، وعلى اطلاق اسم الرذيلة على أى صفة بشرية تعطينا الألم (٩٥) » . وحتى مفاهيم الجمال والقبح مشتقة من اللذة والألم . يقول :

« لو تأملنا جميع الفروض التى وضعت ... لتفسير الفرق بين الجمال والقبح ، لوجدناها كلها تنحل الى هذا ، وهو أن الجمال نظام وتركيب للأجزاء ، مهيا لاعطاء اللذة والرضى للنفس ، اما بسبب التكوين الفطرى لطبائعنا (كما نرى فى جمال الجسم البشرى) أو بسبب العرف (كما نرى فى الاعجاب بنحافة القوام فى النساء) أو بسبب النزوة العارضة (كما نرى فى اصفاء الكمال على أوهام الرغبة المعاقة) ... فاللذة والألم اذن ليسا مرافقين ضروريين فحسب للجمال والقبح ، ولكنهما يكونان جوهرهما ذاته ، ... وما الجمال الا شكل يحدث اللذة ، كما أن القبح بناء للأجزاء يحدث الألم (٩٦) » .

والحب بين الجنسين يتركب من هذا الاحساس بالجمال ، مضافا اليه « الرغبة الجسمية فى التناسل ورقة ومودة سمحتان (٩٧) » .

وفى مارس ١٧٣٩ عاد هبوم الى ادنبره . وراح يقلب الدوريات فى لهفة بحثا عن نقد لمجلديه ، وعانى من نتائج تقلبيها . قال « لم تلق محاولة أدبية قط حظا أعثر مما لقيت « رسالتى فى الطبيعة البشرية » فلقد ولدت ميتة من المطبعة ، ولم نحظ حتى باثارة دمدمة سخط بين المتعصبين (٩٨) » ولكنه حين كتب هذا فى شيخوخته كان قد نسي ، ربما بسبب الرغبة فى نسيان الذكريات الكريهة ، أن عدة مقالات نقدية ظهرت خلال سنة بعد نشر كتابه . وقد شكت كلها تقريبا من أنه عسير الفهم ، وأن المؤلف سمح لشبابه بالاعلان عن ذاته بتكرار الاشارة الى نفسه والى الجودة الخطيرة التى تنطوى عليها أفكاره . قال باقد نموذجى من أعدائه : « ان ما يؤذى القارئ أشد الأذى هو تلك الثقة التى يسوق بها مفارقاته . . فما عهدنا شاكا أشد من هذا قطعا بأرائه . . . وأمثال لوك وكلارك ليسوا فى الغالب فى نظره سوى مجادلين تافهين سطحيين بالقياس اليه (٩٩) » .

وأعد هبوم للمطبعة ، فى عزيمه صادقة رغم حزنه ، المجلد الثالث من رسالته ، المحتوى على الكتاب الثالث « فى الاخلاق » . وقد ظهر فى ٥ نوفمبر ١٧٤٠ . وساء تحليله للفضيلة العقلانيين بقدر ما ساء اللاهوتيين . فهو يزعم أن قواعد الفضيلة ليست الهامات خارقة ، ولكنها أيضا ليست استنتاجات خلص اليها العقل ، وذلك - كما يكرر هبوم القول « لأن العقل ليس له تأثير على عواطفنا أو أفعالنا (١٠٠) » . وحسنا الخلقى ليس مصدره السماء بل التعاطف - شعور الزمالة مع اخواننا من البشر ، وهذا الشعور جزء من الغريزة الاجتماعية التى بها نلتمس الارتباط بالغير لخشيتنا من العزلة . « ان أول حالة وموقف للانسان يمكن أن يوصفا بحق بأنهما اجتماعيان » ؛ و « الحالة الطبيعية » التى عاش فيها الناس دون تنظيم اجتماعى « يجب اعتبارها حديث خرافة (١٠١) » ، فالمجتمع قديم قدم الانسان . واذ كان الناس أعضاء فى جماعة ، فانهم سرعان ما تعلموا أن يمتدحوا التصرفات

١٤ - قصة الحضارة

النافعة للجماعة ، ويزموا الضارة بها . ثم ان مبدأ التعاطف جعلهم يميلون الى تقبل أو محاكاة الآراء التي سمعوها من حولهم ؛ وبهذه الطريقة اكتسبوا معايير وعادات الثناء واللولم ، وطبقوا هذه الأحكام بوعى أو بلا وعى على سلوكهم . هذا فى ١٠ أى هيوم أصل الضمير ، لا صوت الله (كما سيتصور روسو وكانط) . ويقول هيوم ان قانون التعاطف هذا ، قانون التجاذب الجماعى ، هو عام ومنير فى العالم الأخلاقى شأن قانون الجاذبية فى الكون المادى ، ثم يختتم بهذه العبارة « وهكذا يحدونى على الجملة الأمل بأنه لا ينقصنا شيء للبرهان الصحيح على هذا النسق من الأخلاق (١٠٢) » .

وكان المجلد الثالث أقل لفنا للأنظار حتى من المجلدين السابقين . وظلت بقايا النسخ الالف والمائة ، وهى مجموع نسخ الطبعة الأولى للرسالة ، الى سنة ١٧٥٦ ، مكدسة على رفوف الناشر ، ولم يعثر هيوم ليرى طبعة ثانية من كتابه .

ج - الأخلاق والمعجزات

كان واضحا أنه لا يستطيع كسب قوته بقلمه . وفى ١٧٤٤ بذل محاولة فاشلة للوصول الى كرسي الأستاذية بجامعة أدنبره . ولا شك أنه قبل فى شيء من الاحساس بالهوان (أبريل ١٧٤٥) وظيفة معلم خاص لمركز أنانديل الصغير لقاء راتب قدره ٣٠٠ جنيه فى العام . أما المركز فقد اختلط عقله ، وتبين هيوم أنهم يتوقعون منه أن يكون حارسا لجنون ؛ ونشبت المشاجرات ، فطرد (أبريل ١٧٤٦) واضطر الى رفع دعوى مطالبا براتبه . ثم اشتغل سنة (١٧٤٦ - ٤٧) سكرتيرا للجنرال جيمس سانت كلير ، وكان يتقاضى راتبا طيبا ، ويتناول طعاما طيبا . وفى يوليو ١٧٤٧ عاد هيوم الى أدنبره وهو يملك ويزن من الجنيهات أكثر كثيرا منه حين غادرها . وفى ١٧٤٨ أعاد الجنرال استخدام سكرتيرا وياورا . هى بعثة الى تورين ، واكنسي ديفد الآن سترة قرمزية متوهجة .

وأعجب جيمس كولفيلد (إيرل تشارلمونت فيما بعد) وكان بومها طالبا بتورين ، بذكاء هيوم وخلقه ، ولكن أفزعته سمته . قال :

« ان سحنته حيرت علم الفراسة وأعيت قدراته ... فى الكشف عن أقل أثر لمواهبه العقلية فى ملامح وجهه النى تخلو من المعنى . كان وجهه عريضا سمينا ، وفمه واسعا ، بغير أى تعبير غير تعبير البلاهة ... وكانت بدانة جسمه كله أجدر بأن توحى للناظر بفكرة العمدة أكل الترسه ، لا الفيلسوف المذهب (١٠٣) » .

ويدعى كولفيلد هذا أنه رأى هيوم (وهو فى السابعة والثلاثين) جاثيا على ركبتيه أمام كونتبسة منزوجة (فى الرابعة والعشرين) ، يبثها غرامه ويعانى عذاب الحب المحتقر ؛ أما السيدة فرفضت أن تبادله هذا الغرام قائلة انه ليس الا « عملية طبيعية فى نسقك الفلسفى » . ويقول المصدر نفسه أن هيوم أصيب بالحمى وحاول الانتحار لولا أن منعه الخدم ، ويروى اسكتلندى آخر أن هيوم « تناول القربان الأخير » أثناء مرضه على يد كاهن كاثوليكي . وقيل ان هيوم اعتذر عن مطارحة الغرام وعن تناول القربان الأخير قائلا « ان نظام دماغى كان مختلا ، وكنت مجنونا كاي نزيل لمستشفى المجاذيب (١٠٤) » وفى ديسمبر ١٧٤٨ عاد الى لندن وفرغ للفلسفة بعد أن بلغت ثروته ألف جنيه .

واعتزم أن يجد أدنا مصغية من جديد لأفكار « الرسالة » ، فنشر فى ١٧٤٨ « تحقيقا عن الفهم البشرى » ، وفى ١٧٥١ « تحقيقا عن مبادئ الأخلاق » . وفى « اعلان » قدم به لطبعه لهذين التحقيقين صدرت بعد وفاته (١٧٧٣) تنكر للرسالة باعتبارها « عملا صبيانيا » ورجا أن « تعتبر المقالات التالية وحدها هى المحتوية على آرائه ومبادئه الفلسفية (١٠٥) » . أما تلاميذ هيوم فقد وجدوا عموما فى أعمال هيوم الأولى من الدسم أكثر مما وجدوا فى أعماله الأخيرة ، فهذه تغطى الأرض نفسها ربما بأسلوب أقل عدوانا وقطعا ، ولكنها تخلص الى النتائج ذاتها .

ويعد أن أعاد هيوم تحليله الشكى للعقل قدم القسم العاشر من التحقيق الأول ، وهو مقاله « فى المعجزات » الذى رفض الناشر من قبل أن يطبعه ضمن الرسالة . واستهله باعتداد العادى بنشه ، « انى أغبط نفسي على أننى عثرت على حجة . . . اذا صدقت كانت للعقلاء والمثقفين رادعا دائما لكل ضروب الوهم الخرافى وستكون اذن نافعة أبد الدهر » . ثم يطلق أشهر فقراته فيقول :

« ما من شهادة تكفى لاثبات معجزة ، الا اذا كانت الشهادة من نوع يكون فيه كذبها أكثر اعجازا من الواقعة التى تحاول اثباتها . . . فاذا أنبأنى انسان بأنه رأى ميتا يبعث ، سألت نفسي للتو أيهما أكثر احتمالا ، أن يكون هذا الشخص خادعا و مخدوعا ، أو أن الواقعة التى يرويها وقعت فعلا . فوازن بين المعجزتين ، وطبقا لرجحان احدهما . . . أرفض المعجزة الأكبر . ولن تجد فى التاريخ كله معجزة شهد عليها عدد كا فمن الناس ، أوتوا من صادق الادراك والتعليم والثقافة ما يؤمننا من أى انخداع قد ينخدعون به ، ومن النزاهة التى لا ريب فيها ما يرفعهم فوق أى شبهات من أى قصد فى خديعة غيرهم ، ومن الثقة وحسن السمعة فى أعين البشر ما يجعلهم يخسرون الكثير اذا ضبطوا متلبسين بأى كذبة ؛ ويشهدون فى الوقت نفسه على وقائع وقعت علانية ، وفى جزء مشهور من العالم ، مما يجعل الضبط أمرا لا يمكن تجنبيه ؛ وهذه الظروف كلها لازمة لاعطائنا الثقة الكاملة فى شهادة البشر . .

« ان القانون الذى نهتدى به عادة فى استدلالنا العقلية هو أن الأشياء التى لا خبرة لنا بها تشبه تلك التى لنا بها خبرة ؛ وأن ما وجدناه أكثر الأشياء عادية هو دائما أكثرها احتمالا ؛ وانه حيث يكون هناك تعارض فى الحجج ينبغى لنا أن نفضل تلك القائمة على أكبر عدد من الملاحظات الماضية . . . وانها لقريئة قوية ضد جميع العلاقات الخارقة والاعجازية ما يلاحظ من أنها تكثر على الأخص بين الأمم الجاهلة

والهمجية ، ... ومن الغريب أن مثل هذه العجائب لا تحدث أبداً في إيماننا . ولكن لا غرابة ... في أن يكذب الناس في جميع العصور (١٠٦) » .

واسترسل هيوم في ادعاء عقبات أخرى في طريق الإيمان المسيحي: حياد الطبيعة الهادئة أزاء الإنسان ومناقضه على الأرض ؛ وتنوع الشرور المتكاثر في الحياة والتاريخ ؛ ومسئولية الله الواضحة عن خطيئة آدم ، وعن جميع الخطايا ، في عالم لا يمكن أن يقع فيه شيء - طبقاً للفرض المسيحي - إلا برضى الله . ودرءاً لتهمة الكفر عنه ، أجرى هيوم على لسان «صديق يحب المفارقات الشكية» «لا أستطيع أبداً الموافقة» على مبادئه ، دفاعاً عن تخيل أببيقور أن الآلهة موجودة ولكنها لا تعباً بالبشر . ويتساءل الصديق لم لا يمكن أن يتفق الدين والفلسفة على ألا يزعج أحدهما الآخر كما اتفقا - فيما يظن - في الحضارة الهلنستية :

« بعد أن انتهى الفزع الأول الذي نجم عن مفارقات ومبادئ الفلاسفة الجديدة ، يبدو أن هؤلاء المعلمين عاشوا طوال العصور القديمة في انسجام عظيم مع الخرافة المقررة ، وقسموا البشر قسمة عادلة بينهما : فالقسم الأول يدعى لنفسه جميع العلماء والحكماء ، والثاني جميع السوقة والأميين (١٠٧) » .

فياله من أسلوب للمهادنة !

وفي ١٧٤٩ عاد هيوم إلى اسكتلندة ليعيش مع أخيه وأخته في ضيعتهما بنيانويلز . وبعد علمين تزوج جون هيوم ، وانتقل ديفد إلى أدنبره ، وأرسل إلى المطبعة الآن : التحقيق في مبادئ الأخلاق » الذي أمل أن يحل محل المجلد الثالث من الرسالة ، وأكد من جديد أن الحس الأخلاقي مشتق من التعاطف أو المشاعر الاجتماعية ؛ ورفض ما ذهب إليه سقراط من أن الفضيلة والذكاء شيء واحد ؛ واستنكر استنكاراً قاطعاً فكرة لارشفوكو القائلة بأن الأفعال « الغيرية » مدفوعة أنانياً بأمل اللذة الحاصلة من التقدير الاجتماعي الذي يتوقع أن تحظى به . فاللذة

التي نستشعرها فى مثل هذه الأفعال ، فى رأى هيوم ، ليست سببا لها بل مرافقا ونتيجة لها ؛ أما الأفعال ذاتها فهى عملية من عمليات غرائزنا الاجتماعية (١٠٨) .

ولكن أبرز ملامح هذا التحقيق الثانى هو تفصيله لمبدأ منفعة أخلاقى . فبعد هتشن بثلاثة وعشرين عاما ، وقبل بتمام ثمانين سنة وثلانين ، عرف هيوم الفضيلة بأنها « كل صفة فى العقل نافعة أو لذبة للسخص نفسه أو لغيره (١٠٩) » . وعلى هذا الأساس برر اللذات الصحية للحياة باعتبارها نافعة للفرد ، والمعيار المزدوج للفضيلة باعتباره نافعا للمجتمع . يقول :

« ان طفولة الانسان الطويلة العاجزة تقتضى تضافر الوالدين للابفاء على حياة صغارهما ، وهذا التضافر يحتاج الى فضيلة العفة أو الوفاء للفراس الزوجى .. والخيانة من هذا النوع أشد أذى فى المرأة منها فى الرجل . ومن ثم كانت قوانين العفة أشد صرامة على أحد الجنسين منها على الآخر (١١٠) » .

وقد كتب المؤلف المفتون بكتابه عن هذا التحقيق فى مبادئ الأخلاق يقول : « فى رأى (أنا الذى ينبغى ألا أكون حكما فى هذا الموضوع) أنه من بين جميع مؤلفاتى أفضلها بما لا يقاس » وأضاف « لقد ولد غير ملحوظ ولا مرموق فى هذه الدنيا (١١١) » .

د - الداروينية وبيولوجية

وفى ١٧٥١ ألف « حوارات فى الدين الطبيعى » . وهو أشد ما أخرج مزاجه الشيطانى تخريبا وعدوانا على المقدسات . هنا يتحدث ثلاثة أشخاص ، ديميا الذى يدافع عن السنية ، وكليانثيس الربوبى ، وفيلو الذى هو هيوم لا يخطئه النظر . وبزعم ديميا أنه ما لم نفترض وجود عقل أعلى وراء ظواهر الطبيعة فان العالم يصبح غير مفهوم الى

حد لا يطاق ، ولكنه يسلم ن الله غير مفهوم بتاتا للعقل البشرى (١١٢) .
ويلوم كلياتيس ديميا على محاولته تفسير غير المفهوم بغير المفهوم ،
ويؤثر أن يثبت وجود الله بأدلة القصد فى الطبيعة . أما فيلو فيسخر
من الحجتين ، ويزعم أن العقل لا يمكن أبدا أن يفسر العالم أو يثبت
وجود الله . « فأى امتياز خاص تمتاز به حركة الدماغ الصغيرة هذه
التي نسميها الفكر ، حتى يتحتم علينا أن نجعلها نموذجا للكون
كله ؟ (١١٣) » . وأما عن القصد ، فان تكييف الأعضاء لتلائم الأغراض
ربما لم ينشأ عن إرشاد الهى ، بل عن تجارب الطبيعة ، البطيئة
المتخبطة ، خلال آلاف السنين (١١٤) . (هنا نجد « الانتخاب
الطبيعى » بعد ١٨٠٠ سنة من لوكريتيوس ، وقبل ١٠٨ سنة من
داروين) . وحتى لو سلمنا بالقصد فوق الطبيعى ، فان قصور
التكيفات وعيوبها ، وآلاف الآلام فى دنيا الانسان والحيوان ، تكشف
لنا - على أحسن الفروض - عن إله محدود القدرات والذكاء ، أو إله
غير مكترث للبشر بتاتا . « فحياة الانسان فى النهاية ليست أعظم
أهمية للكون عن حياة المحارة (١١٥) » يقول :

« يخيّل للمرء أن هذا الانتاج الفخم لم يتلق آخر اللمسات من
خالقه ، فكل جزء فيه ناقص الصقل جدا ، والخطوط التى نفذ بها
غاية فى الخشونة . فالرياح مثلا تساعد الناس على الملاحة ، ولكن
ما أكثر ما تصبح مؤذية حين تنقلب زوابع وأعاصير ! والأمطار ضرورية
لتغذية جميع نباتات الأرض وحيواناتها ، ولكن ما أكثر ما تكون شحيحة
وما أكثر ما تكون مسرفة ! . . . ليس فى الكون شيء كثير النفع الا انقلب
المرّة بعد المرّة مؤذيا لافراطه أو قصوره ، ثم أن الطبيعة لم تتخذ حيلتها
بالدقة المطلوبة من جميع ألوان الخلل أو الفوضى (١١٦) » .

وأسوأ من هذا أن الأمر لا يقتصر على وجود الخلل وسط النظام
(اذا نظرنا الى العالم على أنه مخطط) ، بل ان فى وسط الحياة
الزائفة صراعا عقيما على الدوام مع الموت .

« ان حربا لا يخمد لها أوار تستعر بين جميع الكائنات الحية .
غالضرورة ، والجوع ، والعوز - تحفز الأقوياء والشجعان ، والخوف ،
والقلق ، والرعب ، تقلق الضعفاء والعاجزين . وأول مدخل للوليد الى
الحياة فيه ألم مبرح له ولأمه المسكينة ، والضعف والعجز والضيق رفقاء
كل مرحلة من مراحل تلك الحباة ، ثم يختم آخر الامر بالعذاب والرعب
.. لاحظ أيضا .. حيل الطبيعة العجيبة ، لتكدر حياة كل كائن حى
.. .. تأمل ذلك الجيش العرمرم من الحشرات التى تتربى على جسم
كل حيوان ، أو تغرز حمتها فيه وهى تطير من حوله ... فكل حيوان
يصدق به أعداء يسعون على الدوام الى اشقائه وتدميره .. والانسان
ألد خصوم الانسان . فالقهر ، والظلم ، والاحتقار والاهانة ، والعنف ،
والاغواء ، والحرب ، والافتراء ، والغدر ، والتزييف ؛ بهذه يعذب
الناس بعضهم بعضا (١١٧) .

« انظر الى هذا الكون نظرة محيطية . يا لها من وفرة هائلة فى
الكائنات ، الحية المنظمة ، الحساسة النشيطة ! انك لتعجب بهذا التنوع
الضخم وهذه الخصوبة الهائلة . ولكن افحص بتدقيق أكثر هذه الكائنات
الحية ... ما أشد عداءها وتدميرها بعضها لبعض ! .. والكل لا يمثل
سوى فكرة الطبيعة العمياء ، التى تزخر بمبدأ محى عظيم ، ويتدفق من
حجرها دون تمييز أو رعاية أبوية أطفالها الشائهن المجهضون (١١٨) » .

وتوحى الأدلة المتضاربة على الخير والشر فى العالم الى فيلو
بثنائية الآلهة المتنافسين أو تعددهم ، بعضهم « أخيار » وبعضهم
« أشرار » ، وربما كانوا مختلفى الجنس . وهو يلمع فى خبث الى أن
العالم :

« لم يكن سوى المحاولة الفجة الأولى لآله طفل ألقع عنها بعد ذلك
خجلا من انجازه الاعرج .. أو أنه نتاج الشيخوخة والخرف فى آله طتن
فى السن ، وبعد موته واصل العالم مسيرته مغامرا ، مدفوعا بالدفعة
والقوة الفعالة الأولى التى تلقاها منه (١١٩) » .

ولعل العالم كما أكد البراهمة « نشأ عن عنكبوت لا نهائى غزل
خيوطه المعقدة كلها من امعائه ٠٠٠ فلم لا يغزل نسق منظم من البطن
كما يغزل من الدماغ ؟ (١٢٠) » . فتكون الخليقة والحالة هذه انسالا .
أو ربما « كان العالم حيوانا والاله روح العالم التى تحركه
وتتحرك به (١٢١) » .

وبعد هذا المزاج كله يعود فيلو الى القصد ، فيسلم بأن « علة النظام
أو علله فى الكون فيها على الأرجح بعض الشبه بالذكاء الانسانى (١٢٢) » .
ثم يعتذر عن آرائه المخزية عن الكون :

« يجب أن أعترف اننى أقل حذرا فى موضوع الدين الطبيعى
منى فى أى موضوع آخر ٠٠٠ وأنك على الأخص يا كليانثيس ، أنت
الذى أعيش معه فى علاقة حميمة بغير قيود ، تدرك أننى رغم تحرر
حديثى ، وحبى للحجج الغريبة ، فليس هناك من طبع ذهنه بأحاساس
بالدين أعمق من احساسى ، أو من بعبد الكائن الالهى عبادة أعمق اذ
يكتشف فى نفسه أنه يناقش أساليب الطبيبة وحيلها التى لا يمكن
تفسيرها . فالقصد ، أو النية ، أو التخطيط ، يسترعى فى كل مكان
نظر أشد المفكرين غفلة وغباء ، وما من رجل يمكن أن يتجمد فى المذاهب
الفلسفية السخيفة تجمدا يجعله يرفض هذا القصد على طول
الخط (١٢٣) » .

على أن أصحاب هيوم ناشدوه ألا ينشر الحوارات رغم هذا العرض
بالمصالحة . فاذعن ، وحبس المخطوطة فى مكتبه ، فلم تر النور الا فى
عام ١٧٧٩ ، بعد موته بثلاثة سنوات . ولكن افتتانه بالدين أغراه بالعودة
الى الموضوع ، وفى ١٧٥٧ نشر « أربع مقالات » تناولت احداها « تاريخا
طبيعيا للدين » . وسحب مقالين آخرين بناء على الحاج ناشره ، وقد
طبعا حين كان أبعد من أن يناله خوف أو لوم ؛ وأحد المقالين عن
الخلود ، والآخر تبرير للانتحار حين يصبح الشخص عبئا على
اخوانه .

ومقال « التاريخ الطبيعى للدين » هذا يجمع بين اهتمام هـيوم القديم بالدين ، واهتمامه الجديد بالتاريخ . فقد فات مرحلة الهجوم على. المعتقدات القديمة الى مرحلة التساؤل عن كيفية توصل الانسان الى اعتناقها . ولكنه لا يميل الى البحث الصابر المستأنى ، حتى بين المواد الشحيحة المتاحة آنئذ عن الأصول الاجتماعية ، بل يؤثر أن يتناول المشكلة بتحليل السيكلوجى والاستنباط العقلى . فعقل الانسان البدائى فسر العلية كلها قياسا على ارادته وسلوكه ، فوراء أعمال الطبيعة وأشكالها - كالانهار والمحيطات والجبـال والعواصف والأوبئة والعجائب الخ - تصور هذا الانسان أعمالا ارادية يقوم بها أشخاص مختلفون ذوو قدرة خارقة ؛ ومن هنا كان الشرك أول ضروب الايمان الدينى . واذ كانت قوى أو أحداث كثيرة مؤذية للانسان ، فقد كان للخوف نصيب موفـور فى أساطيره وعباداته ، فجسد هذه القوى الشريرة أو الشياطين وحاول أن يسـنـرضيها . ولعل الاله الذى آمن به كلفن كان شيطانا قاسيا ، خبيثا ، مستبدا ، صعب الارضاء (وهذه اشارة خبيثة من هـيوم (١٢٤) . واذ تصور الانسان الالهة الخيرة على شكل البشر - الا من حيث القوة والدوام ، فانه افترض أنها تمنح العون والراحة لقاء الهدايا والزلفى ، ومن ثم كانت طقوس القرايين ، والضحايا ، والعبادة ، وصلاة التضـرع . ويزداد التنظيم الاجتماعى حجما واتساعا ، ويخضوع الحكام المحليين للملوك أعظم ، مرت دنيا اللاهوت بتغيير مشابه ، فعزا الانسان فى الخيال الى الالهة نظاما هرميا تسوده الطاعة ، وانبعث التوحيد من الشرك ، وبينما كانت الجماهير لا تزال تجثو للالهة أو القديسين المحليين ، عبد المثقفون زيوس ، أو جوبتر ، أو الله .

ولسوء الحظ أصبح الدين أكثر تعصبا كلما غدا أكثر توحيدا . فالشرك سمح باللون كثيرة من العقيدة الدينية ، أما التوحيد فقد طالب بالتماثل . وانتشر الاضطهاد ، وغدت الصيحة المطالبة بالعقيدة السنية « أعذف العواطف الانسانية وأعتاها جميعا (١٢٥) » . واکرـهت الفلسفة على أن تكون خادما لايمان الجماهير ومدافعا عنه بعد أن كانت مطلقة

نسبياً بين القدامى باعتبارها دين الصفة . وفى هذه العفائد التوحيدية - اليهودية والمسيحية والاسلام - فصل الاستحقاق و « الخلاص » أكثر فأكثر عن الفضيلة ، وربط بحفظ الشعائر والايمان الاعمى . وترنب على هذا ان المتعلمين أصبحوا اما شهداء واما منافقين ، وبما أنهم قلماً اخناروا الاستشهاد ، فان حباة البئر لونها النفاق وعدم الاخلاص .

على أن هيوم كان يغضى عن قدر من النفاق ، وذلك فى نوباته الأقل ولعا بالقنال . مثال ذلك أنهجن استتاره فسيس شاب فقد ايمانه ايبقى فى الكنيسة ويقبل وظائفها ، أجاب دبغد ، ابق :

« ان الوظائف المدنية الصالحة للمثقفين نادرة . . . ومن المغالاة فى احترام العامة ونزعاتهم الخرافية ان يعتز المرء باخلاصه معهم . فهل حدث مرة أن التزم انسان بشرفه بأن يقول الصدق للأطفال أو المجانين ؟ . . . والوظيفة الكنسية انما تضيف القليل الى الخداع أو قل انطأهر - البرىء - الذى بدونه يستحيل على المرء أن يشق طريقه فى هذه الدنيا (١٢٦) » .

ه - الشيوعية والديمقراطية

اتجه هيوم فى أخريات عمره أكثر فأكثر الى السياسة والتاريخ بعد أن أعياه الجدل حول مسائل يقرررها الوجدان - فى رأيه - أكثر مما يقرررها العقل . ففى ١٧٥٢ نشر « أحاديث سياسية » . وقد أدهشه اقبال القراء عليها . وأبهج انجلترة أن تنسى نزعة لاهوته المدمرة فى النزعة المحافظة لسياسته .

كان يتعاطف بعض الشيء مع التطلعات الى مساواة شيوعية :

« لا بد فى الحق من الاعتراف بأن الطبيعة سخت على الانسان سخاء يتيح لكل فرد أن يتمتع بجميع ضروريات الحياة ، بل أكثر كمالياتها ، لو أن عطباها كلها قسمت بالقسط بين الانواع ، وحسنت

بالفن والصناعة ، . . كذلك لا بد من الاعتراف بأننا أينما خرجنا على هذه المساواة سلبنا من الفقراء رضى أكثر مما نضيف الى الاغنياء ، وبأن الاشباع الطفيف لغرور طائش فى فرد واحد ، كثيرا ما كلف أكثر مما يكلفه الخبز لكثير من الأسر بل الاقاليم . »

ولكنه أحس أن الطبيعة البشرية تجعل حلم المدينة الفاضلة التى تسودها المساواة ضربا من المحال :

« ان المؤرخين ينبئوننا ، لا بل الفطرة السليمة تنبئنا ، بأن هذه الأفكار عن المساواة « التامة » مهما بدت قيمة الا أنها فى صميمها « غير ممكنة عمليا » ، والا للاحقت أشد الأذى بالمجتمع الانسانى . فلو انك سويت تسوية تامة بين الملكيات ، لحطمت درجات الناس ومراتبهم المختلفة من حيث الصنعة والعناية والجد تلك المساواة فورا . أو لو فرضت الرقابة على هذه الفضائل . . . لاحتجت الى أكثر محاكم التفتيش صرامة لمراقبة أى ضرب من عدم مساواة بمجرد ظهوره ، وأشد السلطات القضائية صرامة لعقابه واصلاحه . . . فمثل هذا السلطان المفرط لا بد أن ينحدر سريعا الى درك الطغيان (١٢٧) » .

ونالت الديمقراطية من هيوم ، كما نالت الشيوعية ، رفضه المتعاطف . فالمبدأ فى رأيه « مبدأ . . . نبيل فى ذاته . . ولكن تكذبه كل التجارب ، أن الناس هم الأصل فى كل ضرروب الحكم العادل (١٢٨) » . ورفض النظرية (التى سيحييها روسو بعد قليل) القائلة بأن الحكومة نشأت أصلا من « تعاقد اجتماعى » بين الناس ، أو بين الشعب والحاكم ، لأنها نظرية صبيائية :

« فكل الحكومات الموجودة الآن تقريبا ، أو التى خلفت لنا أى سجل فى التاريخ ، أسست أصلا إما على الاغتصاب ، أو على الغزو ، أو عليهما جميعا ، دون أن تزعم بأنها حظيت بموافقة الشعب ، أو

بخضوعه الاختيارى . وأغلب الظن أن أول سيطرة الانسان على الجماهير بدأت فى حالة الحرب . . . وكان من أثر استمرار تلك الحالة طويلا . . . وهو أمر مألوف لدى القبائل المتوحشة ، أن الشعب تعود الخضوع (١٢٩) » .

وهكذا أصبحت الملكية أكثر أشكال الحكم انتشارا ، ودواما ، واذن فأكثرها عملية على الأرجح . « ان الامير الوراثى ، والنبلاء دون أتباعهم ، والشعب الذى يصوت بواسطة ممثليه ، يؤلفون خير ملكية ، وارشقراطية ، وديمقراطية (١٣٠) » .

وبالاضافة الى تفنيد هيوم لروسو سلفا ، استخدم أسلوبه « الاديسونى » لينبذ سلفا نظرية مونتسكيو التى تزعم أن مناخ البلد بقرر طبع أهله . كتب يقول فى « مقالات أخلاقية وسياسية » ظهرت طبعتها الثانية فى آن واحد تقريبا (١٧٤٨) مع « روح القوانين » : « اما عن الاسباب الطبيعية فانى أميل الى الشك فى مفعولها فى هذا المجال . كذلك لا أظن أن الناس يدينون بأى شيء فى طبعهم أو نبوغهم للهواء أو الغذاء أو المناخ (١٣١) » . فالخلق القومى يترتب على الحدود القومية لا المناطق المناخية ، وأهم ما يقرره هو القوانين والحكومة وهيكل المجتمع وأعمال السكان ومحاكاة الجيران أو الرؤساء .

فى ظل هذه العوامل المختلفة المحلية تكون الطبيعة البشرية أساسا طبيعة واحدة فى كل زمان ومكان ؛ فالدوافع والغرائز ذاتها ، التى تفرضها دواعى البقاء ، تنتج أساسا ، فى جميع العصور والأقطار ، الأفعال والنتائج ذاتها .

« فالطموح والجشع ومحبة الذات والغرور والصحافة والكرم وروح الجماعة - هذه العواطف ، المختلطة بدرجات متفاوتة ، والموزعة بين أفراد المجتمع ، كانت منذ أن وجدت الدنيا وما زالت مصدر جميع

الأفعال والمشروعات التى لوحظت بين بنى البشر . أتريد أن تعرف عواطف اليونان والرومان وميولهم وسير حياتهم ؟ اذن فادرس جيدا طبائع الفرنسيين والانجليز وأفعالهم ، فلن تخطئ كثيرا أن طبقت على الأولين معظم الملاحظات التى لاحظتها على الآخرين - فالبشر شديدو التشابه فى كل زمان ومكان حتى ان التاريخ لا يضيف الى علمنا جديدا أو غريبا فى هذا الباب . وأهم فائدة له انه يكشف عن المبادئ الثابتة والعامّة للطبيعة البشرية بعرضه البشر فى شتى الظروف والمواقف ، ويمدنا بالمواد التى نكون منها ملاحظتنا ونحيط منها علما بالمناخ المنظمة لأفعال البشر وسلوكهم . فهذه السجلات للحروب والدسائس والأحزاب والثورات هى مجموعات كثيرة من التجارب يستعين بها فيلسوف السياسة أو الأخلاق على تحديد مبادئ علمه (١٣٢) » .

وفد أضاف حيوم اضافات قيمة للفكر الاقتصادى فى كتابيه « أحاديث سياسية » و « مقالات ورسائل فى موضوعات مختلفة » (١٧٥٣) . ذلك أنه رفض رأى الفيزيوقراطيين الفرنسيين القائل بأن جميع الضرائب تقع فى النهاية على الارض . وذهب الى أنها تقع فى النهاية على العمل ، لأن « كل شيء فى العالم يشتري بالعمل (١٣٣) » (وهو هنا مررد صدق لوك) . وحتى قبل أن تتشكل الثورة الصناعية تنبأ بأن العمال « سيرفعون أجورهم بالتكتل » ، وندد بتمويل المصروفات والمشروعات الحكومية بالضرائب المرتفعة والاصدارات المتكررة للسندات ، وتنبأ بأن مثل هذه الاجراءات الضريبية ستجر « الحكومات الحرة » الى « حالة العبودية التى ترزخ تحتها جميع الامم المحيطة بنا » (١٣٤) . والنقود ليست هى الثروة ، وسك مقادير تزيد على متطلبات التجارة منها انما يرفع الاسعار ويعرقل التجارة الخارجية . والنظرية « المركنتلية » الخاطئة التى ما زالت تحمل الدول الأوروبية على التركيز على الصادرات ، ومنع الواردات ، وتجميع

الذهب ، ستحرم أوروبا من المنافع الدولية الناشئة عن قدرة كل أمة على إنتاج سلع نوعية بفضل التربة والمناخ والمهارات الخاصة بأدنى تكلفة وأعلى جودة . ثم جرؤ على أن يصلى :

« لا بوصفى انسانا فحسب، بل أحد الرعايا البريطانيين ، . . لأجل التجارة المزدهرة لألمانيا ، وأسبانيا ، وإيطاليا ، بل وفرنسا ذاتها. وأنى على الأقل واثق أن بريطانيا العظمى وهذه الأمم جميعا سيزيد ازدهارها لو أن ملوكها ووزراءها اعتنقوا هذه الآراء السمحة الخيرة نحو بعضهم البعض . . . فازدياد الثروة والتجارة فى أى أمة لا يؤذى وإنما على العكس من ذلك يدعم عادة ثروة وتجارة جيرانها جميعا (١٣٥) » .

هذه الأفكار ، التى ربما كانت متأثرة بمذهب « عدم التدخل » الذى نادى به الفيزيوقراطيون ، أنرت بدورها فى آدم سميث ، صديق هيوم ، ولعبت دورا فى تطوير سياسة بريطانية تقول بحرية التجارة ، وهى تجد تحقيقها فى أوروبا الغربية فى عصرنا هذا .

و - التاريخ

فى ١٧٥٢ بعد حملة شنّها عليه الحزب السنّى الذى اتهمه بأنه زنديق وقح ، انتخب هيوم أمينا لمكتبة كلية المحامين بادنبره . وكان المنصب كبير المعنى فى نظره رغم تواضع راتبه الذى لم يزد على أربعين جنيها فى العام ، لأنه جعله السيد المتصرف فى ثلاثين ألف مجلد . وبفضل وجود هذه المكتبة فى متناوله استطاع ان يؤلف كتابه « تاريخ إنجلترا » . وكان فى عام ١٧٤٨ قد اعترف الى صديق له بهذه الكلمات « لقد طالما نويت ان أؤلف كتاب تاريخ فى سنّى حياتى الأكثر نضجا (١٣٦) » . وكان يسمى التاريخ « الخليطة العظمى للحكمة (١٣٧) » ، ويؤمل أن يجد فيه أسباب نهوض الأمم وسقوطها ، يضاف الى هذا :

« ان نرى النوع الانسانى كله يمر بنا وكأنه فى عرض أمامنا ،
باديا على سجيته ، دون أى من هذه الاستخفاءات التى طالما شوشت.
حكم المتفرجين على هؤلاء الناس أثناء حياتهم - فإى مشهد آخر يمكن
أن تتصوره بهذا البهاء والتنوع والتشويق ؟ وإى متعة للحواس أو
الخيال يمكن أن تقارن به ؟ (١٣٨) » .

ان من مظاهر القرن الثامن عشر أنه أنجب فى جيل واحد ثلاثة
من أعظم مؤرخى العالم ؛ فولتير ، وهيوم ، وجبون ، وكلهم مؤسس
فى الفلسفة ، محاول أن يعيد تفسير التاريخ بلغة غير لغة اللاهوت ،
وفى أعرض منظور للمعرفة حشده زمانهم . ولم يملّ جبون من الثناء
على هيوم والاقرار بفضل تأثيره ، وكان يقدر اطراء هيوم للمجلد الأول
من « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٦) فوق
كل اطراء آخر . فهل كان هيوم بدوره مدينا بالكثير لفولتير ؟ كان قد
توصل الى فلسفته وصاغها كباحث مدين للربوبيين الانجليز لا للشكاك
الفرنسيين . « والرسالة فى الطبيعة البشرية » سبقت كل الاعمال
الكبرى التى كتبها فولتير وديدرو ومونتسكيو . ولكن ربما كان كتاب
هيوم « تاريخ إنجلترا » (١٧٥٤ - ٦٢) مدينا بشئ لكتاب فولتير
« عصر لويس الرابع عشر » (١٧٥١) ، وحتى لكتاب « مقال فى
العرف » الذى طبعت أجزاء منه فى ١٧٤٥ و ١٧٥٥ . هؤلاء المؤرخون
الثلاثة كلهم أجمعوا على فضح الخرافة ، ورفض التفسيرات الخارقة ،
والتوحيد بين التقدم وتطور المعرفة والعادات والفنون .

وكتب هيوم تاريخه الى الخلف . فغطى مجلده الأول الصادر فى
(١٧٥٤) عهدى جيمس الأول وتشارلز الأول - السنوات ١٦٠٣ - ٤٩ ،
والثانى (الصادر فى ١٧٥٦) امتد من ١٦٤٩ الى ١٦٨٨ ، والثالث
والرابع (الصادران فى ١٧٥٩) من ١٤٨٥ الى ١٦٠٣ ، والخامس
والسادس (الصادران فى ١٧٦١) من غزو يوليوس قيصر لانجلترا الى
ارتقاء هنرى السابع العرش فى ١٤٨٥ .

وقد أدهشه عنف النقد الذي هوجم به المجلد الأول . كان يؤمن بأن تسلط حزب الاحرار على انجلترا منذ استقدموا وليام الثالث في ١٦٨٨ ، وخوفهم من الثورتين الاستيوارتيتين الناشبتين في ١٧١٥ و ١٧٤٥ ، قد لوثا كتابة التاريخ الرسمى الانجليزى بالعداء لأسرة ستىوارت ، ثم زعم أنه برىء من المزعات المضادة . « رأيتنى المؤرخ الوحيد الذى أهمل فى وقت واحد للحكومة والمصلحة والسلطة الراهنة من جهة ، وصيحة التحيز الجماهيرى من جهة أخرى (١٣٦) » . ولكنه نسي أنه اسكتلندى ، وأن اسكتلندة مازالت تبكى سرا أميرها الجميل تشارلى ، وأن الاسكتلنديين ، وأغلب الظن أن هيوم لم يشذ عنهم ، لم يغفروا قط لانجلترا قتلها تشارلز الاول نصف الاسكتلندى ، واستقدامها أولا رجلا هولنديا ، ثم آخر ألمانيا ، لحكم انجلترا واسكتلندة وويلز . فبينما نراه يسلم بأن تشارلز الاول جاوز حدود الامتيازات الملكية واستحق أن يخلع ، نجده بصور البرلمان متجاوزا بالمثل حقه ، ومذنباً بالمثل فى أمر الحرب الاهلية . ولقد سلم بحق لامة فى خلع الملك الطالح ، ولكنه تمنى لو ان أحدا لم يدفع هذا الحق قط الى نهايته ، وخاف من « هياج الشعب وظلمه » وأحس أن اعدام تشارلز « الرجل المعتدل الكريم النفس » قد زعزع بشكل خطر عادات الشعب فى احترام الحكومة . واحتقر البيورتان لأنهم « منافقون متظاهرون بالتقوى » لوثوا « لغتهم » برطانة « غامضة و » ووشوا ااثامهم بالصلوات (١٤٠) . وحكم على فترة الكومنولث (جمهورية كرومويل) بأنها فترة تقوى قاتلة ، وطغيان عسكري ، وفوضى اجتماعية ، لم تبرأ البلاد منها الا بعودة أسرة استيوارت الى العرش . وقد ذهب فولتير فى عرضه لتاريخ هيوم الى أنه منصف تمام الانصاف :

« ان المستر هيوم ... غير متحيز للبرلمان ولا للملكية ، ولا هو انجليكانى ولا مشيخى ، انما هو رجل منصف لا أكثر . فلقد طالما حرم جنون الحزبية انجلترا من المؤرخ النزيه كما حرمها من الحكومة الصالحة . فما كتبه محافظ كان يرفضه الاحرار ، الذين يكذبهم المحافظون بدورهم ... ولكننا نجد فى المؤرخ الجديد ذهنا يسمو فوق مظانته »

يتحدث عن مواطن الضعف وعن الاخطاء الجسيمة وافعال القسوة حديث الطبيب عن الاويثة (١٤١) » .

اما النقاد البريطانيون فلم يوافقوا فولتير . فهم لم ياخذوا على هيوم انه قل أن رجع الى المصادر الاصلية ، بل (كما ذكر فيما بعد) « هوجم بصيحة واحدة كلها لوم واستنكار ، بل بغض وكراهية . فالانجليز ، والاسكتلنديون ، والارلنديون ، والاحرار ، والمحافظون ، ورجال الكنيسة الانجيكانية واتباع المذاهب المنشقة ، واحرار الفكر والمتدينون ، والوطنيون والحاشية - كل أولئك أجمعوا على السخط على الرجل الذى جرؤ على أن يذرف دمة كريمة على مصير تشارلز الاول وايرل سترافورد . وبعد ان همدت السورة الاولى لغضبهم ، كان اشد خزيا ما بدا من أن الكتاب طوى فى زوايا النسيان . وقد اخبرنى المستر ملر أنه لم يبع خلال اثنى عشر شهرا الا خمسا وأربعين نسخة منه (١٤٢) »

وقد فت هذا فى عضده حتى لقد حدثته نفسه حيناً بأن يرحل كما رحل فى شبابه الى مدينة من مدن الأقاليم فى فرنسا ، حيث يستطيع العيش باسم منتحل . ولكن فرنسا وانجلترا كاذتا تقتتلان ، وقد أوشك المجلد الثانى على نهايته ، فاعتزم أن يواصل العمل . وازداد تحيزه بسبب ما لقى من معارضة ، ففى تنقيحه للمجلد الاول أدخل « نيفسا ومائة تغيير » . ولكنه يقول بكل البهجة الخبيثة التى يستشعرها عفریت ضخمة « جعلتها كلها فى صف المحافظين (١٤٣) » ومع ذلك بيع من المجلدات التالية عدد لا بأس به ، ورحب به المحافظون الآن محاميا شديدا المرس ، وسلم بعض الاحرار بسحر أسلوبه البسيط ، الواضح ، البتار ، الصريح ، الذى سبق أحيانا وقار جبون الحضيف . فوصفه للمصراع المثير بين هنرى الثانى وتوماس ابيكيت يضارع رواية جبون لاستيلاء العثمانيين على القسطنطينية . ورفع تأثير المجلدات الستة المتراكم صيت هيوم الى ذروته . وفى ١٧٦٢ ذهب بوزويل فى تقديره له الى أنه « أعظم الكتاب فى بريطانيا (١٤٤) » - ولكن بوزويل كان اسكتلنديا . وفى ١٧٦٤ صرح فولتير فى تواضع بأن الكتاب « ربما كان أفضل تاريخ كتب فى أى لغة اطلاقا (١٤٥) » وقد أزاحه جبون وماكولى الى الظل ، ووازن ماكولى تحيزه بتحيز معادل ، ولا ينصحنا

المؤرخون بقراءة كتاب هيوم اليوم ، لأن تسجيله للوقائع قد طرأت عليه تحسينات منذ أمد بعيد ، ولكن قارئاً بدأ قراءته باعتبارها واجبا فوجد فيه الانارة والمتعة ..

ز - الفيلسوف العجوز

فى ١٧٥٥ بدأت حركة يقودها بعض رجال الدين الاسكتلنديين لاتهام هيوم أمام مجمع الكنيسة العام بتهمة الزندقة ، وكان « التنوير الاسكتلندى » قد أنجب حركة متحررة بين شباب القساوسة ، فاستطاعوا أن يحولوا دون أى ادانة علنية للفيلسوف - المؤرخ ؛ ولكن الهجمات الكنسية اتصلت ضده ، ولدغته لدغات جعلته يعود الى التفكير فى الفرار . وواتته فرصته حين دعاه ايرل هرتفورد (١٧٦٣) ليكون نائب سكرتير له فى سفارة لفرنسا ، وحصل له على معاش قدره ٢٠٠ جنيه مدى الحياة .

وكان منذ أمد بعيد معجبا بالفكر الفرنسي ، وقد تأثر بالرعيل الاول من كتاب « التنوير » الفرنسي ، وراسل مونتسكيو وفولتير . وكانت أعماله تحظى فى فرنسا بثناء يفوق كثيرا ما حظيت به فى انجلترا . وعشقه الكونتيسة دبوليه من قراءة كتبه ، وكتبت له تتملقه ، وجاءت الى لندن لتراه ، فافلت منها . ولكن حين وصل باريس بسطت عليه رعايتها ، وجعلته بطل صالونها ، وناضلت لتوقظ فى صدره عاطفة الرجولة ، ولكنها وجدته أثبت وأرسي من أن تجرفه رياح الغرام . وكان يدعى للمآدب فى الاجتماع تلو الاجتماع . قالت مدام دبينيه « لا تكتمل وليمة بدونه » . وفتحت له الارستقراطية ذراعيها ، ورشت من حوله عظيمات النساء - حتى بومبادور العظيمة . وكتب يقول : « انى واثق أن لويس الرابع عشر لم يكابد قط فى أى ثلاثة أسباب من حياته مثل هذا التملق الكثير » . والتقى بطورجو ودالمبير ودولباخ وديدرو ، ودعاه فولتير من عرشه النائى فى فرنیه « با قديسي ديفد » . وأدهش ايرل هرتفورد أن يجد الناس يسعون وراء سكرتيه وينحنون له أكثر كثيرا مما يفعلون معه . ولكن هوراس ولبول غاظه هذا كله ، وسخر بعض « الفلاسفة » من بدانة هيوم غيرة منه . وفى

أحدى الحفلات بعد أن دخل هيوم عقب دالمبير بأية من الانجيل الرابع (يوحنا) « والكلمة صار جسدا » وقيل ان احدى السيدات المعجبات بهيوم ردت هنا على الملاحظة بحضور بديهة عجيب « والكلمة صار محبوبا (١٤٦) » . لا عجب أن يكتب هيوم ، الذى ناكده خصومه فى ادنبره ، وكرهوه فى لندن ، « ان الحياة فى باريس تبعث على الرضى الحقيقى لوفرة مجتمع الاشخاص العقوليين الاذكاء المهذبين ، الذين تزخر بهم المدينة (١٤٧) » .

وفى نوفمبر ١٩٦٥ أقبل سفير بريطانيا جديد ، فانهى استخدام هيوم . فعاد الى ادنبره ، ولكن فى ١٧٦٧ قبل وظيفة وكيل فى وزارة الخارجية بلندن . فى هذه الفترة أتى بروسو الى انجلترا ، فخلق له مقاصب مشهورة ، ولابد من ارجاء هذه القصة الآن . وفى أغسطس ١٧٦٩ ، حين بلغ الثانية والخمسين ، عاد نهائيا الى ادنبره ، وقد غدا الآن « غنيا جدا (لاننى كنت أملك دخلا قدره ألف جنيه فى العام) صحيح البدن ، أتوقع - رغم أنى طعنت فى السن بعض الشيء - أن استمتع طويلا بالراحة ، وأن أرى شهرتى فى اتساع (١٤٨) » .

وأصبح بيته فى شارع سانت ديفد صالونا يجتمع فيه من حوله آدم سميث ووليم روبرتسن وغيرهما من مشاهير الاسكتلنديين كأنه ملكهم المعترف به . ولم يحبوه لرجاحة ذهنه فحسب ، فقد رأوا أنه رغم استدلالته العقلية المحطمة للمقدسات ، محدث ظريف بشوش معتدل فى الجدل متسامح مع الآراء المعارضة ، لا يسمح للخلاف فى الأفكار بالانتقاص من حرارة صداقاته . ويبدو أنه (كمونتيني وفولتير) كان يضع الصداقة فوق الحب . « ان الصداقة بهجة الحياة الانسانية الكبرى (١٤٩) » . ومع ذلك كان محبوبا من النساء ، ربما لأنه لم يكن متزوجا . وكان الضيف الاثير فى بيوت كثيرة ، واذا كانت سمته تتلف المقاعد (١٥٠) ، فان خفة روحه عوضت عن ثقل بدنه ، وقد اقترح ضريبة على السمنة ، ولكنه توقع ان « بعض القساوسة قد يدعون أن الكنيسة فى خطر » ، وكان يبارك ذكرى يوليوس قيصر لأنه أثر السمان من الرجال - قال آدم سميث : « كنت على الجملة أعده دائما . . أقرب ما تسمح به طبيعة الضعف البشرى من فكرة عن الرجل الكامل الحكمة والفضيلة (١٥١) » .

واذا لم يكن بد من البحث عن نقائص في هذا الخلق الذى بلغ غاية اللطف ، أو عن بقع معقمة فى هذا الذهن الألعى ، فإن أكبر أخطائه التى يصعب اغتفارها له هى اشاراته الى « الفرض البشع » الذى افترضه سبينوزا « الكافر » (١٥٢) ، وهى اشارات لابد أن الهدف منها كان تغيير لون جلده ليحمى نفسه . ولقد كانت سيكولوجية هيوم أكثر سيكولوجيات زمانه نفاذا ، ولكنها لم تعلق تماما الاحساس بالهوية الشخصية ؛ فان حالة نفسية ما لا تستدعى حالة نفسية أخرى فحسب ، بل قد تستدعيها باعتبارها حالتي « أنا » ، واجلال « التابع المنتظم » محل « العلة » لا يتطلب سوى تغيير فى العبارة ؛ و « التابع المنتظم » كاف للعلم والفلسفة ؛ وكتابه « تاريخ انجلترة » لا يفتأ يحاول تفسير الأحداث بالأسباب (١٥٣) . وان شكوكيه تخلق عنها صاحبها صراحة فى الحياة العملية ، لا بد أن تكون خاطئة من حيث نظريتها ، لأن الممارسة هى المحك النهائى للنظرية . ومن الغريب أن هيوم مع رده العلة الى العرف ، والفضيلة الى شعور التعاطف ، لم يعط وزنا يذكر للعرف والشعور فى تفسيره للدين ، وأبدى أقل التعاطف مع وظائف الدين الملحة فى التاريخ . وكان عديم الاحساس بتعزيات الايمان ، والراحة التى كان يسمح بها على النفوس المقشعرة أمام سر الوجود وضخامته ، أو وحشة الحزن ، أو حتمية الهزيمة القاسية . لقد كان نجاح ومضى رد التاريخ على هيوم .

على أننا برغم هذه الاعتراضات الثقافية نعود الى الأقرار بما اتسم به ذهن هيوم النفاذ من رهاقة بتارة . لقد كان هو وحده « التنوير » للجزر البريطانية ، ونحن اذا استثنينا مجال الرؤية السياسية ، وجدنا أن أثر هيوم أساسا كان فى بريطانيا معادلا لأثر نيف وعشرة فلاسفة فى فرنسا . ومع أنه كان يشعر بالتأثير الفرنسى شعورا عميقا ، فإنه توصل الى أفكار التنوير ، وكال بعض لطماته البالغة الشدة قبل أن يجرد « الفلاسفة » - بل فولتير - مخالهم على « العار » ' l'infâme ' لقد كانوا مدينين له بقدر دينه لهم . كتب اليه ديدرو يقبول : « انى أحبيك ، انى أحبك ، انى أجلك (١٥٤) » وفى انجلترة انتهى مذهب الريوية بتحديثه قدرة العقل على الدفاع حتى عن أبسط مقومات الايمان الدينى ، وحمل الحرب لا الى أسوار العقيدة القديمة فحسب ، بل الى

قلعته الحصينة . وكان جبون سليل هيوم فى الفلسفة ، وتلميذ الذى بزغ فى التاريخ . وفى ألمانيا أيقظ كتابه « تحقيق فى الفهم البشرى » كانط من « سباته الدجماطيقى » بما بدا من تقويضه لكل العلم والميتافيزيقا واللاهوت عن طريق تشككه فى موضوعية العلة . وبعد أن قرأ كانط مخطوطة الترجمة التى قام بها هامان لكتاب « الحوارات حول الدين الطبيعى » أدمج فى اعدادة النهائية لكتابه « نقد العقل الخالص » (١٧٨١) انتقادات هيوم للحجة القائمة على القصد ، واعتبر هذه الانتقادات مستعصية على الرد (١٥٥) .

وقد كتب هيوم يقول « أتمنى أن يكون حظى - لأجلى ولأجل أصدقائى جميعا - أن أقف دون عتبة الشيخوخة فلا أوغسل فى ذلك الأقليم الكئيب (١٥٦) . واستجاب له الحظ . تقول ترجمته الذاتية :

« فى ربيع ١٧٧٥ أصبت باضطراب فى أمعائى لم يفرغنى لأول وهلة ، ولكنه أصبح بعد ذلك ، كما خشيت ، قتالا لا شفاء منه . وانى الآن أعلق أسمى على الانحلال السريع . لقد عانيت ألما طفيفا جسدا من اضطرابى هذا ، وأعجب من ذلك أننى برغم التدهور الشديد الذى ألم ببطنى ، لم أعان قط ولو للحظة واحدة أى هبوط فى معنوياتى ، بحيث لو طلب الى أن أسمى فترة حياتى التى وثر أن أعيشها من جديد فربما أغربت بأن أسمى هذه الفترة الأخيرة . فعندى الحماسة ذاتها التى ألفتها فى الدرس ، والمرح فى صحبة الاخوان ، ثم اننى أحسب أن الرجل اذا مات وهو فى الخامسة والستين انما يوفر على نفسه بضع سنين من العلل والامقام (١٥٧) » .

واثتمر عليه الاسهال ، ذلك الانتقام الاثير لدى الالهة من عظماء البشر ، مع النزيف الداخلى ، فهبطا بوزنه سبعين رطلا فى عام واحد (١٧٧٥) . وكتب الى الكونتيسة بوفليه يقول « انى أرى الموت يدنو شيئا فشيئا دون أن أشعر بقلق أو آسى . أحبيك بكثير من الود والاحترام لآخر مرة (١٥٨) » وذهب للاستشفاء بالمياه المعدنية فى باث ، فلم تجد فتىلا فى التهاب المعى الغليظ المقرح الزمن . ولكن ذهنه ظل هامئا صافيا .

وعاد الى ادنبره فى ٤ يوليو واستعد للموت « بالسرعة التى يشتهيها أعدائى ان كان لى أعداء ، واليسر والبساطة اللذين يتمناها لى أصدقائى (١٥٩) » فلما قرأ فى كتاب لوكان « حوارات الموتى » مختلف الأعذار التى تذرع بها المحتضرون لشارون حتى لا يستقلوا قنبره من فورهم ليعبر بهم نهر الجحيم الى الأبدية ، لاحظ أنه لا يستطيع أن يجد عذرا يناسب حالته الا بأنه قد يقول متوسلا « قليلا من الصبر أى شارون الطيب . لقد كنت أحاول فتح عيون الجماهير . فلو عشت - بضع سنين أخر لطبت نفسا بأن أرى سقوط بعض مذاهب الخرافة السائدة » . ولكن شارون أجاب « أيها الوغد المتكبر ، لن يحدث هذا ولو بعد مئات السنين . أتتوهم أننى مانحك فسحة طوال هذه السنين ؟ فادخل الزورق ، اذن من فورك » .

أما بوزويل ، الملاحح الوقح ، فقد أصر على توجيه هذا السؤال الى الرجل المحتضر - أيؤمن الآن بحياة آخرة؟ وأجاب «هيوم » انه لوهم غير معقول للغاية أن نعيش الى الأبد » . وثابر بوزويل على الحاحه قائلا « ولكن من المؤكد أن فكرة الحياة المستقبلية تسر النفس ؟ » وأجاب هيوم « أبدا ، انها فكرة كثيبة جدا » . وأقربت النساء ورجونه أن يؤمن ، فصرفهن عن الموضوع بمزاحه (١٦١) .

ومات فى هدوء ، « بغير ألم كثير » (كما قال طبيبه) فى ٢٧ أغسطس ١٧٧٦ . ومثي فى جنازته جمع غفير برغم هطول المطر الغزير . وسمع صوت يقول « كان كافرا » ، وأجاب صوت آخر « لا يهم ، فلقد كان رجلا أميناً (١٦٢) » .

الفصل الخامس

الادب والمسرح

١٧١٤ - ٥٦

١ - دولة القلم

كانت انجلترا تشغى بالطباعة على الاقل ان لم تشغ بالادب .
فضلا عن زيادة سكانها ، لا سيما فى المدن وخصوصا فى لندن ، كان
الامام بالقراءة قد انتشر بينهم باعتباره ضرورة للتجارة والصناعة وحياة
المدينة . وعكفت البورجوازية المزدهرة على قراءة الكتب تميزا
وترويجا ، وعكفت النساء على الكتب فوفرن القراء والحوافز
لقرئرسن والرواية . وزاد من جمهور القراء المكتبات الدائرة ، التى
انشىء اول مكتبة فيها يعيها التاريخ المدون فى ١٧٤٠ ، وسرعان ما أصبح
عددها اثنتين وعشرين فى لندن وحدها . وبدأت الطبقة الوسطى الجماعية
تحل محل الطبقة الارستقراطية الفردية بوصفها راعية للادب ، وهكذا
استطاع جونسن أن يهزأ بشسترفيلد . ولم تعد الاعانات الحكومية تتحكم
فى كبار الاقلام بالمغريات السياسية - كما حدث من قبل مع اديسون
وسويفت وديفو .

وشحذت شهية الجمهور للاخبار تلك الصراعات المرة بين الاحرار
والمحافظين ، وبين الهانوفريين والاستيوارتيين ، وتورط انجلترا
المتزايد فى الشئون الاوربية والاستعمارية ، واصبحت الجريدة قوة
يعتد بها فى تاريخ بريطانيا . وفى ١٧١٤ كان هناك احدى عشرة
جريدة تصدر بانتظام فى لندن ، وأكثرها أسبوعى ، وفى ١٧٣٣ زادت
الى سبع عشرة ، وفى ١٧٧٦ الى ثلاث وخمسين . وكان كثير منها تعينه
الاحزاب السياسية ، فكلما رفع الشعب صوته اشتترت الاقليات الموسرة
الجرائد لتعلمى أفكارها . واشتملت كل الجرائد تقريبا على اعلانات .
وخصصت « الديلى أدفرتيزر » التى أسست فى ١٧٣٠ اول الامر

للإعلانات دون سواها ، ولكنها سرعان ما أضافت عنصرا مثيرا من الأنباء ، كما تفعل جرائدنا الصباحية العملاقة ، لدعم توزيعها وزيادة أجور اعلاناتها . وولدت فى هذه الفترة بعض المجلات الهامة مثل « الكرافتسمان » (١٧٢٦) وهى السوط الذى راح بولنبروك يسوط به ولبول ، ومجلة « جراب ستريت » (١٧٣٠ - ٣٧) ، وهى لسان بوب الحاد ، ومجلة « الجنتللمان » (١٧٣١) التى أعطت جونسون وظيفة فيها ، ومجلة « أدنبره » (١٧٥٥) التى ماتت الى أجل فقط فى ١٧٥٦ . وكثير من الجرائد والمجلات الانجليزية مازال حيا بعد مضي مائتى عام على صدوره .

هذه الدوريات كلها - اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية - أعطت المطبعة قوة أضافت الى مخاطر الحياة البريطانية وحيويتها . ومع أن روبرت ولبول حظر نشر المناقشات البرلمانية ، فانه أباح للصحفيين أن يهاجموه بكل ما فى أدب القرن الثامن عشر من قسوة وخبث . وقد عجب مونتسكيو القادم من فرنسا التى فرضت عليها رقابة المطبوعات ، لتلك الحرية التى كانت صحيفة « جراب ستريت » تقذف بها داوننج ستريت (مقر الحكومة) بالمداد المسموم (١) . وشكا عضو فى البرلمان الى مجلس العموم فى ١٧٣٨ من أن : « شعب بريطانيا العظمى تحكمه قوة لم يسمع بها قط من قبل ، باعتبارها السلطان الاعلى ، فى أى عصر أو بلد . وهذه القوة يا سيدى لا تكمن فى ارادة الملك المطلقة ، ولا فى توجيه البرلمان ، ولا فى قوة جيش ، ولا فى نفوذ الاكليروس ، انها حكومة الصحافة . فالبضاعة التى تحفل بها صحفنا الأسبوعية يتقبلها الشعب باحترام يفوق احترامه لقوانين البرلمان ، وآراء هؤلاء الكتاب التافهين لها عند الجماهير وزن أثقل مما لرأى خيرة السياسيين فى المملكة (٢) » .

وراح الطباعون يعملون بحماسة جديدة ليلبوا الطلب المتزايد فكان فى لندن ١٥٠ منهم ، وفى إنجلترا كلها ثلاثمائة ، اثنان منهم فى هذا العهد - وهما وليم كاسلون وجون باسكرفيل - خلفا أسميهما على طقم حروف طباعية . وظل الطبع والنشر وبيع الكتب فى معظم الحالات موحدا فى شركة واحدة . ومن الشركات الباقية الى يومنا شركة لونجمان التى ولدت فى ١٧٢٤ . وكانت كلمة « publisher

الناشر « تدل عادة على المؤلف ، أما الذى يخرج الكتاب فهو بائع الكتب أو تاجرها bookseller . وألف بعض باعة الكتب ، كآبى جونسن ، أن يحملوا بضاعتهم الى الاسواق ، أو يسرحوا بها من مدينة الى مدينة ، ويفتحوا كشكا فى أيام السوق ، وكان الثمن الذى يطلبونه عن كتاب مجلد يتفاوت بين شلنين وخمسة ، ولكن الشلن عام ١٧٥٠ كان يساوى دولارا وربعا تقريبا . وكان البرلمان قد أقر قانونا بحقوق الطبع فى ١٧١٠ ، وكفل للمؤلف أو من يخصصهم حقوق الملكية فى كتابه أربعة عشر عاما ، تمتد الى ثمانية وعشرين عاما اذا عمر بعد الفترة الاولى . على أن هذا القانون لم يحمه الا فى المملكة المتحدة ، وكان فى استطاعة المطابع فى ارنلندة وهولندة أن يذشروا طبعاات مسروقة ويبيعوها (حتى ١٧٣٩) فى انجلترا منافسين بذلك بائع الكتب الذى دفع ثمن الكتاب .

فى هذه الظروف المنطوية على المجازفة تشدد باعة الكتب فى مساوماتهم مع المؤلفين . وكان الكاتب يبيع حقه فى الكتاب عادة بمبلغ محدد ، فاذا راج الكتاب على غير توقع فقد ينفج البائع المؤلف بمبلغ اضافى ، ولكن هذا لم يكن لازما عليه . أما ثمن الكتاب الذى يؤلفه مؤلف معروف فكان يتفاوت بين مائة ومائتى جنيه . وقد تسلم هيوام خمسمائة جنيه ثمنا للمجلد من كتابه « تاريخ انجلترا » وهو ثمن مرتفع ارتفاعا استثنائيا . وكان للمؤلف الحق فى قبول الاكتتابات لكتابه ، كما فعل بوب فى ترجمته للآلياذة ؛ وفى هذه الحالات كان المكتتب يدفع عادة نصف ثمن الشراء سلفا ، والنصف الثانى عند تسلمه الكتاب ، وكان المؤلف يتولى الدفع للطابع .

وعاشت الكثرة العظمى من المؤلفين فى فقر مسخط . من ذلك أن سيمون أوكلى ، الذى ظل عاكفا عشر سنوات على تأليف كتابه « تاريخ المسلمين » (١٧٠٨ - ٥٧) ، اضطر الى استكمال فى سجن المدينين ؛ وكان رتشارد سفدج يتسكع فى الشوارع ليلا لافتقاره الى مسكن ، وظل جونسون ثلاثين عاما يعانى مرارة الفقر قبل أن يصبح أمير الادب الانجليزى . وكان شارع جراب (شارع ملتن الآن) الموطن التاريخى « للشعر والفقر » (كما قال جونسن) ، حيث الكتاب الماجورون -

من صحفيين ، ومترجمين ، ومصنفين ، وقراء تجارب الطبع ، وكتاب-
المقالات للمجلات ، وسحقين - ينامون ثلاثة في فراش واحد ويرتدون
البطاطين لافتقارهم الى غيرها من الملابس . ولم تكن العلة في هذا
الفقر شح باعة الكتب وعدم اكتراث ولبول بقدر ما كانت اتخام السوق
الادبية اتخاما لم يسبق له نظير باصحاب المواهب الهزيلة ينافس بعضهم
بعضا في قبول الاجور المنحطة . وشارك طفيان حالات الاخفاق على
حالات الفلاح في المال والأعمال ، مع انسلاخ الادب عن الحماية
الارستقراطية ، على الحط من المكانة الاجتماعية للمؤلفين . وفي الوقت
الذي كان فيه الشعراء والفلاسفة والمؤرخون في فرنسا يستقبلون
بالترحيب في أروع البيوت والصدور ، كانوا في انجلترا - باستثنائين
أو ثلاثة - يقصون عن « المجتمع المذهب » باعتبارهم بوهيميين غير
مغتسلين . وربما كان هذا هو السبب في أن كونجريف رجلا فولتير
الا يدرجه في زمرة الكتاب . وقد تحدى الكسندر بوب تحيزات عصره
بادعائه أنه شاعر وجنتلمان معا . وقد عنى بكلمة جنتلمان الرجل
« الكريم المولد » لا الرجل الكريم السلوك . ولكن الامر كان على
النقيض ! .

٢ - الكسندر بوب : ١٦٨٨ - ١٧٤٤

يستهل جونسن ، الذي كان يحتقر الترجمات التي تبدأ بنسب
صاحبها وتنتهى بمأتمه ، ترجمته الممتازة لبوب بانبائنا أن « الكسندر
بوب ولد بلندن في ٢٢ مايو ١٦٦٨ ، لأبوين لم يتحقق أحد قط من
مرتبتهما أو مركزهما (٣) » . أما أبوه فتاجر كتان جمع ثروة متواضعة
ثم اعتزل في بنفيلد قرب غابة ونزر . وكان أبواه كلاهما يتبعان المذهب
الكاثوليكي الروماني ، والسنة التي ولد فيها بوب كانت أيضا السنة
التي حطم فيها خلع جيمس الثاني آمال الكاثوليكية في تخفيف القوانين
المعادية للكاثوليك . وخصت الأم الصبي الذي كان وحيدا بكثير من
الترفيق ، وقد ورث عنها استعدادا للصداع ، وعن أبيه تقوسا شديدا في
عموده الفقري ، فلم يزد طوله على أربعة أقدام ونصف .

وقد عهد بتعليمه الأول الى القساوسة الكاثوليك ، فاعانوه على
لجادة اللاتينية ، واليونانية بقدر أقل ، وعلمه معلمون خصوصيون

آخرون الفرنسية والاطالية ، واذا اقفلت فى وجهه الجامعات والمهن الراقية بسبب مذهبه ، فقد واصل دارساته فى البيت ، فلما عاقه جسمه المحدود وصحته الهشة عن العمل النشط ، ترك أبواه «العنان لولعه بكتابة الشعر . يقول :

« كنت وأنا بعد طفل ، لم تغرر بى الشهرة بعد ،
الثلغ ببخور الشعر ، لأن بحوره وافتنى طوعا (٤) » .

وحين بلغ الثانية عشره أتيحت له نظرة خاطفة الى درايدن يحتل مكان الصدارة فى مقهى ولز ، وأثار المنظر فيه رغبة عارمة فى المجد الادبى . فلما بلغ السادسة عشرة كتب بعض « الرعويات » التى تداولها الناس مخطوطة وحظيت بثناء أدار رأسه ، وقبلت للنشر فى ١٧٠٩ . وفى ١٧١١ ، وبكل الحكمة الناضجة التى احتوتها سنوه الثلاث والعشرون ، أدهش أدباء لندن بقصيدته « مقال فى النقد » نراه - حتى وهو يحذر المؤلفين من أن :

« العلم القليل شيء خطر ؛
فأنهلوا من الأعماق ، والا فلا تذوقوا ينبوع الشعر (٥) »

يضع بحسم القاضي قواعد الفن الادبى . هنا هضم الشاعر « فن الشعر » لهوراس ، و « الفن الشعري » لبوالو فى ٧٤٤ بيتا جيدة المعانى هضما عجيبا ، نظمت نظما رائعا ، بالفاظ لا يزيد كثير منها على مقطع واحد - « أفكار طاما خطرت بالبال ، ولكن لم يعبر عنها بمثل هذه الروعة (٦) » .

وكان للفتى ولح « بالابجرام » ، وبضغط جوامع الحكمة فى بيت واحد ، وقفل كل فكرة بقافية . وقد أخذ مذهبه فى النظم عن درايدن ، ونظريته عن بوالو . واذا كان لديه من الفراغ ما يتسع لصقل شعره ، فانه لم يتردد فى قبول النصيحة الكلاسيكية ، نصيحة تهذيب الشكل وصقله ، وجعل الكأس أثل من نبيذها . ومع أنه ظل يجهر بكثلكته ، فانه اعتنق مبدأ بوالو القائل بأن الادب ينبغى أن يكون العقل مفرغا فى ثوب لائق . أما الطبيعة فنعم ، ولكنها الطبيعة التى روضسها

الانسان ؛ وأما الوجدان فنعم ، ولكنه الوجدان الذى هذبه وصفاه الذكاء . وأى مرشد أهدى الى مثل هذا الفن المحكوم المنحوت من أعمال قدامى الشعراء والخطباء ، وتصميمهم على أن يكونوا عقلانيين ، وعلى أن يجعلوا كل جزء من كل عمل أدبى عنصرا منظما مدمجا فى كل متناغم ؟ هنا التقليد الكلاسيكى ، المنحدر بطريق ايطاليا وفرنسا ، بطريق بترارك وكورنيلى ، والذى يغزو الآن انجلترا ويقهرها على يد الكسندر بوب ، كما قهر شيكسبير بمسرحية أديسون « كاتو » (فى زعم فولتير) ، وكما كست العمارة الكلاسيكية المنحدرة عن طريق بالاديو وسيرليو ، وعن طريق بارو ورن ، الخيالات القوطية والشطحات الجامحة أو غلبتها بقواصر رزينة وصفوف أعمدة هادئة . وهكذا تكون مفهوم الشاعر الشاب عن العقل الكلاسيكى الذى يعمل فى ناقد مثالى :

« ولكن أين هو الرجل الذى يستطيع أن يمحض النصيح ،
الذى ما زال يغتبط بأن يعلم ، ومع ذلك لا يطغيه علمه ؟
رجل لا يحرفه رضى ولا يميله حقد ، لا هو منحيز فى غباوة
ولا مستقيم فى عمى ،
مهذب رغم علمه ، مخلص مع تهذيبه ،
جرىء فى تواضع ، صارم فى انسانية ،
يبصر الصديق بعيوبه فى غير تحرج
ويطرى العدو على فضائله وهو مبتهج ،
رجل أوتى ذوقا مدققا دون تزمت ،
ووهب العلم بالكتب والبشر جميعا ، محدث سمح ، ونفس
تنزهت عن الكبرياء ،
يحب أن يثنى ثناء يؤيده فيه العقل (٧) ؟ »

وقد وجد نفر من أمثال هذا الناقد ، على استعداد للترحيب بمثل هذا الشعر وهذه الفضيلة المحسوبة من فتى فى الثالثة والعشرين ؛ وعلى ذلك خلع أديسون ، الذى لابد قد شعر أنه المقصود بهذه الأبيات ، على الشاعر فى العدد ٢٥٣ من صحيفته « اسبكتيتور » ثناء عظيما لن يلبث أن ينمى فى معارك الكلام . أما الشاعر جون دنيس ، مؤلف مسرحية

« ترى هل تحطم الحورية (بليندا - أرابيلا) قانون ديانا (قانون العفة) ،

ألم أن قاروره هشة من الصيني سيصيبها شرخ ،
أتراها تلوث شرفها ، أم ثوبها الموشي الجديد ؟
أتنهي أن تتلو صلواتها ، أم يفوتها عرض بالاقنعة ،
أضيق قلبها ، أم قلاقتها ، في حفل راقص ... (١) »

وتشارك بليندا في ثروات جماعة الأشراف ، وقمارهم في هامغن
كورت ، حيث :

« تموت سمعة عند كل كلمة (١١) » ؛

ويحشد الشاعر براعته الفنية ليصف لعبة ورق . فإذا انحنت بليندا
لتشرب ، قصّ البارون القوى خصلتها وهرب (وهذا السيل المقدفق
من البحر العميق « الأيامي iambic » يأخذ بالالباب) .
فتطارده وقد أخذ الغضب منها كل ماخذ ، وتعثّر عليه ، وتلقى قبضة
من النشوق في وجهه ؛

« وبغثة تفيض كل عين بالدموع المنهلة
وتردد قبة السماء صدى عطسه (١٢) »

وفي هذه الأثناء يغتصب الأقرام أو السيلفات أو السندلات الخصلة
ويجرونها وفي أثرها سحب الفخر إلى السماوات حيث تصبح نجما منجبا
يفوق بريقه تلالو شعر بليندا .

وقد أبهج هذا كله نبلاء لندن ونبيلاتهما ، وانديتها ومقاهيها .
ووجد بوب نفسه رجلا يشيد به الناس أبرع شاعر في إنجلترا ، وغدا
كل من عداه من الشعراء خصوما له . ولم يصف جديدا لشهرته بالأبيات
المملة التي وصف بها غابة ونزر (١٧١٣) ، كذلك لم ينس
له الأحرار بعد انتصارهم في ١٧١٤ أنه في تلك القصيدة
كشف عن ميوله الكاثوليكية نحو الأسرة المالكة التي سقطت (١٣) .
ولكنه عاد فأسر جمهوره في ١٧١٧ بنظمه في مقطوعات من بيتين

« أبيوس وفرجينيا » فقد خيل اليه أنه المذموم فى أبيات بوب
الطائشة :

« ولكن أبيوس يحمر لكل كلمة تقولها
ويحملق حملقة رهيبة بعين مهددة
وكانه طاغية متوحش مرسوم على قطعة نسيج قديمة (٨) »

فرد عليها بكتابة « تأملات نقدية وهجائية » (١٧١١) . وقد
انتقى عيوباً حقيقية فى فكر بوب وأسلوبه ، وعرضها فى إطار مقذع .
فوصف بوب بالمنافق القبيح الذى خلق على شكل قوس كيوييد أو ضعفد
أحذب ، وهناه على أنه لم يولد فى اليونان القديمة ، والا لالقت به
عارباً بعد ولادته لقبحه (٩) . ولحق بوب جراحه وترتب فرصته .

ثم تابع نجاحه بنشر قصيدته « اغتصاب خصلة شعر » (١٧١٢)
وكانت تقليداً سافراً لقصيدة بوالو Le Lutrin المقرأ (١٦٧٤) ،
ولكن الناس أجمعوا على أنها فاقت أصلها . وخلاصة الموضوع أن اللورد
روبرت بوتر أعرب عن تحمسه للمسر أرابلا فيرمر بقصه خصلة من
شعرها الجميل وهروبه بها ، وتلا ذلك فتور بين الغاصب والمغتصبة .
واقترح رجل يدعى كاريل على بوي أن أرابلا قد يهدأ سخطها اذا قص
الشاعر القصة فى شعر مازح وقدم لها القصيدة . وهكذا فعل ، وهكذا
انتهى الأمر . فصفحت المسز فيرمر عن اللورد ، ووافقت على نشر
القصيدة . ولكن بوب وسع الخطة ، مخالفا نصيحة أديسون ، وكدسها
بعده من الشعر الملحمى - الهزلى ضمت الكائنات الخرافية : السيلفات،
والسمندلات ، والهوريات ، والأقزام المشاركة فى الملحمة ؛ وراقت هذه
« المليشيا الخفيفة للسماء السفلى » خيالات العصر وميوله ، ولقيت
قصيدة « الاغتصاب » المعدلة استحسان الجميع الا الشاعر دنييس .
وتوقف جورج باركلى فى حملته على المادة ليهنىء المؤلف على لدونة
ربة شعره . ولباقة بوب النظامية كلها ، ومعين أخيلته وعباراته الذى
لا ينضب ، يجعلان القصيدة تتألق تألق الأحجار الكريمة التى رصعت
بها الحساء « بليندا » شعرها . وهو يصف بخبرة الفساء مستحضرات
التجميل التى يسلح بها أحد الجان البطلة لحروب الغرام ، ويعدد فى
مرادفات تهكمية ما سيحفل به يوماً من جلائل الأمور :

مقفيين couplets رسائل هلويز وأبيلار المختلقة . فنرى
« الويزا » التى حبست نفسها فى دير للراهبات تطلب الى أبيلار المخصي
أن يضرب بقوانين الكنيسة والدولة عرض الحائط ويأتى الى حضنها :

« تعال ان جرؤت بكل ما فيك من فتنة !
تحد السماء ، وطالب بقلبي ،
تعال ، وبظرة واحدة من تلك العيون المضلة
امح كل فكرة ذكية من أفكار السماء ...
اخطفنى ، وأنت تهتمّ بامتطاء جوادك ، من مسكنى المبارك ،
أعن الأصدقاء ، وانتزعنى من الهى ! »

وفى نزوة أخرى تقول له :

« لا ، أبعد عنى بعد المشرقين ،
لترتفع جبال الألب حاجزا بيننا ! ولتهدر محيطات بأسرها !
أواه ، لا تأت ، ولا تكتب ، ولا تفكر فى ولو مرة ،
ولا تشاركنى وخزة واحدة من وخزات الألم الذى ذقته لأجلك (١٤) » .
ومع ذلك تثق أنه آت اليها فى ساعة احتضارها ، لا عاشقا
بل كاهنا :

« ليعتك تقف فى ثياب مقدسة
والمشعل المقدس يرتعش فى يدك
وتمد الصليب أمام عينى التى تهفو اليك ،
وتعلمنى وتعلم منى الموت (١٥) » .

وكان بوب يحلم ككل شاعر فى زمانه بأن ينظم ملحمة ، ولقد بدأ
كتابة ملحمة وهو بعد فى الثانية عشرة . فلما شب ودرس هومر خطر له
أن يترجم الاللياذة الى ذلك المقطوعات ذات البيتين المقفيين التى كانت
تكون منطقته الذى فطر عليه . واستشار أصدقاءه فأمضوا على الفكرة .
وقدمه أحدهم وهو جوناثان سويغت الى هارلى وبولنبروك وغيرهما
من كبار رجال الحكومة أملا فى أن يحصل له على وظيفة شرفية يرتزق
منها . فلما أخفق فى هذا تكفل بأن يجمع له اكتتابات تعول «الكسندر»
الجديد وهو يطفر بشعره فوق طرواده . واذا كان سويغت فى موقع

استراتيجى بين طلاب الوظائف والكهنوت ، فقد أعلن أن « أفضل شعراء انجلترا هو المستر بوب ، بابوى بدأ ترجمة لهومر بالشعر الانجليزى ، لا بد له ليكملها من أن يكتبوا فيها جميعا ، لأن المؤلف لن يبدأ الطبع حتى أجمع له ألف جنيه ! (١٦) » . واقترح بوب أن يترجم الالياذة فى ست مجلدات من قطع الربع ، ثمن كل المجموعة منها ستة جنيهات (١٨٠ دولارا ؟) . وأقبلت الاكتتابات تترى رغم هذا الثمن الغالى ، واشتدت الحماسة للمشروع حتى أن برنارد لنقو تاجر الكتب وافق على أن ينقد بوب مائتى جنيه لقاء كل مجلد ، وأن يقدم له نسخا مجانية لمكتبيه . وبما أن المكتبيين (وعددهم ٥٧٥) أخذوا ٦٥٤ مجموعة ، فإن بوب كسب ٥٣٢٠ جنيهها (١٤٨٩٦٠ دولارا ؟) ثمنا للالياذة ، وهو مبلغ لم يظفر بمثله مؤلف فى انجلترا الى ذلك الحين . وظهر المجلد الاول المحتوى على أربعة أقسام فى ١٧١٥ . وقد لقى منافسه غير متوقعة بسبب نشر ترجمة فى اليوم ذاته للقسم الاول بقلم توماس تيكل . وأثنى اديسون على ترجمة تيكل ، التى اعتقد بوب أنها ليست فى الحقيقة الا بقلم اديسون ، وأحس أن نشرها فى آن واحد مع ترجمته عمل غير ودى ، فأضاف اديسون الى قائمة أعدائه .

ولو كان التفقه فى العلم هو المحك الوحيد لما استحققت ترجمة بوب ثناء يذكر . فعلمه باليونانية متواضع ، وقد اضطر الى الاستعانة بالشرح المدرسيين ، وأنجز أكثر مهمته بالمضاهاة بين الترجمات السابقة وإعادة صياغتها بالأبيات الزوجية المقفاة من البحر الايامبى (العمبقى) الخماسي iambic — pentameter couplets التى برع فيها . فأما بنتلى ، أمير علماء الدراسات اليونانية الأحياء يومها ، فقد أصاب فى حكمه على هذا الأداء : « قصيدة لطيفة يا مستر بوب ولكن يجب ألا تسميها هومر (١٧) » فالأبيات الزوجية ونقر قوافيها الشبيه بنقر الطبل ، والعبارات والفقرات والطباقات المتوازنة ، هذه كلها عطلت أسلوب الشعر الاغريقى السداسي التفاعيل ، الأسلوب السريع المتدفق . ومع ذلك كان هناك فخامة زاحفة ، ومعين زاهر من اللغة ، فى تلك الأبيات التى ساقها الشاعر على نحو معجز ، عبرا بها - رغم اعتراضات بنتلى - الى القرنين الثامن والتاسع عشر ، كاحب م ١٦ - قصة الحضارة

ترجمة للالياذة . قال فيها جوتسن « انها أسمى ترجمة للشعر شهدها العالم الى اليوم (١٨) » وقال جراى انه لن تضارعها أية ترجمة أخرى (١٩) . كذلك كان رأى انجلترا الى أن أجال كيتس بصره فى ترجمة تشابمن لهومر ، واستمطر وردزورت اللعنة على الأسلوب المصطنع الطنان الذى أبهج الكثيرين جدا فى عصر انجلترا الاوغسطى .

ونشرت الياذة بوب فى ١٧١٥ م ٢٤ ، وأتى نجاحها بتجار الكتب المتنافسين الى بابه . ورجاه أحدهم أن يعلق على طبعه حديثه لمسرحيات شكسبير ، فوافق بغباوة ، غافلا عن الهوة التى تفصله عن شكسبير عقلا وفنا . وراح يكد ويكدح بصبر ذاهب فى تلك المهمة التى لا تلائمه ، وظهرت الطبعة فى ١٧٢٥ ، وما لبث لويس ثيوبولد ، أقدر المتخصصين فى دراسة شكسبير يومها ، أن أوسعها طعنا لقصورها ، فصلبه بوب فى قصيدته « الدغسيادة » (أى ملحمة المغفلين) .

وأقنعه لنتوت أثناء ذلك بأن يترجم الاوديسة ، عارضا عليه مائة جنيه . ثمنا لكل مجلد من مجلداتها الخمسة ، وأخذ المکتتبون ٨١٩ مجموعة ، ولكن بوب ، وقد افتقد الآن حافز الشباب والحاجة ، سئم نحت مقطوعاته ، وعهد بنصف العمل الى دارسين من كمبردج لم يطل بهما الوقت حتى تعلمتا محاكاة أسلوبه . وكان قد نبه المکتتبين سلفا الى انه سيستخدم معاونين له ، ولكنه حين نشر الاوديسة (١٧٢٥ - ٢٦) . التى قصرت كثيرا عن الياذته - نسب الى مساعديه هذين الفضل فى خمسة كتب من الكب الاربعة والعشرين ، فى حين انها ترجمتا اثنى عشر كتابا فى الواقع (٢٠) . ونقدهما ٧٧٠ جنيه ، أما هو فبلغ صافى ربحه ٣٥٠٠ جنيه ، اذ شعر بحق أن اسمه هو الذى باع الكتاب . وكفلت له الترجمات الاستقلال المالى ، فقال ان فى وسعه الآن « بفضل هومر أن يعيش ويزكو غير محين لانسان أميرا كان أو نبيل (٢١) » .

وفى ١٧١٨ اشترى فيللا فى تويكنهام وحديقة مساحتها خمسة أفدنة تنحدر الى نهر التيمز . وصمم الحديقة بالطراز الطبيعى ، محتاشيا الرقابة الكلاسيكية التى مارسها فى شعره . وقال « ان الشجرة شيء أنبل من الملك فى ثياب تنويجه (٢٢) » . وحفر له من بيته نفق

تحت شارع معترض ليخرج منه الى الحديقة ؛ وزين هذه « المغارة » زينة حاملة فيها الاصداف ، والبللورات ، والمرجان ، والمتحجرات ، والمرايا ، والمسلات الصغيرة . فى هذه الخلوة اللطيفة الجو استضاف الكثير من الاصدقاء المشهورين - سويفت ، وجراى ، وكونجريف ، وبولنبروك ، وأربنتوت ، والليدى مارى ورتلى مونتاجيو ، والاميرة كارولين ، وفولتير . وكانت الليدى مارى جارتها فى حى أطلقا عليه اسم « تويتنام » ؛ وكان بولنبروك يسكن دولى على مقربة منه ، ولندن لا تبعد أكثر من أحد عشر ميلا فى نزهة لطيفة بالقرب على التيمز ، وأقرب منها القصور الملكية فى رتشموند ، وهامتن كورت ، وكيو .

وانضم الدكتور جون أربنتوت ، الذى أضفى كتابه « تاريخ جون بول » (١٧١٢) على انجلترة شخصية واسما ، الى سويفت ، وكونجريف وجراى ، وبوب ، فى نادى سكريليروس الشهير (١٧١٣ - ١٥) ، الذى كرس للتهكم على كل ضروب الدجل والعجز ، وأضيف كل ضحاياهم الى القائمة المتعاضمة من خصوم بوب . وكان له مع الليدى مارى مغامرة اختلط فيها الواقع بالأدب وانتهت بعداوة مرة . وسأكنه سويفت أحيانا ، كما حدث أيام نشره « رحلات جلفر » (١٧٣٦) ، وتبادل الاثنان بغضهما للبشر ، وبعض الرسائل التى كشفت عن رقة مخبوءة تحت دروعهما القاسية (٢٣) . أما معرفة بوب ببولنبروك فقد بدأت حوالى ١٧١٣ ، وتطورت الى تأثير فلسفى . وقد أثنى الواحد منهما على صاحبه ثناء يبعث على الغثيان لغسلوه ، فقال بوب « أعتقد حقيقة أن فى ذلك الرجل العظيم شيئا يبدو أنه وضع هنا خطأ من عالم أعلى » ، وقال بولنبروك وبوب يحتضر « لقد عرفته هذه السنين الثلاثين ، ويزيد تقديرى لنفسى بسبب حبى لهذا الرجل » - وهنا خانه صوته كما تقول القصة (٢٤) .

ولا بد أنه كان هناك شيء يحب فى هذا الشاعر الذى صورته الرواية المتواترة ، بل صورته قلمه هو أحيانا ، انسانا مشاغبا خداعا خسيسا مغرورا . وينبغى أن نذكر دائما أنه كان مغرورا - وله العذر - بسبب ما استشعره كل يوم من مذلة عجزه البدنى . لقد كان فى صباه جميل الصورة ، لطيف الطبع ، وقد ظل وجهه دائما جذابا ، ولو

لمجرد توقد عينيه . ولكنه كلما شب أصبح تقوس عموده الفقرى سافر بصورة أكثر ايلاما له . وقد وصف نفسه بأنه « مخلوق قصير ، كله حيوية ، طويل الساقين والذراعين ، لا تخطيء اذا رمزت له بالعنكبوت ، وقد حسبه البعض على بعد طاحونة هواء صغيرة (٢٥) » . (ويذكرنا هذا بـسكارون المسكين) . فاذا جلس الى المائدة وجب أن يسند على مقعد عال كالطفل ليحاذى غيره . وكان يحتاج الى من يخدمه طوال الوقت تقريبا . وما كان فى استطاعته أن يمضي الى فراشه أو ينهض منه دون أن يعان عليه ، ولا أن يرتدى ثيابه أو يخلعها بنفسه ، وكان يجد مشقة فى الاحتفاظ بنظافة جسمه . فاذا نهض لم يستطع أن ينصب عوده حتى يشده خادمه الى صدر من القنب المقوى ، وبلغ من نحافة ساقيه أنه كان يلبس ثلاثة جوارب طويلة ليضخمهما ويدفئهما ، وكان بسبب حساسيته الشديدة للبرد يرتدى « نوعا من الصدر الضيقة المصنوعة من الفراء » ، تحت قميص من الكتان الثقيل الخشن . وقل أن عرف لذة العافية . وقد قال عنه اللورد باثورست أنه كان يشكو الصداع أربعة أيام فى الأسبوع ، ويمرض فى الثلاثة الباقية . ومن المعجز أن استطاع جوناثان رتشردن أن يرسم لبوب لوحة بمثل هذه الطلعة الحسنة (٢٦) - كلها تيقظ وحساسية ، ولكننا نستطيع فى التمثال النصفى الذى صنعه له روبياك أن نتبين الجسم المعذب يعذب العقل .

ومن القسوة أن نتوقع من رجل كهذا أن يكون هادئ الطبع ، أو لطيفا ، أو بشوشا ، أو رقيقا . فلقد أصبح شأن كل عليل نزقا ، كثير المطالب ، نكد المزاج . ونذر أن تجاوز فى ضحكك الابتسامة ، واذ حرم كل فتنة الجسد ، فقد عزى نفسه بكبرياء المقام وغرور الفكر . وكما يفعل حيوان ضعيف أو جريح ، وكما يسلك فرد من أقلية مظلومة ، تعلم المكر والمراوغة والدهاء ، وما لبث أن تعلم الكذب ، لا بل ممارسة الخيانة مع أصدقائه . وتملق الذبلاء ، ولكنه ترفع عن كتابة الاهداءات التى تستهدف الكسب . وكان فيه من الشجاعة ما حصله على رفض معاش عرضته عليه حكومة يحتقرها .

ونحن نرى فى حياته الخاصة بعض الخلال الجديرة بالحب . قال سويغت عنه انه « أعظم من عرفت أو سمعت عنه من الأبناء قياما »

بواجبهم نحو آبائهم (٢٨) « . فلقد كان حبه لأمه أظهر عاطفة وإبقاها من عواطف روحه المضطربة . كتب فى عامها الحادى والتسعين يقول ان صحبتها اليومية جعلته لا يحس أى افتقار الى علاقات عائلية أخرى . وكانت أخلاقياته الجنسية أفضل تطبيقا منها كلاما ؛ ولم يكن هيكله يصلح للزنا ، ولكن لسانه وقلمه كان فى وسعهما أن يكونا اباحيين الى حد مقرر (٢٩) . وحتى فى رسائله للمرأتين اللتين ظن أنه يعشقهما كان يكتب بتحرر مفرط لا تطيقه اليوم سوى بغى . ومع ذلك فان احدهما ، وهى مرتا بلاونف ، أحبت الشاعر العاجز حبا حسبه المنفولون علاقة آثمة . وفى ١٧٣٠ وصفها بأنها « صديقة ... كنت اتفق معها كل يوم ثلاث ساعات أو أربعا طوال هذه السنين الخمس عشرة (٣٠) » . وبات هى شيخوخته المبكرة معتمدا على محبتها ، وأوصى لها بكل تركته الكبيرة تقريبا .

واذ كان دائم الوعى بعيوبه البدنية ، فقد كانت تكوينه كيا كل كلمة تنقد خلقه أو شعره . لقد كان العصر عصرا يغلب عليه حب الثار فى معاركه الأدبية ، وكان بوب يرد على السباب بسباب لا يصح طبعه أحيانا . وفى ١٧٢٨ حشد خصومه ونقاده فى زريبة شعره ، وأطلق عليهم كل سهام غضبه فى أقوى أعماله الأدبية وأبلغها ايذاء . ولم ينشر اسمه عليه ، ولكن كل لندن القارئة استشفت توقيعه فى أسلوب الكتاب . وسيرا على الطريق الوعر الذى سلكته من قبل قصيدة درايدن « ماك فلكنو » (١٦٨٢) ، أشادت قصيدة بوب « الدنسيادة » بكتبة جراب ستريت أقطابا للمغفلين فى بلاط الغباء الذى يتربع ثيوبولد على عرشه . وقد بكى على موت رن وجرى ، وعلى اقضاء سويغت فى منفاه الارلندى ، حيث يموت « كفار مسموم فى حجر » يعنى كتدراثية دبلن . أما عن الباقيين فلم ير من حوله الا عجزة فاسدين لا طعم لهم ولا مذاق . وتلقى ثيوبولد ، ودنيس ، وبلاكفور ، وأوزبورن ، وكزل ، وكبير ، وأولدكمسون ، وسميدلى ، وآرثل - كل فى دوره جزاءهم من الجلد والتهكم والقذر - ولا غرو فقد كان للشاعر ولع بالقذارة ، ربما لأن هذه صفة تلازم العجز البدنى (٣١) .

وفى طبعة لاحقة ذكر بوب فى ابتهاج ، على لسان الشاعر سفدج ، كيف أن حشدا من الكتاب حاصروا تاجر الكتب فى تاريخ نشر القصيدة

الأول مرة ، وهددوه باستعمال العنف معه اذا نشرها ، وكيف أن هذا جعل الجمهور أشد تهاافتا على النسخ ، وكيف أن الطبعة تلو الطبعة كانت تطلب وتنفد ، وكيف أن الضحايا ألفوا أندية ليكتلوا النار من بوب ، وصنعوا دمية على صورته وأحرقوها . وجاء ابن دنيس بهراوة ليضرب بوب ، ولكن اللورد باثورست صرفه عنه ، وبعدها ظل بوب حيناً يأخذ معه فى جولاته مسدسين وكلبه الدنمركى الضخم . ورد عليه عدد من ضحاياه بكتيبات ، وبدأ بوب وأصحابه (١٧٣٠) « مجلة جراب ستريت » ليواصلوا الحرب . وفى ١٧٤٢ أصدر جزءا رابعا من « ملحمة المغفلين » ، هاجم فيه المربين وأحرار الفكر تعطشا لخصوم جدد - هؤلاء الذين يفخرون قائلين :

« اننا نتخذ فى فخر ذلك الطريق الاعلى
ونجادل هابطين حتى نشك فى الله ،
ونجعل الطبيعة تعدو على قصده ،
وندفعه الى أبعد ما نستطيع . . .
أو ، بوثية واحدة تقفز فوق كل قوانينه ،
نجعل الله صورة للإنسان ، والإنسان العلة النهائية ،
ونجد الفضيلة شيئا محدودا ، ونحتقر كل الصلات ،
نرى الكل فى أنفسنا ، واننا لم نولد الا لأنفسنا ،
لا نوقن بشيء يقيننا بعقولنا ،
ولا نتشكك فى شيء تشككنا فى الروح والارادة (٣٢) » .

وبواضح أن بوب كان يتقرب فى الفلسفة ، وليس مع بولنبروك وحده ؛ فقد صدرت رسالة هيوم « فى الطبيعة البشرية » فى ١٧٣٩ ، قبل هذا الجزء الرابع من « ملحمة المغفلين » بثلاث سنوات . وهناك بعض الأدلة على أن الفيكونت كان قد نقل الى الشاعر ريبوبية شافيتسبرى مشحوزة بحكمة الدنيا (٣٣) . وقال له بولنبروك ، حسبك هجاء وسفاسف ، ووجه ربة شعرك وجهة الفلسفة الدينية . يقول جوزف وارتن « لقد أكد لى اللورد باثورست غير مرة أنه قرأ كل خطة « مقال عن الانسان » مكتوبة بخط بولنبروك ، ومفصلة فى سلسلة من القضايا كان على بوب أن ينظمها شعرا ويوضحها (٣٤) » . ويبدو

أن بوب فعل هذا ، الى درجة استعماله عبارات بعينها من وضع المتشكك الكبير (٣٥) ، ولكنه أضاف بعض البقايا المنقذة التي تخلفت عن عقيدته المسيحية . وهكذا أصدر « مقاله عن الانسان » فصدرت الرسالة الأولى فى فبراير ١٧٣٣ ، والثانية والثالثة فى تاريخ لاحق من تلك السنة ، والرسالة الرابعة فى ١٧٣٤ . وسرعان ما ترجم المقال الى الفرنسية ، واشاد به أكثر من عشرة فرنسيين باعتباره من ألمع ما ألف من جوامع الشعر والفلسفة معا .

واليوم يذكر هذا المقال أولا لما حوى من أبيات يعرفها كل انسان ، فلننصف بوب برؤيتها فى اطار فنه وفكره . وهو يستهلها بمناجاة لبولنبروك :

« استيقظ يا قديسي جون : واترك كل التوافه
للطمع الدنىء وكبرياء الملوك .
وما دامت الحياة لا تستطيع أن تهبنا
غير نظرة فيما حولنا يعقبها الموت ،
فطوف ببصرك حرا فوق هذا المشهد كله ، مشهد الانسان ،
يا له من متاهة هائلة ، ولكنها ليست بغير خطة ، ..
فلنضرب معا فى هذا الحقل الفسيح ،
ولنضحك حيث يجب الضحك ، ونقتصرح حيث نستطيع المصارحة ،
ولكن لنبرر طرق الله مع الانسان (٣٦) » .

هنا بالطبع ذكرى « لالهيات » ليبنتس ، « وفردوس ملتن
المفقود (٣٧) » . ويمضى بوب فيحذر الفلاسفة من أن يؤملوا الفهم أو
يدعوه ، « فهل يستطيع الجزء أن يحتوى الكل ؟ » فلنكن شاكرين
لأن عقلنا محدود ومستقبلنا مجهول :

« فذلك الحمل الذى قضى استهتارك بذبحه اليوم ،
لو أوتى عقلك ، أكان يطفر ويلهو ؟
انه فى ابتهاجه الى النهاية يقضم طعامه اليانع
ويلعق اليد التى رفعت لتريق دمه (٣٨) » .

هاهنا تشاؤم خفى ، فالرجاء لا يمكن أن يبقى حيا إلا بالجهل :

« فارح فى تواضع اذن ، وحلق بجناحين مرتعشين ،
وانتظر الموت ، ذلك المعلم العظيم ، وأعبد الله .
انه لا يهبك العلم بالنعيم الآتى ،
ولكنه يسمح بأن يكون ذلك الرجاء بركتك الآن .
فالرجاء ينبعث أبدا فى صدر الانسان ،
وهو لا ينعم بالسعادة ، بل لا يفتأ يرجوها أبدا (٣٩) » .

ولا قدرة لنا على رؤية المبرر لما يبدو فى الحياة من مظالم ؛
وعلىنا ان ندرك أن الطبيعة لم تخلق للانسان ، وأن الله لابد يرتب كل
الاشياء لكل الاشياء ، لا للانسان وحده . ويصف بوب « سلسلة الوجود
الشاسعة » ابتداء من أدنا المخلوقات ومرورا بالانسان والملاك الى الله ،
ويحتفظ بايمانه فى نظام الهى وان خفى عن علمنا :

« ان الطبيعة كلها ليست الا فنا لا علم لك به ؛
وكل المصادفات توجيهه لا تستطيع رؤيته ؛
وكل تنافر تناغم غير مفهوم ؛
وكل شر جزئى خير كلى ؛
ورغم ما فى حقد العقل الضال من كبرياء ،
فان هناك حقبة واحدة واضحة ، وهى أن كل الوجود صواب (٤٠) »

أما الدرس الاول فهو التواضع العقلى . ثم هذه الابيات المذكورة
تذكيرا رائعا ببسكال :

« فاعرف نفسك اذن ، ولا تجسر على فحص الله ،
فالدراسة الصحيحة للبشر هى الانسان .
هذا الذى وضع فوق هذا البرزخ فى حالة وسط ،
كائن حكيم فى غموض ، عظيم فى فجاجة ...
حكم أوحده فى امر الحقيقة ، مدفوع الى أخطاء لا تنتهى ،
مفخرة الدنيا ، وأضحكتها ، ولغزها المحير ! (٤١) »

فلنوافق فى نطاق هذه الحدود البشرية على أن « محبة الذات ، منبع الحركة ، تحفز الروح » ، ولكن لابد للعقل أيضا أن يدخل ليثبت النظام والتوازن فى عواطفنا وينقذنا من الرذيلة . لأن

« الرذيلة مخلوقة متوحشة رهيبة السحنة ، نكرها حالما نراها ، ولكننا لكثرة ما نراها نألف وجهها ، ونحتملها أولا ، ثم نرثى لها ، ثم نعانقها (٤٢) » .

هذه العواطف وإن كانت كلها ألوانا من محبة الذات إلا أنها جوانب من المخطط الالهى ، وقد تفضي الى نهاية طيبة حتى لبصرنا الأعمى . فشهوة الجسد تبقى على النوع ، وتبادل المصلحة ولد المجتمع . والنظام الاجتماعى والايمان الدينى نعمتان واضحتان ، رغم أن الملوك وأصحاب المذاهب لطخوا التاريخ بدماء البشر :

« لىختلف الحمقى حول أشكال الحكم فاصلاحها هو أفضلها ادارة وتصريفا وليقتتل المتعصبون الثقلاء حول ضروب الايمان ، فلن يخطىء من عاش حياة فاضلة (٤٣) » .

أما الرسالة الرابعة من مقال الانسان فتتظفر فى السعادة ، وتحاول جاهدة أن تسوى بينها وبين الفضيلة . فإذا رأيت الرجل الصالح يبتلى بالكوارث ، والأشرار يفلحون أحيانا ، فانما السبب أن :

« العلة الكونية لا تعمل وفق قوانين جزئية بل كلية (٤٤) ؛ »

والله ينظم بالكل ، ولكنه يترك الاجزاء لقوانين الطبيعة ولارادة الانسان الحرة . وقد يأسى البعض لفوارق الملكية باعتبارها مصدرا للشقاء ، ولكن الفوارق الطبقة ضرورية للحكم :

« فالنظام أول قوانين السماء ، وإذا سلمنا بهذا كان البعض ، ولا بد أن يكونوا ، أعظم من الباقين (٤٥) » .

وليس هذا واضحا وضح النهار ، ولكن أى كلام آخر يمكن أن يقال للفيكونت بولنبروك ، (أو يقوله بولنبروك) ؟ والسعادة موزعة بالقسط رغم عدم المساواة فى العطايا الطبيعية والمكتسبة ؛ فالفقير سعيد سعادة الامير . وليس سعيدا ذلك الوغد الغنى ؛ فهو يحتضن أمواله ولكنه يشعر باحتقار العالم له ، أما البار فتتعم روحه بالسلام حتى فى الظلم .

أما ما يسترعى نظرنا لأول وهلة فى مقال الانسان ، فهو هذا الاسلوب المحكم الذى لا يضارع فى ايجازه . يقول بوب « لقد اخترت الشعر لأننى رأيتنى قادرا على التعبير عن هذه الافكار بالشعر بأوجز مما بالنثر (٤٦) » . ولم يبلغ شاعر ، حتى شكسبير نفسه ، ما بلغه بوب من قدرة على حشد ذخائر لا حصر لها - وحشد المعنى الكبير على الأقل - فى حيز ضيق . فهنا فى ٦٥٢ بيتا زوجيا ، هى ادعى لأن تعيها الذاكرة من نظيرها فى أى ميدان أدنى معادل غير العهد الجديد . وكان بوب عليما بحدود قدراته ، فقد أنكر صراحة أصالة أفكاره ، وأراد أن يصوغ من جديد فلسفة ربوبية متفائلة بفن موجز ، ووفق فيما أراد . وفى هذه القصيدة نحى عقيدته الكاثوليكية ولو الى حين . ورأى فى الله علة أولى فقط ، لا يعنى « عناية الهية خاصة » ليقى الرجل الفاضل من خبث الاشرار . وليس فى هذا النسق معجزات ، ولا أسفار مقدسة موحاة من الله ، ولا آدم ساقط أو مسيح مكفر ، انما هو رجاء مبهم فى الجنة ، ولكن لا ذكر للنار اطلاقا .

وقد هاجم نقاد كثيرون القصيدة باعتبارها فلسفة « انسانية أو بشرية » منظومة . فالقول بأن « دراسة البشر الصحيحة هى الانسان » عرف وجها من وجوه هذه الفلسفة ، وبدأ أنه يغرق اللاهوت كله . فلما ترجم المقال الى الفرنسية انقض عليه قسيس سويسرى يدعى جان كروزاز ، فزعم أن بوب قد ترك الله فى طريق جانبى فى قصيدة مفروضة فيها أنها تبرر طرق الله للانسان . ولم يخف للدفاع عن بوب أمام هذا الهجوم من الخارج رجل غير وليم وريرتون الفحل ، فقد شهد أسقف المستقبل أن القصيدة عمل من أعمال التقوى المسيحية التى لا شائبة فيها . ورغبة فى تهدئة رجال الدين نشر بوب فى ١٧٣٨ ترنيمة .

حلوة سماها « الصلاة العالمية » . ولم يقتنع السننيون تماما ، ولكن العاصفة هدأت . أما فى القارة فقد استقبلت القصيدة بعواطف مسرفة . فقال فولتير فى حكمه عليها « انها فى رأى ابدع وأنفع وأسمى قصيدة وعظيمة نظمت فى أى لغة (١٧) » .

وفى ١٧٣٥ كتب بوب مقدمة لمجلد من الهجائيات سماها « رسالة الى الدكتور آريتنوت » دافع فيها عن حياته وأعماله ، وقتل خصوصا جددا . هنا وردت صورته الشهيرة لاديسون الذى سماه « أتيكوس » ، وفضيحتة القتالة للورد هرقى المخنث الذى كان قد زل فوصف بوب بأنه « قاس كقلبك ، مجهول كاصلك (١٨) » . وطعنه بوب طعنات نجلاء تحت اسم « سبوراس » فى أبيات يتجلى فيها الشاعر فى أروع صورته وأسوأها . قال :

« ماذا ؟ ذلك الشيء المصنوع من الحرير ،
سبوراس ، ذلك الخثارة البيضاء من لبن الحمير ،
وا أسفاه ! لا يجدى معه هجاء ولا كلام معقول ! أيسطيع
سبوراس أن يحس ،

وهو الذى يحطم فراشة على دولاب التعذيب ،
ولكن دعونى أصفع هذا البقعة المذهبة الاجنحة ،
ابن القدر هذا المزوق ، الذى ينتن ويلدغ ...
وسواء تكلم وهو عاجز عجزا فاضحا
وزيق كالدمية حين ينفخ فيها الملحق ؛
أو جلس الى اذن حواء ، كأنه الضفدع الاليف ،
ينفث حديثا نصفه زبد ونصفه سم ،
فى توريات أو أحاديث سياسية ، أو حكايات ، أو أكاذيب ،
أو غل أو سناج أو قوافى أو كفريات .
ذكاؤه كله متارجح هنا وهناك ،
صاعد حيننا ، هابط حيننا ، سيد مرة وفتاة مرة ،
وهو ذاته تناقض حقير .
شيء ذو وجهين ، يلعب كلا الدورين ،
الرأس التافه ، أو القلب الفاسد ؛

غندور فى زينته ، متملق فى مجلسه ،
يخطر آنا كالنساء ، ويتبختر آنا كالسادة (٤٩) » .

وكان بوب فخورا ببراعته فى هذه الهجمات القتالة -

« أجل ، انى فخور ، ويجب أن افخر برؤية
الرجال الذين لا يخشون الله يخشوننى (٥٠) » .

وقد اعتذر عن مرارته بأن العصر يتهده انتصار الغباوة ، وأنه
فى حاجة الى عقرب يلدغه ليفيق ويعقل ، ولكنه انتهى فى ١٧٤٣ الى
أنه خسر المعركة . ففى آخر تنقيح للحمة المغفلين رسم صورة قوية -
هى نذر الشاعر « دون » بالويل والثبور صاغها بلهجة ملتن ونبراته
للدين ، والخلق ، والنظام ، والفن ، وقد لفها كلها ظلام واضمحلال
شاملان . فالاهة الغباء المتوجة تتعاب فوق عالم محتضر :

« انها قادمة ، انها قادمة ، تأمل العرش الاسود ،
عرش الظلمة الأزلية والفوضى القديمة !
أمامها تتبدد كل سحب الخيال الذهبية ،
وتتلاشي كل أقواسه القزحية »

بينما تأفل النجوم الذابلة نجما بعد نجم
من الأفق الأثيرى ، عند سماع لحن ميديا الرهيبة
وهكذا عند الاحساس بدنوها ، وخشية جبروتها الخفى ،
ينطفئ الفن تلو الفن ، وتمسي الدنيا ظلاما فى ظلام .
فانظر الى الحقيقة وقد هربت متسللة الى كهفها القديم ،
وفوق رأسها أهيلت جبال من الفتاوى !
والفلسفة التى كانت من قبل تستند الى السماء ،
تنكمش الى علتها الثانية ثم تموت .

والطبيعة (العلوم) تسال ما بعد الطبيعة الدفاع (ضد هيوم ؟)
وما بعد الطبيعة يستنجد بالحس الطبيعى (لوك ؟) !
وترى الأسرار الخفية تلجا الى الرياضيات (نيوتن ؟) !
ولكن عبثا نحاول ! انتهى تحملى ، وتترنح ، وتهذى ، ثم تموت .
ويستر الدين نيرانه المقدسة وقد احمر وجهه خجلا ،

وتذوى الفضيلة دون أن تدري . . .
فهناك دولتك الرهيبة وقد عادت أيتها الفوضى ،
والنور ينطفئ أمام كلمتك القاتلة ،
وبدك أيتها الفوضى الجبارة تنزل الستار
فاذا الظلام الدامس بلف كل شيء (٥١) » .

ولعله حسب اسحلاله هو انهيارا للكون كله . ففد كان وهو بعد
فى الخامسة والخميس يموت من الهرم . وأصبح المشى عسبرا عليه
لأصابته بالانسقاء ، والتنفس مؤلما لأصابته بالربو . وفى ٦ مايو
١٧٤٤ أصابه هذيان كان يفبق منه فترات ، وأعرب فى أحداها عن ايمانه
بحياة بعد الموت . وسأله صديق كاثوليكي أيستدعى له كاهنا فاجاب بوب
« لست أراه ضروريا ولكنه سيكون عين الصواب ، وشكرا لأنك ذكرتى
بهذا » (٥٢) . ومات فى ٣٠ مايو ، « هادئا رابط الجأش » (١) اذا
صدقنا جونسن) ، « حتى أن خدمه لم يتبينوا بالضبط وقت وفاته » . ولم
يكن من حقه أن يدفن فى دبر وستمنستر لأنه كاثوليكي ، فوورى التراب
الى جوار أبيه وأمه فى نويكنهام .

أكان جنتلمانا ؟ لا ، فان أحقاده الفياضة بالقدر والذم ساركت
فى تسميم هواء انجلترا الأدبى فى النصف الأول من القرن الثامن
عشر ، وقد أخرجت آلامه الجسدية أحماضا لاذعة وحرمته العاقبة التى
تفيض بالحب والود على من حولها . أكان عبقرى ؟ بالطبع ، لا فى
الفكر الذى استعاره ، بل فى الشكل الذى بلغ به مرتبة الكمال فى النوع
الأدبى الذى اختاره . وقد وصفه ثاكرى بأنه « أعظم فنان أدبى شهده
العالم (٥٣) » . ففى لباقة الكلام ، وإيجاز التعبير ، وخصب العبارة ،
كان أمام عصره غير منازع . وحتى الفرنسيون قبلوه أعظم شاعر فى
جيله ، وتطلع اليه فولتير مثلا له وقلده ، كما نرى فى « أحاديثه عن
الانسان » . ولقد ظل ثلاثين عاما - أطول من أى شاعر آخر - أمير
الشعر الانجليزى ، وثلاثين عاما آخر نموذجا يحتذى الشعراء الانجليز ،
الى أن جاء وردزورت بشيرا بعصر جديد .

ونحن الذين نهول فى حياتنا اليوم رغم فراغنا كله ، نرى فى
مقطوعات بوب ، فى تشطيرها الالى ، أو فى صعودها وهبوطها

« كالإرجوحة » (٥٤) القدرة على التنويم ، فلا توقفنا الا بين الحين والحين بالابجرامات ، وحتى مقالته البارعة عن الانسان ، ليس شعرا الا فى أوزانه وقوافيه . والصنعة فيه ظاهرة فوق ما ينبغى ، فلقد نسي الفنان نصيحة هوراس له بستر فنه . كذلك غفل عما نبه اليه هوراس من أن الشاعر لابد أن يملك الشعور قبل أن يستطيع نقله ؛ وقد شعر بوب ، ولكن غالبا ليحتقر ويسب ؛ وقد افتقد الاحساس بالجمال نحو الأفعال النبيلة أو اللطف الانثوى . واستنفذ خياله فى العثور على ألفاظ رقيقة ، بتارة ، مركزة ، لأفكار قديمة ؛ فلم يتناول ليمسك بالأشكال المثالية التى تلهم عظماء الشعراء والفلاسفة . ولم تعطه الأجنحة سوى أحقادها .

وهو لم يزل الى اليوم الرمز الشعري الأكبر لعصر انجلترا الاوغسطى - الذى يجوز ان نرسم حدوده بعمره ، ١٦٨٨ - ١٧٤٤ . ومعرفة الذهن الانجليزى المتزايدة بعيون الأدب اليونانى والرومانى ، وبمسرحية « القرن العظيم » الفرنسية ؛ وتأثير الارستقراطية - تأثير الطبقة المسيطرة على الكثرة - فى الحديث ، والعادات ، والألفاظ المهدبة ، ويسر السلوك وإطفه ؛ وانتقاض العقل والواقعية على الشطح الاليزابيثى وعلى التدين البيورتنى المتزمت ، وانتقال المعايير الفرنسية الى انجلترا مع عودة الملكية ، والمكانة الجديدة للعلم والفلسفة - كل أولئك تضافر لاختراع أشكال الشعر الانجليزى السائدة لقواعد هوراس وبوالو الكلاسيكية . وجاء عصر من النقد بعد عصر الخيال ، فبينما غزا الشعر فى انجلترا الاليزابيثية النثر ولونه ، نرى النثر فى انجلترا الاوغسطية يحط من قدر الشعر ويغير لونه . وكان أثر هذا الأدب « الكلاسيكى الجديد » على اللغة الانجليزية حسنا وسيئا : فقد أعطاه دقة ووضوحا ورشاقة جديدة ، ولكنها خسرت حيوية الكلام الاليزابيثى وقسوته ودفئه . وخضعت ثورة الشخصية والتعبير وفردانيتهما القديمة لنظام مفروض من فوق ، الزم بالتطابق فى الحياة ، وبالشكل فى الأدب . وهكذا استحال الشباب كهولة .

على أن الأسلوب الكلاسيكى الجديد لم يعبر الا عن شطر من الحياة الانجليزية ، فلم يكن فيه متسع للمترو ولا للعاطفة ولا للحب .

وقام شعراء بريطانيون ، حتى أيام سلطان بوب ، نددوا بالصنعة والمنطق ، وتحولوا من العقل الى الطبيعة ، ووجدوا صوتا يعبر عن الوجدان ، والدهشة ، والخيال ، والاكتئاب المتفكر ، والامل المحزون . فبدأت بذلك الحركة الرومانسية فى ذروة عصر انجلترا الكلاسيكى .

٣ - أصوات الوجدان

لم يكن الشعر الكلاسيكى الجديد يتأمل شيئا غير عالم الكتب . فقد رأى شومر وهوراس ، وأديسون وبوب ، رؤية أوضح من رؤيته للرجال والنساء الذين يمرون فى الشوارع ، أو الدلقس والمناظر الطبيعية التى تنفعل بها أمزجة الناس كل يوم . ولكن الأدب كشف الآن من جديد ما كان الفلاسفة يزعمونه طويلا ، وهو أن « الانسان » فكرة عامة غامضة ؛ وأنه لا وجود الا « للناس » ، المعتزين بفرديتهم الحريصين على واقعهم . وعمق الشعراء ذوابهم بلمسهم الأرض ، وشعورهم بالحقول والتلال والبحر والسماء واستجابتهم لها ، وبتغلغلهم الى ما وراء الأفكار ليهبطوا الى المشاعر الدفينة التى يعلنها الكلام أقل مما يخفيها . فلم يبالوا كنبرا بالكلام واعتزموا الغناء ، وعادت القصيدة الغنائية وذوت المحمة . وغلب الشوق الى العزاء المنبعث من الايمان بما فوق الطبيعة ، والى الانبهار الصوفى الذى يوسع الحياة ، هجوم الربوبية على المعجزات ، والتمس بازدياد ، فى أساطير العصور الوسطى ، ورومانسيات الشرق ، والاشكار القوطية ، شيئا من الهروب من الواقع القاسى لهذه الحياة الدنيا .

وبالطبع لم يخل عصر من أصوات الوجدان . ألم يشد « البطل المسيحى » للكاتب ستيل (١٧٠١) بالايمان القديم والعاطفة الرقيقة ؟ وألم تركز « السمات المميزة » لشافتسبرى (١٧١٠) حياة البشر فى « العاطفة » و « المحبة » ؟ وألن يشتق المتشكك هيوم والاقتصادى سمث كل الفضيلة من شعور الأخوة والتعاطف ؟ ولكن جيمس طومسن هو الذى ضرب أول ضربة واضحة جلية دفاعا عن قضية الاحساس ورقة الشعور .

وكان ابن قسيس فقير فى تلال اسكتلنده . نزل الى أدنبره ليدرس للقسوسية ، ولكن عاقه عن غايته ادانة الاساتذة لأسلوبه لأنه شعري

بصورة لا تتفق ولغة الدين . فهاجر الى لندن ، وسرق ماله فى الطريق ،
وأشرف على الهلاك جوعا ، وباع قصيدته « الشتاء » (١٧٢٦) ليشترى
حذاء (٥٥) . على أن اهداه اياها الى السر سبنسر كونتن أتاها
بعشرين جنيهها ثمنا لثائه ؛ ولا غرابة فان النبلاء الانجليز لم يكونوا
صما أو بخلاء بالقدر الذى خاله جونسون . وتصور طومس فى قصيدته
صوت النعال وهى تطحن قشرة الجليد ، وكيف :

« سمع الرياح تزار والمسيل العميق يهدر ،
أو رأى العاصفة العميقة الثوران تتجمع
فى سماء المساء الكالحة ؛ »

وكيف راقب من الشاطئ الرياح وهى تحرث البحر ، وتقلب
« الليم من قاعه وقد تغير لونه » ، وتمزق المراكب من مراسبها ، وترفعها
رفعا خطرا فوق موجة وتهوى بها هويا منذرا تحت أخرى ، وتقذف
بها فوق « صخر مدبب أو مياه ضحضاة غادرة » ثم تبددها « شظايا
متناثرة ... تطفو فى حركة دائرة » . وصور الفلاح وقد اقتنصته
عاصفة من الثلج الذى يعمى العيون ، تغوص قدماه المتجمدتان فى
الثلوج العميقة وهو يكافح فى سيره ، حتى يعجز عن رفع حذائه ، فيقع
منهوكا فريسة للموت متجمدا .

« أواد ، ما اقل ما يخطر ببال المستكبرين ، المستبيحين المرحين ،
كم من الناس يحسون فى هذه اللحظة بالموت
وكل ضروب الألم الحزينة
وكم يذوون فى الفاقة وغياهب السجون محرومين مما ينعم به
المخلق كلهم من تنسم الهواء
وتحريك الأطراف ، وكم يتجرعون كأس
الحزن القاتل ، أو ياكلون خبز الضيق المر ، وقد اخترمت
اجسامهم رياح الشتاء ،
وكم ينكمشون فى ذلك الكوخ القذر ،
كوخ الفقر التعس » .

هنا نغمة جديدة من الشفقة تخزى « بل مل » وداوننج سترتت ،

وعودة تنعش النفس الى شعر ملتن المرسل عقب ما وصف به طومسن
قوافى بوب من « بهرجة تافهة » .

وشهد عام آخر ، وراع جديد لطومسن ، طبع قصيدته « الصيف »
(١٧٢٧) ؛ وفى ذلك العام شارك بقصيدة شهيرة فى صيحة الحرب
على أسبانيا :

« حين انبعثت بريطانيا أول مرة
بأمر السماء من اليم الأزرق ،
كان هذا دستور أرضها ،
وتغنت ملائكتها الحارسه بهذا اللحن :
احكمى يا بريطانيا ، تسلطى على الأمواج ؛
ان البريطانيين لن يستعبدوا أبدا » .

ومن لندن راح يجول الأيام والأسابيع فى الريف ، مستوعبا بحواس
الشاعر المرفهة « كل مشهد ريفى ، وكل صوت ريفى » ، يحب « رائحة
الالبان » المنبعثة من المزارع ، وينتشي بمنظر الشمس منتصرة عقب
المطر ، أو يسبق كيتس فى اكتئابه لمراى الخريف . وهكذا نشر قصيدته
« الربيع » فى ١٧٢٨ ، وبإضافة قصيدة « الخريف » ومطلعها (« حين
تبدأ الورقة المسمومة فى الالتواء ») جمع القصائد الأربع كلها فى
ديوان « الفصول » (١٧٣٠) . وقد كوفىء بجولة فى القارة رفيقا
لتشارلز تالبوت ، ابن وزير الخزانة فى ذلك الحين . فلما عاد عاش
فى دعة ونظم الشعر الردىء الى أن مات الوزير (١٧٣٧) . وبعد أن
صاحب الفقر فترة أخرى قدموه الى ولى العهد (أمير ويلز) الذى
سأله عن أحواله ، فأجاب « انها فى وضع أكثر شاعرية من ذى قبل » .
وتلقى معاشا قدره مائة جنيه مكافأة على ملاحظته الساخرة هذه . ثم
قضى عليه برد أصيب به على التيمز ، ومات غير متجاوز الثامنة
والأربعين .

وقد قررت « الفصول » أسلوبا جديدا فى شعر إنجلترا الأقل شأنا ،
ووجدت أتباعا فى فرنسا ؛ هناك نظم جان فرانسوا دسان - لامبير ،

الذى سرق اميلى من فولتير ، قصيدته « الفصول » (١٧٦٩) . وبينما كانت مقاطع الشعر الملحمى تختال عبر القرن ، كان ادورد ينج ، ووليم كولنز ، ووليم شنستون ، ومارك اكينسايد ، وتوماس جراى ، يوسعون الطريق الرومانسى المفضي الى وردزورث وتشاترتن . أما ينج فبعد ان ظل ينظم الشعر التافه المرح حتى الستين من عمره ، عمل لآخرته بديوان شعر اسمه « خواطر لبلىة فى الحياة والموت والخلود » (١٧٤٢ - ٤٤) . وقد شجب فولتير هذا النتاج اللبلى لانه « مزيج مهوش من الشعر الطنان والتوافه الغامضة » ، ولكن ربما كان دافعه الى هذا الحكم أن ينج كان قد وخزه ببيتين لاذعين قال فبهما :

« اذك مسرف فى الذكاء ، والحلاعة ، والنحول ،
حتى لنحسبك ملتن ، والموت ، والخطيئة ، مجتمعة كلها فى
رجل واحد (٥٦) » .

وأما وليم كولنز فعاش نصف عمر ينج ، وكتب أقل مما كتب ينج وأجود منه مرتين . هرب من دعوة لاحتراف القسوسية ، وأنفق آخر دراهمه فى صقل الأبيات الالف والخمسمائة التى نظمها قبل أن يجن ويموت (١٧٥٩) وهو بعد فى الثامنة والثلاثين . وأجمل من قصيدته « نشيد المساء » التى ظفرت بالتقريظ القبرية التى كتبها رثاء للجنود البريطانيين صرعى المعركة فى ١٧٤٥ :

« كيف ينام الشجعان الذين يسقطون ليرقدوا
وفد باركتهم كل دعوات وطنهم !
حبن يعود الربيع الذى بلل الندى أصابعه الباردة
لجمل ترابهم المقدس ،
هنالك بكسو بالعشب ثرى اعطر
مما وطئته أقدام الخبال .
اجراسهم ندقها أيدي الجان
ولحن الموت نرتله أفواه لا ترى ،
هنالك بخضر « الشرف » ، حاجا أشعب الشعر ،

ليبارك العشب الذى يكسو ثراهم ،
وتذهب « الحرية » برهة
لتقيم كالناسك الباكى على قبورهم » .

وأكثر من يذكر بين شعراء الوجدان هؤلاء ذلك الروح الغريب
الذى أسبغ على اكتئاب الشباب كثيرا من العبارات الرقيقة . ذلك
هو توماس جراى ، الذى كان أحد اننى عشر طفلا ولدوا لكاتب عمومى
لذنى ، مات منهم أحد عشر فى طفولتهم . ولم يتخط توماس هذه السن
الخطرة الا لأن أمه استعملت مقصها لتفتح وريده بعد أن رآته يتشنج .
فلما بلغ الحادية عشرة ذهب الى انتن ، حيث بدأ صداقاته المشؤمة مع
هوراس ولبول ورتشرد وست نم مضي الى كمبردج ، التى وجدها
« مملوءة بالملحوقات المكتتبة والمعلمين المجدين » . وأراد أن يدرس
القانون ، ولكنه انزلق الى دراسة الحشرات وقرض الشعر ، وانتهى الى
التبحر فى اللغات والعلوم والتاريخ الى حد خنق العلم فبه شعره .

وفى ١٧٣٩ جاب أوروبا مع هوراس ولبول . فلما عبر جبال
الالب فى الشتاء كتب يقول « ما من جرف ، ولا سيل ولا منحدر فيها
الا وهو مفعم بالدين والشعر » ، وفى ١٧٤٠ حين كتب من روما أدخل
الى اللغة الانجليزية كلمة جديدة هى picturesque (أى الشبيه
بالصورة الرائعة) . ولم يكن قاموس جونسن يعرف هذه الكلمة حتى
فى ١٧٥٥ . وفى ريدجو ايميليا تشاجر مع ولبول ، فقد كان هوراس
شديد الوعى بنبالته ، وتوماس شديد الفخر بفقره ، ووشتي « صديق
للطرفين » لكل منها برأى الآخر المستتر فيه ، فافترقا ، وواصل جراى
رحلته منفردا الى البندقية وجرينوبل ولندن .

وبغضه فى الحياة موت صديقه وست (١٧٤٢) فى السادسة
والعشرين من عمره . فاعتكف فى بيت عم له فى ستوك بوجز ، وهناك ،
وسط دراساته المتصلة ، كتب (١٧٤٢) « قصيدة غنائية فى نظرة من
بعيد لكلية ايتن » . اذ نظر من مسافة مأمونة الى هذه المشاهد المدرسية ،
فقد تذكر صديقه الذى قصف الموت عمره قبل الاوان ، ووراء العاب هؤلاء
الشباب ومرحهم رأى ببصر مكتئب مصائرهم الشقية :

« هؤلاء ستمزقهم الانفعالات والعواطف الجامحة ،

ونسور العقل الجارحة ،
والغضب المفعم بالاحتقار ، والخوف الشاحب الوجه ،
والخجل الذى يتوارى مختبئاً ؛
أو يفنى الحب المعذب شبابهم ،
أو الغيرة المكثرة عن نابها ،
التي تقرض القلب فى شغافه
والحسد الشاحب ، والهم الذابل ،
والياس المتجهم الذى لا يقبل العزاء ،
وسهم الحزن الذى يخترم النذس .

انذر ، فى وادى الحياة أسفلك
تر رهطاً رهيباً ،
هم أسرة الموت المؤلمة ،
الأبشع منظرًا من ملكتهم .
فهذا يحطم المفاصل ، وهذا يلهب الأوردة ،
وذاك يوجع كل عضلة مجهداً ،
وأولئك يحدثون ثورة فى الأحشاء الدفينة .
ثم ها هو الفقر أقبل ليكمل الفرقة ،
الفقر الذى يخلد الروح بيده الباردة ،
والهرم الذى يبرى الناس على مهل .

لكل انسان آلامه ، والكل بشر ،
قضى عليهم كلهم بالآنين ،
فالحنون يئن لألم غيره ،
والقاسي يئن لألم نفسه ،
ولكن واهاً لهم ! فلم يبصرون بحظوظهم ،
ما دام الحزن لا يبطىء مجيئه أبداً ،
والسعادة سربعة الهروب ؛

ان التفكير كفيل بان يدمر فردوسهم ،
فأمسك ، لانه حيث يكون الجهل نعيماً
فمن حماقة ان تكون حكيماً » .

وفى أواخر ١٧٤٢ قفل جرای الى كمبردج ليستأنف دراساته .

وأرسل الى ولبول ، بعد أن اصطلحا ، (١٧٥٠) « مربية مكتوبة فى فناء كنيسة ريفية » . وداولها ولبول بين أخصائه وطبعها ناشر لص وحرفها . . وحماية لشعره سمح جراى لددسلى بأن يصدر نسخة أفضل وان شابها النقص هى أيضا (١٧٥١) ، فى هذه القصيدة التى نعد من أروع قصائد القرن ألبس جراى الاكتتاب الرومانى لبوسا كلاسيكيا دقيق النحت ، مسندلا بمقطوعات بوب الزوجية العالية الرنين رباعيات هادئة تتحرك فى وقار نسجى الى خاتمتها الحزينة .

وفى ١٧٥٣ ماتت أمه ، فكتب لها قبرية رقيقة ، ودفن همومه فى الشعر . وفى قصيدة غنائية عن « تقدم الشعر » حيا انتقال ربات الفن والأدب من اليونان والرومان الى « ألبيون » ، واعترف بتطلعات صباه الى مباراة الشاعر بندار ، والتمس من الشعر أن يهبه عطية « العتل الذى لا يقهر » . وفى قصيدة غنائية أكثر سُمونا حنى من هذه ، واسمها « الشاعر » ، رأى جراى فى الشعراء ضربا من التكفير عن سيئات الحياة البريطانية يفضح الرذيلة والطغيان . هانان « القصيدتان الغنائيتان البنداريتان » ، اللتان نسرتهما مطبعة ولبول فى ستروبرى هل ، بلغتا فى افتعال الشكل والازدحام بالشواهد القديمة والوسيلة مبلغا جعل فهمهما عسيرا على القراء الا الراسخين منهم فى الأدب . وقد لف جراى نزوعه هذا للعزلة فى ثوب من الكبرياء فقال « ما كنت لأضيف حاشية (تفسيرية) أخرى لأنقذ أرواح جميع البوم الذين فى لندن . ان الوضع الراهن حسن جدا - فلا أحد يفهمنى ، وأنا راض بهذا تمام الرضى . وكان البوم معتادا على مثل هذا الصفير فى الظلام .

واذ انكفا مكتئبا الى غرفته ببيترو هاوس فى كمبردج يعانى من فقر وتهيب منعاه من الزواج ، ومن حساسية شديدة قعدت به عن نضال الحياة ، فقد أمسى انسانا منطويا محزونا ؛ وروعه بعض الطلاب ذات ليلة ، وقد ساءهم منه عزوفه ووقاره ، وعرفوا فيه الخوف من النار ، فصاحوا تحت نافذته بأن الردهة تحترق . وفى رواية مختلف عليها انه أدلى نفسه من النافذة وهو فى قميص النوم وانزلق على حبل - ليقع فى حوض ماء وضعه العابثون ليتلقاه (٥٨) . وفى ١٧٦٩ جاب اقليم البحيرات الانجليزية ، وفى اليومية التى كتبها (بخط غاية فى الجمال) جعل انجلترا تدرك لأول مرة جمال ذلك الاقليم . وفى جولة أخرى

بمالفيرن تلقى نسخة من قصيده « القرية المهجورة » (لجولدسمث) فقال « هذا الرجل شاعر » ثم وضع النقرس نهاية لرحلاته ، ثم لحياته بعد قليل (١٧٧١) .

وطبقت شهرته الآفاق حيناً . فانعقد الأجماع فى ١٧٥٧ على أنه يقف على قمة الشعراء الانجليز ، وعرضت عليه امارة الشعر فرفضها . وقال فيه كوبر متخطيا ملتن « انه الشاعر الوحيد بعد شكسبير الذى يحق له أن ينعت شعره بالسمو » . اما آدم سميث فأضاف متخطيا شكسبير « ان جراى يضيف الى سمو ملتن أناقة بوب وتناغمه ، ولا ينقصه شيء ليكون - ربما - أول شاعر فى اللغة الانجليزية ، الا أن يكون قد نظم شعرا أكثر قليلا مما فعل (٥٩) » . وأعجب جونسن بالمرثية ، ولكنه كان يملك من العلم ما جعله يجد عشرات العيوب فى القصائد الغنائية . « ان لجراى ضربا من الوقار المختال ، وهو طويل القامة بفضل مشيه على أطراف أصابعه وانى لأعترف أننى أتأمل شعره برضى أقل مما أتأمل حياته (٦٠) » .

ونستطيع أن نقلب هذه الحكمة مطمئنين . فقد كانت حياة جراى تعسة لا اغراء فيها ، من شجاره مع ولبول الى قصة الحوض . وكانت أنبل أحداثها ثلاث قصائد أو أربعا ستظل أجيالا كثيرة من ادمغ البراهين على « تقدم الشعر » من اليونان والرومان الى البيون .

٤ - المسرح

ماذا كانت مسارح لندن تصنع فى نصف القرن هذا الذى نحن بصدده ؟ كان أهمها مسرح درورى لين . ثم (من ١٧٣٣) كوفنت جاردن ؛ وكان هناك مسارح صغيرة فى لنكولنز ان فيلدز وجودمانز فيلدز ، وكان فى هياماركت « مسرح صغير » للتمثيليات الهزلية ، « ومسرح جلالة الملك » للاوبرا ؛ وبلغت جملة المسارح فى لندن مثلى عددها فى باريس . وكانت حفلات التمثيل تبدأ فى السادسة مساء . أما النظارة فقد غيروا طابعهم منذ أيام عودة الملكية ، فتحول « المجتمع الراقى » الآن عن المسرح الى الاوبرا . وكان المتفرجون المحظوظون أو الاثرياء لا يزالون يجلسون على خشبة المسرح . واتسع

« قاع » المسرح وأعلاه لقرابة ألفى شخص جالسين ؛ هنالك غلبت الطبقة الوسطى ، وقررت بتصفيق الاستحسان استقبال التمثيليات ونوعيتها ؛ ومن هنا ازدياد المنافسة بين الموضوعات البورجوازية والرومانسية . واستولت النساء على كل الادوار النسائية وعلى كثير من قلوب الرجال ؛ وبدأ الآن سلطان الممثلات الشهيرات من أمثال كتي كلايف ، وبج ووفنجتن - النى رسمها هوجارت ، وحاك تشارلز ريد رواية حولها .

ولقد قال جاريك ، بما ان « هواية الممثلين الاولى ، والعظمى ، والمسيطرة ، هى الأكل (٦١) » فانهم فضلوا التمثيليات المتبلة بالجنس . وقال آدمز ، القسيس الذى رسمه الروائى فيلدنج : لم أسمع قط بتمثيليات تصلح لأن يقرأها مسيحي الا تمثيليات أديسون ، ورواية ستيل « العشاق الواعون » . على أن فيلدنج ذاته كتب هزليات فاجرة (٦٢) . وقد وصف فولتير المسارح فى إنجلترا بأنها « مجردة من اللياقة » . وناشد السرجون برنارد مجلس العموم فى ١٧٣٥ بأن يكبح شيئاً من جماح المسارح ، وزعم أن « الأمة البريطانية ... أصبحت شديدة الادمان على الملاهى الداعرة العاطلة ... حتى لقد أدهش أوربا كلها أن يتقاضي السنيورات والخصيان الايطاليون رواتب تعادل رواتب وزراء الخزانة (٦٣) » . ولم يفعل أحد شيئاً فى أمر المناظر والعبارات الخليعة ، ولكن حين سخر فيلدنج وجاى المسرح للهجو السياسى فهاجما روبرت ولبول وجورج الثانى ، استصدر الوزير ، المتسامح عادة مع المعارضة ، بطريق البرلمان قانون الرخص (١٧٣٧) ، الذى وجه أمين البلاط الى المزيد من التشدد فى منح الاذن بالحفلات المسرحية ★ .

وقد غالى ديدرو فى « موسوعته » فى الثناء على مسرحية « التاجر اللندنى » ، التى أخرجت بلندن فى ١٧٣١ ، والتى أثارت اهتمامه لأنها المسرحية التى أدخلت مأساة الطبقة الوسطى الى المسرح البريطانى . وكانت الدراما الكلاسيكية الفرنسية قد أُرست مبدأً مؤداه أن المأساة وقف على الارستقراطية ، وأنها تفقد مقامها ووقارها ان هى ذلت

★ هذا القانون بصيغته المعدلة فى ١٨٤٣ مازال قانونا بريطانيا ، ولكنه يطبق بتساهل كبير .

الى المساهد البورجوازية . وقام جورج ليللو بمغامره مزدوجة ؛ أنزل الماسة الى بيت تاجر ، وكتبها نثرا . فترى فيها التاجر الأمين ثوروجود يعتز « بكرامة مهنتنا » ويتق بانه « لما كان اسم التاجر لا يشين الجنزلمان أبدا ، فهو اذن لا يقصيه اطلاقا عن المجتمع الراقى » . والفكرة فى المسرحية هى تدمير حياة صبي تاجر على يد غانية أغوته ، والموضوع موشي بالحض على مكارم الاخلاق وملفوف فى العاطفة الرقيقة . وقد صفقت للمسرحية دافئة ، وسبى أبهجها أن ترى فضائلها ومثلها العليا معروضة على مسرح بريطانى . ورحب بها ديدرو وحكامها فى حملته للدخال « الماسة البيتية والبورجوازية » فى المسرح الفرنسى . ونقل لسنج نبرتها فى « الاذنة سارا سامسن » (١٧٥٥) . وهكذا راحت الطبقات الوسطى تؤكد ذاتها فى الأدب كما تؤكد فى السياسة .

اما فى اسكتلنده ، فقد أجم النار تحت قدر الدراما جون هيوم ، الذى أغضب زملاءه رجال الدين بكتابته واخراجة تمثيلية « دجلال » (١٧٥٦) ، وهى أنجح ماسة فى زمانها . وقد حياه ابن عمه ديفد هيوم فى نوبة من الحماسة المتدفقة لا تكاد تطلق بفيلسوف شك ، فقال انه « نلميذ صادق لسوفوكليس وراسين قد يوفق فى الوقت المناسب لتبرئة المسرح الانجليزى من تهمة الهمجية (٦٤) » . فلما رفض جاريك المسرحية ، رتب هيوم ، ولورد كيمس (هنرى هيوم) ، و « المعتدلون » من رجال الدين الاسكتلنديين اخراجها فى ادنبره ، وقام ديفد ببيع التذاكر . وكان الحدث نصرا لال هيوم جميعا ولباقى اسكتلنده ، لأن جون هيوم حول أغنية شعبية اسكتلندية قديمة الى دراما وطنية ملأت عيون الاسكتلنديين بدموع الفرح ، اللهم الا هيئة شيوخ الكنيسة بادنبره ، التى نددت بهيوم لأنه جلب العار على رداثه ، وذكرته « بالرأى الذى كانت الكنيسة المسيحية تراه دائما فى تمثيلات وممثلى المسرح لأضرارهم بالدين والفضيلة (٦٥) » . ثم صدرت اتهامات رسمية لهيوم وقسيس آخر يدعى الكسندر كارليل لحضوره التمثيل . أما ديفد هيوم الذى اضطرم بالغيرة على قريبه فقد أهدى « المقالات الأربع » لابن عمه ، وكتب اتهامات حارا لاتعصب . واستقال جون من قسوسبته ، وذهب الى لندن ، وشهد مسرحيته « دجلال » تخرج ، وعلى رأس ممثلاتها بج ووفنجتن (١٧٥٧) . هناك أيضا انتصرت المسرحية ، واحتشد

الاسكتلنديون الساكنون لندن ليصفقوا لها ، وفى نهاية هذه الحفلة الافتتاحية فى لندن هتف اسكتلندى من أعلى المسرح « اخسأوا يا قوم : فما قولكم الآن فى ويلي شكسبيركم (٦٦) ؟ » وظلت التمثيلية تتردد على المسرح جيلا بأكمله ، مع أنها اليوم ميتة موت تمثيلية أديسون « كاتو » . وحين مثلتها المسر . بيدونز بادنبره فى ١٧٨٤ ، اضطر المجمع العام للكنيسة « الى توقيت الاجتماع لأعماله الهامة بالتناوب مع أوقات تمثيلها ، بحيث يجتمع فى الأيام التى لا يمدل فيها (٦٧) » .

أما اطرب نجاح حفقه المسرح اللندنى فى هذه الفترة فكان « أوبرا السحاذ » . وقد بدأ مؤلفها جون جاي حياته صعبا فى متجر ، وارتقى حتى أصبح سكرنيرا لأيرل كلارندن ، وواحدا من أكثر أعضاء نادى « سكريليروس » حيوية ومرحا . وقد وصفه بوب بأنه :

« دمث الطبع ، رقيق العاطفة ،
فى ذكائه رجل ، وفى بساطته طفل ؛
مفطور على مرج يخفف من غضبه للحق ،
مخلوق ليهيج العصر ويسوطه معا (٦٨) » .

وقد وضع جاي بصمته على المسرح عام ١٧١٦ بتمثيلية « تريفيا أو فن التسكع فى شوارع لندن » . فقعة عجلات المركبات على أحجار الرصف ، والسائقون يستحثون خيلهم بالسوط واللسان ، و « الصبية الموحلة » تحمل السمك الى بلنجزجيت ، وهدوء « بل مل » بسيداته المعطرات ينكئن على أذرع العشاق ، والسائر يشق طريقه الملتوى وسط مباراة فى كرة القدم تسد الشارع ، واللصوص المهذبون « يخفون جيبك من أثقاله بأصابع لا تحس » ، والحارس الضخم يهدى خطاك المضطربة بمصباحه المرشد الى الطريق الأمين « ويقودك الى بايك ؛ كل هذا وأكثر منه يجده فى « تريفيا » من يريد أن يتصور لندن فى ١٧١٦ .

وفى ١٧٢٠ نشرت « قصائد » جاي بنظام الاكتتاب ، فوافته بآلف من الجنيهات خسرهما فى انهيار شركة بحر الجنوب . وخف بوب وغيره لنجدته ، ولكنه أدرك الثراء من جديد عام ١٧٢٨ بتأليفه « أوبرا السحاذ » . وتقدم لنا مقدمتها السحاذ ، الذى يقدم لنا بدوره أوبراه .

وتبدأ بأغنية شعبية يغنيها بيتشوم ، الذى يتظاهر (كما تظاهر جوناثان وايلد) بخدمة القانون بالابلاغ عن اللصوص (اذا رفضوا خدمته) ، ولكنه فى حقيقة الأمر يتجر فى البضائع المسروقة . ويصف نفسه بالرجل الأمين لأن « كل اصحاب المهن الراقية يحتال بعضهم على بعض » ، ويحدوهم الجشع للربح . ويفسد عليه أمره ان ابنته بولى وقعت فى غرام قاطع الطريق الوسيم الانيق الكبتن ماكهيث ، وربما تزوجته ، ومن شأن هذا الغرام أن يعطل تسخير مفاتن بولى فى ملاطفة المشترين والبائعين ورجال الشرطة . وتطمئنه المسز بيتشوم قائلة :

« بحقك لم يجب أن تختلف ابنتنا بولى عن غيرها من بنات جنسها ، فلا تحب الا زوجها ، ولم يجب أن يقلل زواجها من ملاحقة الرجال الآخرين لها ، على عكس ما نلاحظه فى كل مكان ؟ كل الرجال لصوص فى الحب ، ويزيد من حبهن للمرأة أن تكون ملكا لغيرهم (٦٩) » . على أن الأم تحذر ابنتها قائلة :

« لست أعارض يا بولى ، كما تعلمين ، فى أن تعبث قليلا مع زبون خدمة للعمل ، أو سبيلا لاستخلاص سر أو نحوه ، ولكنى سأقطع رقبتك لو وجدتك تصرفت كالحمقى ، وتزوجت . أيتها اللعوب » .

وتعتذر بولى عن زواجها فى أغنية شعبية :

« أيمكن أن تحكم النصيحة الغرام ؟
أيطيع كيوييد أمهاتنا ؟
لو كان قلبى باردا كالثلج
لذاب من لهيب ناره .
حين قبلنى ضمنى بشدة
وكان عناقه حلوا فلم أملك غير الامتثال ،
ورأيت أسلم وأفضل
أن أتزوج مخافة لومك وتقريعك (٧٠) » .

ويشتعل غضب بيتشوم ، وهو يخشى أن يقتله ماكهيث ويقتل زوجته ليرث ثروتهما من طريق بولى . فيبيت أن يشي بماكهيث لرجال القانون

ليشنفوه دون ريب . ويطهر ماكهيت على المسرح ، ويهدى روع بولى بعناقه ، ويؤكد لها أنه منذ الآن سيكون ملكا لها دون غيرها من النساء :

« لقد كان قلبى طليقا
يتنقل كالنحلة ،
حتى سلبت بولى لبي
كنت أرشف رحيق كل زهرة ،
وأتقلب كل ساعة ،
ولكن هنا اجتمعت كل الزهور فى واحدة » .

وتضرع اليه أن يقسم أن يأخذها معه اذا نقل . فيقسم قائلا
« أفى استطاعة أى قوة . . . أن تنتزعى منك ؟ أيسر من هذا أن
تنتزعى راتبا من رجل بلاط ، أو اتعابا من محام ، أو امرأة جميلة
من مرآة » ثم يشتركان فى ثنائية جميلة :

« هو . . . لو ألقيت على شاطيء جرينلند ،
واحتضنت فتاتى بين ذراعى ،
دافئة الجسد وسط صقيع لا ينقضي
لانقضي سريعا ليل نصف العام .
هى . . . لو باعونى فى أرض الهند
لاستطعت عقب انقضاء النهار المحرق
أن أهزأ بالكدح فى القىظ الشديد
ما دمت أستريح على صدر فاتنى .
هو . . . ولأحببتك اليوم كله ،
هى . . . ولتعانقنا ولعبنا كل ليلة ،
هو . . . لو سرحت معى فى هيام
هى . . . فوق التلال ، بعيدا جدا » .

وتبوح له بأن أباهما يدبر تسليمه للقانون ، وتطلب اليه فى أسي
أن يختفى برهة . فينصرف ، ولكنه يتوقف فى حانة ليعطى أعروانه
تعليماته بشأن احدى سرقاته . فاذا انصرفوا رقص وعبث مع فتيات

الحانة ، وكان بيتشوم قد رشاهن ليشين به ، فيسرقن مسدسيه وهن يدللنه ، ثم يستدعين الشرطة ، ونراه فى سجن نيوجيت فى المنظر التالى . هناك تتنافس عليه بولى واحدى زوجاته ، وتحررانه من السجن ، ولكن يقبض عليه من جديد ويرسل الى المشنقة ، وفى طريقه اليها يعزى نساءه بهذه الاغنية :

« وداعا اذن يا حبى - وداعا يا ساحراتى العزيزات !
انى اموت راضيا - وهذا خير لكن .
هنا ينتهى كل نزاع طوال ما بقى لنا من حياة ،
لانى بهذا ارضي زوجاتى اجمعين (٧١) » .

ويظهر الآن الشحاذ المؤلف ، ويفخر بانه جعل الرذيلة تلقى ما تستحقه من عقاب ، كما هى الحال فى جميع التمثيليات اللائقة ، ولكن ممثلا يعترض بان « الاوبرا يجب أن تنتهى نهاية سعيدة » (لشد ما تتغير العادات !) . ويذعن الشحاذ ، وينقذ ماكهيث من حبل المشنقة ويحيط عنقه بحبل آخر هو بولى ، ويرقص الجميع حولهما ، بينما يتساءل الكبتن ، أترأه لقى مصيرا شرا من الموت .

وكان من حسن حظ جاي أن أفاد من خدمات يوهان بوش ، وهو مؤلف موسيقى المانى يقطن انجلترا ، واختار بوش موسيقى لاغانى جاي من الالحن الانجليزية القديمة ، وكانت النتيجة رائعة . فقد استجاب الجمهور بحماسة فى حفلة الافتتاح بمسرح لنكولنز ان فيلدز (٢٩ يناير ١٧٢٨) رغم ما جاء فى المسرحية من هجو للرشوة والنفاق . واستمر عرضها ثلاثا وستين ليلة متوالية ، وفاقت فى هذا كل ما سبقها من تمثيليات ، وعرضت عروضاً طويلة فى كبرى المدن البريطانية ؛ ومازالت تشغل المسرح فى قارنتين ، وقد حولت الى فلم من أبهج الافلام فى عصرنا . أما الممثلة التى قامت بدور بولى فقد أصبحت معبودة الفتيان الطائشين المرحين ، وتزوجت دوقا . ولكن رجلا من رجال الكنيسة الشديدة الاحتفال بالطقوس ندد بجاي لأنه جعل قاطع طريق بطلا لتمثيليته ، ولأنه تركه يفلت من العقاب . فلما حاول جاي أن يخرج تنمة للتمثيلية سماها « بولى » رفض كبير الامناء الترخيص

بها . فنشرها جاي ، وراجت ، وتصاعدت حصيلة « أوبرا الشحاذ » تصاعدا سارا ، حتى قال ظريف ان التمثيلية جعلت جاي غنيا (rich) وجعلت رتش (المدير) مبتهجا (gay) . وبعد أربع سنوات من انتصار الشاعر أصيب بمغص أودى بحياته .

٥ - الرواية

كان الحدث البارز فى التاريخ الأدبى لهذه الحقبة هو ظهور الرواية الحديثة . فروايتا « كلاريسا » و « توم جونز » من الناحية التاريخية أهم من أى قصيدة أو مسرحية انجليزية فى ذلك العهد . ومنذ عام ١٧٤٠ ، باتساع مجال الحياة العامة وامتداده من البلاط الى الشعب ، ومن الافعال الى الأحاسيس ، حطت الرواية محل الدراما صوتا ومرتبة لانجلترا .

أما القصص فكانت قديمة قدم الكتابة . فللهند حكاياتها وخرافاتها ؛ واليهودية ضمنت أدبها أساطير لراعوث واسثير وأيوب ؛ واليونان الهلنستية والأقطار المسيحية الوسيطة أخرجت رومانسيات مغامرة وحب ، وايطالية النهضة أنتجت آلاف « النوفلى moveille » (أى المستحدثات الصغيرة) ، كما فى بوكاتشو وبانديلو ، وأسبانية النهضة وانجلترا الاليزابيثية كتبتا حكايات تشرد لاوغاد رائعين ، وفرنسة القرن السابع عشر أثقلت الدنيا بقصص حب أطول كثيرا من الحب . وقص لساج قصة جيل بلاس ، وجود ديفو حكاية المغامرة بيانا لشجاعة الانسان ؛ وسخر سويفت قصة الرحلات ليسلخ بها جلد البشر .

ولكن أكادت هذه الآثار روايات بمعناها الحالى ؟ لقد أشبهت قصص القرن الثامن عشر فى كونها حكايات خيالية ، وامتاز بعضها بميزة الطول الذى لا شك فيه ، وصور بعضها الشخص بجهد يحاول تجسيد الواقع ؛ ولكنها (ربما باستثناء كروسو) افتقدت الحبكة التى تربط بين الأحداث والشخص فى كل متطور . لقد كان فى قصة « الأورونوكو » للسيدة أفرا بن (١٦٨٨) ، وهى قصة عبد أفريقى ، حبكة رابطة ، وكذلك قصص ديفو « الكبتن سنجلتون » (١٧٢٠) ،

و « مول فلاندرز » (١٧٢٢) ، و « روكسانا » (١٧٢٤) ، ولكن هذه كلها كانت لا تزال سلسلة من الأحداث المترابطة أكثر منها وحدة بنائية يعمل كل جزء فيها على تقديم موضوع يوحد بينها . فلما ملك رتشردن وفيلدنج ناصية فن التطوير هذا ، وصورا الشخصية وهى تنمو خلال الأحداث ، وجعلا رواياتهما تصور العادات فى عصرنا ، كان هذا استهلالا للرواية الحديثة .

١ - صموئيل رتشردن : ١٦٨٩ - ١٧٦١

كان الرجل الذى استهل عصر الرواية الجديدة ابن نجار من داربيشير انتقل الى لندن عقب مولد صموئيل . وكأنت الأسرة ترجو أن تجعل الصبى قسيسا ، ولكن الفقر عافها عن تأهيله التأهيل المدرسي المطلوب ؛ على أنه وفق فى أن يضمن كتبه شيئا من الوعظ . وكان الوسط الذى شب فيه يحتفظ بالفضيلة البيورتانية . وألحق صبيا لطباع ، وأعانه اشتهاره بجمال الخط على زيادة دخله بتدبيجه الرسائل للفتيات الأميات اللاتى أضناهن الحب ، وقد قررت هذه المصادفة الشكل الذى اتخذته رواياته ، أعنى شكل الرسائل ، وما أفاضت فيه هذه الروايات من ريادة لسيكولوجية المرأة وسبر لعواطفها . وأفاده جده واقتصاده ، فأنشا مطبعة خاصة به ، وتزوج ابنة مخدومه السابق (١٧٢١) ، وأنجب منها ستة أطفال ، مات منهم خمسة فى حوادثهم . كذلك ماتت أمهم (١٧٣٠) وهى ما تزال صغيرة السن محبوبة ، وأعانت هذه الاحزان على خلق مزاجه الذى تغلب عليه الكآبة . وتزوج ثانية ، وأنجب ستة أطفال آخرين ، واكتوى بمزيد من الاحزان ، ثم ارتقى لوظيفة طباع مجلس العموم . وبلغ الخمسين من عمره قبل أن ينشر كتابا .

وفى ١٧٣٩ كلفه صديقان طباعان بكتابة مجلد صغير من نماذج للرسائل مرشدا « للقراء الريفيين الذين لا قدرة لهم على التحرير بأنفسهم » ، ومعلما فى « التفكير والتصرف بصواب وحكمة فى الشؤون العادية لحياة الانسان (٧٢) » . وبينما كان رتشردن يعد هذا الكتاب - وهنا اغتنمت العبقرية فرصة الظرف - خطر له أن ينسج سلسلة من الرسائل فى قصة حب تشرح الفضيلة الحكيمة فى بطلتها العذراء . ولعل

الموضوع ، وهو العفة المصونة خلال سلسلة طويلة من المغريات ، قد أُوحت به قصة « حياة ماريان » (١٧٤١ - ٤١) التى ألفها الكاتب الفرنسى ماريفو . أيا كان الأمر ، فإن رتشرسن أقام فى نوفمبر ١٧٤٠ معلما على طريق الأدب الانجليزى بإصداره كتابا فى مجلدين سماه « باملا ، أو الفضيلة التى كوفئت ؛ سلسلة من الرسائل العائلية من آنسة شابة جميلة الى أبويها ؛ منشورا لأول مرة ليربى مبادئ الفضيلة والدين فى عقول الشباب من الجنسين » وراج الكتاب ، وأضاف اليه رتشرسن مجلدين آخرين فى ١٧٤١ ، « باملا فى أسمى حالاتها » ، يقصان فضائلها وحكمتها بعد زواجها .

ومازال نصف القصة الأول طريفا ، لأننا لا نكبر أبدا على استطرفنا لقصص الاغواء - وإن كان كل شيء حتى الاغواء يصبح مملا بعد ألف صفحة . ويبدأ التركيز على العاطفة فى الصفحة الأولى ، حيث تكتب باملا « أواه ! لكم تذرف عيناي الدمع مدرارا ! لا تعجبا اذا رأيتما الورق شديد التلوث » . وهى مثال الطيبة والتهديب والتواضع . فلما أرسلت خارج الأسرة لكى « تخدم » وهى فى السادسة عشرة حولت لأبويها أول ما كسبت من مال « لأن العناية الالهية لن تتركنى فى عوز ... فاذا حصلت على المزيد فانى واثقة بأنه من واجبى ، وسيكون موضع اهتمامى أن أحبكما وأعتز بكما ، لأنكما أحببتمانى واعتزتما بى حين لم كن أقوى على صنع شيء لنفسي (٧٣) » . أما الابوان الحذران فيرفضان انفاق المال حتى يطمئنا الى أنه ليس عربونا يدفعه مخدومها الأعزب لوصالها . وينبهانها الى أن جمالها يعرض عفتها للخطر « اننا نخاف - نعم ، يا بنيتى العزيزة ، اننا نخاف - لئلا تشتطى فى عرفان الجميل ، فتكافئيه بتلك الجوهرة ، بفضيلتك ، التى لا يستطيع مال ... أن يعوضك عنها » . فتعهدهما بأن تكون حذرة وتضيف « ما أجمل فعل الخير ! انه كل ما أحسد عليه العظماء » . وعواطفها جديرة بالاعجاب وإن فقدت بعض فتنتها لأنها تصرح بها . وفى مأساة متفاقمة يدخل مخدومها مخدعها دون التمهيد الواجب ، ويضمها الى صدره المضطرب . فيغشي عليها ، وتفسد خطته . فلما أفاق « وضعت يدي على فمه وقلت : أواه ! قل لى ، ولكن لا تقل لى ، ماذا عانيت أنا فى هذه المحنة ؟ (٧٤) » . فيؤكد لها أن مقاصده

أخفقت . واذ تقدر ما ينطوى عليه اشتهاؤه لها من تحية ، تتعلم شيئا فشيئا أن تحبه ، وتعد المراحل التى تتدرج فيها عاطفتها من الخوف الى الحب ، لمسة من اللمسات الرقيقة الكثيرة التى تدعم شهره رتشرdsn كاتب سيكولوجيا . على أنها تقاوم كل حصاراته رغم ذلك ، وينتهى به الحال الى الانهيار ، فيعرض عليها الزواج . واذ أسعد باملا انها انقذت فضيلتها وروحه ، فانها تعتزم أن تكون زوجة انجليزية مثالية : تلزم بيتها ، وتجنب الحفلات الفخمة ، وتمسك حسابات الأسرة بعناية ، وتوزع الصدقات ، وتطهو الهلام والكعك والحلوى والفاكهة المحفوظة ، وتكون شاكرة اذا تفضل عليها زوجها بالحديث معها بين الحين والحين هابطا السلم الطبقي اليها . ويختتم رتشرdsn المجلد الثانى بعظة فى فوائد الفضيلة فى المساومة بين الجنسين ، « ان ناشر هذه الصفحات سيحقق هدفه اذا أوحى (فضيلة باملا) بالقذوة المحمودة فى عقول أى أشخاص أفاضل ، قد يكتسبون بهذا حقا فيما نالته باملا عن جدارة من أسباب اللواب والثناء والبركة » .

وأضحك هذا بعض الانجليز ، مثل فيلدنج القوى الصب ، ولكن آلاف مؤلفة من قراء الطبقة الوسطى شاركوا باملا خفقات قلبها فى تعاطف . وأطرى رجال الدين الكتاب ، وقد سرهم أن يجدوا مثل هذه الدعامات لعظاتهم فى أدب بدا أنه باع نفسه لرئيس الشياطين (بعلزبول) . ونفدت أربع طبعات من باملا فى ستة أشهر . وبالطبع حث الناشرون رتشرdsn على مزيد من التنقيب فى هذا المنجم الغنى ، ولكنه لم يكن بالكاتب المرتزق ، ثم ان صحته بدأت تعتل . فكريث ، ومضى فى أعماله الطباعية . ولم يخرج رائعته التالية التى جاءت به بأوربا البورجوازية كلها عند قدميه الا عام ١٧٤٧ .

وقد صدرت هذه الرائعة ، واسمها « كلاريسا ، أو تاريخ شابة » وطولها ألفا صفحة ، فى سبعة مجلدات ، ما بين نوفمبر ١٧٤٧ وديسمبر ١٧٤٨ . وكان قد ساءه اتهامه بأن قصة باملا أظهرت الفضيلة مجرد خطة للمساومة ، وأنها صورت فاسقا صلحت حاله تصويرها لزوج صالح ، لذلك عمد الى اظهار الفضيلة هبة الهية سوف تثاب فى السماء ، واظهار فاسق سادر فى غيه مقضيا عليه لا محالة بنهاية سيئة مدمرة ،

وخلصة القصة ان لفلبس الطائش الذى اشتهر بانه شيطان مع النساء ، يطلب يد كلاريسا هارلو ، فلا تثق به ، ولكنها مفتونة أشد الفتنة بشهرته . وتحظر عليها أسرتها لقاء وغد كهذا وتغلق أبوابها فى وجهه ، وتعرض عليها مستر سومز ، وهو رجل لا رذائل فيه ولا شخصية ، فترفضه ؛ ولكى يكرهوها على الاذعان يوبخونها ويعذبونها ويحبسونها . ويسناجر لفلبس مساعدا ليزيف هجوما مسلحا عليها من أقاربها ؛ ولكى تفر منهم تسمح له بخطفها الى سانت البانس . وهى راغبة فى الزواج منه ، ولكنه يرى فى هذا مغامرة يائسة جدا . فيكتب لصديق له :

« ... كنت أصمم على الزواج لولا هذا الاعتبار ، وهو أننى متى تزوجت مرة أصبحت متزوجا مدى الحياة . تلك هى المصيبة ! لو أن الرجل استطاع أن يفعل كما تفعل الطير ويغير (زوجته) كل عيد من أعياد القديس فالنتين . . لما كان فى الأمر بأس على الإطلاق . . . وتغيير كهذا سيكون وسيلة للقضاء على . . أربع أو خمس كبائر فظيعة : هتك العرض ، الذى يطلق عليه هذه التسمية السوقية ، والخيانة الزوجية ، والزنا ؛ كذلك لن يلهث الرجل وراء تعدد الزوجات ، وستمتنع كثيرا جرائم القتل والمبارزة ، ولن يسمع الناس بشيء اسمه الغيرة (وهى العلة فى أعمال العنف المفزعة) . . . ولن تكون هناك امرأة عاقر . . . فكلا الجنسين سيحتمل الآخر ، لأن فى استطاعتهما ان يراعى كل منهما مصلحته بعد بضعة أشهر . . . وستزدحم الصحف بفقرات . . . تعنى بتعارف المحبين . عندها لن يكون التميز جميلا جدا يا جاك ؟ تماما كما فى الزهور ، فهذا السيد ، أو هذه السيدة ، اما موسمى (أو موسمية) ، واما مستديم (أو مستديعة) (٧٥) » .

ويحاول اغواء كلاريسا ، فتنذره بأنها قاتلة نفسها ان لمسها ، فيحبسها حبسا خسيسا وان تلطف معها فيه ، وترسل خلاله الرسائل المفعمة حزنا لانا هاو ، صديقتها التى تأتمنها على سرها . أما هو فيخترع الحيلة تلو الحيلة ليخترق معاقل دفاعها ، فتقاومه ، ولكنها

ترى أن عرضها تلوث تلوثا لا براء منه لأنها قبلت نصف قبول أن تهرب معه . وتكتب الرسائل الأليمة لأبيها ضارعة اليه أن يغفر لها بل أن يسحب اللعنة التي استمطرها عليها ، والتي تعتقد أنها ستقفل في وجهها أبواب الجنة الى الأبد ، ولكنه يأبى ، فتصيبها علة مدمرة لا يسندھا فيها غير إيمانها . أما لفليس فيختفى في فرنسا ويقتل في مبارزة بيد عم كلاريسا ، وأخيرا يأتى أبواها عارضين عليها المغفرة ، فيجدانها ميتة .

انها قصة بسيطة ، طال عزفها على نغمة واحدة طولا لا يمكن أن يشد عقولنا المحمومة ، ولكنها أصبحت في انجلترا القرن الثامن عشر مثار خلاف قومي . فكتب مئات من القراء الى رتشرdsn في فترات الغش يتوسلون اليه الا يدع كلاريسا تموت (٧٦) . ووصف أحد الآباء بقاته الثلاث بأنهن « في هذه اللحظة تمسك كل منهن بمجلدها الخاص (من كلاريسا) ، وعيونهن كلها بللها الدمع كأنها زهرة مخضلة في الربيع (٧٧) » . أما الليدى مارى ورتلى مونتاجيو ، التي بلغت غاية ما تبلغ نساء عصرها الانجليزيات من علم وثقافة ، فقد تقبلت الكتاب على أنه استرضاء لعواطف الطبقة الوسطى وحماسة الجماهير ، ولكنه أذى ذوقها الارستقراطى . قالت :

« كنت تلك الحمقاء العجوز التي بكت على كلاريسا هارلو كما تبكى أى بائعة لبن في السادسة عشرة لسماعها أغنية « سقوط السيدة » الشعبية . والحق أن المجلدات الأولى الآنتنى بما حوت من شبه كبير بأيام صباى ، ولكن الكتاب في جملة بضاعة غثة . . . ان كلاريسا تتبع قاعدة الافضاء بكل أفكارها لكل من تراه ، وقد غاب عنها أن أوراق التين في وضعنا البشرى الشديد النقص لازمة لعقولنا لزومها لأجسامنا ، وليس من اللياقة أن نعرض كل أفكارنا ، تماما كما أنه ليس من اللياقة أن نعرض كل أبداننا (٧٨) » .

والحت نساء انجلترا الآن على رتشرdsn المنتصر في أن يصور لهن رجلا مثاليا كما صور المرأة المثالية - في ظنهن - في باملا . فتزداد أمام هذه المهمة الشائكة ، ولكن حفزه اليها هجو فيلدنج لباملا في روايته

« جوزف أندروز » ، كما حفزته اللوحة الكاملة المفصلة التي رسمها فيلدنج لرجل فى روايته « توم جونز » ، وعليه فقد أخرج بين نوفمبر ١٧٥٣ ومارس ١٧٥٤ ، فى مجلدات سبعة ، « قصة السر تشارلز جرانديسن » . ومزاج عصرنا الذى لا يبالى يصعب عليه أن يفهم لم لقيت هذه الرواية الثالثة نجاحا عظيما كما لقيت أختاها من قبل ؛ فانقراض القرن العشرين على البيورتانية ، وعلى التوفيق الذى حاوله العصر الفكتورى الوسيط ، ختم على قلوبنا فلم تعد ترى صور الطيبة المثالية ، على الأقل فى الذكور ؛ فقد لقينا رجالا طيبين ، ولكن أحدا منهم لم يخل من عيوب تكفر عن طيبته . ولقد حاول رتشرdsn أن يجعل السر تشارلز ببعض الهنات ، ولكننا ما زلنا نكره هذه الشقة البعيدة بينه وبيننا . أضف الى ذلك أن الفضيلة تفقد فتنتها اذا عرضت على الانظار . ولقد أفلت جرانديسن بالجهد من أن يسلكه صانعه فى زمرة القديسين .

والح رتشرdsn على الوعظ الحاحا جعله يسمح لبعض العيوب أن تشوب فنه الأدبى . فأنعدمت أو كادت الفكاهة والنكتة الذكية عنده ، وأوقعته محاولة حكاية قصة طويلة بالرسائل فى أشياء بعيدة الاحتمال (كذكر العدد الهائل من الأحاديث) ، ولكنها أتاحت له عرض الأحداث نفسها من مختلف وجهات النظر ، وأضفت على الحكاية ألفة لا تكاد تتيسر فى شكل أقل ذاتية . وكان مما يتمشى تماما مع العرف فى ذلك العصر أن يكتب الانسان الرسائل الطويلة الحميمة الى من يثق بهم من ذوى القربى أو الاصدقاء . ثم ان طريقة الرسائل هذه أفسحت المجال أمام موهبة رتشرdsn الكبرى - وهى عرض خلق المرأة . هنا أيضا توجد عيوب . فعلمه بالرجال أقل من علمه بالنساء ، وبالنبلاء أقل من العامة ، وقل أن لقط ما فى النفس الانسانية من تقلبات وتناقضات وتطور - ولكن مئات التفاصيل تدل على ملاحظته الدقيقة للسلوك الانسانى . وفى هذه الروايات ولد القصص السيكولوجى الانجليزى والنزعة الذاتية التى بلغت فى روسو مبلغ الحمى .

وتقبل رتشرdsn نجاحه فى تواضع وواصل عمله طباعا ، ولكنه بنى لنفسه بيتا أفضل . وكتب رسائل طويلة ضمنها النصائح لدائرة كبيرة من النساء ، كان بعضهن يدعوه « بابا العزيز » - وفى أخريات عمره

دفع ثمن الفكر المركز والفن المسهب حساسية غصبية وأرقا . وفى
٤ يوليو ١٧٦١ قضت عليه اصابة بالفالج .

وكان تأثيره الدولى أعظم من تأثير أى انجليزى آخر فى عصره
باستثناء وسلى وبت الاب . وقد أعان فى وطنه على صوغ المزاج
الخلقى لانجلترا جونسن ، وعلى الارتفاع بأخلاقيات البلاط بعد جورج
الثانى . وأسهم التراث الخلقى والأدبى الذى خلفه فى تكوين رواية
جولدسمث « قسيس ويكفيلد » (١٧٦٦) ورواية جين أوستن « العقل
والوجدان » (١٨١١) . أما فى فرنسا فقد عد كابسا لا ضريب له فى
القصة الانجليزية . يقول روسو « لم تكتب قط فى أى لغة رواية نعدل
أو حتى نتقرب من كلاريسا (٧٩) » . وقد ترجم الأبيه بريفوست
رتشردسن ، ومسرح فولتير باملا فى « نانين » وصاغ روسو « هلويز
الجديدة » على غرار كلاريسا موضوعا وشكلا وهدفا خلقيا . وارتفع
ديدرو الى المناجاة المفرطة الحماسة فى مقاله « تقرىظ لرتشردسن »
(١٧٦١) ، فقال انه لو أكره على بيع مكتبته لما احتفظ من كتبه كلها
الا بهومر ويوريديس وسوفوكليس ورتشردسن . وفى المانيا ترجم
جيلبيرت باملا ، وحاكها ، وبكى تأثرا من جرانديسن (٨٠) ؛ وانتشي
كلوبشتوك طربا بكلاريسا ؛ وبنى فيلاند تمثيلية على جرانديسن ؛ وراح
الالمان يحجون الى بيت رتشردسن (٨١) . وفى ايطاليا مسرح جولدونى
قصة باملا .

واليوم لا يقرأ أحد رتشردسن الا مضطرا بحكم الدرس ، ونحن
لا نملك الفراغ الذى يتسع لكتابة رسائل كهذه ، فضلا عن قراءتها ؛
والناموس الأخلاقى الذى يدين به عصر صناعى داروينى يهرب فى
ضجر من المحاذير والقيود البيورتانية . ولكننا نعرف أن هذه الروايات
مثلت ثورة الوجدان على عبادة الفكر والعقل ، أكثر مما مثله شعر
طومسن ، وكولنز ، وجرای ، ونبين فى رتشردسن الاب - كما تتبين
فى روسو البطل - لتلك الحركة الرومانسية التى ستنصر فى أواخر
القرن على صنعة بوب الكلاسيكية وواقعية نيلدنج العارمة .

٤ - هنري فيلدنج : ١٧٠٧ - ٥٤

حين قدم الى لندن في ١٧٢٧ أعجب الناس كلهم بقوامه الفارع ، وبنيته القوية ، ووجهه الوسيم ، وحديثه المرح ، وقلبه المفتوح ؛ فهنا رجل أعدته الطبيعة ليستمتع بالحياة في كل لذتها وواقعها السيئ السمعة . كان يملك كل شيء الا المال ؛ واذا كان مضطرا - على حد قوله - الى أن يكون سائقا أجيرا ، أو كويتبا أجيرا ، فانه شد نفسه الى قلم ، واكتسب قوت يومه بكتابة الهزليات والتمثيلات الكاريكاتورية . واستعملت الليدي ماري مونتاغيو ، وهي ابنة خال له من المرتبة الثانية ، نفوذها ليخرج له مسرح دروري لين تمثيلية « الحب وراء أقنعة عذبة » (١٧٢٨) ، وذهبت مرتين لتشاهدها معلنة عن نفسها في تفضل ؛ وفي ١٧٣٢ ساعدت على عرض تمثيلية « زوج عصري » فترة طويلة . وواصل تأليف المسرحية تلو المسرحية ، وكلها غير ممتاز ، ووقع على عرق من الهجاء المرح في « مأساة الماسي ، أو حياة وموت توم ثم الكبير » (١٧٣١) .

وفي ١٧٣٤ تزوج شارلوت كرادوك بعد خطبة اتصلت أربع سنين . وورثت عقب زواجهما ١٥٠٠ جنيه ، فاخذ فيلدنج معها الى حياة الدعة سيدا من سادة الريف . ووقع في حب زوجته . وقد وصفها وصف الزوج المفتون بزوجته في شخص صوفيا وسترن الجميلة في خفر ، وأميليا بوث التي لا حد لصبرها وأناتها . وتؤكد لنا الليدي بيوت « أن اللغة المشرقة التي عرف كيف يستعملها لم تزد على أن أنصفت محاسن الاصل وجمالها (٨٢) » .

وفي ١٧٣٦ عاد الى لندن وأخرج تمثيلات لا تستحق الذكر ؛ ولكن في ١٧٣٧ وضع قانون الرخص قيودا على الدراما ، وانسحب فيلدنج من المسرح . ودرس القانون ، وقبل محاميا (١٧٤٠) ؛ وتحول مسار حياته في ذلك العام بظهور رواية رتشردن « باملا » . وأثارت فضائل البطلة وخالفها المتصدة كل ما في فيلدنج من نزوع الى الهجو . و « قصة مغامرات جوزف أندروز وصديقه مستر ابراهام آدمز ، مكتوبة بطريقة سرفانتيس » (١٧٤٢) يدها تقليدا سناخرا

لباملا • فجوزف ، الذى يقدمه لنا المؤلف على أنه أخو باملا ، فتى طاهر جميل بين الفتيان كباملا بين الفتيات ، تراوده مخدومته المرة بعد المرة كما وقع لباملا ، ويقاوم مثلها ، ويفصل مثلها فى رسائله المحاولات الخبيثة للعدوان على عذريته • ورسالته لأخته باملا رسالة تكاد تكون « رتشردسونية » ، وان لم تكن كذلك تماما :

« أختى العزيزة باملا :

« أرجو أن تكونى بخير ، عندى خبر ويا له من خبر أفضي به اليك ! ... لقد وقعت سيدتى فى غرامى - أى ما يسميه عليه القوم بالوقوع فى الغرام - وفى نيتها أن تدمرنى ، ولكنى أرجو أن يكون لدى من العزم والحصافة ما يعصمنى من التفريط فى عرضي لأى سيدة على ظهر البسيطة •

« لقد طالما أخبرنى المستر آدمز أن العفة فضيلة كبرى فى الرجل كما هى فى المرأة سواء بسواء • وهو يقول انه لم يعرف قط امرأة غير زوجته ، وسأحاول أن اقتدى به • والحق ان الفضل كله لمواعظه ونصائحه الممتازة ولرسائلك فى قدرتى على مقاومة اغراء يقول ان أحدا لا يذعن له الا ندم فى هذه الدنيا وهلك عاقبا فى الآخرة ... ما أجمل النصائح والمثل الطيبة ! ولكنى مسرور لأنها طردتنى من مخدعها كما فعلت ، فلقد كدت أنسى مرة كل كلمة قالها لى القس آدمز •

« ولست أشك يا أختى العزيزة فى أن لك من الحصافة ما تصونين به فضيلتك من كل اغراء ، وأتوسل اليك فى الحاج أن تصلى لى بمنحنى الله القوة على صون فضيلتى ، لأنها فى الحق تهاجم هجوما عنيفا من أكثر من امرأة ، ولكنى أرجو أن اقتدى بمثالك ، وبمثال يوسف الصديقسمى ، فأصون فضيلتى من كل اغراء (٨٣) » •

وينجح جوزف ، ويظل بكرا حتى يتزوج العذراء فانى • اما باملا ، التى رفعت درجة فى سلم المجتمع حين تزوجت مخدومها الغنى ، فتدين فانى لتجاسرها على الزواج من جوزف ، الذى ارتفعت منزلته

فى المجتمع بزواج باملا برجل من علية القوم . ولام رتشرdsn فيلدنج
لأنه اقتترف « اضافة فاجرة خسيمة » الى باملا (٨٤) .

ولم تشبع شهوة فيلدنج للهجو بتقليده الساخر لرتشرdsn ، وراح
يحاكى الالياذة محاكاة ساخرة ، بالتضرع الى ريات الفنون والاداب
ويجعل كتابه ملحمة . وقد فاض ينبوع فكاهته فى مختلف الشخصيات
التي تلقاها جوزف وآدمز فى طريقهما ، لا سيما الفندقى تو - واوز ،
الذى تفاجئه المسز تو - واوز متلبسا « بالجرم الفاضح » مع الخادمة
نتى ثم نصفح عنه ، و « احتمل غى هدوء ورضي أن يذكر بذنوبه ...
مرة أو مرتين كل يوم طوال حياته الباقية » . واذا لم يكن فى طبع
فيلدنج أن يصنع بطلا ، ورواية بأكملها ، من شاب لا عيب فيه ، فانه
سرعان ما فقد اهتمامه بجوزف ، وجعل القس آدمز الشخصية المحورية
لكتابه . وقد بدا هذا خيارا بعيد الاحتمال ، لأن آدمز كن قسا سنيا
فى اخلاص وصدق ، يحمل معه مخطوطة بمواعظه باحثا عن ناشر
متهور . ولكن المؤلف أعطاه « بيبة » متبنة ، ومعدة قوبة ، وقبضتين
صلبتين ؛ ومع أن القس يعارض الحرب ، فانه مقاتل كفاء يصرع
سلسلة من الاوغاد يتعقبونه لسرقة قصته . وهو الى حد بعيد أحب
شخص رسمه فيلدنج ، ونحن نشارك لذة المؤلف فى مواجهته مواجهاة
غريبة مع الخنازير ، والوحل ، والدم . والذين كانوا فى شبابه
يتأثرون تأثرا عميقا بالمثل المسيحى الاعلى ، لا بد يستشعرون المحبة
الحارة لرجل دين خلا تماما من الغش وفاضت نفسه برا . ويقابل فيلدنج
بينه وبين القس تراليبير الجشع ، الذى كان « من أضخم الرجال الذين
يجدر بك أن تراهم ، وكان فى استطاعته أن يقوم بدور السر جون
فيلستاف دون أن يحشو بدنه (٨٥) » .

وازدهى النجاح فيلدنج ، فأصدر فى ١٧٤٣ ثلاثة مجلدات وضع
عليها عنوانا متواضعا هو « منوعات » . وقد احتوى المجلد الثالث على
آية من آيات التهكم المتصل فى « حياة المستر جوناثان وايلد العظيم »
ولم يكن ترجمة حقيقية للص القرن الثامن عشر الأشهر ، « فان قصتى
تروى على الاصح أفعالا كان من الجائز أن يقوم بها (٨٦) » . وكان
فى شكله الأول سخرية من السر روبرت ولبول لاتجاره فى الاصوات

الانتخابية المسروقة ، فلما مات ولبول أصدره المؤلف من جديد فى صور هجاء « للعظمة » كما درج الناس على تقديرها وتحقيقتها . وذهب فيلدنج الى أن معظم « عظماء الرجال » أساءوا الى البشر أكثر مما أحسنوا اليهم ؛ وهكذا لقب الاسكندر بالأكبر أو « العظيم » لأنه بعد أن اجتاح امبراطورية شاسعة بالحديد والنار وأهلك العدد الهائل من البؤساء الذين لا ذنب لهم ، ونشر الخراب والدمار كأنه العاصفة الهوجاء يقال لنا ان من أعمال الشفقة التى تذكر له انه لم يذبح عسوزا ولم يغتصب بناتها (٨٧) « واللص أخرى بضمير أكثر راحة واطمئنانا من ضمير رجل الدولة ، لأن ضحاياه أقل وغنيمة أضال (٨٨) .

وبأسلوب التراجم السياسية يخلع فيلدنج على جوناثان شجرة نسب رفيعة ، فيرجع بأصله الى « ولفستن وايلد ، الذى قدم مع هنجست » . وكان لأمه صفة غروية فى أصابعها غاية فى العجب (٨٩) . ومنها تعلم جوناثان فن اللصوصية وآدابها . وسرعان ما مكنه ذكاؤه الفائق من تنظيم عصابة من الشبان البواسل الذين كرسوا حياتهم لأراحة الناس الزائدين عن الحاجة من سلعهم الزائدة عن الحاجة ، أو من حياتهم التى لا معنى لها . وكان يصيب حظ الأسد من مكاسبهم ، ويتخلص من المتمردين من مساعديه بتسليمهم لسلطات القضاء والأمن . وقد أخفق فى اغواء ليتيتيا المطاردة ، التى آثرت أن يعتدى على عرضها مساعده فايريلود ، الذى « اغتصب هذه المخلوقة الجميلة فى دقائق ، أو على الأقل كاد يغتصبها ، لولا أنها منعتة من ذلك بامثالها فى الوقت المناسب (٩٠) » . وبعدها تزوجت وايلد . وبعد اسبوعين يدخلان فى « حوار زوجى » تشرح فيه حقها الطبيعى فى حياة الفسق ، فيدعوها بالكلية ، ثم يتبادلان القبل ويتصالحان . ويتصاعد حجم جرائمه أكثر فأكثر حتى يطيب لزوجته أن تراه محكوما عليه بالاعدام . ويرافقه قسيس الى المشنقة . فينشله وايلد فى الطريق ، ولكنه لا يجد معه سوى فتاحة للقوارير ، لأن الكاهن كان ذواقة للخمر ، أما « جوناثان العظيم ، فبعد كل مغامراته الجبارة ، كانت خاتمة - التى قل من عظماء الرجال من يستطيعون تحقيقها - أن علق من عنقه حتى مات (٩١) » .

وفى أواخر عام ١٧٤٤ فقد فيلدنج زوجته ، وكدر موتها مزاجه حتى طهر حزنه بتصويرها تصوير المحب ، خلال أسي البعد ، فى شخص صوفيا وأميليا . وبلغ به العرفان بالوفاء الصادق الذى أبدته خادمة زوجته التى بفيت معه لترعى أبناءه أنه تزوجها فى ١٧٤٧ . وكان خلال ذلك يعانى من المرض والعوز ، ثم أنقذه من الفقر تعيينه (١٧٤٨) فاضى صلح لوستمنسنر ، ثم لدلسكس بعد قليل . وكانت وظيفة شاقه ، ينقد عليها راتباً غير مضمون من رسوم المناقضين الدين يوافونه فى محكمته بشارع بو . وقد وصف الجنهات الثلثمائة التى تجمعت له من هذه الوظيفة كل عام بأنها « أقذر نقود على وجه الأرض (٩٢) » .

ولابد أنه كان خلال هذه السنوات الحافلة بالشدائد (١٧٤٤ - ٤٨) عاكفا على أعظم رواياته ، لأنها صدرت فى فبراير ١٧٤٩ فى مجلدات ستة باسم « قصة توم جونز اللقيط » . وهو يروى لنا أن الكتاب ألف فى « بضعة آلاف من الساعات » استنقذها من الفضاء والكتابة المأجورة ، ولم يستطع أحد أن يتبين من فكاهه الكتاب القوبة وأدبه الفحل أن هذه كانت سنوات الحرن والنقرس والعوز . ومع ذلك فها هنا ألف ومائتا صفحة فى رواية يعدها الكثيرون أعظم الروايات الانجليزية . فلم يسبق فى الأدب الانجليزى أن وصف رجل هذا الوصف الكامل الصريح ، بدنا وعفلا وخلقا وشخصية . ويحضرنا فى هذا المجال تلك الكلمات الشهيرة التى قدم بها ثاكرى لقصته « بندنيس » .

« منذ أن وورى مؤلف توم جونز التراب لم يؤذن لروائى منا أن يرسم « رجلا » بأقصى ما يملك من قدرة . فحتم علينا أن نستره وأن نخلع عليه ابتسامة متكلفة تقليدية معينة . والمجتمع مصر على زفض « الطبيعى » فى فننا . . . وأنت تأبى أن تسمع . . . ما يتحرك فى دنيا الواقع ، وما يدور فى المجتمع ، وفى الأندية ، والكليات ، وقاعات الطعام - تأبى أن تسمع واقع حياة أبناءك وحديثهم » .

ويطالعنا توم أول ما يطالعنا طفلا غير شرعى وجد فى فراش المستر أولورذى الطاهر النقى . وبين هذه البداية وزواج توم فى النهاية

حشر فيلدنچ مائة حدث ، بأسلوب يوههم بأنه أسلوب قصص التشرد ذات الفصول المتتابعة فى غير ترابط ، ولكن القارئ سيدهشه ان هو ثابر على القراءة الى النهاية أن يجد أن هذه الأحداث كلها تقريبا ضرورية للحبكة البارعة ، أو لعرض الشخص و تطويرها ؛ وأن يجد الخيوط تحل والعقد تفك . والعديد من الأشخاص مرسومون فى صورة مثالية ، مثل أولورذى الذى يكاد يشبه جرانديسن ، وبعضهم مبسطون تبسيطاً شديداً ، مثل بلايفل الذى يكرهنا على احتقارة ، أو القس نواكوم ، المربى « الذى سيطرت العصا على أفكاره (٩٣) » . ولكن كثيراً منهم يظهر فيهم ماء الحياة ، ومنهم سكاوير وسترن « الذى يعتز ببناذقه و كلابه و خيله (٩٤) » أكثر من أى شيء فى الدنيا ، ثم تأتى زجاجة شرابه ، ثم ابنته صوفيا الفريدة فى بابها . ها هنا « كلاريسا » أخرى تعرف مسالكها بين فخاخ الرجال ، وباملا أخرى تصيد رجلها دون أن تزعجها تجاربه الماضية قبل الزواج .

أما توم ففيه شيء من التحلل الجنسي ، وفيما عدا ذلك فهو أطيب من أن يصلح للبقاء . تبناه أولورذى ، وعلمه نواكوم وأدبه بعصاه ، فأدرك الرجولة القوية التى لا يكدر صفوها غير الخبثاء الذين يذكرونه بأصله الغامض . وهو يسطو على بستان فاكهة ويسرق بطة ، ولكن أباه بالتبنى يغفر هذه الألاعيب جرياً على أفضل التقاليد الشكسبيرية . وتعجب به صوفيا وهى على بعد عفيف منه ، ولكن توم ، الشاعر بمولده غير الشرعى ، لا يجرؤ إطلاقاً على الوقوع فى حب سيدة تبعد عنه هذا البعد السحيق مكانة ومالا . وهو يقنع بمولى سيجرم ، ابنة حارس الصيد ، ويعترف بأنه ربما كان أباً لطفلها ، ويروح عنه كثيراً أن يجد أنه لبس الا واحداً من عديدين يحتمل أن يكون أحدهم أباً للطفل . وتعانى صوفيا اذ تعلم بهذا الغرام الاثم ، ولكن اعجابها بتوم لا يفتر الا لحظة عابرة . وهو يمسك بها بين ذراعيه اذ تسقط من جوادها أثناء الصيد ، ويشي احمرار وجهها بشعورها نحوه ، فيسارع الى مطارحتها الغرام . ولكن أباه ، سكاوير وسترن ، كان قد هيا جيبه لصفقة تزويجها من المستر بلايفل ، وهو ابن أخت أولورذى الغنى الذى لم يعقب ، ووريثه الشرعى . وترفض صوفيا الزواج من هذا المنافق الشاب ، ويصر أبوها ، وتكرر المعركة الناشبة بين ارادة الاب

ودموع ابنته عدة مجلدات . أما توم فيبتعد محجما ، ويدعهم يفاجئونه فى أليكة ومولى بين ذراعيه ، وتظهر صوفيا فى هذا المشهد فتقع مغشيا عليها . ويطرد أولورذى توم كارها ، فيبدأ هذا أسفاره الحافلة بالأحداث ، التى بدونها كان عسيرا على فيلدنج أن يكتب رواية ، اذ كان لا يزال مقلدا لسرفانتس ولساج . ويظل قلبه مع صوفيا الكسيرة الخاطر ، ولكنه وقد ظن أنه فقدھا الى الأبد ينزلق الى فراش المسز ووترز . وبعد شذائد كثيرة ، ونعقيدات لا تصدق ، يصفح عنه أولورذى ، ويحل محل بلايفل وريثا له ، ويصلح ذات البين مع صوفيا الخجول الصفوح ، ويرحب به سكوایر وسترن صهرا له ترحيبا صادقا مع أنه كان قبل أسبوع على أهبة قتله . ويتعجل وسترن الخاتمة الان فيقول :

« اليها يا بنى ، اليها ، أمض اليها . . هل انتهى كل شيء ؟ هل حددت اليوم يا فتى ؟ ماذا ، أیكون غدا أم بعد غد ؟ لن أرضي بالتأجيل دقيقة أكثر من بعد غد . . . يمينا انها لتود من كل فلبها أن تزف الليلة ، أليس كذلك يا صوفى ؟ . . . أين بالله أولورذى ؟ اسمع يا أولورذى ، أراهن حمسه جبيها لكراون أن سبولد لنا صبی بعد تسعة أشهر من عد (٩٥) » .

ان أحدا لم يصف الحياه الانجليزية منذ شكسبير بمثل هذه الخصوبة أو الصراحة . ذلك أن أوصافهم لا تشمل كل جوانب تلك الحياه ؛ ونحن نفتقد فيها الرقة والوفاء والبطولة والمجاملات والعاطفة - هذه التى توجد فى أى مجتمع . أما فيلدنج فأثر رجل الغريزة عن رجل الفكر . واحتقر مهذبی الكتب ومطهریها الذين حاولوا فى زمانه أن ينقوا تشوسر وسكسبير ، كما احتقر الشعراء والنقاد الذين ظنوا أن الأدب الجاد يجب ألا يتناول غير علية القوم . وفهم الحب بين الجنسين على أنه حب جسدی ، وأحال نواحيه الأخرى الى دنيا الأوهام . واحتقر جنون المال الذى لحظه فى كل طبقة ، وكره الدجل والنفاق كرها شديدا . ولم يرحم الوعاظ ، ولكنه أحب القس آدمز ، والبطل الوحيد فى « اميليا » هو الدكتور هاريسن ، وهو قس انجليكانى ؛ وكان فيلدنج نفسه يعظ فى كل مناسبة فى رواياته .

وبعد أن نشر توم جونز جرد قلمه لحظة لتناول المشكلات التى

كأبديها فى عمله قاضيا . وكانت تجربته تواجهه كل يوم بما فى لندن من عنف واجرام . فاقترح وسائل لتشديد حراسة الأمن العام وتصريف القضاء . ويفضل جهوده ، وجهود السر جون فيلدنج ، وأخيه لأبيه ، الذى خلفه قاضيا فى شارع بو ، قضي على عصابة بثت الرعب فى لندن ، وشنق كل أفرادها تقريبا . وذكر متفائل فى ١٧٥٧ أن « الشر المسيطر ، شر سرقات الشوارع ، قد قمع كلية تقريبا (٩٦) » .

فى هذه الأثناء كان هنرى قد نشر آخر رواياته « أميليا » (ديسمبر ١٧٥١) . انه لم يستطع نسيان زوجته الأولى ، ولقد نسي أى عيوب ربما شابتها ، فاقام الآن لذكرها أثرا صورها فيه الزوجة الكاملة لجندى مبذر قصير النظر . فالكبتن بوث رجل لطيف شجاع كريم ، وهو يعبد زوجته أميليا ، ولكنه يقامر حتى يتردى فى الدين ، ويبدا الكتاب بالكبتن فى السجن . وهو يستغزق مائة صفحة يقص فيها قصته على نزيلة أخرى هى الأنسة ماثيوز ؛ يفصل لها جمال زوجته وتواضعها ووفاءها وحنانها وغير ذلك من صفاتها المثالية ، ثم يقبل دعوة الأنسة ماثيوز له أن يشاركها فراشا ، وينفق «أسبوعا كاملا فى هذا الحديث المجرم (٩٧) » . وفى مشاهد السجن هذه وغيرها من المشاهد اللاحقة ، يفضح فيلدنج ، ربما فى شيء من المغالاة ، نفاق الرجال والنساء وفساد الشرطة والقضاء ووحشية السجانين . ويجد القارئ هنا وصف سجون المدينين التى ستعمر قرنا آخر لتثير سخط دكنز . ويستطيع القاضي تراشر أن يعرف جريمة سجين من لهجته الارلندية ، « يا غلام ، لسانك يشي بذنبك . فانت ارلندى ، وهذا دائما دليل كاف فى نظرى (٩٨) » . ويتصاعد عدد الأوعاد مع كل فصل ، حتى تصرخ أميليا لأبنائها الذين عضهم الفقر قائلة « سامحونى لأننى أتيت بكم الى هذه الدنيا (٩٩) » .

وأميليا ، مثل جريزelda ، هى المثل الأعلى للمرأة الصبور كما تخيله فيلدنج . يكسر أنفها فى أحد الفصول الأولى ، ولكن جراحة الأنف تصلحها ، وتعود جميلة جمالا يغرى بمحاولة العدوان على عرضها مرة فى كل فصلين تقريبا . وهى تسلم بقصورها الفكرى عن زوجها وتطيعه فى كل شيء ، الا أنها ترفض الذهاب الى حفلة تنكرية ؛ وتحضر

لحنا دينبا (أوراتوريو) ، ولكنها تتردد فى تعريض نفسها لنظرات العابثين فى فوكسهول . فاذا عاد بوث اليها بعد احدى مغامراته الطائشة وجدها « تؤدى عمل الطاهى باللذة التى تستشعرها سيدة راقية فى ارتداء نياها استعدادا لحفلة رقص (١٠٠) » . وتتلقى رسالة من الانسة مانيوز اللئيمة نشي فيها بخيانة بوث لزوجته فى السجن ، فتمزق الرسالة وتكتم خبرها عن زوجها ، وتظل تحبه رغم كل سكره وقماره وديونه وسجنه ، وتبيع حلبها الضئيلة النمن ، ثم ملابسها ، لتطعمه وتطعم أطفالها . ولا تغف فى عمدعا أخطاؤه بقدر ما تفت فيه قسوة الرجال والانظمة التى توقعه فى شباكها . فلقد كان فيلدنج ، شأنه فى ذلك سان روسو وهنتجون ، يرى ان أكثر الناس طيبون بفطرنهم ، وان ما يفسدعم هر لبيبات الشريرة والفوانين السيئة . وعند ثاكرى أن أميليا « أكثر الشخصيات فتنسة فى القصص الانجليزى (١٠١) » . ولكن ربنا لم نكن سوى حلم زوج . وفى النهاية تصبح أميليا بطبيعة الحال وارنه ، ويعتزل هى وبوثر فى ضيعتها ، وبستقيم حال بوثر .

أما خاتمة الرواية فلا نكاد ببررها مقدماتها ؛ فبوثر يبقى بوثر على الدوام . ولقد حاول فيلدنج أن يربط كل عقد حبكته فى وحدة سعيدة ، ولكن خفة يده هنا مكشوفة جدا ، فلقد أدرك التعب هذا الروائى الفحل ، وأثار تقزززه جو اللصوص والقتلة الذى أحاط به . كتب بعد أن فزع من أميليا يقول « لن أزعج العالم بعد اليوم بمزيد من أطفالى الذين تلدهم لى ربة الأدب ذاتها » . وفى يناير ١٧٥٢ بدأ « مجلة كوفنت جاردن » ، وكتب بعض المقالات القوية ، ورد على نقد سمولت ، وصوب طلفه الى روايته « روديك راندوم » ، وفى نوفمبر ترك المجلة نموت . وكان شتاء ١٧٥٣ - ٥٤ أقسى من أن يحتمله بدنه الذى هده العمل والاستسقاء والصفراء والربو . وجرب ماء القار الذى نصبه به الأسقف باركلى ، ولكن الاستسقاء استفحل ، وأشار عليه طبيبه بالسفر الى بلد أدفأ . وفى يونيو ١٧٥٤ استقل سفينة تدعى « ملكة البرتغال » مع زوجته وابنته . وفى الطريق كتب « يوميات رحلة الى لشبونة » ، وهى من أطف ما كتب . ومات فى لشبونة فى ٨ أكتوبر ١٧٥٤ ، ودفن هناك فى الجبانة الانجليزية .

فما الذى انجزه ؟ لقد أرسى دعائم رواية السلوك الواقعية ؛ ووصف حياة الطبقات الوسطى الانجليزية وصفا أنصع من أى وصف أتى به مؤرخ ، وفتحت كتبه عالما بأسره . ولكنه لم ينجح مثل هذا النجاح مع الطبقات العليا ، وكان عليه أن يقنع فى هذا المبدان ، كما قنع رتشردسن ، بنظرة الدخيل . ولقد عرف من حياة وطنه الجسد خيرا مما عرف الروح ، ومن الحب جسده خيرا مما عرف روحه ، وغابت عنه معومات الخلق الانجليزى الأكثر رهاقة وخفاء . ومع ذلك فقد ترك بصمته على سمولت ، وستيرون ، ودكنز ، وثاكرى ؛ لقد كان أبا لهم أجمعين .

٣ - طوبياس سمولت : ١٧٢١ - ٧١

لم يكن سمولت يحبه ، لأنهما تنافسا على استحسان القراء فى المبدان نفسه . وكان أصغر الرجلين اسكتلندياً وآفق هيوم على التحسر لأن انجلترا عاقت الطريق الى فرنسا . ولكن جده كان قد شجع الاتحاد البرلمانى مع انجلترا عمليا (١٧٠٧) ، وكان عضواً فى البرلمان المتحد . ومات الأب وطوبياس فى الثانية من عمره ، ولكن الأسرة أنفقت على تعليم الصبى فى مدرسة دمبرتون الثانوية وفى جامعة جلاسجو حيث درس المقررات الممهدة لدراسة الطب . ولكنه بدلا من أن يواصل الدرس حتى يحصل على درجته الطبية أدركته عدوى الكتابة ، وهرع الى لندن وجاريك ، يحمل مأساة ضعيفة ألفها ، ورفضها جاريك . وبعد أن جاع طوبياس فترة قصيرة التحق مساعدا لجراح فى البارجة « كمبرلاند » وأبحر معها (١٧٤٠) فى الحرب التى نشبت مع أسبانيا بسبب « أذن جنكينز » . واشترك فى الهجوم الأخرق على قرطاجنة المواجهة لساحل كولومبيا . وفى جمیکا ترك الخدمة ، وهناك التقى بنانسي لاسيل التى تزوجها عقب عودته (١٧٤٤) الى انجلترا . وسكن بيتا فى داونج ستريت ومارس الجراحة ، ولكن شهوة الكتابة غلبته ، وكانت تجاربه فى البحرية تطالبه على الأقل بقصة واحدة . لذلك نشر أشهر رواياته فى سنة ١٧٤٨ .

أما هذه الرواية ، وأسمها « مغامرات رودريك راندوم » ، فهى

رومانسية التشرم القديمة ، الحافلة بالأحداث الدائرة حول احدى الشخصيات . ولم يعترف سمولت بأى فضل لفيلدينج ، ولكنه اعترف بالفضل الكبير لسرفانتيس ولساج . وقد شدة البشر وأفعالهم أكثر مما شدته الكتب والألفاظ ، فحشد قصته بالأحداث وأضفى عليها نغمة الأقدار ولون الدماء ، وملأها ناسا تفوح مذهب رائحة الشخصية والحديث الفجّل . وهذه الرواية من أقدم وأفضل مئات الروايات الانجليزية التى كتبت عن البحر . ولكن قبل أن يجند رودريك فى البحرية يختبر - كما اختبر صابعه - عينات من الفنادق الانجليزية والأخلاق اللندنية . وما أكثر ما افتقدناه لأننا لم نجرب السفر فى مركبات القرن التامن عشر تلك والنزول فى تلك الفنادق ! - مسرح حافل بالأنفس المصطرعة والجنود المحتضرين ، والقوادين والمومسات ، والباعة الجوالين بحملون حزمهم ويخفون نفودهم ، والرجال يقلبون المبالول بحثا عن الفراش الخطأ ، والنساء يصرحن مستغنيات من مغنصب ثم تسكتهن النقود ، وكل صعلوك يتظاهر بالعظمة ، وكل انسان يسب ويستثم . فالآنسة جنى تخاطب البائع الجوال قائلة « أنت أيها الفاسق العريق فى الزنا مائة فى المائة » وتسال الكبتن « لعنك الله يا سيدى ، من أنت ؟ ومن جعلك كبتنا أيها المتملق ، القواد ، كناس الخنادق الحقيقير ؟ تبا لك ! ووبل للجيش اذا كان أمثالك من ضباطه (١٠٢) » .

وفى لندن يصبح رودريك (وهو ها = سمولت) مساعدا لصيدلانى . ويفلت من الزواج حين يجد خطيبته فى الفراش مع رجل آخر . « لقد أعطتنى السماء من الصبر وحضور الذهن ما جعلنى أنسحب فورا ، وشكرت حظى ألف مرة على هذا الكشف السعيد الذى عولت على الافادة منه فأكف عن كل تفكير فى الزواج مستقبلا (١٠٣) » وهو يقنع بحياة الفسق ، ويطلع على حياة البغايا وبلاوبهن ، ويعالج أمراضهن ، ويندد بالدجاجلة الذين يبتزون مالهن ، ويلاحظ كيف أن المومس « مع كثرة شكوى الناس من أنها مصدر ازعاج تفلت من العقاب بفضل مالها من نفوذ على القضاة ، الدين تدفع لهم هى وجميع من يعملن فى خدمتها تبرعات ربع سنوية لقاء حمايتهن (١٠٤) » .

ثم يفقد وظيفته لاتهامه باطلا بالسرقة ، ويتردى فى مهاوى الفاقة حتى « لم أجد ملجأ ألوذ به غير الجيش والبحرية » . ويعقبه من

عذاب اتخاذ القرار عصابة لجمع المجندين بالقوة ، تصرعه على الأرض فاقد الوعي وتجره الى متن سفينة صاحب الجلالة « نندر » . ويستسلم لمصيره ، ويصبح ضابطا جراحا . وبعد يوم واحد فى البحر يدرك أن للكبتن أوكم ليس الا وحشا نصف مجنون ، يلزم البحارة المرضى بالعمل ضنا منه بالمال حتى يموتوا . ويقا تل رودريك فى قرطاجنة وتتحطم به السفينة ، فبسبح الى بر جمىكا ، ويصبح خادما لشاعرة عجوز علية ، ويقع « فى حب » ابنة أخيها نارسيسا ، « وداعبته الأحلام بأنه سيستمتع يوما ما بهذه المخلوقة اللطيفة (١٠٥) » . وهكذا نجرى القصة فى تدفق سمولت اللاهت ، بفقرات تتصل الواحدة منها ثلاث صفحات ، فى لغة بسيطة فوية بذئنه . وفى لندن يصادق رودريك مجموعته جديدة من الأصدقاء الغربى الأطوار ، بما فىهم الأنسة ميلندا جوستراب والأنسة بدى جرابيوييل . ثم بمضى الى باث بمزىد من مناظر مركبات السفر ؛ هناك يلتقى بنارسيسا الحلوة ويظفر بمحبنتها له ، تم يفقدها ، ويشتبك فى مبارزة . . . ويعود الى البحرية جراحا ، ويبحر الى غينيا (حيث « يشتري » قبطان سفينة أربعمائة عبد ليبيعهم فى بارجواى « بربح كبير ») ، ثم يعود الى جمىكا ، حيث يجد أباه الذى فقده منذ أمد طويل وأصبح الآن ميسور الحال ، ويعود الى أوربا ثم الى نارسيسا ، فيتزوجان ويعود بها الى اسكتلنده وضىعة أبيه ؛ أما نرسيسا « فبيدا خصرها يستدبر بشكل ملحوظ » . وأما رودريك :

« فاذا كان على الأرض شىء يسمى السعادة الحققة فانى استمتع بها . لقد سكتت الآن اضطرابات عاطفتى العاصفة ولانت فى حنان الحب وهدوئه ، بعد أن رسخ جذورها ذلك الاتصال الحميم والتعاطف القلبى الذى لا وجود به غير رباط الزوجية الطاهر » .

وراجت رواية رودريك راندوم . وأصر سمولت الآن على نشر مسرحيته « قاتل الملك » مشفوعة بمقدمة محق فيها أولئك الذين رفضوها من قبل ؛ وقد دأب على أن يطلق العنان لطبعه الحاد فى خلق الأعداء . وذهب الى أبردين فى ١٧٥٠ وتسلم درجة الطب ، ولكن شخصيته كانت عقبة فى طريق مارسته الطب ، فانكفا الى الأدب . وفى ١٧٥١ أصدر « مغامرات بريجرين بيكل » . وهنا ، كما فى راندوم ، دعا العنوان

القارئ لجولة من الأحداث المثيرة فى حياة جوابة ؛ ولكن سمولت وقع الآن على عرق من الفكاهة اللاذعة فى أنجح شخوصه ، ذلك هو الكومودور ترنيون ، الذى يصفه بأنه « سيد من طراز غاية فى الغرابة » كان « مقاتلا مغوارا فى زمانه ، وفقد عيننا وعقبنا فى الخدمة العسكرية (١٠٦) » وهو يصمر على أن يقص للمرة التاسعة كيف قصف بالدافع بارجة فرنسية تجاه رأس فنستير . ويأمر خادمه توم بابير بأن يؤمن على كلامه ، وهنا « فتح توم فمه كأنه سمكة » قد « لاهثة » وبايقاع أشبه بعصف الريح الشرقية تصفر فى شق « فاه بالتأييد المطلوب (وقد رأى فيه ستيرن هذا آثارا طفيفة من العم توبى والجاويش تريم) .

ويواصل سمولت مرحة خلال وصف صاخب لمسز جريزل وهى تخطب ود الكومودور الذى يتوسل اليه مساعده ذو الساق الواحدة ، جاك هانشواى ، ألا يسمح لها بأن « تجره تحت مؤخر سفينتها » لأنها « متى أحكمت وثاقلك الى مؤخرها ، انطلقت والله حثيثا ، وجعلت كل عرق من عروق جسدك ينشق من الشد » . ويطمئنه الكومودور قائلا « لن يرى انسان هوسر ترنيون طريقا فى مؤخر السفينة فى ذيل أى - فى العالم المسيحى (١٠٧) » على أن مختلف الخطط والمكائد تحطم عقته ؛ فيوافق على أن « يثبت مركبه بمرساة » أى يتزوج ، ولكنه يمضي الى رباط الزوجية « كمجرم ماض الى اعدامه ... وكأنه يخشى فى كل لحظة من تحلل عناصر الطبيعة » . ويصر على أن يكون فراش زواجه أرجوحة شبكية ، فتنهار تحت ثقل الجسدين ، ولكن هذا لم يقع الا بعد أن « ظننت السيدة أن هدفها العظيم قد تحقق ، وسلطانها أصبح مكفولا أمام جميع صدمات الحظ » . على أن هذا التلاحم بين جسدين ينتهى بغير ثمر ، فتتكفى المسز ترنيون الى البرندى و « فروض الدين التى راحت تؤديها بصرامة تفيض حقدا » .

وقد صور السر ولتر سكوت سمولت فى أربعيناته بأنه « وسيم جدا ، جذاب الملامح ، وحديثه - بشهادة كل أصدقائه الباقين على قيد الحياة - منير ومسل الى أبعد حد (١٠٨) » . وأجمع الناس على أنه رجل حاد الطبع فى حديثه . قال يصف السر تشارلز نولز انه « اميرال بغير ارادة ، ومهندس بغير معرفة ، وضابط بغير عزيمة ، ورجل بغير م ١٩ - قصة الحضارة

السجن ثلاثة أشهر ، وغرامة قدرها مائة جنيه (١٧٥٧) . على أن خذ طبعه كانت ترافقها فضائل كثيرة ، فقد كان كريما رحيمًا ، أعان فقراء المؤلفين ، وأصبح كما قال السر ولتر « أبًا شديد التعلق بأبنائه ، وزوجًا محبًا لزوجته (١١٠) » . وكان منزله في لورنس لين بحى تشلسي ملتقى لصغار الكتاب الذين كانوا يصيبون من طعامه وإن لم يتبعوا نصائحه ؛ وقد نظم بعضهم في فرقة من المساعدين الأدبيين . وكان رائدًا بين الناشرين (ودرayدين بين الشعراء) ؟) في الزامه تجار الكتب بتأييده في شرط يليق بعقريته . وكان أحيانًا يكسب ستمائة جنيه في العام ، ولكن كان عليه أن يكد ويكدح ليكسبها . وكتب ثلاث روايات أخرى ، اثنتان منها لا تستحقان الذكر . وأقنع جاريك بأن يخرج تمثيليته « العقاب » ، التي نجحت بفضل هجمات على فرنسا ؛ ثم كتب لعدة مجلات مقالات تتسم بروح التحرش والمشاكسة ؛ ورأس تحرير صحيفة « البريطاني » لسان حال المحافظين . وترجم جيل بلاسي ، وعدة مؤلفات لفولتير ، ودون كخوته (مستعينا بترجمة سابقة) ، وكتب - أو أشرف على كتابة - تاريخ لانجلترا من تسعة مجلدات (١٧٥٧ - ٦٥) . ومن المؤكد أنه استخدم « مصنعه الأدبي » المؤلف من الكتاب الماجورين في جراب ستريت ليصنف « تاريخا للعالم » وكتابا ذا ثمانية مجلدات اسمه « الحالة الراهنة للأمم » .

وحين بلغ الثانية والأربعين عام ١٧٦٣ ، كان قد دفع باعتلال صحته ثمن حياته المتطلعة ، الحافلة بالمغامرة والجهد والشجار والكلام . ونصحه طبيبه بأن يستشير اخصائيا في مونبلييه يدعى الدكتور فيز . فمضى اليه ، وأخبره الاخصائى أن ربوه ، وسعاله ، وبصاقه الصديدي ، دليل على اصابته بالسل ، واذكره العودة الى رطوبة انجلترا وخضرتها ، فقد ظل عامين في القارة ، يغطى نفقاته بكتابة « رحلات في فرنسا وإيطاليا » (١٧٦٦) ، وقد أبدى هنا ، كما أبدى في رواياته ، تلك النظرة الحادة اللامحة التي ترى سمات خلق الأفراد والأمم وسميزاته ؛ ولكنه تبل أوصافه بالشتائم الصريحة . وأخبر سائقى مركبات السفر ، وزملاءه المسافرين ، وأصحاب الفنادق ، والخدم ، والأجانب المتحمسين لاطوانهم ، رأيهم فيهم دون موارد ؛ واعترض على كل فاتورة حساب ، وحطم الفن الفرنسي والايطالى ، وسخر من الكاثوليكية ، وحكم على

الفرنسيين بأنهم لصوص جشعون لا يغلفون دائما سرقاتهم بغلاف من
للادب والكياسة . استمع اليه يقول :

« لو أن فرنسا أدخل الى أسرتك . . لكان أول رد له على مجاملاتك
أن يطرح زوجتك الغرام اذا كانت جميلة ؛ والا فاختك ، أو ابنتك ، أو
ابنة أخيك أو اختك . . . أو جدتك . . . فاذا كشف أمره . . . صرح في
صفاقة بأن ما صنعه لم يكن سوى تودد لا غبار عليه ، مما يعد في فرنسا
من مقومات التربية الحسنة (١١١) » .

وعاد سمولت الى إنجلترا وقد تحسنت صحته كثيرا . ولكن عائلته
عاودته في ١٧٦٨ ، فحاول الاستشفاء في باث . غير أنه وجد مياهها
عديمة الجدوى له ، وهواءها الرطب خطرا عليه ؛ وفي ١٧٦٩ عاد الى
إيطاليا . وفي فيللا قرب لجهورن كتب آخر كتبه وأفضلها وهو « رحلة
هيمفري كلنكر » وفي رأى ثاكري أنه « أفكه قصة كتبت منذ بدأ ذلك الفن
الجميل ، فن كتابة الروايات (١١٢) » . وهو ولا شك أمتع والطف كُتب
سمولت اذا استطعنا أن نطبق شيئا من القدر . وفي مطلع القصة
تقريبا نلتقى بالدكتور - الذي يتحدث عن الروائح « الطيبة » أو
« الخبيثة » باعتبارها ميولا ذاتية خالصة « لأن كل شخص يزعم أنه
يتفزز من رائحة افرازات شخص آخر يستنشق رائحة افرازاته هو برضا
تام ، وقد ناشد جميع الحاضرين من السيدات والسادة هناك أن يشهدوا
على صدق قوله (١١٣) » ، ويلى ذلك صفحة أو اثنتان من شروح أشد
لذعا وحرافة حتى من هذه . وبعد أن تخفف سمولت من هذه اللقمة ،
عمد الى اختراع سلسلة مرحلة من الشخوص ، يواصلون الحكاية بخطاباتهم
في أسلوب غاية في العجب والامتناع ، وعلى رأسهم ماثيو برامبل وهو
« سيد عجوز » وعزب عصي ، ينطقه سمولت بأرائه . وهو يذهب
الى باث للاستشفاء ، ولكنه يجد خبث رائحة مياهها أشد وقعا في
نفسه من قوتها الشافية . وهو يكره زحام الجماهير ، وينمى عليه
مرة من روائحهم المتجمعة ، ولا يطيق هواء لندن الملوث ، أو أطعمتها
المغشوشة . يقول :

« إن الخبز الذي أكله في لندن عجين مؤذ اختلط به الجير والشب

ورماد. العظام.؛ غث المذاق مدمر للجسم . ولا يجهل القوم الطيبون. هذا الغش لكنهم يفضلونه على الخبز الصحى ، لأنه أكثر بياضا ... وهكذا يضحون بمذاقهم وصحتهم ... والطحان أو الخباز مضطر الى تسميمهم ... ومثل هذا الفساد الشديد يظهر فى لحم العجول الذى يأكلونه ، والذى يبيضون لونه باستنزاف دمه مرارا وتكرارا ، وبغير هذا من الوسائل الخبيثة ؛ وقياسا على هذا يصح للمرء أن يتناول غذاءه بمثل هذا الاطمئنان من قطعة محمرة من قفاز جلد الماعز .. ولن تصدقوا أن الجنون بلغ بهم أن يسلقوا خضرهم ومعها قطع نحاسية من نصف البنس لينضروا لونها (١١٤) » .

وعليه يهرع ماثيو عائدا الى ضيعته الريفية ، حيث يستطيع أن يتنفس ويأكل دون أن يعرض حياته للخطر . وفى طريقه اليها ، بعد أن انتهى ربع القصة ، يلتقط غلاما ريفيا فقيرا فى أسمال بالية يدعى همفرى كلنكر « كانت نظراته تنبئ بالجوع ، ولم تكد الخرق التى يلبسها تستر ما تقتضي اللياقة اخفائه » . ويعرض هذا الصعلوك أن يسوق العربية ، ولكن حين يتربع على مقعد السائق العالى تنشق سراويله العتيقة ، وتشكو المسز طابينا برامبل (أخت ماثيو) من أن همفرى « جرؤ على أن يؤذى بصرها بأبداء أردافه العارية » . ويكسو ماثيو الصبى ، ويلحقه بخدمته ، ويحتمله بصبر حتى حين يصبح الفتى واعظا مثوديا عقب سماعه جورج هوايتفيلد .

ويبدو جانب آخر من الموقف الدينى فى المستر - الذى يقابله برامبل فى سكاربرو ، والذى يفاخر بأنه تحدث الى فولتير فى جنيف « عن تسديد اللطمة القاضية للخرافة المسيحية (١١٥) » ويدخل خارجى آخر اسمه الكبتن لزماها جو القصة فى درم - « رجل طويل هزيل ، يتفق مظهره هو وحصانه مع وصف دون كخوته ممطيا جواده روزنانتى » . وقد عاش بين هنود أمريكا الشمالية ، وهو يقص فى لذة كيف أن هؤلاء الهنود قد شؤوا على النار مرسلين فرنسيين لقولهما ان الله سمح لابنه « ان يدخل أحشاء امرأة ، ويعدم كما يعدم المجرمون » ، ولأنهما زعما أنهما يستطيعان « تكثير الله الى مالا نهاية بالاستعانة بقليل من الدقيق والماء » وكان لزماهاجو « يكثر استعمال الفاظ مثل

العقل ، والفلسفة ، وتناقض الحدود ؛ وقد أنكر خلود نار الجحيم ،
بمل قذف ببعض مفرقاته عقيدة خلود الروح قذفا شيط شوارب ايمان
الميدة طابيثا قليلا (١١٦) » .

ولم يكتب لسمولت أن يرى « همفري كلنكر » مطبوعة . ففي
١٧ سبتمبر ١٧٧١ مات فى فيلته الايطالية غير متجاوز الخمسين ،
بعد أن خلق من الاعداء والشخصيات الحية أكثر مما خلقه أى كاتب
آخر فى زمانه . ونحن نفتقد فيه ما نجده فى فيلدنج من ابتهاج وتقبل
صحى للحياة وبناء للحبكة فيه جهد وعناية ، غير أن فى سمولت حيوية
عارمة ، وفيه رنين ورائحة مدن بريطانيا ومراكبها وطبقته الوسطى،
وحكايته ذات الأحداث المترابطة البسيطة تتدفق بحرية وحيوية أكثر
دون أن يعوقها عائق من المواعظ . ورسم الشخص اقل لفتا للنظر
فى فيلدنج ، ولكنه أكثر تعقيدا . وكثيرا ما يقنع سمولت بتكديس
السمات المميزة للأفراد بدلا من ارتياده للتناقضات والشكوك والتجارب
التي تصنع الشخصية . وهذا الأسلوب فى تمييز الأفراد - بالمبالغة فى
خصيصة ما باعتبارها « لازمة » فى كل شخص - انتقل الى دكنز ،
الذى واصل بمذكرات بكوك الرحلة التي بدأها ماثيو براىبل .

هؤلاء الكتاب - رتشرسن وفيلدنج وسمولت - اذا أخذناهم معا،
وجدناهم يصفون انجلترا منتصف القرن الثامن عشر وصفا أكمل وأدق
من أى وصف أتى به مؤرخ أو جميع المؤرخين - الذين يضلون طريقهم
وسط الشذوذات . فكل شيء موجود هنا ، اللهم الا تلك الطبقة العليا
التي أخذت عن فرنسا عاداتها ومستعمراتها . هؤلاء الروائيون أدخلوا
الطبقات الوسطى دخول الظافرين الى ميدان الأدب ، كما أدخلهم
ليللو الى الدراما ، وجأى الى الاوبرا ، وهوجارث الى التصوير . لقد
خلقوا الرواية الحديثة وتركوها تراثا لا يبلى .

٦ - الليدى ماري

بهذا اللقب الفت انجليزية أن تلقب المع الانجليزيات فى جيلها ،
المرأة التي دخلت تاريخ الادب، والعلماء بهجومها على 'التقاليد' التي
حبست جنسها ، ودخلت تاريخ آداب اللغة بكتابتها رسائل تنافس رسائل
مدم دسفينيه .

وقد حظيت بظروف مواتية للانطلاق ؛ فهي حفيدة السر جون ايفلين ، وابنه ايفلين بييرمونت الذى انتخب عضوا بالبرلمان سنة مولدها (١٦٨٩) ، والذى ورث عقب ذلك ضيعة غنية ولقب ايرل كنجزتن ، ومن هنا لقبت ابنته بـ « ليدى مارى » منذ طفولتها . أما أمها ، الليدى مارى فيلدنج ، فكان أبوها ايرلا ، وابن عمها هو الروائى المعروف . وماتت الأم وبطلتنا لا تتجاوز الرابعة من عمرها . وأرسل الأب أطفاله الى أمه لتكفلهم ، فلما ماتت عادوا الى مقره الريفى المترف ، ثورزى بارك ، فى مقاطعة نوتنجهامشير ، وكانوا يعيشون أحيانا فى منزله اللندنى فى بيكاديللى . وكان شديد التعلق بمارى التى اختارها « نخبا » (أى شخصا يشرب نخبه) للعام فى نادى الكيت كات ؛ هناك كانت تنتقل من حجر الى حجر ، وببدى ذكائها فى شيطنة . وقد علمت نفسها فى مكتبة أبيها بمعاونة مربيتها ، فكانتا تتفقان هناك أحيانا ثمانى ساعات فى اليوم ، تستوعبان الرومانسيات الفرنسية ، والتمثيلات الانجليزية . والتقطت بعض الفرنسية والايطالية ، وعلمت نفسها اللاتينية بالاستعانة بـ « تحولات » الشاعر أوفيد . وكان اديسون وسقيل وكونجرىف يختلفون الى البيت ، ويشجعونها على الدرس ، ويحفزون ذهنها المتطلع . ونحن نعرف ، من مصدر وحيد هو مصدرها هى ، أن المامها بالاداب اللاتينية هو الذى جذب اليها اهتمام ادورد ورقلى .

وكان حفيدا لادورد مونتاجيو ، أول ايرل لساندوتش ، واتخذ أبوه سدن مونتاجيو اسم ورقلى عند زواجه بوارثة ذلك اللقب . وكان ادورد حين التقى بمارى (١٧٠٨) - وهو فى الثلاثين - رجلا ذا شأن وتطلعات كبيرة ، تزود بتعليم جامعى ، ودعى لاحتراف المحاماة فى الحادية والعشرين ، وظفر بكرسى فى البرلمان وهو فى السابعة والعشرين . وهو لا يدرك كيف بدأ توددها اليه ، ولكن هذا التودد احرز شيئا من التقدم ، لأنها كتبت له فى ٢٨ مارس ١٧١٠ تقول :

« اسمح لى بأن أقول هذا (وأنا عليمه بأن قولى قد يبدو غرورا) ، وهو أنى أعرف كيف أسعد رجلا معقولا ؛ ولكن على ذلك الرجل ... أن يسهم هو نفسه بشيء فى هذا ... وهذه الرسالة ... هي اول رسالة كتبتها فى حياتى لإنسان من جنسك ، وستكون الأخيرة . فعليك ألا تتوقع رسالة أخرى على الاطلاق (١١٧) » .

وأفلحت استراتيجيتها المتأنية . فلما مرضت بالحصبة أرسل إليها رسالة قصيرة كانت آخر مما ألف أن يرسل : « كان يفرحني كثيراً أن أسمع بأن حسنك قد أودى جدا لو كنت أسر بأي شيء يسوءك ، لأن من شأن هذا أن يقلل من عدد المعجبين بك (١١٨) » . ودفع جوابها . حملتها خطوة أخرى « انك تظن أنني - لو تزوجتني - ساهيم بحبك شهرا ، ويجب آخر في الشهر التالي ، ولكن لن يحدث هذا ولا ذاك » . ففي استطاعتي أن أقدر انسانا ، وأن أكون صديقة لأنسان ، ولكنني لا أدري ألاستطيع أن أعشق (١١٩) » . ولعل هذه الصراحة جعلته يتريث ، لأنها كتبت في نوفمبر « تقول انك لم تستقر على رأي بعد ، فدعني أقرر نيابة عنك ، وأعفيك من مشقة الكتابة ثانية . وداعا الى الأبد ! لا ترد (١٢٠) » . وعادت تكتب في فبراير ١٧١١ لتقول له « هذه آخر رسالة أبعث بها (١٢١) » . واستأنف تودده إليها ، فتقهقرت ، وأغرته بالمطاردة الحثيثة . وتدخلت الاعتبارات المالية واعتراض الأب ، فدبرا الهرب ، وإن كان معنى هذا ألا تتوقع مهرا من أبيها . وأنذرت ورتلى انذارا أمينا « فكر الآن لآخر مرة بأي طريقة يجب أن تأخذني . ساحضر اليك بقميص نومي وتنورتى ، وذلك كل ما ستحصل عليه معي (١٢٢) » والتقيا في نزل ، وتزوجا في أغسطس ١٧١٢ ، وبعدها لقبت بالليدى ماري ورتلى مونتايجو ، هذا الاسم الأخير اتخذته من نسب زوجها ، ولكن لما كان ابنا لابن ثان للأسرة (غير البكر) ، فقد ظل اسمه ادورد ورتلى دون القاب شرف .

وما لبثت دواعى العمل والسياسة أن نقلته الى درم ولندن ، بينما تركها بدخل متواضع جدا في عدة بيوت في الريف انتظارا لوصول وليدها . وفي أبريل لحقت بورتلى في لندن ، وهناك ولد طفلها الأول في شهر مايو . على أن سعادتها كانت قصيرة الأجل ، فقد رحل زوجها سعيا لاعادة انتخابه في البرلمان ، وما لبثت أن أخذت تشكو الوحدة ؛ لقد تطلعت الى شهر عمل حالم ، وتطلع هو الى مقعد في البرلمان الجديد . وأخفقت حملته الغالية التكلفة ، ولكنه عين عضوا لجنة صغيرا . واستاجر بيتا قرب قصر سانت جيمس ، وهناك ، في يناير ١٧١٥ ، بدأت الليدى ماري غزوها للندن .

وقد خبرت فيها دوامة الحياة الاجتماعية . فكانت تستضيف
الأصحاب أيام الاثنين ، وتختلف الى الأوبرا أيام الأربعاء ، وإلى
المسرح أيام الخميس . وتزور وتزار ، وترفرف حول بلاط جورج الأول ،
ومع ذلك ظفرت برضي الأميرة كارولين . وصادقت الشعراء ، وتبادلت
النكت الذكية مع بوب وجاى . وافتتن بوب ببديعتها الحاضرة ، ونسي
لحظة احتقاره للجنس الأنعم ، وصفق لجهودها فى تعليم البنات ،
وأهداها بعض قوافيه التى نظمها فى هرولة :

« فى الحسن أو الذكاء

لم يجرؤ بشر بعد

أن يشك فى علو كعبك ،

ولكن من الرجال ذوى الفطنة

من رأى أن التسليم لسيدة

فى أمور العلم أمر عسير .

أن المدارس الوقحة ،

بقواعدها الغبية البالية ،

أنكرت التعليم على الاناث ،

وكذلك ينكر البابويون

على الناس قراءة الكتاب المقدس

مخافة أن تغدو الرعية حكيمة كراعيها .

ان المرأة كانت أول

من ذاق لذة المعرفة

(رغم أنها لعنت)

ويجمع الحكماء

على أن القوانين يجب أن تقضى

بالحق لأول مالك .

اذن فاستأنفى أيتها السيدة الحسنة

فى جراءة ذلك الحق القديم

الذى هو مطلب جنسك كله ؛
واجعلى الرجال يتلقون
على يد حواء ثانية ذكية
معرفة الخير والشر .

ولكن اذا كانت حواء الاولى
قد عوقبت عقابا صارما
لانها لم تقطف غير تفاحة واحدة ،
فأى عقاب جديد
يقضى به عليك ،

يا من سرقت الشجرة كلها بعد أن ذقت حلاوتها (١٢٣) ؟ »

وكتب جاى الآن نشيدا رعويا سماه « التبرج » هجا فيه بعض
اعلام لندن تحت أسماء زائفة شفافه . وشاركت الليدى مارى فى هذه
اللعبة . وبمساعدة بوب وجاى نظمت نشيدان رعويين نافست أبياتهما
الزوجية البتارة أبيات الشاعرين رشاقة ولذعا . ولم تنشر هاتين
القصيدتين ، ولكنها سمحت بتداول نسخ مخطوطة منهما بين
الأصدقاء - واكتسبت الآن شهرة بأنها قريع بوب بين النساء ، امرأة
تحذق فنون القلم والقوافى والسخرية الموجهة .

على أنها فى ديسمبر ١٧١٥ كابدت لطمة أوجع من سهامها . ذلك
أن الجدرى الذى قتل من قبل أخاها هاجمها هجوما قاسيا حتى شاع
أنها ماتت . وقد نجت من الموت ، ولكن وجهها تشوه ببثور الجدرى ،
ورموشها سقطت ، ولم يبق غير عينيها السوداوين النجلاوين أثرا من
ذلك الجمال الذى اعتمدت عليه فى دفع زوجها الى الامام . ومع ذلك
ظفر ورتلى بالكفاة ، ففى أبريل ١٧١٦ عين « سفيرا فوق العادة »
فى البلاط العثمانى . وابتهجت الليدى مارى ، فلقد حلمت بالشرق
مرتعا للأحلام والشعر ، وحتى وهى فى صحبة زوجها قد تجد الرومانس
فى الاستانة أو فى الطريق اليها . وكتب لها بوب وقد طاف هذا اللحم

بخياله كذلك ، فى أول يوليو ، رسالة أشرفت على شفا الغرام بأسلوب أنيق :

« لو خطر لى أننى لن أراك ثانية لقلت هنا أشياء ما كنت لأقولها لشخصك . فما أريد أن أتركك تموتين مخدوعة فى ، أى تذهبين الى الأستاذة دون علم بأننى ، بشيء من المبالغة ، وبغاية التعقل أيضا ، يا سيدتى » .

ثم وقع بالتحية الممقاة المألوفة ، تحية العبد الخاضع المطيع (١٢٤) .

وفى أول أغسطس ، عبر ورتلى ومارى وابنهما البائع ثلاث سفين ورهط من الخدم والحشم البحر الى هولندة . ومروا بكولونيا الى ريجنزبرج ، حيث ابحروا على ذهبية يجذف فيها اثنا عشر ملاحا مرورا بقمم جبلية تعلوها القلاع . وفى فيينا وجدت رسالة من بوب يقدم فيها قلبه ويؤكد لها :

« لا لأنى أرى فى كل انسان متجرد مشهدا رائعا مثلك أنت وقلة أخرى من الناس .. فى وسعك أن تتخيلى بسهولة مبلغ رغبتى فى مراسلة شخص علمنى منذ أمد بعيد أن الاحترام من أول نظرة محال كالحب ، وأفسد على منذ ذلك الحين لذة كل حديث مع أحد الجنسين ، وكل صداقة مع الجنس الآخر تقريبا .. لقد فقدت الكتب تأثيرها على ، وأمنت منذ رأيته أن هناك شيئا أقوى من الفلسفة ، وأن هناك ، منذ سمعتك ، انسانا حيا هو أحكم من جميع الحكماء (١٢٥) » .

ولكنه أضاف أمله بأن تكون سعيدة مع زوجها . وردت عليه قائلة :

« ربما ضحكت منى لشكرى اياك بكل وقار على اهتمامك المتفضل الذى أعربت عنه . ومن المؤكد أنه يحق لى ، أن شئت أن أحمل الأشياء الجميلة التى قلتها لى على محمل الفكاهة والمزاج ، وربما كان حصل

لها على هذا المحمل صوابا . ولكننى لم أكن فى حياتى مiale ولو نصف.
ميلي الآن لتصديقك (١٢٢) » .

وفى ٣ فبراير ١٧١٧ بعث لها بوب بتصريح آخر يبوح فيه بحبه
العميق ، محتجا على اعتبارها اياه . « صديقها فقط » . واحتفظت مارى
بهذه الرسائل لنفسها ، سعيدة بأنها حركت حطام أعظم الشعراء
الاحياء .

وبلغت الجماعة الاسنانة فى مايو . وهناك عكفت مارى على تعلم
التركية بعزيمة ماضية ، وبلغت من ذلك مبلغا أتاح لها فهم الشعر التركى
والاعجاب به ، واتخذت الثياب التركية ، وزارت النساء فى الحريم ،
ووجدتهن أرقى من خليات جورج الأول . ولاحظت ممارسة التطعيم
فى تركيا بشكل منظم وناجح وقاية من الجدرى ، وطعم الدكتور
هيتلاند الجراح الانجليزى فى الاسنانة ولدها بناء على طلبها . ورسائلها
من تلك المدينة لا تقل فتنة عن أى رسائل فى هذا الجانب من جوانب
مدام دسغنييه ، أو هوراس ولبول ، أو ملشيور جريم . ولم تنتظر حتى
يخبرها انسان بأنها 'أدب' ، فلقد كتبت بهذا التطلع ، وقالت لأصدقائها
« أن أحدث اللذات التى صادفتها فى طريقى هى رسائل مدام دسغنييه ،
جميلة جدا هذه الرسائل ، ولكننى أؤكد ، دون أدنى غرور ، أن رسائل
لن تقل عنها امتاعا بعد مضي أربعين سنة من الآن . لذلك أنصحكم
بالا تقذفوا بأى منها فى سلة المهملات (١٢٧) » .

واتصلت رسائلها مع بوب . فتوسل اليها أن تأخذ تأكيدات مأخذ
الجد ، ولكن نبرته كانت مزيجا محيرا من المزاح والحب . وقد تصور
تركيا فى خياله الشاطح « بلد الخيرة ، حيث لا تتحدث النساء التعمعات
مع أحد الا الخصيان ، وحيث يؤتى لهن بالطعام - حتى الخيسار -
مقطعا » . ثم أضاف وهو يفكر فى تشوه جسده محزونا « اننى شخصا
قادر على أن أتبع انسانا أحببته ، لا الى الاسنانة فحسب ، بل الى
أرجاء الهند التى يقولون لنا أن النساء فيها يعظم حبهن لأقبح الرجال
صورة ، ... ويرين فى التشوهات دلائل الرضى الالهى » . ويقول انه
سيعتقد الاسلام ان اعتنقه ويصحبها الى مكة ، وأنه لو وجد التشجيع

صدق (١٠٩) « . وأقام عليه الأميرال دعوى القذف ، فكابد سمولت الكافى لالتقى بها فى لمباردية ، « مسرح تلك الغراميات المشهورة بين الاميرة الجنية وقزمها (١٢٨) » . فلما علم أنها عائدة الى أرض الوطن هزه الطرب حتى كاد ينتشي : « أكتب وكأننى ثمل ، فاللذة التى أجدها فى التفكير فى عودتك تطرينى فوق حدود التعقل واللياقة ... تعالى بالله ، تعالى يا ليدى مارى ، تعالى سريعا ! (١٢٩) » .

وأخفقت بعثة ورتلى ، ودعى للعودة الى لندن . ونحن نقرأ عينة من أسفار القرن الثامن عشر فى رحيلهم من الأستانة فى ٥ يونيو ١٧١٨ ووصولهم الى لندن فى ١٢ أكتوبر . هناك عاودت الليدى مارى حياتها فى البلاط ومع الأدباء والمظرفاء ، ولكن بوب الذى كان الآن عاكفا على ترجمة هومر ، كان مشغولا فى ستانتون هاركورت . على أنه انتقل فى مارس ١٧١٩ الى تويكنهام ، وفى يونيو وجد ورتلى والليدى مارى بمعونته بيتا هناك أيضا باعه لهما السر جودفرى نلر . وعقب ذلك دفع بوب لنلر عشرين جنيها ليرسم له صورتها (١٣٠) . وقد أجساد نلر رسمها مع أنه كان فى الرابعة والسبعين . فاليدان رائعتان ، والوجه يكاد يكون شرقيا كلباس الرأس التركى ، والشفتان ممثلتان امتلاء شهوانيا ، والعينان نجلاوان سوداوان لا تزالان تخبئان الألباب - وقد أشاد بهما جاي فى أبيات فى هذه الفترة . وعلق بوب اللوحة فى حجرة نومه ، وخلدها فى قصيدة بعث بها اليها :

« البسمات اللعوب حول الفم المغمّر ،

وسيماء الجلال والصدق السعيدة ،

ونظير هذا من تألق فى الذهن الرفيع

حيث اجتمعت كل المفاتن والفضائل ،

علم فى تواضع ، وحكمة فى اعتدال ،

عظمة فى غير تكلف ، وذكاء فى غير ادعاء (١٣١) » .

فى ذلك العام بلغ نجمها أوجها ، وبدأت الكوارث التى ابتليت بها . ذلك أن زائرا فرنسيا يدعى توسان ريمون أودع عندها ألفين من الجنيهات لتستثمرها على الوجه الذى تستصوبه . فاشتريت بها أسهما

من شركة بحر الجنوب بناء على نصيحة بوب ، ولكن الأسهم هبطت هبوطاً مدمراً ، فأصبح الكلفان خمسمائة ، فلما أنهت الأمر الى ريمون اتهمها بسرقة ماله (١٧٢١) . وفى السنة نفسها هدد حياة ابنتها التى ولدتها فى ١٧١٨ وباء جدرى أصابها ، فأرسلت فى طلب الدكتور ميقلاند الذى كان قد عاد من الأستانة ، فطعم الفتاة بناء على طلبها . وسئرى فى مكان لاحق تأثير هذا المثل على الطب البريطانى قبل جنر .

وفجأة ، فى سنة ١٧٢٢ ، انهارت صداقتها لبوب . كانا الى شهر يوليو يلتقيان فى كثرة أثارت القيل والقال فى تويكنهام . ولكن فى سبتمبر بدأ يكتب الرسائل الودية الى جوديث كوبر ، ذكر فيها على سبيل تعزيتها ، أن هناك اضمحلالا واضحا فى « ألمع ذكاء فى العالم » . وزعمت اللىدى مارى أن بوب قد باح لها بحبه فى حرارة ، وأنه لم يغتفر لها قط الاستخفاف الذى قابلت به هذه المغامرة الجريئة (١٣٢) . ولزم الصمت برهة ، ولكنه كان بين الحين والحين يرهف شعره فى مناسبات يساهم يستشفها القارىء بسهولة . ولما كتبت لصديق تذكر أن سويقت وبوب وجاى هم الذين اشتركوا فى كتابة قصيدة غنائية شعبية ظن الصديق أنها من نظمها ، بعث اليها بوب بتوبيخ حاد ؛ وفى قصائده « المنوعات » التى نشرها فى ١٧٢٨ أذاع هذا التوبيخ بوضوح صارخ :

« تلك الأعييك يا ليدى مارى ،

ولكن ما دمت تفقسين ، فاعترفى بأفرائحك ،

وكونى أكثر حذقا فى نقراتك ،

فلا تنقرى كبار ديوكك كما تفعلين بصغارها (١٣٣) » .

وفى قصيدة سماها « التقليد » (١٧٣٣) أشار الى « سافو الهائجة .. . التى ابتلاها حبها بمرض ... » وهو يعنى أن عشيقها أصابها بالزهرى (١٣٤) . ويقول هوراس ولبول أنها هددت بأن ترسل اليه من يضربه بالسوط .

وكانت هذه المشاحنة القبيحة ضربة أخرى أعانت على انهيار زواجها . ذلك أن ورتلى بعد أن استعاد مكانه فى البرلمان تركها مهملة

اهمالا واضحا فى تويكنهام . وقد جعله موت أبيه (١٧٢٧) رجلا عريض الثراء ، فزودها بحوائجها المادية ، ولكنه تركها لمواردها الخاصة فى شئون الحب . وأخذ ابنها يثبت أنه وغد كسول . أما ابنتها التى غدت امرأة ذكية مهذبة فكانت سلواها الوحيدة . وحاول اللورد هرفى أن يحتل مكان بوب فى حياتها ، ولكن كان فى طبيعة جسمه ما جعله لا يستطيع أن يغتفر لها ، ولا لزوجته ، كونها امرأة . ولا بد أنه عرف بتقسيم الليدى مارى النوع الانسانى الى رجال ، ونساء ، وهرفيين (١٣٥) .

وفى ١٧٣٦ دخل نيزك ايطالى فلكما وغير مساره . ذلك هو فرانكشكو الجاروتى ، الذى ولد بالبندقية فى ١٧١٢ ، وكان قد اثار بعض المضجة فى دنيا العلم والادب الخالص . وفى ١٧٣٥ كان ضيفا فى بيت فولتير ومدام دشاتليه فى سيريه حيث درس ثلاثتهم نيوتن . ثم قدم الى لندن بخطابات تعريف من فولتير ، واستقبل فى البلاط ، والتقى بهرفى وباليدي مارى عن طريقه . ووقعت فى غرامه كما لم تقع قط فى غرام ورتلى لأن قلبها كان خاليا ، ولأنه كان جميلا ، ذكيا ، شابا . وكانت ترتعد حين يخطر لها أنها فى السابعة والأربعين وأنه فى الرابعة والعشرين . وبدأ أن طريقها الى الرومانس قد غدا ممهدا بزواج ابنتها من ايرل بيوت (أغسطس ١٧٣٦) . فلما سمعت أن الجاروتى عائد الى ايطاليا أرسلت اليه خطابا يفيض بعاطفة الصبايا المشبوبة :

« لم أعد أعرف بأى طريقة أكتب اليك . فمشاعرى أقوى مما ينبغى ، وليس فى طاقتى أن أفسرها ولا أن أخفيها . فلكى تغتفر لى رسائلنى يحب أن تجيش فى صدرك حماسة كحماستى . واننى لأرى كل ما فى هذا من حماقة دون أى أمل فى اصلاح نفسى . فمجرد فكرة مشاهدتك أعطتنى نشوة تذيبنى ، فماذا جرى لتلك اللامبالاة الفلسفية التى صنعت مجد أيامى الماضية وهدوعها ؟ لقد فقدتها الى الابد ، ولو أن هذا الغرام المشبوب شفى لما رأيت أمامى غير الملل القاتل . فاغفر هذا الشطط الذى كنت السبب فيه ، وتعال لترانى (١٣٦) » .

وأتى ، وتناول العشاء معها عشية رحيله . وكان هرفى قد دعاه أيضا : فلم يلب دعوته . فجن من الغيرة ، وكتب الى الجاروتى طعنا

مرا في الليدى مارى ، منبها اياه الى انها كانت تدفع على لندن كلها
Gzouha alaytali bihذه العبارة المزهوة
Veni. Vidi; Vici
« جئت ، ورأيت ، وغلبت » ربما ، ولكن رسائلها الى الجاروتى لم تكن
رسائل الغالب :

« ما أجبن الانسان حين يحب : أخشى أن أسوء اليك بارسالى
هذا الخطاب حتى ولو كان قد : أن أسوءك . والحق أننى مجسونة
فى كل أمر يتصل بك حتى أننى لست وأنت من خواطرى . كل ما هو
مؤكد هو أننى سأحبك ما حييت ، برغم نزوتك وتعقلى (١٣٧) » .

ولم يرد على هذه الرسالة ، ولا على ثانية ، ولا ثالثة ، رغم
تهديدها بالانتحار . أما الرابعة فقد انتزعت منه ردا جاء كما تقول
« فى وقت مناسب جدا لأنقاذ البقية الباقية من عقلى » . فقد عرضت
أن تتبعه الى ايطاليا ، ولكنه ثناها عن الفكرة ، وراحت تجتر غرامها
فى عزلتها ثلاث سنوات . ولكن فى ١٧٣٩ اقنعت زوجها بأنها فى حاجة
الى رحلة لايطاليا . وكان قد فقد حبه لها ، فاستطاع أن يتصرف تصرف
الانسان المهذب . فودعها حين غادرت لندن ، ووافق على أن يرسل لها
راتبا ريع سنوى قدره ٢٤٥ جنيهها من دخله الخاص ، وأن يحول اليها
دخلها السنوى الذى أوصى به أبوها وقدره ١٥٠ جنيهها . وسافرت
بأسرع ما تستطيع الى البندقية أملا فى أن تجد الجاروتى هناك ، ولكنه
كان قد ذهب الى برلين (١٧٤٠) ليعيش مع فردريك الثانى المتوج
حديثا ، وكان يحبه حب اللوطيين . واتخذت مارى لها بيتا على قناة
البندقية الكبرى وقد استبد بها الحزن ، وافتتحت فيه صالونا ،
واستضافت الادباء والكبراء ، وحظيت بالتودد اللطيف من نبلاء
البندقية وحكامها .

ثم غادرت البندقية الى فلورنسة بعد عام ، وأقامت شهرين فى
قصر ريدولفى ضيفا على اللورد والليدى بومفريت . ورآها هوراس
ولبول هناك ، وأرسل الى ه . س . كونواى وصفا رقيقا لها :

« هل أنباتك بأن الليدى مارى ورتلى هنا ؟ انها تضحك من
الليدى ولبول (زوجة أخى هوراس) . وتقرع الليدى بومفريت ،

وتضحك منها المدينة كلها . ولا بد أن لباسها ، وجشعها ، ووقاحتها ،
تذهشن أى انسان لم يسمع باسمها . فهي ترتدى قبعة بشعة (تربط
تحت الذقن) لا تخفى خصلاتها السوداء الدهنية القوام التى ترسلها
دون تمشيط أو تجعيد ، وازارا أزرق قديما يفغر فاه ويكشف عن تنورة
من التيل . وقد انتفخ وجهها انتفاخا شديدا من أحد جانبيه بمخلفات -
غطى بعضها بلزقة ، وبعضها بالطلاء الابيض . . وقد قامت مرتين
أو ثلاثا فى لعبة ورق (تسمى الفرعونية) فى قصر الاميرة كراون
حيث تغش بكل وسيلة فى اللعب . وهى فى الحق مسلية ، كنت أقرأ
أعمالها التى تعيرها مخطوطة ، ولكنها نسائية الى حد مفرط ، وأعجبني
القليل من أعمالها (١٣٨) » .

والواقع أن هذا الكاريكاتور كان له أساس ، فقد جرى العرف فى
ايطاليا على أن ترتدى المرأة فى بيتها الثياب الفضفاضة المهمة توخيا
للراحة ، وما من شك فى أن وجه مارى كان منقرا جدا ، ولكن ليس
بالزهرى بالتأكيد (١٣٩) . وكان من عادات المؤلفين أن يعيروا الأصدقاء
مخطوطاتهم . وقد أثارت الليدى مارى استياء ولبول الشاب بمصادقتها
لمولى سكريت ، التى ساءه منها أنها أصبحت الزوجة الثانية لأبيه .
ولعل الليدى مارى كانت أكثر اهمالا لمظهرها مما اعتادت بعد أن خلعت
أنها فقدت الجاروتى الى الأبد .

ثم علمت أنه فى تورين ، فهرعت اليها ، ولحقت به (مارس
١٧٤١) ، وعاشت معه شهرين . ولكنه عاملها بخشونة وعدم مبالاة ،
وسرعان ما تشاجرا وافترقا ، فمضى هو الى برلين ، وهى الى جنوه .
هناك رآها ولبول مرة أخرى ، واستمتع بكرم ضيافتها ، ووجهه الى
مركبتها أبياتا تنفث السم :

« ايه ايتها العربية ، يا من حكم عليك بأن تحملى
جلد الليدى مارى العفن ،
اذهبي بها الى أقصى ركن فى ايطاليا ،
وانزليها بالله حية ،
ولا تعجنى بهزاتك ولطماتك

نصف الانف الذي مازالت تحتفظ به (١٤٠) » .

وفى ١٧٦٠ أبهجها أن تعلم أن صهرها أصبح عضواً فى المجلس الخاص لجورج الثالث . وفى ٢١ يناير ١٧٦١ مات زوجها تاركاً معظم ثروته لابنته ، و ١٢٠٠ ر جفيه فى العام لأرملة . وعادت الليدى ماري الى إنجلترا (يناير ١٧٦٢) بعد غيبة امتدت إحدى وعشرين سنة ، أما لأن موت زوجها أزال عقبة خفية فى سبيل رجوعها ، وأما لأن سطوع نجم صهرها فى عالم السياسة قد اجتذبها الى وطنها .

غير أن الاجل لم يمهلها أكثر من سبعة أشهر ، ولم تكن بالأشهر السعيدة . ذلك أن مطاردتها للجاروتى ، وأنباء كتلك التى أشاعها عنها هوراس ولبول ، كانت قد سوات سمعتها ؛ ثم ان ابنتها لم تسعد بصحبة أمها رغم حرصها على صحتها وراحتها . وفى يونيو بدأت الليدى ماري تشكو ورماً فى صدرها . وتقبلت فى هدوء مصارحة طبيبها لها بأنها مصابة بالسرطان ، وقالت انها عاشت من العمر ما يكفى . وماتت بعد شهر من الألم (٢١ أغسطس ١٧٦٢) .

وكان من آخر طلباتها أن تنشر رسائلها لتعطى القراء جانبها من القصة ، وتدعم حقها فى تذكر الناس لها . ولكنها كانت قد عهدت بمخطوطاتها الى ابنتها ، فبذلت هذه الابنة (الليدى بيوت) التى غدت الآن زوجة لرئيس الوزراء ما وسعها لتمنع نشرها . على أن الرسائل التى كتبتها من تركيا نسخت سرا قبل أن تسلم لابنتها ، وصدرت فى ١٧٦٣ . وسرعان ما نفدت عدة طبعات منها ، وكان من قرائها الذين ابتهجوا بها جونسون وجبون . أما النقاد الذين قسوا على المؤلفة وهى حية ، فقد أسرفوا الآن فى اطراء رسائلها . وكتب سمولت يقول ان الرسائل « لم يكتب نظيرها أى كاتب رسائل من أى جنس ، أو سن ، أو أمة » وفضلها فولتير على رسائل مدام سفنييه (١٤١) . وقد م ٢٠ - قصة الحضارة

أحرقَت الليدي بيوت قبل أن تموت في ١٧٩٤ يومية أمها الضخمة ،
ولكنها تركت الرسائل ليتصرف فيها ابنها البكر . فسمح بنشر بعضها
في ١٨٠٣ ، أما الرسائل التي كتبتها للأجاروتى فظلت طي الخفاء الى
أن اقنع بايرون جون مري بأن يشتريها من صاحبها الايطالى (١٨١٧) .
ولم يكتمل نشرها الا عام ١٨٦١ ، واعترف الناس بان الليدي ماري
تشارك بوب ، وجراي ، وجاي ، ورتشردسن ، وسمولت ، وهيوم ،
الفضل في جعل أدب انجلترا أعظم آداب ذلك العصر الفحل تنوعا
وحيوية وتأثيرا

الفصل السادس

التصوير والموسيقى

١٧١٤ - ٥٦

١ - المصورون

لم تكن انجلترا التي سطع نورها الاصيل في عالم الادب والسياسة سوى تابع متواضع في دنيا الموسيقى والتصوير . وكان لتخلفها في التصوير أسباب كثيرة ، ليست منها أجواؤها المعتمدة ، فالأجواء أعتمت في الأراضي المنخفضة كذلك ، ومع ذلك حققت هولندا بمصورين كثيرين كثرة طواحين هوائها . وربما كان المانش أحد الأسباب ، لأنه كان أشبه بالترس منع عن انجلترا الفنون كما وقاها حروب القارة ، وربما كانت الموهبة الانجليزية غارقة في التجارة وفي الحرب بعد ولبول . وقد تلام البروتستنتية على ركود الفن الانجليزي ، لأن الفن ينمو ويتزعرع على الخيال ، والبروتستنتية أقصت الخيال عن الفن وكرسته للادب واللاهوت ، ولكن يرد على هذا أيضا بأن هولندا كانت بروتستنتية . وأغلب الظن أن العامل الأهم كان الثورة والتراث البيورتانيين ؛ اعدام تشارلز الأول عاشق الفن ، وتشتيت مجموعته الفنية ، وانحسار الذهن الانجليزي - باستثناء ملتن - خلال فوضى الجمهورية (الكومنولث) . وقد طأطأ التأثير البيورتاني رأسه خلال عودة الملكية ، ولكنه عاد يرفعه مع ولیم الثالث والهانوفرين ، ثم اتخذ في الميثودية صورة منبعثة القوة ، وغدا الجمال خطيئة مرة أخرى .

كان هناك منجزات صغيرة في الفنون الصغرى . من ذلك أن الخزف البديع الناعم العجينة صنع في تشلسي (١٧٥٥) تقليدا لخزف مايسين وسيفر . وأثرى خزافو برمنجهام من صنع الانية من الملك (اللاكيه) . وبلغ ثراء أحدهم ، واسمه جون بسكرفيل ، مبلغا أتاح له أشباع هوايته بطبع طبعاات جميلة للشعراء الانجليز . وزينت حنايا الـروكوك المتسمة بالخيال الجامح الكتب والقماش والاثاث والأواني

وفضة شفيد وقاعة الروتندا فى حدائق فوكسهول ، وبعض الحجرات
فى قصر تشسترفيلد وستروبرى هل .

أما المثالون فكان الناس قد بدأوا يفرقون بينهم وبين البنائين .
وكان أقطاب المثالين فى إنجلترا أجنب المولد وإن أصبحوا عادة
مواطنين بريطانيين . فوفد بيتر شاميكز من أنتويرت ، واشرك مع
لوران ديلفو فى نحت تمثال دوق كنجهام ونورمانديه فى دير
وستمنستر . وكان أعظم هؤلاء الأجنب لوى روبياك ، وهو ابن مصرفى
من ليدن ، قدم الى إنجلترا فى ١٧٤٤ وارتقى سريعا بفضل رعاية
آل ولبول . وقد نفذ تمثال شكسبير النصفى المعروض الآن بالمتحف
البريطانى ، وتمثال هندل المعروض بقاعة الصور القومية ، وحبته
الملكة كارولين برعايتها ، وجلست اليه ليصنع لها تمثالا ، وكلفنه بأن
ينحت تماثيل نصفية لبويل ، ونيوتن ، ولوك ، وغيرهم من أفاضل
الانجليز لتضعها فى مغارتها برتشموند . وقد لقب تشسترفيلد (وكان
ذواقة للفنون) روبياك - « فيدياس زمانه (١) » . ومات روبياك
مقلسا فى ١٧٦٢ بعد أن عاش حياة ملؤها التفانى فى خدمة فنه .

أما العمارة فكانت فى نشوة من فن بالاديو . ذلك أن السروة
المتصاعدة التى حققتها الطبقات العليا التى اثرت وهى منبرمة فى
ظل السلام الوبولى قد مولت مئات الرحلات الكبرى ، التى تشرب
فيها السادة البريطانيون حب معابد الرومان وقصور النهضة . وكانت
البندقية دائما تدخل فى أسفارهم ، فيقف المسافرون فى الطريق عند
فتشنتسا ليعجبوا بواجهات بالاديو ، فاذا عادوا ملأوا إنجلترا بالأعمدة
والاعتاب والقواصر الكلاسيكية . وفى ١٧١٥ - ٢٥ أصدر كولين كامبل
كتابه « فتروفيوس بريتانيكوس » الذى أصبح انجيل البلاديويين ،
ودفع وليم كنت (١٧٢٧) وجيمس جيز (١٧٢٨) الطراز دفعة
أخرى بتأليف كتيبات فى العمارة ، وفى ١٧١٦ نشر رتشرد بويل ،
ايرل برلنجتن الثالث ، طبعة فاخرة من نصوص بالاديو ، وفى ١٧٣٠
نشر ترميمات بالاديو للصروح القديمة . واحتوى بيته الريفى فى
تشزيك على نسخة من « فيلا روتندا » التى بناها بالاديو فى

فتشفتسا ، برواقها المعمد وقبتها الوسطى . وكان برلنجن راعيا سخيا
للادب والموسيقى والفن ، وصديقا لباركلى وهندل وبوب وجاى .

وفى ١٧١٩ جلب معه من روما معماريا شابا يدعى وليم كنت ظفر
بجائزة بابوية على رسومه ، وكان شديد التحمس لكل ما هو كلاسيكى .
وغدا كنت احب الفنانين واحفلهم بالمواهب فى انجلترا ، بعد أن سكن
قصر برلنجن حتى وفاته (والقصر مازال بعد تجديده مركزا من مراكز
الفن الانجليزى) فصور أسقف قصور هوتن وستو وكنزجن ؛ وصمم
الاثاث وصحاف الطعام والمرايا والزجاج ، ومركبا للمهرجانات وملابس
لسيدات المجتمع ، ونحت تماثيل شكسبير فى دير وستمنستر ؛ وكان ممن
تزعموا حركة تشجيع الحديقة الانجليزية « الطبيعية » ؛ وفى ميدان
العمارة شيد معبد الفضيلة القديمة فى حدائق ستو ، وقصر ديفونشير
ببيكادلى ، وقصر حرس الخيالة فى هوايتهول ، وقاعة هولكم المدهشة
فى نورفوك .

وفى ١٧٣٨ رفع اللورد برلنجن الى مجلس مدينة لندن تصميم
كنت البلاديوى لمسكن عمدة لندن « مانثن هاوس » ، واعترض عضو
بان بالاديوى كان بابويا ، فرفض تصميم كنت ، وتلقى جورج دانس
الاب التكليف (وكان بروتستنتيا) وقام به خير قيام . ولكن فى ذلك
العام بدأت الحفائر فى هر كولانيوم ، وافضت الكشوف فيها الى الحفر
عن بومبى (١٧٤٨ وما بعدها) ، وفى ١٧٥٣ نشر روبرت وود
« أطلال بلميرا (تدمر) » وفى ١٧٥٧ « أطلال بعلبك » ، وأعطت
هذه الكشوف للحملة الكلاسيكية فى انجلترا دفعة لا تقاوم ، ووضعت
حدا لوفرة التزييق الباروكى الذى ازدهر فى قصر فانبروج « بلنهم »
الذى بنى لأسرة تشرشل . وفى ١٧٤٨ بنى اسحاق وير ، وهو معمارى
آخر كان يرعاه برلنجن ، قصر تشسترفيلد فى شارع كرزن .

وقد فات بالالاديويين فى تحمسهم هذا أن العمارة الكلاسيكية
انما صممت لأجواء البحر المتوسط لا لرياح انجلترا وغيومها . وأخطأ
كولن كامبل خطأ جسيما بنقله عن النماذج الايطالية دون أن يطوعها
لشقاء انجلترا ؛ فقلعة ميروث التى بناها لم تسمح الا لبصيص من أشعة

الشمس بحقولها ، أما قاعة هوتن التى شادها لروبرت ولبول فقد ضحت بحجرات المعيشة ايثارا للصالات الفخمة التى تلقف التيارات الشديدة. البرودة . واستخدم جيمس جيز ، أحد تلاميذ كرسنوفر رن ، الطراز الكلاسيكى استخداما رائع التأثير فى كنيسة سانت مارى - لستراند بلندن (١٧١٤ - ١٧) ، ويرج هذه الكنيسة أشبه بأغنية من الحجر . وأضاف جيز (١٧١٩) الى كنيسة سانت كلمنت دين التى بناها رن برجا يطو علوا لا يتناسب مع قاعدته ، ولكنه مع ذلك جميل جمالا محفوظا بالخطر . وتوج عمله فى ١٧٢١ برواق كلاسيكى وأعمدة كورنثية فى سانت هارتنز - ان - ذفيلدز ، بميدان ترافلجار . وأخيرا خلق فى مكتبة رادكليف باكسفورد (١٧٣٧ - ٤٧) لحنا منسجما من الأعمدة والقبة .

أما بهاء بات المعمارى فالفضل الأول فيه لجون وود . وكانت الفكرة المسيطرة عليه هى ربط المباني المفردة فى كتلة واحدة ، ومن ثم صمم وبدأ - وأكمل ابنه جون بكفاية - « الهلال الملكى » الضخم - وهو ثلاثون بيتا وراء واجهة موحدة من ١١٤ عمودا كورنثيا - دمرت تدميرا شديدا فى الحرب العالمية الثانية ، ولكن أمكن ترميمها . وعلى مقربة من هذا المكان بقى وود « الأب والابن » « السيركس » (المييدان) (١٧٥ - ٦٤) ، وهو دائرة جميلة من المساكن يكسو واجهتها أفريز مقفل وثلاثة صفوف من الأعمدة ؛ هنا سكن بت الأب ، وتوماس جيتزبورو ، وكليف حاكم الهند . وصمم وود - دون أن يكمل - لجوانب ثلاثة من « كوين سكوير » سلسلة أخرى من المنازل الموحدة وراء واجهة تحكى واجهات قصور النهضة . والكثير من هذا البرنامج ، برنامج تصميم وبناء المدن ، موله رالف ألين الذى اتخذ فىلدينج نموذجا صاغ على غرار « سكواير أولورذى » . وبنى وود الأب لابن قصرا فاخرا بلاديوى الطراز فى يرايور بارك (١٧٣٥ - ٤٣) ، خارج باث بميلين .

لقد كان فقر جماهير بريطانيا يعدله بهاء قصورها . فقد تكلف معبد الن فى برايور بارك ٢٤٠.٠٠٠ جنيه . وأوحت نزوة المبارة للتلاءم والتجار بإقامة القصور الضخمة للضيافة والتباهى . ويقول،

هرفى ان روبرت ولبول اكتسب عداء اللورد تاونشند الابدى بينائيه هوتن هول على مستوى أشد ترفا حتى من قصر تاونشند المجاور المسمى رينهام بارك . وقد ندد اللورد لثقتن بهذا « الجنون الويائى » جنون بناء القصور ، ومع ذلك طالبت زوجته بقصر جديد يبنى على الطراز الايطالى ، فاذعن لها تحت ضغط الالحاح والى حد أشرف به على الافلاس . فلما تم بناء القصر هجرت زوجها الى مغنى اوبرا ايطالى مشكوك فى رجولته ، وسرعان ما انتشرت فى انجلترا ، وحتى فى ارلندة الانجليزية ، أمثال هذه البيوت المظهرية التى بناها الأغنياء . ونظمت الرحلات السياحية ، ونشرت الكتب المرشدة ، لزيارة هذه المساكن الفخمة وحدائقها وقاعات صورها . وطبقت شهرة هذه الصروح الكفأق حتى بلغت روسيا ، فطلبت كاترين الكبرى الى جوسيا ودجود ان يصنع لها طقم مائدة امبراطوريا مزينا بمناظر من قصور الريف الانجليزية (٢) .

واودعت معظم الصور فى انجلترا ، وأخفيت فى كثير من الحالات ، فى هذه البيوت الارستقراطية اذ لم يكن هناك بعد متاحف يستطيع الجمهور العام أن يشاهد فيها الصور . وكانت الرعاية تغدق بوجه خاص على الفنانين الأجانب ، وكلها تقريبا لقاء لوحات تصور الاعيان الذين داعبهم الامل فى أن يخلدوا على القماش بينما تبلى أجسادهم داخل توابيت من الخشب ؛ ولم يكن هناك سوق للمناظر الطبيعية ولا للوحات « التاريخية » . فلما وفد كارل فانلو على انجلترا فى ١٧٣٧ تهافت الكثير جدا من الوجوه النبيلة عليه ليصورها ، حتى أن رتل العربات المقتربة من بيته ظل أسابيع ينافس ذلك الواقف أمام المسارح . ودفعت المبالغ الطائلة للرجل الذى كان يسجل مواعيده رشوة يؤدونها له ليسبقوا غيرهم والا فقد يضطر الواحد منهم الى الانتظار ستة أسابيع (٣) .

وحاولت « الجمعية الملكية للفنون » التى أسست عام ١٧٥٤ أن تشجع المواهب الوطنية بالمباريات والمعارض ، ولكن الطلب على التصوير الانجليزى تباطأ جيلا آخر . وظفر جوزف هايمور ، وهو تلميذ لنلر ، ببعض المشترين للوحاته حين رسم مشاهد من رواية

« باملا (٤) » ؛ والتقط توماس هدسن بعض حيوية هندل فى لوحته التى رسمها له فى ١٧٤٩ (٥) . وكان من تلاميذ هدسن مصور يدعى جوشوا رينولدز ، تنبأ أستاذه بأنه « لن ينبغ أبدا (٦) » . ولكن السر جيمس ثورنهل كان أبعد نظرا . فقد حقق نجاحا بصور نيوتن ، وينتلى ، وستيل ، وصور القبة الداخلية لكنيسة القديس بولس ، وأسقف مستشفى جرينتش وقصر بلنهييم ، وأحرز الخلود بالانابة ، لأنه زوج ابنته لأعظم مصورى العصر الانجليز قاطبة .

٢ - وليم هوجارث : ١٦٩٧ - ١٧٦٤

كان أبوه مدرسا وكاتبا أجيرا ، الحقه فى صباه بنقاش للأسلحة . وانتقل من ذلك الى الحفر على النحاس ، ثم الى رسم الرسوم الايضاحية للكتب . وفى ١٧٢٦ أعد اثنتى عشرة محفورة (كلشيات) كبيرة لكتاب بطر « هودبيراس » . ثم التحق بفصل التصوير الذى كان يعلم فيه ثورنهل ، وتعلم التصوير بالزيت ، ثم هرب مع ابنة أستاذه ، وصفح عنه ثورنهل وعينه مساعدا له .

كانت الرسوم الايضاحية التى رسمها هوجارث لمسرحية العاصفة ، ولسرحيتى هنرى الرابع ، ولأوبرا الشحاذ ، صورا نابضة بالحياة . فميراندا رقيقة حنون ، وكالبان فظ غليظ ، وبروسبرو عطوف كريم ، وايريل يداعب مزهرا فى الهواء ، والسير جون فلسطاف يتكلم من كرشه بخيلاء ، والكبتن ماكهيث فى أغلاله وألحانه ، بطل فى عيون زوجاته رغم كل شيء . ووقع هجاء المستقبل على ذلك العرق الذى تميز به ، وذلك فى لوحة « المصلين النيام » ، فقد كره هوجارث كل المواعظ الا مواعظه ؛ أما فى « حفلة الأطفال » فقد تلذذ بأجمل جوانب الحياة الانجليزية . وهذه الصور تلذنا الآن ، ولكنها لم تأت بثناء وقتها .

وجرت تصوير الاشخاص ولكنه لم يحقق نتائج تذكر ، وكانت المنافسة قاسية ، فأكثر من عشرة مصورين يجمعون ثروات صغيرة بتملق زبائنهم وتوزيع العمل على مساعديهم ؛ فهم يرسمون الرأس ولكنهم يحيلون رسم الخلفيات والستائر لمساعدين يبخسونهم أجورهم . يقول هوجارث

« وكل هذا يتم بسرعة مريحة تتيح للرئيس الحصول فى أسبوع واحد على مال أكثر مما يستطيع أن يحصل عليه رجل ذو مواهب فنية من أعلى المراتب فى ثلاثة أشهر (٧) » . وندد بتجار الوجوه هؤلاء الذين جملوا وجوه زبائنهم اشباعا لغرورهم واستدرارا لمالهم . أما هو فمذهبه أن يصور زبائنه بكل ما فيهم من دمايل والا فلا . فلما جلس اليه نبيل تغلب عليه سيماء القردة صورته هوجارث باهانة مؤذية . ورفض اللورد أن يأخذ صورته اذ لم يكن قد رأى نفسه قط كما يراه الآخرون . فأرسل اليه المصور رسالة جاء فيها :

« المستر هوجارث يقدم احتراماته الواجبة للورد - واذا وجد أنه لا يريد أن يأخذ الصورة التى رسمت له ، فهو يذكره مرة أخرى بحاجة المستر هوجارث الى المال . فاذا لم يرسل سيادته فى طلب الصورة خلال ثلاثة أيام ، فسيبيعها ، بعد اضافة ذيل وغيره من الملحقات الصغيرة ، الى المستر هير مقتنى الوحوش الشهير ؛ لأن المستر هوجارث قطع لذلك السيد عهدا باعطائه الصورة لعرضها فى معرض للصور (٨) » .

ودفع اللورد المال .

وكان هوجارث واثقا من أن فى استطاعته أن يرسم صور الاشخاص كأي فنان قدير . وبينما كان يصور هنرى فوكس (البارون هولاند فيما بعد) أخبر هوراس ولبول أنه وعد فوكس انه اذا جلس متبعا تعليماته فانه سيرسم له صورة لا تقل روعة عن صور روبنز أو فانديك (٩) ، وهو ما صدم هوراس فى الصميم من ثقاليده . وربما برر كثير من لوحات هوجارث التى رسمها للذكور استنكار ولبول لها ، فالوجوه « مقولبة » جدا ، وبعضها يستحق وصف هوجارث الهازى لبعض الصور الانجليزية بالـ « ساكنة » ولكن يجب أن نستثنى منها لوحة « السر توماس كورام » التى أسلفنا ذكرها فى معرض الحديث عن الاحتفال بمستشفى اللقطاء الذى أسسه كورام ، والذى ترى فيه صورته ، فقد التقط هوجارث الطبيعة البارة بالناس فى الوجه المبتسم ، والخلق الحازم فى اليدين المقبوضتين . ولقد كانت فرشاته ، بوجه عام ، أرفق بالنساء منها بالرجال . مثال ذلك أن « صورة سيدة » تنافس صور

جانزيورو ، وصورة « سيدة فى ثياب بنية (١١) » لها الملامح القوية لامرأة أفلحت فى تربية أطفال كثيرين ؛ واذا كانت صورة « الانسة مارى ادوردز (١٢) » مئة نوعا ما ، فإن الكلب - وهو حاضر دائما فى لوحات هوجارث - يبعث فيها الحياة ، وأروع من هذه الصور اللوحات الجماعية مثل « أسرة برايس (١٣) » و « أبناء جراهام (١٤) » وأفضل حتى من هذه « خدم هوجارث (١٥) » ، حيث ترى كل وجه مرسومها فى حب بكل طابعه المتفرد . وأبدع صورته كلها بالطبع هى « بائعة الجمبرى (١٦) » - وهى ليست لوحة شخصية بل ذكرى رجل سليم قوى المصيبة التى رآها تباع الجمبرى من سلة متزنة على رأسها ؛ فتاة عطلت من كل زينة أو زخرف ، لا تستحى من الأسمال التى تكسوها ، تطل على الدنيا وقد توردت وجنتاها وتالقت عيناها صحة وعافية بفضل الحركة والنشاط .

وقد ترك هوجارث على الأقل أربع لوحات صور نفسه فيها . ففي ١٧٤٥ صور نفسه مع كلبه السمين « ترمب (١٧) » . وفى ١٧٥٢ أرانا نفسه جالسا الى حامله ، جسم قصير متين ، ووجه مستدير قصير سمين ، وأنف أفطس عريض ، وعينان زرقاوان أتعبهما طول النضال وشفقتان مزمومتان تحفزا لاستئناف النضال . كان فى رأى ثكرى « مواطنا لندنيا أميذا مرحا ، ورجلا مخلصا صريحا ، يحب نكته ، وأصحابه ، وكأسه ، وروزبيفه - روزبيف انجلترا العجوز (١٨) » . ولم يكن يصل طوله الى خمسة أقدام ، ولكنه كان يحمل سيفا (١٩) ولا يطبق اللغو من أى انسان . ووراء حبه للمقتال دفاعا عن النفس قلب محب ، مسرف فى العاطفة أحيانا ، قطع على نفسه العهد أبدا بشن الحرب على النفاق والقسوة . وكان يحتقر النبلاء الذين يصورهم ، ويحب اللندنى البسيط البرىء من الخيلاء . وقد أدخل الجماهير الانجليزية الى دنيا الفن ، فصورهم فى آثامهم وآلامهم ، فى مستشفى المجاذيب ، والسجن ، والدين ، والكذ المضى . وكره الفرنسيين لأنهم أفسدوا الانجليز بغلوهم فى الزينة وبخيلائهم الارستقراطية . ولم ينس قط أنه قبض عليه لأنه رسم رسوما تخطيطية لبوابة كاليه ، فثار لنفسه بتصويره الفرنسيين كما رآهم هناك : عمالا أجلافا ، وجمهورا يؤمن بالخرافة ، وراهبيا بدينا يحدق بنشوة فى كتف من لحم البقر (٢٠) .

وقد أنبأنا هوجارث فى كتابه « نواذر » كيف حولته ضالة ربحه من صورته الى الاتجاه الذى أكسبه الشهرة ، قال :

« كرهت أن أنحدر الى درك « صانع » الصور الشخصية ، واذ كنت لا أزال أصبو الى الاستقلال فى عملى ، فقد طلقت كل أمل فى الانتفاع من ذلك المورد . . وبما أننى لم أستطع اقناع نفسي بالعمل كما يعمل بعض اخوانى ، وجعل تصوير الاشخاص ضربا من الصداقة يدار بالاستعانة بمصورى الخلفيات والستائر ، لذلك لم تحقق لى هذه الطريقة من الربح ما يكفى لسد نفقات أسرته . ومن ثم وجهت افكارى الى رسم وحفر الموضوعات الخلقية العصرية ، وهذا ميدان لم يطور شئ اى بلد أو عصر (٢١) » .

وعلى ذلك رسم فى ١٧٣١ تمثلا لصور سماها « رحلة بنى » ، وحفرها على النحاس ، ومن هذه المحفورات صنع سلسلة من النسخ المطبوعة عرضت للبيع بعد عام ، ترى فيها الفتاة القادمة من الريف تقدمها قوادة قادرة على الاقتناع الى سيد ملهوف ؛ والصبية سريعة التعلم ، ولا تلبث أن تحرز ثراء قبيحا . ثم يقبض عليها لا للبقاء بل للسرقة ، وتؤدى عملها المفروض عليها فى السجن وهو نفض القنب ، ثم تسير حثيثا الى المرض والموت ، ولكن يعزيها أن يشيع جثمانها رهط من المومسات . وكان فى استطاعة هوجارث أن ينقل شخوصه من الواقع دون مشقة أو عناء ، فقد رأينا المسز نيدهام ينكل بها فى المشهرة عقابا لها على احترافها البغاء ، ويحبسها الجمهور ، وتموت من اصاباتها . (ومع ذلك فان الكولونيل تشارتريز ، الذى اتهم مرتين بهتك العرض وحكم عليه مرتين بالاعدام ، عفا عنه الملك مرتين ، ومات فى أبهة النبلاء بمقره بالريف (٢٢)) . وقد أخطأ هوجارث حين خيل اليه أنه طرق ميدانا جديدا فى هذه الرسوم التى تمثل الحياة اليومية ، فقد سبقها الكثير فى ايطالية النهضة ، وفى فرنسا ، وفى الاراضي المنخفضة ، وفى المانيا . ولكن هوجارث جعل الآن من « الموضوعات الخلقية » فنا وفلسفة . على أنه ، ككل الأخلاقيين ، لم يكن مبرا من اللام ، فقد أطاق فى غير اشمئزاز صحبة السكارى والبغايا (٢٣) ، وكان الهدف من صورته المطبوعة أولا التكسب ، ثم التبشير بالفضيلة إن أمكن .

وراجت صور « البغى » المطبوعة ، فاستهوت ألفا وباتتى مكتب ،
بونيف ربحها الصافى على ألف جنيه . ومع أن طبعات مسروقة كانت
تنتقص من ربح المصور ، فانها أبعدت شبح الجوع عن بابه . وأقبل
الجمهور البريطانى فى غير تردد على مناظر الخطيئة هذه ، وهو
الذى لم يكن به ولع باللوحات ، فهنا فاكهة محرمة ، طهرتها الفضيلة
ولكنها لم تنتقص من بهجتها ، وهنا يستطيع المرء لقاء ثمن زهيد أن
يتعرف الى الرذيلة وهو فى مأمن ، وأن يرقب عقابها الذى تستحقه
وهو راض . واستطاع هوجارث الآن أن يطعم أسرته من مكاسبه ، لا بل
اتخذ مسكنا له فى حى لستر فيلدز العصرى ، وعلق على بابه رأسا
مذهبا يشير الى مهنته فنانا . وقد اشترى بعد ذلك بيتا ريفيا فى
كزيك .

ثم رسم صورا كبيرة فى السذوات القليلة التالية ، لا سيما
« مهرجان سذيرك » - وهى لوحة « بروجلية » انجليزية - ولوحة
جماعية لطيفة تدعى « أسرة أدوردز » ولكنه عاد الى رسومه المطبوعة
فى ١٧٣٣ ، وعارض سلسلة « البغى » بسلسلة سماها « رحلة فاجر »
تبرى فيها شابا طائشا مفتونا يرث فجأة تركة كبيرة ، فيهجر أكسفورد
الى لندن ، ويستمتع بالحنانات والمومسات ، ويبدد ماله ، ويجر الى
السجن لعجزه عن الوفاء بديونه ، ثم تنقذه خليلته التى نبذها ،
ويستعيد قدرته على الوفاء بديونه بالزواج من كهل عوراء غنية ، ولكنه
يقامر بثروته الجديدة فى نادى هوايت ، فيودع السجن مرة أخرى ،
ويختتم سيرته مجنونا فى مستشفى « بدلام » . لقد كانت تمثيلية
أخلاقية فى صور سهلة الفهم تصور قطاعا من الحياة تصويرا دقيقا .
ولكى يحمى هوجارث سلسلة صور « الفاجر » المطبوعة من السرقة
شن حملة تستهدف الحماية القانونية لحقوقه . وفى ١٧٣٥ أقر
البرلمان « قانونا لتشجيع فنون الرسم ، والحفر ، والنقش الخ » ،
وهذا القانون ، الذى تعارف الناس على تسميته « قانون هوجارث »
أعطاه حقا يعادل حق التأليف على صور المطبوعة . وفى ١٧٤٥ باع
بالمزاد اللوحات التى حفر عنها سلسلتى « البغى » و « الفاجر » ،
فربح منها ٤٢٧ جنيها .

وتوافرت له الآن الكفاية المالية والثقة بالنفس ، فغزا غزوة أخرى

فى التصوير . « لقد راودتنى بعض الآمال فى أن أنجح فيما يسميه المبالغون فى اطراء الكتب « الأسلوب العظيم فى تصوير التاريخ (٢٤) » . وفى العقد الممتد من ١٧٣٥ الى ١٧٤٥ أنتج صوراً رائعة كان عليها أن تنتظر قرناً لتحظى بالتقدير . فلوحة « الشاعر المحزون (٢٥) » هى القصة القديمة ، قصة المؤلف الذى افتقر يطالب فى الحاج بايجار مسكنه بينما تحيك زوجته فى عصبية وينام قطه فى رضى خلى من الهم . وحاولت لوحته « بركة بيت حسدا » رسم مشهد من الانجيل ، ولكن هوجارث تبلى بحسنا نصف عارية تقف أمام المسيح وجها لوجه . ولم يكن الفنان معصوماً من اغراء جسد الانثى ، ففي محفوره « الممثلات المتجولات يرتدين ثيابهن فى جرن » خلغ على هذا الجسد مزيداً من الفتنة والاغراء بالثياب نصف المجردة . وتقرب لوحة « السامرى الصالح (٢٦) » من مستوى « أئمة التصوير القدامى » . وألطف منها لوحة كبيرة سماها « ديفد جاريك فى دور رتشرد الثالث (٢٧) » وقد كلفه بها رجل يدعى دنكوم دفع فيها مائتى جنيه ، وهذا أغلى ثمن دفع لمصور انجليزى الى ذلك الحين .

ومع ذلك لم تظفر هذه الأعمال باستحسان النقاد . فعاد هوجارث (١٧٥) الى هجو الحياة اللندنية فى محفورات أكد فيها المناقش درساً أخلاقياً بقصة . ففي المشهد الأول من « الزواج العصرى » يتعاقد ايرل مفلس مصاب بالنقرس ليزوج لقبه وابنه الكاره فتاة كارهة هى ابنة حاكم اقليمى غنى . ويعرض الايرل نسب الأسرة فى شكل شجرة على درج ، ويرش المحامى المسحوق المجفف على التوقيعات ، ثم يدير العريس ظهره للعروس التى تلقى أذناً مصغية لعشيقها ، ويختص كلبان نفسيهما بالسلام العائلى . وفى المنظر التالى يبدو الزوجان وقد تخاصما . فقد عاد اللورد الشاب منهوكاً من مغامرة أنفق فيها ليله ودلت على طبيعتها قلنسوة فتاة من الدنتلا تطل من جيبه ؛ اما الزوجة الشابة فتنتأب بعد أن قضت الليل ترفه عن أصحابها بالموسيقى والقمار و « الدردشة » ، وهنا أيضاً ليس هناك مخلوق سعيد الا الكلب . أما المشهد الثالث فهو هوجارث فى أجراً حالاته ، ترى فيه اللورد الوغد يأتى بخليلته الى طبيب دجال ليجهضها ، والمنظر الرابع يرينا الزوجة أثناء ترجيل شعرها فى استقبال الصباح ، ونرى عشيقها معها وهى تتجاهل الموسيقى التى يعزفها أو يغنيها

ضيوفا ، وفيهم مخنث فى شعره أوراق ملفوفة . وفى المنظر الخامس أمسكها زوجها مقلبة مع عشيقها ، ويستل الرجلان سيفيهما ، ويجرح الزوج جرحا مميتا ، ويفر العشيق من النافذة ، ويغلب الندم الزوجة ويظهر رجل الشرطة بالباب . وفى المنظر الأخير نرى الأرملة الشابة تحتضر ، وينزع أبوها خاتما ثمينا من أصبعها ليستنقذ البقية الباقية من الثروة التى دفعها ثمنا للقبها .

وفى ١٧٥١ أعلن هوجارث أنه سيبيع بالمزاد فى ساعة محددة فى مرسه اللوحات الزيتية التى رسمها لسلسلة « الزواج العصرى » ، ولكنه أئذ تجار الصور أن ييتعدوا عن المزاد . فلم يظهر غير شخص واحد ، عرض ١٢٦ جنيهها ثمنا للوحات وأطرها . ونزل عنها هوجارث لقاء هذا الثمن ، ولكنه سخط فى سره على ما رآه اخفاقا معيبا . وفى ١٧٩٧ بيعت هذه اللوحات بمبلغ ١٣٨١ جنيه . وهى اليوم من أغلى ما تملكه قاعة الصور القومية بلندن .

وكان أثناء ذلك قد أسخط الملك بلوحتة « زحف فرقة الحرس الى اسكتلندة » (١٧٤٥) وكانت السنة التى حاول فيها « الأمير تشارلى الجميل » الاطاحة بالهانوفريين . وصور هوجارث رجال الحرس الملكى يتجمعون عند احدى ضواحي لندن المسماة فنشلى . يدعوهم زمار وطبال ، ويستعين الجند على تقبل قدرهم بالسكر ، وهم جماعة مظهرهم زرى ، وأصلح للقصف فى حانة منهم للقاء مع الموت فى ساحة الأبطال ، وأطلع جورج الثانى على اللوحة كطلب الفنان الذى استأذن فى اهدائها اليه . ولكن الملك رفض وهو يصيح «ماذا ؟ مصور يهزأ بجندى ؟ انه يستحق أن يحبس عقابا على وقاحته . اغربوا باللوحة الحقيرة عن وجهى » وتقول رواية غير مؤكدة أن هوجارث أهدى الصورة الى فردريك الأكبر بوصفه « مشجعا للفنون والعلوم (٢٨) » .

وعاد الى صوره المطبوعة الهجائية . فتتبع سيرة صبيين من صبيان الصناعات فى اثنتى عشرة لوحة سماها « الجد والكسل » (١٧٤٧) . فاما فرانك جودتشايلد فيكد ويكدح ويقرأ الكتب الجيدة ويختلف الى الكنيسة كل أحد ، ويتزوج ابنة معلمه ويحسن الى الفقراء ، ويصبح عمدة البلدة وحاكما اقليميا ثم عمدة على لندن ، وأما توم أيدل فينام

ويشخر فوق نوله ، ويقرا الكتب الخبيثة مثل « مول فلاندرز » ، ويسكر ويقامر وينشل ، ثم يؤتى به أمام الحاكم جودتشايلد الذى يحكم عليه بالشنق وهو يبكى شفقة عليه . وقابلت محفورتان ، هما « زقاق الجن » و « شارع الجعة » (١٧٥١) بين « النتائج الرهيبة لشرب الجن » والاثار الصحية للجعة . أما « المراحل الأربع للقسوة » (١٧٥١) فقد قال الفنان انهما استهدفت « تهذيب تلك المعاملة المهملية للحيوان ، التى تجعل منظر شوارع عاصمتنا محزنا جدا لكل نفس حساسة . واننى لأشد فخرا برسمى لهذه الصور مما لو كنت صاحب رسوم رفائيل الهزلية (٢٩) » . وفى سلسلة « صور أربع لأحد الانتخابات » (١٧٥٥ - ٥٨) استهدف شرورا أبهظ ثمننا ، فقد هاجمت فساد السياسة الانجليزية .

ولو أخذنا صور هوجارت المطبوعة على أنها مجرد رسوم لكانت فجة فى فكرتها وتنفيذها متعجلة غير دقيقة فى تفاصيلها . ولكنه كان ينظر الى نفسه على أنه مؤلف أو كاتب مسرحى أكثر منه مصورا ، وقد أشبهه صديقه فيلدنج أكثر من ألد خصومه ولیم كنت ، ولم يكن يعرض تقنيات التصوير بل يقدم صورة للعصر ، « لقد حاولت تناول موضوعى كما يتناوله كاتب للدراما ، فصورتى هى خشبة مسرحى ، والرجال والنساء هم ممثلو الذين يراد منهم ببعض الحركات والایماء أن يقدموا عرضا صامتا (٣٠) » . ونحن اذا نظرنا الى صوره المطبوعة على انها هجائيات وجدناها مبالغاة متعمدة ، فهى تشدد على جانب وترهف نقطة وهى أكثر ازدحاما بالتفاصيل مما ينبغى أن يكون عليه العمل الفنى ، ولكن كل تفصيل فيما عدا الكلب الذى لا مناص منه يسهم فى الموضوع . وصوره المطبوعة فى مجموعها تتيح لنا نظرة الى طبقة لندن الوسطى - الدنيا فى القرن الثامن عشر ؛ البيوت ، والحانات وحى المل ، وكوفنت جاردن ، وكوبرى لندن ، وتشيبسايد ، وبرايديويل ، وبدلام ، وشارع فليت ، وهذه ليست كل لندن ، ولكن ما صوره منها ينبض بالحياة نبضا رائعا .

أما ناقدو الفن وجماعوه وتجاره فى ذلك العهد فلم يعترفوا لا بكفاية هوجارت فنانا ولا بصدقه هجاء . فاتهموه بأنه لا يصور غير

جثالة الحياة الانجليزية ، وسخروا منه لأنه اتجه الى صور مطبوعة شعبية لعجزه عن تصوير اللوحات الشخصية الناجحة أو المناظر التاريخية . ونددوا برسمه لأنه مهمل وغير دقيق . وقد رد عليهم بأن اتهم التجار بأنهم يتآمرون على الاشادة بما يحتفظون به من مخلفات كبار المصورين القدامى ، بينما يتركون الأحياء يتصورون جوعا . قال :

« ان أفضل الصور صيانة وأكملها صقلا ، بغير تكريس لها من سلطتهم وتأييد من التقاليد ... لا تباع فى مزاد علنى بخمسة شلنات ، فى حين أن لوحة قماشية عتيقة ، حقيرة ، معطوبة ، مرممة ، اذا كرسها ثناؤهم عليها ، لا بد أن تباع بأى ثمن مهما غلا ، وتحتل مكانا بين أرقى المجموعات . كل هذا يفهمه التجار فهما تاما (٣١) » .

وقد رفض أن يخضع رأيه لأمثال هؤلاء التجار أو الخبراء . وندد باسترقاق المصورين الانجليز لمحاكاة فاندريك أو للى أو نلزر ؛ لا بل أنه أطلق على عمالقة التصوير الايطالى لقبا هزليا هو « الاساتذة السود » ، لأنهم ألقوا على التصوير الانجليزى حجابا كثيفا بالسحر الأسود (الشيطانى) الكامن فى ألوانهم القاتمة الشبيهة بالصلصة البنية . فلما بيعت لوحة منسوبة الى كوريدجو باريعمائة جنيه فى مزاد بلندن ، لشكك فى صحة نسبتها وفى قيمتها ، وقال ان فى وسعه أن يرسم صورة لا تقل عنها جودة فى أى وقت شاء . فلما تحداه بعضهم ، رسم لوحة « سجموندا » (١٧٥٩) - وهى محاكاة جيدة لكوريدجو ، فيها الدانتيل والمالبس الزاهية والأيدى الرقيقة والوجه الجميل ، ولكن العينين كان يشوبهما من الاكتئاب ما لم يسر المشتري المنتظر ، الذى أبى أن يدفع الجنيهاات الأربعمائة التى طلبها هوبجارث ثمنها لها . وقد بيعت بعد موته بستة وخمسين جنيها .

ثم أعطى خشومه سلاحا جديدا بتأليفه كتابا . فعلى لوحة الألوان المظاهرة فى الصورة التى رسمها لنفسه ولكبه (١٧٤٥) كان قد تتبع خطا ملتفا لاح له أنه العنصر الاساسى فى الشكل الجميل . وقد عرف هذا الخط فى رسالة تربوية سماها « تحليل الجمال » (١٧٥٣) بأنه

ذلك الخط الذى يتكون بلف سلك فى توال مطرد حول مخروط ، وذهب الى أن خطا كهذا ليس سر الجمال فحسب ، بل حركة الحياة . وكان هذا كله فى رأى نقاد هوجارث هراء سخيفا .

على أنه أثرى برغم أنوفهم ، فاقتنى كل بيت مثقف تقريبا صوره المطبوعة ، وتاخ له بيعها المتصل دخلا ثابتا . وفى ١٧٥٧ ، وبعد أن نسيت لوحته « زحف فرقة الحرس » ، عين « رئيس المصورين لكل أعمال جلالتة » ، وهى وظيفة أتته بمائتى جنيه أخرى فى السنة . وكان فى وسعه الآن أن يختصم أعداء جددا . ففى ١٧٦٢ أصدر صورة مطبوعة سماها « العصر الحاضر » هاجم فيها بت وولكس وغيرهما لأنهما تجار حرب . ورد ولكس فى مجلته « البريطانى الشمالى » يصف هوجارث بأنه عجوز مغرور جشع لا يستطيع تصور « فكرة واحدة عن الجمال » ورد هوجارث بنشره لوحة صور فيها ولكس وحشا أحول . ورد تشرشل ، صديق ولكس ، بخطاب شرس سماه « رسالة الى وليم هوجارث » ، فأصدر هوجارث صورة مطبوعة بدا فيها تشرشل على هيئة دب ، وكتب يقول « ان اللذة والفائدة المالية اللتين حصلتا عليهما من هاتين المحفورتين ، بالاضافة الى ركوبى الخيل بين الحين والحين ، أعادا الى من الصحة الموفورة أكثر ما يرجى فى مثل عمرى » . ولكن فى ٢٦ أكتوبر ١٧٦٤ انفجر أحد شرايينه فمات .

ولم يترك بصمة منظورة على فن زمانه . وفى ١٧٣٤ افتتح « مدرسة حياة » ليدرب الفنانين ، وقد أدمجت فى ١٧٦٨ فى الأكاديمية الملكية للفنون . ولكن حتى الفنانون الذين تعلموا فى مدرسته هجروا واقعته مؤثرين عليها المثالية الفاشية يومها ، مثالية رينولدز وجينزبورو . على أن تأثيره أحس به الناس فى مجال الكاريكاتور ؛ هناك انتقلت فكاهته وقوته من توماس رولاندسن الى اسحاق وجورج كروكشانك ، وأصبح الكاريكاتور فنا . أما شهرة هوجارث الحالية مصورا فقد بدأت بملاحظة لهويسلر قال فيها ان هوجارث « هو المصور الانجليزى العظيم الوحيد (٣٤) » . وقد استثنى هويسلر نفسه فى حرص من هذه المقارنة . وقال قاض أقل تحوطا فى تقديره لهوجارث « اننا لو نظرنا اليه فى أفضل صوره لوجدناه أعظم شخصية فى تصوير (م ٢١ - قصة الحضارة)

القرن الثامن عشر (٣٥) » . وهذا التقدير يمثل ما يشيع اليوم من يخس لقدر رينولدز بدعوى أنه كان مجملا للارستقراطيين همه جمع المال ، وتلك نزوة عارضة ستختفى . ومن العسير تقييم هوجارث كفنان ، لأنه لم يكن فنانا فحسب ، فلقد كان صوت انجلترا الغاضبة لما فيها من فساد وانحطاط ، ولقد عد نفسه بحق قوة اجتماعية . كذلك فهمه فيلدنج فقال فيه « أكاد أجروء على التأكيد بأن عمليه هذين اللذين يسميهما « رحلة فاجر » و « رحلة بغى » ، قصد بهما خدمة قضية الفضيلة . . أكثر مما خدمتها كل المجلدات الضخمة التى كتبت اطلاقا فى الاخلاق (٣٦) » . على أن شيئا واحدا لا شك فيه ، هو انه كان الانجليزى الصميم بين جميع من عاش من الفنانين الانجليز .

٣ - الموسيقىون

من الغاز التاريخ المحيرة ذلك السر فى أن انجلترا التى أسهمت هذا الاسهام الموفور فى التطور والنظرية والاقتصاديين والسياسيين ، وفى الأدب والعلم والدين والفلسفة - انجلترا هذه أقفرت نسبيا فى أشكال التأليف الموسيقى الأكثر تعقيدا منذ عصر اليزابيث الاولى . وربما وجدنا بعض تعليل لهذه الظاهرة فى زوال الكتلكة من انجلترا ؛ فالمذاهب الجديدة شجعت المؤلفات الموسيقية الرفيعة تشجيعا أقل ، ومع أن الشعائر اللوثرية فى المانيا والانجليكانية فى انجلترا تطلبت الموسيقى ، فإن أشكال البروتستنتية الأكثر تزمنا فى انجلترا وفى الجمهورية الهولندية لم تبذل تشجيعا يذكر لآى موسيقى تزيد على الترنيمة الجماعية التى يرئمها المصلون . وحل محل أساطير كنيسة زوما وطقوسها ، التى طالما شددت على مباحج الايمان ، عقائد جبرية قاتمة تشدد على هول الجحيم ، ولم يستطع غير « أورفيوس » أن يغنى فى وجه الجحيم . وماتت أغانى انجلترا الاليزابيثية الغرامبة الشعربة فى الصقيع البيورتانى . وقد جلبت عودة الملكية من فرنسا روحا أكثر مرحا ، ولكن بعد موت بيرسل اسدل حجاب كئيف على الموسيقى الانجليزية من حديد .

هذا باستثناء الاغانى التى تفاوتت من الجهوريات الجماعية المنتشرة فى أندية الطرب glee clubs الى الرقة الهفافة التى تميزت

بها الغنائيات المأخوذة من تمثيلات سُكسبير . وكلمة glee هي الكلمة الانجلو - سكسونية gleo ، ومعناها الموسيقى ؛ ولم تتضمن بالضرورة الفرغ ، وكانت تطبق عادة على الاغانى التى لا ترافقها الموسيقى لثلاثة أصوات أو أكثر . وازدهرت أندية الطرب قرنا ، وبلغت أوجها حوالى عام ١٧٨٠ فى عز أيام أكبر مؤلف لأغانى الطرب ، وهو صموئيل وب . وكان أجمل منها موسيقات توماس آرن التى لحنها لأغانى شكسبير - « هبى ، هبى ، يا ريح الشتاء » و « تحت شجرة الغابة الخضراء » و « حيث ترشف النحلة رحيقها هناك أرتشف رحيقى » ؛ وما زالت هذه نسمع فى انجلترا . والموسيقى المشجى آرن هو الذى لحن قصيدة طومسن « احكمى يا بريطانیا ! » وفى هذه الفترة ، أو قبلها ، لحن وطنى مجهول نشيد بريطانبا الفومى ، « حفظ الله الملك » . وعلى قدر ما نعلم ، غنى هذا النشيد علنا أول مرة فى ١٧٤٥ حين جاء نبأ بأن قوات جورج الثانى هزمها الاسكتلنديون بقيادة المطالب الشاب بالعرش عند بريستونبانس ، ولاح أن أسرة هانوفر قد حان حينها . والنشيد فى أقدم صورته المعروفة (وهى لا تختلف الا اختلافا طفيفا عن الكلمات واللحن الحاليين) دعا الى الله بالنصر على الحزب الاستيوارتى فى السياسة الانجليزية ، وعلى الجيش الاستيوارتى الزاحف من اسكتلندة :

« حفظ الله مولانا الملك

ليحى ملكنا النبيل (جورج الثانى) طويلا ،

حفظ الله الملك .

ربنا انصره نصرا عزيزا

واجعله سعبدا عظيما ،

لبملك علينا طويلا ،

حفظ الله الملك .

ربنا والهنا قم ،

وشتت أعداءه ،

واجعلهم يسقطون ،

وأحبط سياساتهم

وأفسد مكائدهم الوضيعة

آمالنا معلقة عليه (فى النص الحالى « عليك ») ،
«حفظنا اللهم أجمعين (٣٧) » .

واقترنت للحن لفترات شتى تسع عشرة دولة ، لحننت به أغاني
وطنية ، ومن هذه الدول ألمانيا وسويسرة والدنمرك والولايات المتحدة
الأمريكية - التى أحلت فى ١٩٣١ محل « أمريكا » نشيدا قوميا « الراية
المرصعة بالنجوم » يغنى وفق لحن عسير من أغنية شراب انجليزية
عتيقة .

ويدل رواج الأغاني الرقيقة فى إنجلترا على ذوق موسيقى واسع
الانتشار . فكان فى كل بيت هاريسيكورد فيما عدا بيوت الفقراء ، وكان
كل انسان تقريبا يعزف على احدى الآلات الموسيقية ، وتوفر من
العازفين فى الاحتفال بذكرى هندل عام سنة ١٧٨٤ بدير وستمنستر
عدد يكفى للعزف على خمسة وتسعين كمانا ، وست وعشرين فيولا ،
واحدى وعشرين فيولنتشلو ، وخمسة عشر دبل باصا ، وستة نايات ،
وست وعشرين أوبوا ، واثنى عشر بوقا ، واثنى عشر نفيرا ، وست
ترمبونات ، وأربعة طبول ، مع فرقة غنائية من تسعة وخمسين
سوبرانو ، وثمانية وأربعين تينورا وأربعة وثمانين باصا - وهذا عدد
كان خليقا لكبره بأن يرتجف له هندل فرقا فى مقبرته بالدير .
ولم يدخل الكلايرنت الا فى أواخر القرن . وكان هناك أراغن رائعة ،
وعازفون عظماء عليها مثل موريس جرين الذى كانت أناشيده وتسبيحات
شكره - مع تلك التى لحنها هندل وبويس - هى تقريبا موسيقى إنجلترا
الكنسية الوحيدة الجديرة بالذكر فى ذلك العصر .

أما ولیم بويس فقد ارتقى حتى أصبح مديرا للفرقة الموسيقية الملكية
(أى الأوركسترا) وعازف الأراغن فى الكنيسة الملكية رغم ما شاب سمعه
من خلل فى صباه . وكان أول « مايسترو » يقود العازفين واقفا . أما
هندل ومعاصروه الآخرون فكانوا يقودونهم من الأراغن أو الهاريسيكورد
وما زالت بعض أناشيده - لا سيما « على أنهار بابل » - تسمع فى
« الكنائس الانجليكانية » ، وما زالت البيوت الانجليزية تسمع على الأقل
أغنيتين من أغانيه « قلوب من البلوط » التى كتبها لأحدى تمثيليات

جاريك الایمائیة ، و «رفقا فی هبوبك یا نسیم الجنوب » وهو لحن فی كنتاتا « سلیمان » . أما سمفونیاته فتبدو ضعيفة هزیلة لأذاننا التي عراها الذبول .

كان الشيء المثیر الوحيد فی دنیا الموسيقى الانجليزية فی مطلع القرن الثامن عشر هو مجيء الاوبرا ، وكانت هناك عروض سابقة ترجع الى عام ١٦٧٤ ، ولكن الاوبرا لم تستهوَ المزاج الانجليزى الا حين قدم المغنون الايطاليون من روما فی ١٧٠٢ . وفى ١٧٠٨ صدمت لندن وافتتنت بصوت مغن سوبرانو ، خصي (castrato) يدعى نيكولينى . وتلاه مغنون خصيان آخرون ، وقد ألفتهم انجلترا ، وكادت تجن بصوت فارينللى . فما وافى عام ١٧١٠ حتى كان فی لندن من المغنين الايطاليين عدد أتاح لهم تقديم أول أوبرا فيها بالايطالية دون غيرها . وقامت الاحتجاجات الكثيرة على هذا الغزو . وخصص له أديسون العدد الثامن عشر من صحيفته « سبكتيتور » مستهدفا :

« أن يسلم الى الاجيال القادمة وصفا أمينا للأوبرا الايطالية ان حفدتنا البعيدين سيشتد فضولهم لمعرفة السر فى أن أجدادهم اعتادوا الجلوس معا كأنهم جمهور من الأجانب فى وطنهم ليستمعوا الى تمثيلات باكملها تمثل أملمهم بلسان لا يفهمونه » .

واستنتج من حركات هذه التمثيلات انه ما من شيء فى الاوبرا « يصلح للتلحين الجيد الا كان لغوا فارغا » . وسخر من المناظر التي يغازل فيها البطل حبيبته بالايطالية ، فترد البطلة بالانجليزية - وكان اللغة أمر ذو بال فى مثل هذه الازمات . واعترض على المناظر المسرحية المسرفة - على العصافير الحقيقية التي تطير حول المسرح ، ونيكولينى يرتعش فى قارب مكشوف على بحر من الورق المقوى .

وكان فى صدر أديسون ضغينة يريد شفاءها ، فقد كتب النص لأوبرا توماس كلايتون الانجليزية « روزاموند » التي فشلت (٣٨) . وأغلب الظن أن ثورته (٢١ مارس ١٧١١) فجرها العرض الأول (٢٤ فبراير) لأوبرا ايطالية تسمى « رينالدو » فى دار أوبرا هايماركت .

وزاد الطين بلة أن الموسيقى ألفها ألماني وفد مؤخرا على إنجلترا ، هذا الى أن الكلام كان بالاطالية . ومما أفرع أديسون أن الاوبرا الجديدة. حققت نصرا عظيما ، فما مضت ثلاثة أشهر حتى كانت قد عرضت خمس عشرة مرة اكتظ المسرح فيها دائما برواده ، ورقصت لندن على مختارات من موسيقاها ، وتغنت بالحنان الأكثر بساطة (٣٩) . تلك هي بداية الطور الانجليزى فى أروع سيرة فى تاريخ الموسيقى .

٤ - هندل : ١٦٨٥ - ١٧٥٩ (٤٠)

أ - نشأته

كان جيورج فريدرش هندل ★ أشهر مؤلف موسيقى على عهد يوهان سباستيان باخ . انتصر فى ألمانيا ودانت له ايطاليا الموسيقية ، وكان روح الموسيقى وتاريخها فى إنجلترا طوال النصف الأول من القرن الثامن عشر . واتخذ تفوقه قضية مسلمة ، لم يجادله فى ذلك مجادل ، وشمخ فى دنيا الموسيقى كانه مارد مسيطر يزن ٢٥٠ رطلا .

ولد فى مدينة هاله بسكسونيا العليا فى ٥٣ فبراير ١٦٨٥ قبل مولد يوهان سباستيان باخ بستة وعشرين يوما ، وقبل مولد دومنيكو سكارلاتى بثمانية أشهر . ولكن بينما أشرب باخ وسكارلاتى الموسيقى منذ طفولتهما ، وإتيح لهما أبوان من مشهورى المؤلفين ، وربيا على سلم موسيقى ملزم ، ولد هندل لأبوين لا يكثران للموسيقى ؛ فأبوه كان الجراح الرسمى فى بلاط الدوق يوهان أدولف أمير ساكس - فايسنفلز ، وأمه ابنة قسيس لوثرى . ولم يرضيا عن ادمان الغلام على عزف الارغن والهاربسيكورد ، ولكن حين أصر الدوق بعد أن سمعه يعزف على ضرورة تدريبه على الموسيقى ، سمحا له بأن يدرس على فريدرش تساخاو ، عازف الارغن بكنيسة ليبفراوينكيرشي فى هاله . وكان تساخاو معلما مخلصا دقيقا . فما بلغ جيورج الحادية عشرة حتى كان يؤلف

★ كان فى المانبا يوقع باسمه Händel (هندل) ، وفى ايطاليا وانجلترا Hendel (٤١) .

السوناتات (التى بقى منها ست) ، وحذق العزف على الأورغن الى حد
حمل تساخاو والأبوين المستسلمين على إيفاده الى برلين ليعزف أمام
صوفيا شارلوت ناخبة براندنبورج المثقفة ، التى ستصبح عما قليل ملكة
بروسيا . فلما عاد جيورج الى هاله (١٦٩٧) وجد أن أباه قد مات .
أما أمه فعمرت الى سنة ١٧٢٩ .

وفى ١٧٠٢ دخل جامعة هاله ليحضر لمهنة المحاماة فى ظاهر الأمر .
وبعد شهر عينه القائمون على الكتدرائية الكلفنية فى هاله مكان عازف
أرغنهم السكير . أما العبقري الشاب الذى لا يستقر على حال ، والذى
هفت نفسه الى مجال أرحب ، فبعد أن قضى عاما واحدا هناك اقتلع كل
جذوره التى فى هاله باستثناء حبه المقيم لأمه وانطلق ميمما هامبورج ،
حيث كان الناس يحبون الموسيقى حبا يكاد يبلغ حبهم للمال . وكان فى
هامبورج دار للأوبرا منذ ١٦٧٨ . هناك وجد هندل ، وهو فى الثامنة
عشرة ، مكانا له عازفا ثانيا للكمان . وصادق يوهان ماتيسون البالغ من
العمر اثنى عشر عاما ، و « التينور » الأول فى الأوبرا ، الذى
أصبح بعد ذلك أشهر النقاد الموسيقيين فى القرن الثامن عشر . ورحلا
معا الى لوبك (أغسطس ١٧٠٣) ليستمعا الى الشيخ بوكستيهودى
يعزف ، ويتحسسا اماكن خلافته فى العزف على الأورغن فى كنيسة
مارينكرشي ، ووجدوا أن خليفته يجب أن يتزوج ابنة هذا الشيخ . فنظروا
الى الشيخ وابنته ثم رحلا عن المدينة .

وانهارت صداقتهما فى مبارزة سخيفة سخرت المبارزات فى أى
مسرحية . ذلك أنه فى ٢٠ أكتوبر ١٧٠٤ أخرج ماتيسون أوبراه
« كليوبطره » ومثل دور البطل فيها . ولقيت نجاحا لا شك فيه ، وأعيد
تمثيلها مرارا . وفى هذه الحفلات قاد هندل الأوركسترا والمغنين من
الهاربسيكورد . وكان ماتيسون أحيانا ينزل من خشبة المسرح بعد أن
يموت فى دور أنطونيوس ، وفى نشوة الفخر يأخذ مكان صديقه قائدا
وعازفا على الهاربسيكورد ، ويسعد بنصيب من التصفيق الأخير . وفى
٥ ديسمبر أبى هندل أن يحل صديقه محله على هذا النحو . فالحق
الصديقان الأوبرا بشجار ساخن ، وعقب انتهاء التمثيل سارا الى الميدان
العام ، واستلا سيفيهما ، واقتتلا على أنغام المديح من رعاة الأوبرا

والمارة . وصك سيف ماتيسون زرا معدنيا على سترة هندل فانكسر . وانقلبت الماساة مهزلة فى نظر الجميع الا بطليها ، وراحا يجتران سخطهما الى أن قبل مدير الفرقة أوبرا هندل « الميرا » التى احتاجت الى ماتيسون ليؤدى دور القينور . وأعاد نجاح الأوبرا (٨ يناير ١٧٠٥) الخصمين صديقين كما كانا من قبل .

وأحب الناس أوبرا « الميرا » ، التى احتوت على واحد وأربعين لحنا بالألمانية وخمسة عشر بالايطالية ، حبا اتاح عرضها عشرين مرة فى سبعة أسابيع . ودب دبيب الغيرة فى قلب راينهارت كايزر الذى كان مشرفا على الفرقة ومؤلفا لمعظم أوبراتها . وضعت شعبية أوبرا هامبورج ، وعاش هندل عامين على دخل ضعيف . وكان الأمير جوفان جاستونى دى مديتشي ، أثناء مروره بهامبورج ، قد نصحه بأن يرحل الى ايطاليا حيث يجن الناس كلهم بالموسيقى ويصدق حتى خدم المطاعم بالأغاني الجميلة . واقتحم هندل ثلوج جبال الألب فى ديسمبر وفى محفظته مائتا دوقاتية ، وخطاب من جاستونى الى أخيه فرديناند راعى الأوبرا فى فلورنسه ؛ وبلغها أواخر عام ١٧٠٦ . فلما وجد جيوب فرديناند منيعة نزل الى روما . ولكن دار الأوبرا هناك كان قد أغلقها البابا انوسنت الثانى عشر باعتبارها بؤرة للفساد . وعزف هندل على الأرغن فى كنيسة سان جوفانى لاترانو ، وصفق له الجمهور عازفا بارعا ، ولكنه عاد الى فلورنسة لأن أحدا لم يرد أن يخرج أوبراه الجديدة . هناك وجد جاستونى الذى دافع عنه ، ففتح فرديناند كيس نقوده ، ومثلت « رودريجو » ، وسر الجميع بها . ونفخ فرديناند مؤلفها الشاب بمائة سكوين (٣٠٠ دولار ؟) وطقم عشاء من الخبز . ولكن فلورنسة لم يكن بها دار أوبرا عامة ، أما البندقية فكان بها ست عشرة دارا . ومن ثم مضى هندل الى البندقية .

كان ذلك فى خريف ١٧٠٧ ، ومملكة الادرياتي مبهورة بسحر أليساندرو سكارلاتى ، تصفق لأعظم أوبراته « مترداتى أوباتورى » ، فلا مجال فيها للألماني شاب حديث العهد بتعلم أسرار الميلوديا الايطالية ودرس هندل أوبرات سكارلاتى ، ووجد له صديقا وفيما فى ابن أليساندرو . وتقول الرواية انه حين عزف هندل وهو مقنع على الهاربسيكورد فى حفلة تنكرية فى البندقية ، صاح دومنيكو سكارلاتى

« هذا اما السكسونى المعجز أو الشيطان (٤٢) » . والصدّاقة الخالدة التى ربطت قلبى أعظم عازفين للهاربسيكورد فى ذلك العهد أشبه بلحظة تناعم وانسجام وسط نشاز التاريخ . وقد ترك كلاهما البندقية للموسيقيين الأكبر منهما سنا وانطلقا الى روما (يناير ١٧٠٨ ؟) .

وفى هذه المرة لقى هندل استقبالا أفضل . فقد بلغ نبأ « رودريجو » العاصمة ، وفتح الأمراء والكرادلة أبوابهم له ، وهم أسد ضيقا بلهجته الألمانية منهم بمذهبه اللوثرى . وبنى المركز دى روسبولى مسرحا خاصا فى قصره ليخرج عليه أول أوراتوريو لهندل ، واسمها « القيامة » ، وكانت موسيقاها مفاجأة ملهمة فى قوتها وتعقيدها وعمقها ، وسرعان ما راحت الصفوة المثقفة كلها فى روما تتحدث عن « السكسونى الطويل الجبار » . غير أن موسيقاه كانت أصعب مما يحبه العازفون الايطاليون . فلما أخرج الكردينال ببييترو أوتوبونى أوراتوريو هندل « سريناتا » اتعبت الموسيقى أركانجلو كوريللى ، الذى كان عازفا أول للكمّان وقائدا للأوركسترا . فتمتم فى تأدب « أيها السكسونى العزيز ، هذه الموسيقى تنهج النهج الفرنسى الذى لا أفهمه (٤٣) » . وأخذ هندل الكمّان من يدى كوريللى وعزف بحيويته المعهودة . وسامحه كوريللى .

بقى على هندل أن يغزو نابلى . وتقول رواية لا يعتمد عليها أن هندل وكوريللى ، وسكارلاتى الأب والأبن ، كلهم قصدوا تلك المدينة معا (يونيو ١٧٠٨) . وتزعم قصة أخرى مشكوك فيها أن هندل وقع فى غرام هناك ؛ ولكن التاريخ الحذر يعترف فى أسف بأن ليس لديه أى دليل سليم على أى غرام وقع فيه هندل أبان حياته فى أى بلد ، اللهم الا غرامه بأمه وبموسيقاه . وقد يبدو أمرا لا يصدق أن يخلو قلب رجل استطاع أن يكتب مثل هذه الألحان المشبوبة من شعلة الحب ، ولعل التعبير عنها بدد حرارته على أجنحة الغناء . أما أهم الأحداث فى هذه الفترة التى أقام فيها هندل فى نابلى فهو - على قدر علمنا - لقاءه بالكردينال فنتشننتسو جريماتى ، حاكم نابلى وسليل أسرة بندقية غنية . وقد قدم للمؤلف نص أوبرا تتناول موضوع أم نيرون القديم . وأتم هندل المهمة فى ثلاثة أسابيع . ورتب جريماتى تمثيلها فى مسرح أسرته بالبندقية ، فأسرع إليها هندل حاملا موسيقاه .

كانت الحفلة الافتتاحية لأوبرا « أجربينا » (٢٦ ديسمبر ١٧٠٩) أبهج الانتصارات التى عرفها هندل الى ذلك الحين . ولم تخالج الايطاليين الكرماء الغيرة لأن المانيا تفوق عليهم فى لعبتهم ، وأراهم روائع من النغم ، واقتحامات من الانتقال ، وأفانين من الصنعة قل أن أدركها حتى موسيقيهم المفضل اليساندرو سكارلاتى ، فهتفوا « يحى السكسونى الحبيب (٤٤) » . ونال نصيبا من هذا الهتاف المغنى الباصو الممتاز جوزيبى بوسكى الذى تنقل صوته فى يسر بين سلسلة كاملة من تسع وعشرين نغمة .

وخطب الكثيرون ود هندل الآن . فذبحه تشارلز مونتاجيو ، ايرل مانشستر الذى كان سفيرا لبريطانيا فى البندقية ، بان يذهب الى لندن ، وعرض عليه الأمير ارنست أوغسطس الأخ الاصغر للناخب جورج لويس ، وظيفة قائد الفرقة الموسيقية الكنسية فى هانوفر . لقد كانت البندقية رائعة ، تتنفس الموسيقى ، ولكن الى متى يستطيع المرء أن يكسب قوته من أوبرا واحدة ، والى متى يستطيع الركون الى هؤلاء الايطاليين المتقلبين ؟ أما هانوفر ففيها ضباب ، وغيوم ، وكلام خارج من الحناجر ، ولكن فيها أيضا دار فخمة للأوبرا وراتب ثابت وطعام المانى دسم ؛ ثم انه يستطيع بين الحين والحين أن يركب منها ليزور أمه فى هاله . وعليه ففى ١٥ يونيو ١٧١٠ عين هندل قائدا للفرقة الكنسية فى هانوفر ، وكان يومها فى الخامسة والعشرين ، براتب سنوى قدره ألف وخمسمائة كراون ، مع الأذن له بالغياب بين حين وحين . وفى خريف ذلك العام ، طلب الأذن له بزيارة إنجلترا ، فحصل عليه ، ووعد بالرجوع سريعا .

ب - غزو إنجلترا

كانت أوبرا لندن فى محنة . ففيها فرقة ايطالية تغنى ، مغنيها الباصو بوسكى ، ومغنيها الكونترالتو زوجته ، ومغنيها السوبرانو نيكولينى الذى ذهب تشارلز بيرنى ، مؤرخ الموسيقى الغيور ، الى أنه « أول مغن عظيم حقا غنى فى مسرحنا (٤٥) » . ولكن دار أوبرا هايماركت (وكانت يومها تسمى مسرح صاحبة الجلالة) ، ومسرح

دروزي لين ، كانا يقعان فى قسم سوقى من المدينة ، تنشل فيه الجيوب وتحطم الرعوس . وتردد « المجتمع الراقى » فى المغامرة بباروكاته وإكياس نقوده هناك .

وسمع آرون هل مدير الفرقة بأن هندل فى لندن ، فعرض عليه نص أوبرا مأخوذاً عن « تحرير اورشليم » لتاسو . وعكف هندل على العمل بنشاطه الهائل ، ونقل فى غير تحرج عن ألحانه هو ، فلم ينقض أسبوعان حتى أتم أوبرا « رينالدو » . فأخرجت فى ٢٤ فبراير ١٧١١ ، وأعيد عرضها أربع عشرة مرة أمام جمهور حافل قبل أن ينتهى الموسم فى ٢٢ يونيو . وهاجمها أديسون وستيل ، ولكن لندن أقبلت عليها ، وتغنت بالحنانها فى الشوارع ، وأكثر ما مس أوتار العاطفة من ألحانها بل يستطيع أن يحرك مشاعرنا حتى فى يومنا هذا ، لحنان هما اتركنى اننى أبكى *Lascia ch'io pianga* و *Cara Sposa* يا زوجتى العزيزة ، وقد ربح جون وولش ألفا وأربعمئة جنيه بنشره أغانى من أوبرا مينالدو ، واقترح هندل فى سخرية أن على وولش أن يكتب موسيقى الاوبرا القادمة ويترك له نشرها (٤٦) . وما لبثت هذه الاوبرا ، وهى خير أوبرات هندل ، أن أخرجت فى دبلن وهامبورج ونابلى ، وقد شغلت المسرح فى لندن عشرين عاما .

ومد هندل أجازته حتى بلغت سنة كاملة وهو يرشف نجاحه على مهل ، ثم عاد كارها الى هانوفر (يونيو ١٧١١) ولم يكن هناك أسداً فى قاعات الاستقبال ، بل خادما فى قصر الامير الناخب ؛ وأغلقت دار الاوبرا فترة الموسم ، فالف الكونشرتوات الكبيرة والكنتاتات ، بينما كان خياله يحلق فى سماء الاوبرات . وفى أكتوبر ١٧١٢ استأذن فى زيارة أخرى « قصيرة » لانجلترا . وأذن له الامير الناخب ، ربما وهو شاعر أن انجلترا ستكون على أية حال اقطاعية هانوفرية بعد قليل . ووصل هندل الى لندن فى نوفمبر ، ومكث هناك ستا وأربعين سنة .

وقد حمل معه أوبرا جديدة هى « الراعى الوفى » ، النى مازال استهلالها اللطيف يسحر جونا . وقد أخرجت فى ٢٢ نوفمبر ، وفشلت . وللفور بدأ موضوعا آخر وقد حفزه هذا الفشل أكثر مما ثبط همته ،

والموضوع هو « تيسيو (ثيوسىوس) . وكانت حفلة الافتتاح نصرا له ، ولكن المدير هرب بعد الليلة الثانية حاملا اىصالات شباك التذاكر . وتسلم عمله مدير آخر اسمه جون هيديجر ، وواصل عرض « تيسيو » حتى بلغت عروضها ثلاثة عشر ، وكافا المؤلف الذى لم ينقد أجره بتنظيمه حفلة خيرية لأعانة « المستر هندل » ، ظهر فيها المؤلف وهو يعزف على الهاربسيكورد . ودعا ايرل بيرلنتن ، وكان مستمعا متحمسا ، هندل لينزل ضيفا عليه فى قصر بيرلنتن ، وقبل هندل الدعوة ، ووجد المسكن الطبيب والطعام المترف ، والتقى هناك ببوب ، وجاى ، وكنت ، وغيرهم من أئمة الادب والفن .

واقبلت عليه الدنيا أيما اقبال . ذلك أن الملكة آن تافت لوضع حد لحرب الوراثة الأسبانية ، وأتت النهاية مع معاهدة أوترخت ، فأبهج هندل أن بـ « تسبحة أوترخت » وبـ « أغنية الميلاد » فى عيد ميلادها . وأثبت فيهما أنه درس « كوارس » بيرسيل . وأنابته الملكة العطوف بمعاش قدره مائتا جنيه . أما وقد ظفر بالاحتمنان والرخاء ، فإنه استراح الآن على مجدافيه طوال سنة من التهرب .

ولكن فى أول أغسطس ١٧١٤ ماتت آن ، وأصبح الناخب جورج لويس أمير هانوفر ملكا على انجلترا باسم جورج الاول . وتوجس هندل بعض الشيء من هذا الاتجاه الذى اتخذته الاحداث . فالواقع أنه هرب من هانوفر ، وله أن يتوقع أن يكون الملك غير راض عنه ، وقد حدث هذا ، ولكن جورج لزم الهدوء . وأعيدت تسمية مسرح هايماركت الآن فسمى « مسرح جلالة الملك » ، وأحس الملك أنه ملزم ببسط رعايته على هذا المسرح ، ولكنه كان يعرض أوبرا « رينالدو » التى لحنها ذلك المتهرب ، فذهب جورج متنكرا الا فى لهجته ، واستمتع بالعرض . وكان هندل خلال ذلك قد كتب أوبرا أخرى « أماديجى الغالى » ، وأخرجها هيديجر فى ٢٥ مايو ١٧١٥ ، وأحبها جورج . وبعد قليل طلب عازف الكمان والمؤلف الايطالى فرانتشسكو جيمينيانى ، الذى دعى للعزف فى البلاط ، أن يصاحبه هندل ، لأنه عازف الهاربسيكورد الوحيد فى انجلترا الذى يصلح لمصاحبته . وكان له ما أراد ، وأبدع هندل فى العزف فعفا عنه الملك ، ورفع معاشه الى أربعمائة جنيه فى السنة .

ووصلت اليه الاميرة كارولين تدريس بناتها ، وأضافت معاشا قدره مائتا جنيه . وهكذا الآن صاحب أعلى أجر بين المؤلفين الموسيقيين فى أوروبا .

فلما غادر جورج الاول لندن (٩ يوليو ١٧١٦) ليزور هانوفر اصطحب هندل معه . وزار الموسيقى أمه فى هاله ، وبدأ نفحاته الدورية لارملة معلمه القديم تساخاو التى أخنى عليها الدهر . وعاد الملك والمؤلف الى لندن فى مطلع ١٧١٧ . ودعا جيمس بريدجس ، ايرل كارنارفون - دوق تشاندوس فيما بعد - هندل ليعيش فى قصره الفاخر المسمى « كانونز » بمدلسكس ، ويحل محل قائد الموسيقى فيه ، الدكتور يوهان بيبوش ، الذى انتقم لنفسه فيما بعد بتأليفه موسيقى « أوبرا الشخاذ » . هناك كتب هندل « متابعات موسيقية للهاري سيكورد » وهى « فنتازيات » على الهاري سيكورد بأسلوب دومنيكو سكارلاتى وكوبران ، وبعض الكونشرتوات الكبيرة ، واثنى عشر « نسيدها تشاندوسيا » وموسيقى لتمثيلية تنكرية لجأى سمها « آسيس وغلطية » ، وأوبرا « راداميستو » .

ولكن من يخرج الأوبرا ؟ لقد هبط عدد رواد مسرح صاحب الجلالة ، وأشرف هيديجر على الافلاس . ورغبة فى انقاذه وانقاذ الأوبرا أسس نفر من النبلاء والأعيان (فبراير ١٧١٩) الاكاديمية الملكية للموسيقى ، ومولوها بخمسين سهما طرحت على الجمهور بسعر مائتى جنيه للسهم ، واشترى جورج الاول خمسة أسهم . وفى ٢١ فبراير أعلنت صحيفة لندنية أسبوعية أن « المستر هندل ، وهو أستاذ موسيقى شهير ، أبحر الى القارة بأمر جلالة الملك ليجمع فرقة من صفوف المغنين فى أوروبا للأوبرا فى مسرح هايماركت (٤٧) » وأغار هندل على مختلف الفرق فى ألمانيا ، وزار أمه مرة أخرى . وبعد ساعات من مغادرته هاله الى انجلترا ظهر يوهان سبستيان باخ فى المدينة بعد أن مشى اليها نحو خمسة وعشرين ميلا من كوتن ، وطلب أن يقابل الألماني العظيم الذى غزا انجلترا ؛ ولكنه وصل متأخرا ، ولم يلتق الموسيقيان قط .

وفى ٢٧ أبريل ١٧٢٠ مثلت « راداميستو » أمام الملك ، وخليته ، وجمهور تالق بالالقاب والجواهر ، وناضل أشخاص من ذوى اللقب

ليدخلوا . يقول مينووينج « لقد رد العديد من السادة الذين عرضوا دفع أربعين شلنا ثمنا لكرسي من المقاعد الرخيصة (٤٨) » . ونافس الجمهور الانجليزى فى تصفيقهم وهتافهم البنادقة الذين صفقوا وهتفوا لأوبرا « أجربينا » قبل ذلك بأحد عشر عاما . وهكذا غدا هندل مرة أخرى بطل لندن .

ولكن البطولة شاب تمامها نقصان . ذلك أن جماعة منافسة من عشاق الموسيقى ، يتزعمهم إيرل بيرلنتن الراعى الأسبق لهندل ، فضلوا عليه جوفانى باتيستا بونونتشىنى . فأقنعوا الأكاديمية الملكية للموسيقى بأن تفتتح موسمها الثانى بأوبرا بونونتشىنى « آستارتو » (١٩ نوفمبر ١٧٢٠) ، وضمنوا لدور البطل فيها مغنيا سوبرانو كان الآن معبودا للجماهير أكثر من نيكولينى . وكان لـ « سنسينو » هذا (فرانتشيسكو برناردى) ، الكريه الطباع ، الساحر الصوت ، الفضل فى اننصار أوبرا آستارتو والوصول بعروضها الى العشرة . أما المعجبون ببونونتشىنى فقد أشادوا به موسيقيا أعظم من هندل . ولم يكن أحد هذين المؤلفين مسئولا عن الحرب التى قسمت الآن جمهور الأوبرا اللندنى الى فريقين متخاصمين ، ولكن لندن كانت فى ذلك العام ، عام انفجار فقاعة بحر الجنوب ، عصبية كباريس . أما الملك والأحرار ففضلوا هندل ، وأما ولى العهد والمحافظون فناصروا بونونتشىنى ، واحتشد الطرفاء وكتاب الكراريس لدخول المعركة . . وبدا أن بونونتشىنى قد أثبت تفوقه بأوبرا جديدة سماها « كريبسو » (يناير ١٧٢٢) وفقت توفيقا حمل الأكاديمية على أن تتبعها بنصر آخر لبونونتشىنى هى « جريزلدا » . فلما مات ملبره العظيم (فى يونيو) اختير بونونتشىنى ، لا هندل ، ليؤلف النشيد الجنائزى ، ونفحت ابنة الدوق هذا الايطالى معاشا سنويا قدره خمسمائة جنيه . لقد كان ذلك العام عام بونونتشىنى .

ورد هندل بأوبرا « أوتونى » ومغنية سوبرانو جديدة أغراها من ايطاليا بضمن لم يسبق له نظير مقداره ألفا جنيه . وكانت هذه المغنية ، واسمها فرانتشيسكا كوتزونى ، كما رآها هوراس ولبول ، « قصيرة سمينة ، لها وجه عجبنى القوام نزق ، وبشرة ناعمة رقيقة ،

ممثلة غير قديرة ، سيئة الهمام ، غبية ، شاطحة الاحلام (٤٩) » ، ولكنها كانت تصدح بصوت ساحر . وقد حفلت « بروفاتها » بصراع الارادات والطباع الحادة . قال لها هندل « أعرف جيدا أنك شيطانة حقيقية ، ولكننى أنا نفسي أريدك أن تعرفى أننى بعزبول (رئيس الشياطين) » . فلما أصرت على غناء لحن مخالفة لتعليماته ، أمسك بها وهدد بأن يقذفها من النافذة (٥٠) . ولما كانت الألفان من الجنيات ستبعانها ، فأنها اذعنت لأمره . وفى حفلة الافتتاح (١٢ يناير ١٧٢٣) أبدعت الغناء حتى صاح أحد المتحمسين من المقاعد الرخيصة وسط غنائها « على اللعنة ان فى بطنها عشا من البلبل (٥١) » . وقد نافسها سنسينو ، وأعانها « باصو » بوسكى . وفى الليلة الثانية بيعت الكراسي بزيادة قدرها خمسة جنيهات . وفى نحو هذه الفترة كتب جون جاى الى جوناثان سويفت يقول : -

« أما التسلية المسيطرة على المدينة فهى الموسيقى دون سواها ؛ هى الكمانات والفيولات الجهيرة والأوبوات الواقعية ، لا القيائير والمزامير الشعرية . ولا يسمح لأحد بأن يقول « أنا أغنى » الا اذا كان خصيا أو امرأة ايطالية . وكل انسان أصبح الآن حكما عظيما فى الموسيقى كما كان الناس فى أيامك حكاما فى الشعر ؛ والقوم الذين لم يكونوا يستطيعون التمييز بين نغمة وأخرى يتشاجرون الآن كل يوم على الأساليب المختلفة التى ينتهجها هندل ، وبونونتشينى ، وأتيليو (أريوستى) . . . وفى لندن ووستمستر ، فى كل حديث مهذب ، يجمع الراى على أن سنسيثو هو أعظم رجل ظهر فى الوجود (٥٢) » .

ثم اشترى هندل بعد أن صعد نجمه ثانية بيتا فى لندن (١٧٢٣) وأصبح مواطنا بريطانيا (١٧٢٧) . وواصل حرب الأوبرا حتى ١٧٢٨ . ونبش التاريخ بحثا عن الموضوعات ، فعرض على المسرح فلافىوس ، وقيصر ، وتيمورلنك ، وسكبيو ، والاسكندر ، ورتشرد الأول . ورد بونونتشينى باستياناكس ، وارمينيا ، وفارناسس ، وكلبورنيا ؛ ولحن مؤلف آخر هو أريوستى أوبرات عن كريولانوس ، وفاسبازيان ، وارتاجزسيس ، ودارا ؛ ولم يسبق فى أى عهد أن لحن التاريخ على هذا النحو المتناغم . وفى ١٧٢٦ ازداد وطيس الصراع الثلاثى بوصول

فاوستينا بوردونى ، وهى مغنية نصف - سوبرانو ، دانت لها قبل ذلك البندقية ونابلى وفيينا . صحيح أنها لم توهب نبرات كوتزونى الرقيقة العذبة ، ولكنها وجدت لصوتها سندا من وجهها وقوامها ورشاقتها . وفى أوبرا « اليساندرو » (٥ مايو ١٧٢٦) جمع هنسل بين المغنيتين ، وأعطاهما عددا متساويا من الألحان المنفردة ، ووازن بينهما بعناية فى لحن ثنائى ، وصفق لهما السامعون معا بضع أمسيات ، ثم انقسموا فريقين ، فكان فريق يصوت سخرية بينما الآخر يصفق استحسانا ، وهكذا أضيف بعد جديد لحرب الأنغام . وفى ٦ يونيو ١٧٢٧ حين غنت المغنية الأولى فى أوبرا بونونتشينى « استياناتى » انفجر أنصار كوتزونى محدثين جلبة شائنة من صفير الاستهجان وصيحات الاستنكار حين حاولت بوردونى الغناء . واندلع القتال فى قاع الصالة وسرى الى خشبة المسرح ، وشاركت فيه مغنيتا الأوبرا وراحت الواحدة منهما تشد شعر الأخرى ، وحطم النظارة مناظر المسرح مبتهجين - وكل هذا فى حضرة كارولين ، أميرة ويلز ، وهى شاعرة بالخزى والمهانة .

ولعل « قياس الخلف » هذا كان وحده كافيا لقتل الأوبرا الإيطالية فى إنجلترا . أما الضربة القاضية فقد كالحا لها واحد من أرق الناس فى لندن . وفى ٢٩ يناير ١٧٢٨ ، قدم جون جاى « أوبرا الشحاذ » فى مسرح لنكولنز ان فيلدز . وقد وصفت أغانيها المرحة الذكية البذيئة ، ولكن الذين سمعوها تغنى على أنغام الموسيقى التى وضعها أو اقتبسها يوهان بيبوش - هؤلاء فقط هم الذين فى وسعهم أن يفهموا لم تحول جمهور المسارح بجملته تقريبا عن هندل وبونونتشينى وأريوستى ، الى بيبوش وبوللى وجاى ، وظلت « أوبرا الشحاذ » تمثل الليلة تلو الليلة طوال تسعة أسابيع ، بينما راحت « سيرانات » مسرح صاحب الجلالة وخصيانه يغنون لكراسي خاوية . ثم ان جاى كان قد هجا الأوبرا الإيطالية وسخر من حبكات البلاء ، وهزأ بالارتعاشات و « الشخلعات » فى غناء المغنين والمغنيات السوبرانو ، واتخذ اللصوص والشحاذين والمومسات شخوصا للتمثيلية بدلا من الملوك والنبلاء والعذارى والملكات ، وعرض القصائد الشعبية الانجليزية أغانى أفضل من الألحان الإيطالية . وابتهج الجمهور بالألفاظ التى يستطيع فهمها ، خصوصا اذا كانت مكشوفة بعض الشيء . ورد هندل بمزيد من الأوبرات - سيروى ، وطولوميو ملك مصر

(١٧٢٨) وقد حظيت كلاهما بلحظات مجيدة ولكنهما لم تاتيا بريح .
وفى ٥ يونيو شهرت الاكاديمية الملكية للموسيقى أفلاسها ولفظت أنفاسها
الاخيرة .

على أن هندل لم يسلم بالهزيمة . فبعد أن هجره النبلاء الذين لاموه
على خسائهم ، كون مع هيديجر (يونيو ١٧٢٨) « الاكاديمية الجديدة
للموسيقى » ، وأنفق عليها عشرة آلاف جنيه - وهى كل مدخراته تقريبا -
وتلقى من الملك الجديد ، جورج الثانى ، وعدا بالف جنيه فى العام معونة
له . وفى فبراير انطلق الى القارة فى رحلة أخرى ليجند مواهب جديدة ،
لأن كوتزونى وبوردونى وسنسينو ونيكولينى وبوسكى ، هجروا سفينته
المشرفة على الغرق وراحوا يغنون للبندقية . واستخدم هندل بدلا منهم
ديوكا وبلابل جدد . انطونيو برناكى السوبرانو ، وأنيبالى فابرى
التينور ، وأنا ماريانا سترادا ديل بو السوبرانو . وفى رحلة عودته توقف
ليزور أمه آخر مرة . وكانت يوموها فى التاسعة والسبعين ، عمياء مشلولة
تقريبا . وبينما كان فى هاله زاره فلهم فريدمان باخ ، الذى أتاها بدعوة
لزيارة لبيزج ، حيث عرضت قبيل ذلك أول مرة « آلام المسيح كما رواها
متى البشير » . واضطر هندل الى رفض الدعوة . فهو لم يسمع بيوهان
سباستيان باخ الا لما ، ولم يخطر بباله قط أن شهرة هذا الرجل ستحجب
شهرته يوما ما . وهرول قافلا الى لندن ، والتقط فى طريقه الباصو-
الهامبورجى يوهان ريمنشneider .

وظهرت الفرقة الجديدة فى أوبرا « لوتاريو » فى ٢ ديسمبر
١٧٢٩ دون أن تلقى نجاحا . وجرب حظه ثانية فى ٢٤ فبراير بأوبرا
« بارتنوبى » ، فلم يوفق . وأعيد برناكى وريمنشneider الى القارة ،
واستدعى سنسينو ثانية من ايطاليا ، وبفضله هو وسترادا ديل بو ،
ونص كتبه مقاماتاسيو ، اجتذبت أوبرا هندل « بورو » أسماع لندن
(٢ فبراير ١٧٣١) ، وكان قد خلع على هذه الأوبرا طائفة من أعظم
الحنان تأثيرا . وامتلك مسرح صاحب الجلالة برواده مرة أخرى .
واستقبلت أوبرتان أخريان ، هما « ايتسيو » و « سوزارمى » استقبالا
طيبا .

ولكن الكفاح للبقاء على جمهور انجليزى بأوبرا ايطالية أخذ
(م ٢٢ - قصة الحضارة)

يصبح أشد عسرا ، وقد بدا الآن أنه طريق مسدود ينتهى دائما بالانهك البدنى والمالى . لقد قهر هندل انجلترا ، ولكن انجلترا بدت قاهرته الآن ، فلقد كانت أوبراته شديدة التشابه ، مصيرها المحتوم الى الضعف والهزال . ولقد سمت بها الألحان الرائعة ، ولكن هذه الألحان انما كانت موصولة بالحبكة وصلا هزيلا ، وكانت بلغة غير مفهومة مهما كان فيها من انسباب رقيق ، وكثير منها لحن للسوبرانو من الرجال ، وهؤلاء ازداد العثور عليهم صعوبة . وتحكمت القواعد الجامدة والغيرة بين الفنانين فى توزيع الألحان ، وزادت من افتعال القصة . ولو أن هندل واصل السير على الخط الايطالى لكاد يصبح اليوم نسيا منسيا . على أن سلسلة من المصادفات انتزعت انتزاعا من دربه المطروق ووجهته الى الميدان الذى سيطل فيه نسيج وحده حتى فى أعين زماننا هذا .

ج - هزيمته

فى ٢٣ فبراير ١٧٣٢ ، وفى حانة « التاج والمرساة » عرض برنارد جيتس ، احتفالا بعيد ميلاد هندل السابع والاربعين ، أوراتوريو هندل « استير » عرضا خاصا . وقد اجتذبت جمهورا مجزيا أغرى جيتس بتكرار عرضها مرتين - مرة لجماعة خاصة ، ومرة (فى ٢٠ أبريل) للجمهور . وكان هذا أول أداء علنى فى انجلترا . واقتُرحت الأميرة آن عرض « استير » بمسرح جلالة الملك وتزويدها بالملابس والمناظر والحركة ، ولكن أسقف لندن أحتج على تحويل الكتاب المقدس الى أوبرا . فاتخذ هندل الآن قرارا من أهم القرارات فى حياته ، وأعلن انه سيخرج « قصة استير المقدسة » « أوراتوريو : الانجليزية » فى مسرح هيماركت فى ٢ مايو ، ولكنه أضاف أنه « لن يصاحب الأداء حركة على المسرح » ، وأن الموسيقى « ستؤدى بطريقة حفلة التتويج الدينية » ، وهكذا فرق بين الأوراتوريو والأوبرا . وجاء بكورسه وأوكستراه ، وعلم لاسترادا والايطاليين الآخرين أن يغنوا أغانيهم المنفردة بالانجليزية . وحضرت الأسرة المالكة ، واحتملت « استير » عروضاً خمسة فى أول شهر لها .

وأخفقت أوراتوريو أخرى سماها « أسيس وغلطية » (١٠ يونيو) فى ارضاء مشاهديها ، وارتد هندل الى الأوبرا . فعرضت أوبرا

« أورلاندو » (٢٧ يناير ١٧٣٣) فترة طيبة ، ولكن حتى مع هذا التحسن ، واجهت شركته مع هيديجر الافلاس . فلما اخرج هاندل الاوراتوريو الثالثة « دبوره » (١٧ مارس) حاول أن يستعيد كفايته المالية بمضاعفة أجر الدخول . ونددت رسالة غفل من التوقيع موجهة الى صحيفة « كرافتسمان » بهذا الاجراء ، ودعت للثورة على سيطرة « المستر هاندل الوقح ٠٠٠ المستبد ، المترف (٥٣) » على موسيقى لندن . ولما كان هاندل قد ظفر برعاية الملك ، فقد فقد اوتوماتيا مودة فردريك ، أمير ويلز ، وابن جورج الثاني وعدوه . واخطأ هاندل - الذى كثيرا ما خضع سلوكه لحدة طبعه - بالاساءة الى جوزف جوبى ، الذى كان يعلم الرسم لفردريك ؛ وثار جوبى لنفسه برسمه كاريكاتورا للموسيقى ظهر فيه مخلوقانها متوحشا له خطم خنزير برى ؛ ووزعت نسخ من الرسم فى أرجاء لندن فأضافت الى تعاسة هاندل . وفى ربيع ١٧٣٣ شجع أمير ويلز حاشيته على تأليف فرقة منافسة سميت « أوبرا الاشراف » . واستقدمت الفرقة من نابلى أشهر معلمى الغناء فى ذلك العهد ، وهو نيكولو بوربورا ، وأغرت سنسينو بترك هاندل ، وكوتزونى بالمجئء من ايطاليا ؛ وفى ٢٩ ديسمبر ، وفى مسرح لنكولنز أن فيلدز ، أخرجت أوبرا بوربورا « آريانا » التى لقيت استحسانا عظيما . أما هاندل فقد قابل هذا التحدى الجديد بأوبرا تناولت موضوعا مشابها مشابهة تنطوى على التحدى ، « آريانا فى كريت » (٢٦ يناير ١٧٣٤) ، فلقبت هى أيضا استقبالا حسنا . ولكن فى نهاية الموسم انتهى عقده مع هيديجر ، وأجر هيديجر مسرح جلالة الملك لأوبرا الاشراف ، ونقل هاندل فرقته الى مسرح كوفنت جاردن الذى يملكه جون رتش .

وانتقم بوربورا بدعوة كارلو بروسكى ، أشهر المغنين «الخصيان» المعروف لأوبرا كلها باسم « فارينللى » . وقد نقض الحديث عن غناء هذا الرجل حين نلتقى به فى وطنه بولونيا ، وحسبنا هنا أن نقول انه حين انضم الى سنسينو وكوتزونى فى أوبرا بوربورا « أرتازرسى » كان ذلك حدثا فى تاريخ انجلترا الموسيقى ، وأعيد عرض الأوبرا أربعين مرة فى السنوات الثلاث التى مكثها فارينللى - وقابلها هاندل بأوبرا « أريودانتى » (٨ يناير ١٧٣٥) ، وهى من أروع أوبراته ، غنية غنى فريدا فى موسيقاها الالية ، وقد ظفرت بعشرة عروض فى شهرين ،

ووعدت بأن تغطي نفقات هندل . ولكن حين أخرج بوربورا أوبرا « بوليفيمو » (أول فبراير) التى لعب فيها فارينللى دور البطل ، لم يستطع الملك ولا الملكة ولا الحاشية أن يمتنعوا عن مشاهدتها ، وفاقت فى مرات عرضها « أرتازيرسي » ، بينما لم تلبث أوبرا هندل «التشيننا» (١٦ أبريل) أن أقفر مسرحها من رواده - ولو أن الحانا أوركستراالية متتابعة (سويت) من موسيقاها لا تزال تظهر على البرامج اليوم . واعتزل هندل ساحة القتال نصف سنة ليطلبب آلامه الرومانزية بمياه ينابيع تنبردج .

وفى ١٩ فبراير عاد الى كوفنت جاردن بأوراتوريو لحنها لقصيدة درايدن «وليمة الاسكندر» . كتب معاصر أن جمهور الألف والثلثمائة مشاهد الذين ملأوا المسرح استقبلوا الأوراتوريو بتصفيق « ندر أن سمع فى لندن (٥٤) » . وتعزى هندل بريح منها بلغ ٤٥٠ جنيهها ، ولكن القصيدة كادت أهزل من أن تحتل اعادة عرضها أكثر من أربع مرات ، رغم أن هندل قام بعزف مثير على الأرغن فى فترة الاستراحة ، وانقلب المؤلف - المخرج - القائد - العازف اليائس الى الأوبرا من جديد . وفى ١٢ مايو قدم « أطلالانطا » مسرحية رعوية تحتفل بزواج أمير ويلز . وكان قد دعا من ايطاليا مغنيا خصيا جديدا يدعى جيتسبلو (جواكينو كونتى) لغناء السوبرانو ، وخص دوره بلحن (كارى سلفى) وهو من أجمل وأخلد أغانيه . وبلغ من سرور فردريك أنه نقل رعايته من فرقة بوربورا الى فرقة هندل ، ولكن هذا النصر كدره الغاء الملك لتبرعه السنوى بالف جنيه لمشروع هندل حين سمع بالخطوة التى اتخذها ابنه .

وكف بوربورا عن المعركة فى ربيع ١٧٣٦ . وملا هندل مسرحه بمناوبة الأوبرا مع الأوراتوريو ، وأضاف الى فرقة « جوستينو » (١٦ فبراير ١٧٣٧) « الدببة ، والحيوانات الغريبة ، والتنانين التى تقذف النار (٥٥) » . ولكن الجهد الذى اقتضته مسئولياته المنوعة حطمه . وفى أبريل أصابه انهيار عصبى ، ونقطة شلت ذراعه اليمنى فترة . وفى ١٨ مايو عرض « برينيتشي » ، آخر أوبرا كتبها لفرقة . ثم أغلق مسرحه فى أول يونيو مثقلا بديون كثيرة ، متعهدا بالوفاء بها جميعا كاملة ، وقد فعل . وبعد عشرة أيام حلت « أوبرا الأشراف »

المنافسة له ، مقلدة بدين قدره اثنا عشر ألف جنيه . وهكذا انتهى عصر
الأوبرا العظيم فى إنجلترا .

وكانت صحة هندل من بين ما تخلف من حطام . فالروماتزم فى
عضلاته ، والتهاب المفاصل فى عظامه ، والنقرس فى أطرافه - هذه
كلها تفاقمت فى صيف ١٧٣٧ بنوبة جنون عارضة (٥٦) . فغادر
إنجلترا ليستشفى بعياه آخن . وكتب السرجون هوكنز يقول أنه هناك:

« احتمل من افرازات العرق التى بعثتها حمامات البخار ما أدهش
كل انسان . وبعد بضع محاولات من هذا النوع ، بدت معنويته خلالها
ترتفع ولا تهبط من أثر العرق الغزير ، فارقه اضطراب عقله ، وبعد
بضع ساعات .. . ذهب الى كنيسة المدينة الكبرى ، ووصل الى
الأرغن ، ثم عزف عليه عزفا جعل الناس يعزون شفاءه الى
المعجزة (٥٧) » .

وفى نوفمبر عاد الى لندن ، والى الكفاية المالية وأسباب التشريف .
وكان هيديجر قد عاد ثانية الى مسرح صاحب الجلالة . ونقد هندل
ألف جنيه لقاء أوبراتين ، واحتوت احدهما وهى « سرسي » (١٥ أبريل
١٧٣٨) على اللحنين المشهورين « لارجو » و « أومبرا ماى فو » . ودفع
مستاجر حدائق فوكسهول الى روبيك ثلاثمائة جنيه لينحت تمثالا
يظهر فيه الموسيقى وهو يداعب أوتار قيثاره ؛ وفى ٢ مايو أزيح الستار
عن هذا التمثال الثقيل الوقفة ، الغبى التعبير ، فى الحدائق فى حفلة
موسيقية . ولا بد أن هندل قد سره أكثر من هذا تلك الحفلة التى أعين
بها فى ٢٨ مارس ، والتى أقته بأكثر من ألف جنيه . فدفع الآن ديون
أعجل دائنيه ، وكان أحدهم يهدد بإيداعه سجن المدينين . ولكنه كان
مشرفا على الافلاس برغم كل تشريف . ولم يستطع أن يتطلع بعد ذلك
لهيديجر ، الذى أعلن (٢٤ مايو) أنه لم يقلق من الاكتتابات ما يتيح
له اخراج أوبرات فى ١٧٣٨ - ٣٩ . هنا ، ودون تكليف ولا فرقة ،
بدأ هندل أعظم أطواره ، وهو فى الثالثة والخمسين ، والأوصاب
والاوجاع تهز بدنه .

د - الأوراتوريو

نشأ هذا الشكل الجديد نسبيا من كورالات العصور الوسطى التى تمثل أحداثا فى التاريخ المدون فى الكتاب المقدس أو حياة القديسين . وكان القديس فليب نيرى قد خلع على هذا الشكل اسمه بتفضيله أياه وسيلة للعبادة والتعليم الدينى فى مصلى آباء الأوراتوريو فى روما . وطور جاكومو كاريسمى وتلميذه أليساندرو سكارلاتى الأوراتوريو فى ايطاليا ، ونقلها هنريش شوتس من ايطاليا الى ألمانيا ، وبلغ رينهارت كيزر بهذا اللون شاوا بعيدا قبل موته (١٧٣٩) . وهذا هو التراث كيزر بهذا اللون شاوا بعيدا قبل موته (٢٧٣٩) . وهذا هو التراث الذى بلغ غايته فى « مسيا » Messiah هندل عام ١٧٤١ .

والفضل فى نجاح هندل يرجع بعضه الى توفيقه بين هذا الشكل وبين الذوق الانجليزى . وقد واصل اختيار موضوعات الأوراتوريو من الكتاب المقدس ، ولكنه أضفى عليها بين الحين والحين عنصر تشويق غير دينى ، كما فعل فى موضوع الحب فى « يوسف واخوته » . وفى « يفتاح » ؛ وركز على الطابع الدرامى لا الدينى ، كما فعل فى « شاول » و « اسرائيل فى مصر » ؛ واستعمل نصا انجليزيا خالصا ، أخذ جزءا منه فقط من الكتاب المقدس . لقد كانت فى جزء كبير منها موسيقى دينية ، ولكنها مستقلة عن الكنائس والطقوس . وقد مثلت على مسرح تحت رعاية علمانية ، يضاف الى هذا أن هندل استخدم الموضوعات الكتابية ليرمز بها للتاريخ الانجليزى ، فاسرائيل ترمز لانجلترا ، وتمرد ١٦٤٢ الكبير وثورة ١٦٨٨ المجيدة يمكن سماعهما فى كفاح اليهود للتحرر من ربقة المصريين (أسرة ستيوارت) والسيطرة الهلنستية (الغالية) ؛ ولم يكن الشعب المختار فى حقيقته سوى الأمة الانجليزية ، واله اسرائيل هو نفس الاله الذى قاد الشعب الانجليزى الى النصر بعد المحن . وكانت فكرة هندل عن الله أشبه بفكرة البيورتان ، فهو « يهوه » اله العهد القديم الجبار ، لا الله الآب كما يصوره العهد الجديد (٥٨) . وكان هذا احساس انجلترا ، فاستجابت فى فخر لأوراتوريوات هندل .

بدأ الطريق الصاعد الى « المسيا » بأوراتوريو « شاول » التى أخرجت على مسرح صاحب الجلالة فى ١٦ يناير ١٧٣٩ . « أن مارش الموتى المهيب ، الجليل ، لكفيل وحده بأن يخلد هذا العجل (٥٩) » .

ولكن الجمهور لم يعتد شكل الأوراتوريو ، لذلك لم تعمر « شاول » أكثر من عشرة عروض . وبهمة لا تصدق ألف هندل وقدم (٤ أبريل) آية أخرى من آياته هي « اسرائيل فى مصر » . هنا جعل الكورس هو البطل ، صوت أمة تولد ، ووضع موسيقى يعدها الكثيرون أسمى ما كتب (٦٠) . ولكن اتضح أنها مترابطة عسيرة فوق ما يحتمله الذوق السائد آنئذ ، وأنهى هندل موسمه التاريخى بديون جديدة .

وفى ٢٣ أكتوبر اندفعت إنجلترا الى الحرب مع أسبانيا بسبب اذن جنكنز . وفى وسط ضجيج الحرب وصخبها استأجر هندل مسرحا صغيرا ، وفى عيد القديسة راعية الموسيقيين قدم الاطار الموسيقى الذى ألفه لقصيدة درايدن الغنائية التى كتبها بمناسبة « عيد القديسه سيسيليا » (٢٢ نوفمبر ١٧٣٩) ولم تستطع لندن ، حنى فى برد تلك الليلة من ليالى الشتاء وفوضاها ، أن تقاوم ذلك الاستهلال الرخيم المشرق ، أو لحن السوبرانو الانيرى فى القسم الثالث ، أو « الناي الشاكى الخافت » و « العود الصادح » فى الخامس ، فى حبن اتفق « دق الطبل المراعى ، ذلك الدق المضاعف المضاعف المضاعف » مع روح الحرب المدممة فى السوارع . وعاود الأمل هندل ، وجرب أوبرا سماها « أمينيو » (١٧٤٠) ، ولكنها فشلت ، وجرب أخرى اسمها « ديداميا » (١٧٤١) ، ففشلت هى أيضا ، واعتزل العملاق المرهق المسرح الموسيقى اللندنى . قرابة عامين .

وكان هذان العامان أروع ما فى حياته . وفى ٢٢ أغسطس ١٧٤١ بدأ يؤلف أوراتوريو « المسيا » . وقد اقتبس النص تشارلز جيننز من أسفار أيوب والمزامير وأشعياء ومراثى أرميا وحجى وزكريا وملاخى - وكلها من أسفار العهد القديم ، ومن أناجيل متى ولوقا ويوحنا ، ورسائل بولس ، وسفر الرؤيا - وهى من أسفار العهد الجديد . وأتم كتابة الموسيقى فى ثلاثة وعشرين يوما ، وقال لصديق انه فى بعض هذه الأيام « حسبتنى حقا أبصر السماء كلها أمامى فعلا ، والله العلى ذاته (٦١) » . واذ لم يتح له أمل مبكر فى العثور على جمهور لها ، فقد انتقل الى كتابة أوراتوريو كبيرة أخرى هي « شمشون » ، بناها على قصيدة ملتن عن معاناة شمشون Samson Agonistes وفى تاريخ غير معرف خلال

هذه النشوات تلقى دعوة لعرض بعض أعماله فى دبلن . وبدأ له الآن الاقتراح آت من العناية الالهية التى تقدره حق قدره ، ولكن الحقيقة أنه أتى من وليم كافندش ، دوق ديفونشير ، ونائب الملك فى أيرلندا .

ووصل الى دبلن فى ١٧ نوفمبر ١٧٤١ . واستخدم أفضل من وجد من المغنين ، ومنهم سوزانا ماريا كبر ، الابنة المثقفة لتوماس آرن . ونظمت عدة هيئات خيرية ست حفلات موسيقية له ، نجحت نجاحا حمله على تقديم سلسلة ثانية . وفى ٢٧ مارس ١٧٤٢ نشرت مجلستان فى دبلن اعلانا جاء فيه :

« رغبة فى اغانة المسجونين فى عدة سجون ، واعانة مستشفى ميرسر . . . سيقدم يوم الاثنين ١٢ أبريل على قاعة الموسيقى فى شارع فيشامبل ، اوراتوريو المستر هندل الكبرى الجديدة ، المسماه « المسيا » . وسيشارك فيها أعضاء الكورس فى كلتا الكتدرايكيتين ، ويعزف المستر هندل بعض الكونشرتوات على الأورغن (٦٢) » .

وبيعت التذاكر كذلك للبروفات التى ستجرى فى ٨ أبريل ، والتى قالت مجلة فوكنر انها « تؤدى أداء رائعا . . . اعترف معه أعظم الحكام بأنها أبدع لحن موسيقى سمعه الناس اطلاقا » . واضيف الى هذا اعلان يؤجل حفلة الاثنين الى الثلاثاء ، ويرجو السيدات « أن يحضرن بغير أطواق لاثوابهن ، لأن هذا من شأنه أن يدعم عمل البر ، اذ سيفسح المكان لعدد أكبر من الحاضرين » . وطلبت فقرة أخرى الى الرجال أن يحضروا بغير سيوفهم . وبهذه الطرق اتسعت قاعة الموسيقى لسبعمائة شخص بدلا من ستمائة .

وأخيرا ، وفى ١٣ أبريل ١٧٤٢ ، قدم أشهر الألحان الموسيقية الكبرى قاطبة . وفى ١٧ أبريل احتوت ثلاثة صحف دبلنية نقدا واحدا :

« فى يوم الثلاثاء الماضى قدمت اوراتوريو المستر هندل الكبرى المقدسة ، « المسيا » . . . وقد اعترف أفضل الحكام بأنها أفضل القطع الموسيقية صقلا . وتعوزنا الألفاظ للأعراب عز، المتة الفائقة التى أتاحها للجسم المزدحم المعجب . وقد تضافرت عناصر السمو والفخامة

والرقعة ، التى واعم بينها وبين أنبل الالفاظ وأجلها وأشدها تأثيرا ،
لتطرب وتسحر القلب والأذن المسلوبين . ومن الانصاف لمستر هندل
أن يعرف العالم أنه تبرع فى سخاء بحصيلة هذه الحفلة الكبرى لتوزع
بالتساوى بين جمعية اغائة المسجونين ، ومبرة العجزة ، ومستشفى
ميرسر ، وهو عمل ستذكره له هذه الهيئات بالشكر على الدوام (٦٣) « .

وأعيد عرض « المسيا » فى دبلن فى ٣ يونيو . وقد أعيدت ألف
مرة منذ ذاك التاريخ ، ومع هذا فمندا الذى مل تلك الألحان - سواء
الهادئة منها أو الفخمة - ، تصاحبها الترانيم الخافتة الرقيقة اللطيفة
مثل « سوف يطعم قطيعة » و « أعلم أن فادى حى » ، و « ليتجد
اسمه » و « كان مزدرى مرفوضا » ؟ لقد حدث والمسز كبر تترنم بهذا
اللحن الأخير فى أول عرض بدبلن أن صاح قسيس انجليكانى من بين
الحاضرين قائلا « لتغفر لك خطاياك من أجل هذا أيتها المرأة ! » فكل
ما فى الرجاء الدينى من عمق وحرارة ، وكل ما فى الترتيل الورع من
رقة وحنان ، وكل ما وهب الموسيقى من فن وعاطفة - كل هذا اجتمع
لجعل من هذه الألحان أرفع اللحظات فى الموسيقى الحديثة .

وفى ١٣ أغسطس غادر هندل دبلن منتعش الروح معتلئ الجيب
وقد عقد النية على أن يغزو انجلترا من جديد . ولابد أن قد سرى عنه
غلو بوب فى الثناء عليه فى الجزء الرابع من « ملحمة الأغبياء »
(١٧٤٢) :

« ها هو هندل العملاق يقف قويا وهو مدجج بسلاح جديد !
مثل برياريوس الشجاع ، وله مائة يد (أى الأوركسترا)
يأتى ليحرك ويوقظ ويهز النفوس
ورعود جوبيتر تتبع طبول مارس .

وعليه ففى ١٨ فبراير ١٧٤٣ ، فى المسرح الملكى بكوفنت جاردن ،
قدم الموسيقى الذى استعاد شبابه أوراتوريو « شمشون » . وكان جورج
الثانى على رأس الصفوة اللندنية التى حضرت حفلة الافتتاح . وأبهج
الاستهلال الجميل كل انسان سمعه الا هوراس ولبول ، الذى صمم على
إلا يعجب بشيء قط ؛ وكان اللحن الرفيع الذى مطلع « يارب الجنود »

رائعا روعة تقرب من روعة. ألخان المسيا ، وكما فعل شمشون الجبار الذى سحق بقوته المحتفلين اذ اسقط عليهم المعبد ، فكذلك كان تأثير أوراتوريو « شمشون » ساحقا على الحاضرين . ولكن حين عرضت المسيا نفسها بعد شهر (٢٣ مارس) على لندن ، لم يستطع حتى الملك - الذى أرسى يومئذ تقليدا دائما بوقوفه عند ترنم الفرقة بلحن « هلوليا » - أن ينهض بالأوراتوريو الى مقام التقبل . فرجال الدين نددوا باستعمال المسرح للموسيقى الدينية ، اما النبلاء فما زالوا على صدهم وجراح اخفاق فرقتهم الاوبرالية توجعهم . ولم تعرض المسيا فى العامين التاليين الا ثلاث مرات ، ثم توقف عرضها حتى عام ١٧٤٩ . وفى ذلك العام أهدى هندل ، الذى كان رجلا بارا بالانسانية فيما بين افلاسائه ، أرغنا جميلا لمستشفى اللقطاء الذى كان صديقه هوجارث يحبه حبا جما ، وفى أول مايو ١٧٥٠ قدم أول عرض من عروض المسيا السنوية لأعانة أولئك البؤساء المحظوظين .

وفى ٢٧ يونيو ١٧٤٣ قاد جورج الثانى جيشه للنصر فى معركة ديتنجن . فلما عاد الى لندن حيته المدينة بالعروض والاضواء والموسيقى ، وصدحت الكنيسة الملكية فى قصر سانت جيمس بـ « تسبيحة ديتنجن » التى لحنها هندل لهذه المناسبة (٢٧ نوفمبر) . وكانت نتاج العبقرية والمقص ، لأنها احتوت فقرات مسروقة من مؤلفين أسبق وأقل شأنا من هندل ، ولكنها كانت معجزة من متجزات اللصق . وابتهج الملك .

فلما أن تشجع هندل بالابتسامات الملكية ، جدد جهوده ليقتنص آذان لندن من جديد . وفى ١٠ فبراير ١٧٤٤ قدم أوراتوريو أخرى سماها « سملى » احتوت ترنيمة بديعة اسمها « حيثما سرت » ما زالت تترنم بها إنجلترا وأمريكا ، ولكن الأوراتوريو لم تستطع تجاوز عروض أربعة . وظل النبلاء على عدائهم لهندل ، وحرصت نبيلات كثيرات على اقامة الولائم المترفة فى الأمسيات المقررة للحفلات الموسيقية التى يحييها هندل ، واستؤجر الأوباش ليمزقوا اعلاناته . وفى ٢٣ أبريل ١٧٤٥ ألغى الحفلات الموسيقية الثمان التى أعلن عنها من قبل ، وأغلق مسرحه ، واعتزل فى تنبردج ولز . وأرجفت الشائعات أنه مجنون . كتب حامل لقب إيرل شافتسبرى فى تلك الفترة يقول (٢٤ أكتوبر) « ان هندل المسكين يبدو

أحسن قليلا ، وأرجو أن يتماثل للشفاء تماما ، ولو أن عقله قد اختلط
اختلاطا تاما (٦٤) » .

وربما أخطأت الشائعات ، لأن هندل الذى بلغ الستين استجاب بكل
قواه لدعوة من ولى العهد ليحيى ذكرى انتصار أخى الأمير الأصغر ، دوق
كمبرلاند ، على القوات الاستيوارتية فى كالودين . واتخذ هندل انتصار
يهودا المكابى (١٦٦ - ١٦١ ق .م) على خطط أنطيوخس الرابع لقرض
الهلنستية على وطنه موضوعا رمزيا للأوراتوريو الجديدة . وقد أحسن
الجمهور استقبالها (أول أبريل ١٧٤٧) حتى احتملت إعادة عرضها
خمس مرات فى أول موسم لها . أما يهود لندن الشاكرون هذا الاحتفال
النبيل بأحد أبطالهم القوميين ، فقد أعانوا على تكثير جمهور النظارة ،
فمكنوا هندل من تقديم الأوراتوريو أربعين مرة قبل موته . واعترافا
بفضل هذا الدعم الجديد اتخذ أكثر موضوعات ألحانه الدينية بعد ذلك
من تاريخ اليهود أو أساطيرهم ، اسكندر بالوس ، ويشوع ، وسوسنة ،
وسليمان ، ويفتاح . وعلى عكس ذلك لم تجتذب أورانونوريو « تيودورا »
- وهو اسم مسيحي - من الجمهور الا أقل القليل ، حتى لاحظ هندل
فى مرارة أنه « كان هناك مكان يتسع للرقص » وغادر تشستر فيلد المسرح
قبل نهاية العرض معتذرا بأنه « لا يريد ازعاج الملك فى خلوته (٦٥) » .

هـ - بروميثيوس

ليست الأوراتوريو الا « نوعا » واحدا من ذلك « الجنس » المسمى
هندل . ذلك أن روحه المتعددة الاشكال اتجهت بتوافق تلقائى تقريبا لآى
شكل من الاشكال الموسيقية الكثيرة . فالأغاني التى مازالت تمس أوتار
العاطفة ، وقطع الأرقن أو البيان المتناهي الرقة ، والسوناتات ،
والمقتابعات ، والرباعيات ، والكنشرتو ، والأوبرا ، والأوراتوريو ،
وموسيقى الباليه ، والقصائد الغنائية ، والرعويات والكنتاتات ،
والتراتيل ، والأناشيد الوطنية ، وتسبيحات الشكر ، وترانيم أسبوع .
الالام - كل شيء تقريبا الا السمفونية الوليدة نجده فى موسيقاه ،
منافسا بذلك فيض بيتهوفن أو باخ المتدفق ، و « متتابعات
المهاريسيكورد » تبدو اليوم على الهاريسيكورد وكأنها أصوات أطفال
سعداء لم يعرفوا التاريخ بعد . وهناك مجموعة ثانية من المقتابعات .

بجاءت بذلك الاستهلال الذى لعب به الموسيقى بramer لعبا مرححا فى
« تنويغات وفوجه على موضوع لهندل » .

وكما أخذ هندل الاوراتوريو عن كاريسىمى وكايزر وارتفع بها الى
أوجها ، كذلك أخذ عن توريللى وكوريللى « الكونشرتو الكبير » -
لالتين أو أكثر لمغن واحد أو مغنيين مع أوركسترا صغير (أوركسترا
الحجرة) . وفى مجموعته الموسيقية السادسة ترك اثنى عشر من هذه
الكونشترات الكبيرة ، مقابلا كمانين وفيولنتيللو بمجموعة وترية ،
وبعضها يبدو لنا اليوم رتبيا ، وبعضها يقرب من كونشرتو براندنبورج
لباخ . كذلك نجد فى هندل كونشترات ممتعة لآلة منفردة - الهاريسيكورد
أو الكمان ، أو الفيولا ، أو الأوبوا ، أو الهارب . أما تلك المخصصة
للوحات المفاتيح فكان يؤديها هندل بنفسه فى المقدمات أو الفواصل .
وكان أحيانا يترك متسعا فى موسيقى الكونشرتو لما يجب أن نسميه
اليوم « ارتجالا » *cadenza* ، حيث يستطيع العازف أن يطلق
العنان لخياله ويظهر براعته . وكانت ارتجالات هندل فى مثل هذه
الافتتاحات أعاجيب تحدث الناس بها طويلا .

وفى يوليو ١٧١٧ نظم جورج الاول « رحلة » ملكية فى ذهبيات
حفلت بالزينات على نهر التيمز . وتكشف صحيفة « الدبلى كورنت »
عدد ١٩ يوليو ١٧١٧ عن هذا المشهد فتقول :

« فى مساء الأربعاء حوالى الثامنة نزل الملك الى النهر عند
هوايتهول فى ذهبية مكشوفة ، كان فيها أيضا دوقه نيوكاسل ، وكونتيسة
جودولفن ، ومدام كيلمانسيك ، وايرل أوركنى ، وصعدوا فى النهر
جنوب تشلسي . ورافقتهم ذهبيات كثيرة أخرى يستقلها بعض عليه
القوم ، وزوارق كبيرة العدد بحيث غطت صفحة النهر تقريبا . وخصص
زورق فرقة موسيقية من فرق المدينة لعزف الموسيقى ، زود بخمسين
آلة من جميع الانواع ، عزف عليها العازفون طوال الطريق من لامبث
... .. أبدع السمفونيات ، التى لحنها المستر هندل خصيصا لهذه
المناسبة وأعجبت جلالته جدا حتى طلب عزفها أكثر من ثلاث مرات فى
الذهاب والاياب (٦٦) » .

وهذه هي « موسيقى المياه » ، التي هي اليوم أبقي وألذ ما تخلف من مؤلفات هندل الملكية . ويبدو أنه كان هناك في الاصل احدي وعشرون حركة - وهو عدد أكبر من أن يحتمله المستمعون العصريون الذين تعوزهم الذهبيات والوقت ، ونحن لا نستمتع عادة لأكثر من ست . وبعضها متعبة بعض الشيء في تطوافها المشجى ، ولكن أكثرها موسيقى صحية مرحلة متألقة ، كأنها متدفقة من ينبوع لتهدد خليات الملك . و « موسيقى المياه » أقدم قطعة موسيقية في الذخيرة الاوركستراالية الحالية .

وبعد جيل كامل ، ومن أجل جورج ثان ، أضفى هندل الكرامة على مناسبة خلوية أخرى . ذلك أن الحكومة قررت اقامة عرض للألعاب النارية في جرين بارك احتفلا بصلح اكس - لا - شابل ، وولكت هندل بتأليف « موسيقى الألعاب النارية الملكية » . فلما عزفت بروفا هذه الموسيقى في حدائق فوكسهول (٢١ أبريل ١٧٤٩) ، دفع اثنا عشر ألف شخص مبلغ الشلنين - الكبير في ذلك الوقت - للاستماع اليها ؛ وبلغ، التزاحم مبلغا عطل المرور على الطريق الذي يعبر كوبري لندن ثلاث ساعات - « ولعل هذا كان أروع ثناء ظفر به أى موسيقى على الاطلاق (٦٧) » . وفي ٢٧ أبريل شق نصف سكان لندن طريقهم الى جرين بارك ، واقتضي الأمر هدم ست عشرة ياردة من سور الحديقة لتمكينهم من الدخول في الميعاد . وعزفت « فرقة » من مائة موسيقى لحن هندل ، وتألقت الألعاب النارية في السماء ، وشبت النار في مبنى أقيم لهذه المناسبة ، فذعر الجمع المحتشد وأوذى كثيرون ومات شخصان . ولم يبق من المهرجان الا موسيقى هندل . وإذا كان هدف هذه الموسيقى أن تخلد حربا ظافرة وأن تسمع عن بعد فقد كانت عبارة عن دوى هتافات وطنين طبول أشد ضجيجا مما تحتمله الأذن التي ألقت بالحركة البطيئة . ولكن فيها حركة بطيئة جدا تقع وقعا محمودا على الأعصاب المرهقة .

وانتهت انجلترا آخر الأمر الى محبة الالمانى العجوز الذى ناضل جاهدا ليكون انجليزيا . لقد فشل فى نضاله ، ولكنه حاول ، حتى الى حد السب والشتم بالانجليزية . وتعلمت لندن ان تغفر له بدانته الهائلة ،

ووجهه العريض وخديه المنتفخين ، وساقيه المقوستين ومشيته الثقيلة ، ومعطفه القرمزى المخملى ، وعصاه الذهبية المقبض ، وعجبه وتعالیه ؛ لقد كان لهذا الرجل بعد كل المعارك التى خاضها الحق فى الظهور بمظهر الفاتح ، أو على الأقل بمظهر اللورد ، نعم كان فى سلوكه جلالة ، وكان يدرب موسيقييه بالحب والغضب ، ويوبخ جمهور المستمعين على كلامهم خلال البروفات ، ويهدد مغنياته باستعمال العنف ، ولكنه غلف عنفه بالفكاهة . فلما التحت كوتزونى وبوردونى بالأيدي على خشبة المسرح قال هدوء « اتركوهما لتنتهى المعركة » ، وراح يدق لحنا مصاحبا مرحا على النقياريات ليرافق سورة عضبهما (٦٨) . ولما هدده مغن بالونب على الهاربسيكورد لأن عزف هندل المصاحب اجتذب السامعين أكثر من غناء المغنى ، طلب اليه هندل أن يحدد تاريخ هذه التمثيلية المقترحة للاعلان عنها قائلا أن « الذين سبأتون لبروك تقفز أكثر من الذين سبأتون لبسموك تغنى (٦٩) » . وكانت ملاحظاته الظريفة تعدل فى براعتها تعليقات جوناثان سويفت ، ولكن الاستمتاع بها كان بقنضي الامام بأربع لغات .

وفى ١٧٥٢ بدأ يفقد بصره . فبينما كان يكتب « يفتاح » اختلطت الرؤية أمام عينيه حتى أضطر الى الكف عن الكتابة . وفى المخطوطة الأصلية المحفوظة بالمتحف البريطانى أخطاء عجيبة - « سيقان رسمها بعيدة بعض الشيء عن النوتات التى ننتمى إليها ، ونوتات واضح أنها صلت طريقها (٧٠) » . وفى أسفل الصفحة سطر كتبه المؤلف « الى هنا وصلت ، الأربعاء ١٣ فبراير . منعتنى عينى اليسرى من الاستمرار » . وبعد عشرة أيام كتب على الهامش « ٢٣ فبراير ، حالتى أحسن قليلا . اسنأفت العمل » . ثم ألف موسيقى لهذه الكلمات « فرحنا يضيع فى الحزن ... كما يضيع النهار فى الليل (٧١) » . وفى ٤ نوفمبر كتبت صحيفة «الجنرال أدفرتيزر» : « بالأمس أعد (لعملية السد أو الكتركت) السيد جورج فردريك هندل التى يجريها له الطبيب وليم برومفيلد جراح سمو أميرة ويلز » . وبدا أن الجراحة نجحت ، ولكن فى ٢٧ يناير ١٧٥٣ أعلنت جريدة لندنية أن « المستر هندل كف بصره فى النهاية تماما لسوء الحظ » . على أن التقارير اللاحقة تشير الى انه احتفظ ببصيص من النور حتى موته .

وواصل التأليف والقيادة سبع سنين آخر . فقدم فى ستة أمسيات (٢٣ فبراير الى ٦ أبريل ١٧٥٩) حفلتين عرض فيهما « سليمان » ، وحفلة عرض فيها « شمشون » واثنتين « يهوذا المكابى » وثلاثا « المسيا » . ولكن بينما كان يغادر المسرح عقب حفلة عرض المسيا فى ٦ أبريل وقع مغشيا عليه ، واقتضى الأمر حمله الى بيته . فلما أفاق كان دعاؤه أن يفسح له فى الأجل أسبوعا آخر . « أريد أن أموت فى يوم الجمعة الكبيرة ، رجاء أن ألحق بالآلة الصالح ، ربى ومخلصي الحبيب ، فى يوم قيامته (٧٢) » . وأضاف الى وصيته ملحقا أوصي فيه بالف جنيه لجمعية اعانة الموسيقيين العجزة وعائلاتهم ، وبمبالغ كبيرة لنثاء عشر صديقا ، والى « خادمانى راتب سنة لكل واحدة » . ومات فى سبت النور (غنية الفياحة) ، ١٤ أبريل ١٧٥٩ ، ودفن فى دير وسنمستر فى ٢٠ أبريل ، فى مشهد من « أعظم حشد للبشر من جميع الرتب روى فى مثل هذه المناسبة بل وفى أى مناسبة أخرى (٧٣) » .

ولقد ترك نروة موسيقية لا تصارع ، سنا وأربعين أوبرا ، وانسين وثلاثين أوراتوريو ، وسبعين مقدمة ، واحدى وسبعين كنانا ، وستة وعشرين كوسرنا كبيرا ، وثمانية عشر كوشرتا للأرغن ، وكثيرا وكثيرا غير هذا بحيث يملأ كل هذا مائة مجلد ضخمة ، تكاد تعدل أعمال باخ وبتهوفن مجتمعة . وكان بعض هذا التراث مكررا ، وبعضه مسروقا ، لأن هندل سطا على موسيقى تسعة وعشرين مؤلفا على الأقل دون اقرار بفضلهم ليستعين بهم على الوفاء بمواعيده (٧٤) ، مثال ذلك أن المينيوويت فى مقدمة « شمشون » أخذت انغامها نصا من أوبرا كلودىوس لكايزر .

ومن العسير تقدير هندل بقدره الصحيح ، لأنه لا يعرض علينا اليوم الا اليسير من أعماله . أما الأوبرات ، فانها باستثناء بعض الألحان الساحرة لا سبيل الى بعثها ، فقد وضعت ونث نمانج ايطالية ذهبى ولا أمل فى رجوعها فيما يبدو ، ونصوص موسيقاها الموجودة الآن ناقصة ، وهى تستعمل رموزا واخنصارات أكثرها غير مفهوم الآن ، وقد كتبت لأوركسترات يختلف تكوينها عن تكوين أوركستراتنا اختلافا تاما ، ولأصوات لجنس ثالث مختلف كل الاختلاف عن المتوسط من

أجناس عصرنا . وتبقى بعد ذلك موسيقى الكونشرتو الشبيهة بأرض صيد سعيدة تحوى كنوزا منسية ، و « موسيقى المياه » ، والأوراتوريوات - ولكن حتى هذه الأوراتوريوات « عتيقة » ، لأنها كتبت لانجليز يعدون للمعركة ويهود شاكرين ؛ وتحتاج تلك الكوارس الضخمة والحركات الصوتية المتكاثرة الى معدة ضليعة فى الموسيقى لتضمها - وان كان مما يبهجنا أن نسمع « يفتاح » و « اسرائيل فى مصر » من جديد . ويخبرنا الموسيقيون أن فى الأوراتوريوات المهمة فخامة ووقارا ، وسموا فى الوجدان ، وقوة فى التصوير والتعبير والدراما ، وتنوعا وبراعة فى التقنية التركيبية ، لم يدركها أحد بعده فى ذلك اللون من التأليف الموسيقى . وقد عاشت «المسيا» الى اليوم رغم ما شابها من تكرار وتقطيع أوصال لأنها من جهة تصون وتدخر أهم العقائد المسيحية العزيزة حتى على من تنكروا لها ، ولكن أهم من ذلك أن الحانها العميقة و « قراراتها » المعبرة عن الانتصار تجعلها فى جملتها أعظم تأليف مفرد فى تاريخ الموسيقى .

وقد أدركت انجلترا عظمتة بعد موته ، فلما اقتربت ذكرى ميلاده انضم النبلاء الذين كانوا يخاصمونه من قبل الى الملك والنواب فى أحيائها بثلاثة أيام من موسيقاه . ولما كان مولده فى ١٦٨٤ طبقا للتقويم الانجليزى ، فقد أقيمت أول حفلة فى ٢٦ مايو ١٧٨٤ بدير وستمنستر ، والثانية والثالثة فى ٢٧ و ٢٩ مايو . ولم تكف هذه لتلبية الطلب ، فاقترنت حفلتان أخريان فى الدير فى ٣ و ٥ يونيو . وبلغ عدد المرتلين ٢٧٤ ، والعازفين فى الأوركسترا ٢٥١ ، وبدأ الآن ذلك التقليد الذى يسبغ على عروض هندل الضخامة العارمة والجلال الطاغى . وأحبت عروض هائلة كهذه احتفالات لاحقة بذكرى مولد هندل ، حتى اذا جاء عام ١٨٧٤ ازداد عدد المشاركين فى الأداء حتى بلغ ٣٠٠٠ . وقد ذهب بيرنى الذى سمع أحد هذه العروض الكبرى الى أن ضخامة الصوت لم تنتقص من حلاوة الموسيقى (٧٨) . على أى حال كانت هذه أضخم حفلات أقيمت لأحياء ذكرى أى موسيقى كائنا من كان . والآن وقد خفت فوريتها فقد يصبح فى الامكان الاستماع الى موسيقى هندل من جديد .

٥ - فولتير فى انجلترا ١٧٢٦ - ٢٨

كان يعيش فى انجلترا عام ١٧٢٦ شاب فرنسي سيتبوا فى تاريخ القرن الثامن عشر مكانا أهم كثيرا من مكان هندل . لقد بلغ فولتير السواحل الانجليزية عند جرينش قرب لندن فى ١٠ أو ١١ مايو . وكان أول انطباع له فياضا بالحماسة . فقد كان أسبوع مهرجان جرينتش ، وكادت صفحة التيمز تغطبها الزوارق والأشعة الضخمة ، وكان الملك هابطا النهر فى ذهبية حافلة بالزينة ، تسبقها فرقة موسيقية ، وعلى الشاطئ رجال ونساء يخاللون على جياد تخطر ، ثم عشرات من الفتيات الحسان يمشين وقد تزين ليوم عطلة . وأنارت مشاعر فولتير البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة أجسادهن الرشيقة ، واحتشامهن ، ووجناتهن المتوردة . على أنه نسيهن حين وصل الى لندن ووجد أن المصرفى الذى كان يحمل البه حطاب نحويل على رصيده بعشرين ألف فرنك قد أسهر افلاسه . وأنفذه أفرارد فوكزر ، وهو تاجر التقى به فى فرنسا ، فاقام عدة شهور فى ضيعة هذا البريطانى الكريم بواندزورث ، وهى ضاحية من ضواحي لندن . وأرسل جورج الأول الى فولتير مائة جنيه حين سمع بحادثه المؤسف .

وكان يحمل رسائل تعريف من هوراشيو ولبول ، السفير البريطانى لدى فرنسا ، الى كثير من مشاهير الانجليز ، وقد التقى عاجلا أو آجلا بكل انسان تقريبا ممن يشار اليهم بالبنان فى ميدان الادب أو السياسة الانجليزية . فاستقبله روبرت ولبول ، رئيس الوزراء ، ودوق نيوكاسل ، وسارة دوفن ملبره ، وجورج أوغسطس وكارولين أمير وأميرة ويلز ، ثم آخر المطاف الملك الذى نذحه بساعة ثمينة أرسلها فولتير عربون صلح لأبيه .

ثم زار « سيدى اللورد بولنبروك وسيدتى الليدى بولنبروك » و « وجد محبتهما لاتزال كما هى (٧٧) » . وفى أغسطس قام برحلة خاطفة الى فرنسا ، وهو لم يزل على تلفه لفتال رومان ، ولكن سبب الرحلة كان فى أغلب الظن ننظيم شئونه المالية . وعاش ثلاثة أشهر - بعضها مع سويقت - ضيفا على الايرل الثالث لسترבורو . واستمتع (م ٢٣ - قصة الحضارة)

ثلاثة أخرى فى قصر ايستبرى بضيافة بوب دودنجن ، ذلك السياسي الفاسد والراعى العطوف لفيلدنجن ، وطومسون ، وبنج . والتقى فولتير بكلا الشاعرين هناك ، وقراهما دون أن يخرج بفائدة من القراءة . ومن ثم عكف على تعلم اللغة بعزم صادق ، فما وافت نهاية عام ١٧٢٦ حتى كان يكتب الخطابات بالانجليزية (٧٨) . واقتصر فى الشهور الاولى على المجالس التى كانت تفهم فيها الفرنسية ، ولكن كل من كان ذا شأن من الرجال أو النساء فى الادب الانجليزى أو السياسة الانجليزية كان يعرف الفرنسية . وكتب المذكرات التى ملاحا الآن باللغتين على السواء ، وهى تدل على أنه تعلم الالفاظ النابية أول ما تعلم من الانجليزية .

وقد اكتسب من الاحاطة بالادب الانجليزى ما لم يكتسبه فرنسي مرموق بعده حتى ايبوليت تين . وقرأ بولنبروك ، ولكنه وجد قلم الفيكونت أقل المعية من لسانه ؛ على أنه ربما أخذ عن كتاب بولنبروك المسمى « مفهوم الملك الوطنى » الاعتقاد بأن خير أمل فى الاصلاح الاجتماعى يجىء على يد الملكية المستنيرة . وشق طريقه وسط أحقاد سويقت المقطرة ، وربما تعلم منه بعض فنون الهجاء ، وحكم بأنه « يفوق رابليه بما لا يقاس (٧٩) » . وقرأ ملتن ، ووقع من فوره على هذه الحقيقة ، وهى أن الشيطان هو البطل الحقيقى للمحنة الفردوس المفقود (٨٠) . وقد رأينا فى مكان آخر انفعاله المختلط بشكسبير - الاعجاب ببلاغة « الهمجى المحبوب » ، و « درر » السمو أو الرقة الدفينة وسط « كومة روث هائلة » من المهازل والمبازل (٨١) . وقلد « بوليوس قيصر » فى « موت قيصر » ، وعطيل فى « زائير » . كذلك ظهرت رحلات جلفر من جديد فى « ميكروميجاس » ، ومقال بوب عن الانسان فى « رسائل منظومة فى الانسان » .

وبادر بعد وصوله الى انجلترا بزيارة بوب . وصدمه منه تشوّه وعذاباته ، وأذهلته حدة ذهن بوب وارهاف عبارته ، وفضل مقال بوب فى النقد على مقال بوالو فى « فن الشعر (٨٢) » . وزار كونجراف المسن وساءه أن يجد أن الرجل الذى كان بوما ما مسرحيا عظيمًا أراد أن يعتبر « جنّلمانا لا مؤلفا (٨٣) » . وعلم فى حسد بأمر الوظائف الشرفية والمعاشات التى منحها الوزارة الانجليزية قبل ولبول

للمؤلفين ، وقارن بين هذا الوضع وما صار اليه أمر أكبر شعراء فرنسا ،
الذى زج به فى السجن لأنه استاء من اهانة نبيل له .

ومن الأدب انتقل الى العلم ، فالتقى بأعضاء الجمعية الملكية ،
وبدأ يدرس نبوتن تلك الدراسة التى أتاحت له بعد ذلك أن يحل نبوتن
محل ديكارت فى فرنسا . وتأثر تأثراً عميقاً بالجنائز الرسمية التى
شيعت بها صفوة الانجليز نبوتن ، ولاحظ كيف رحبت الكنيسة
الانجليكانية بعالم يدفن فى دير وستمنستر . ومع أنه كان قد أصبح
ربوبيا قبل زيارته لانجلترا - اذ تعلم فن الشك من رابليه ومونتيني
وجاسندى وفونتنبل وبيل - فانه الآن اتخذ دعماً له من ربوبى
انجلترا - من تولاند وولسن وتندال ونسب وكولنز ومدلن وبولنبروك؛
وسيلح مكتبته بكتبهم فى فترة لاحقة . وكان أقوى حتى من هؤلاء
تأثير لوك الذى امتدحه فولير لأنه أول من درس العقل دراسة واقعية .
ولاحظ أن القليل جدا من هؤلاء المهرطقين المصريين على هرطقتهم
سجنوا بسبب آرائهم . ثم لاحظ نمو التسامح الدينى منذ ١٦٨٩ ،
وذهب الى أنه لا يوجد فى انجلترا تعصب دينى أعمى ، وحتى
الكويكرز خفت فورتهم فغدوا رجال أعمال هادئين . وزار أحدهم ،
وسره أن ينبأ بأن بنسلفانيا بلد مثالى يخلو من الطبقات والحروب
والاعداء (٨٤) .

كتب بعد ذلك الى مدام دو دفان يقول « ما أشد حبى للانجليز ،
ما أشد حبى لهؤلاء القوم الذين يقولون ما يعتقدون (٨٥) ! » وعاد
يقول :

« انظرى ما حققته قوانين الانجليز ، لقد ردت لكل انسان حقوقه
الطبيعية التى سلبته اياها كل النظم الملكية تقريباً . وهذه الحقوق
هى : الحرية الكاملة للفرد وما يملك ؛ وحقه فى أن يكلم الناس بقلمه ؛
وأن يحاكمه محلفون من الرجال الاحرار اذا اتهم بجريمة ؛ وألا يحاكم
فى أى أمر الا طبقاً لقوانين محددة ؛ وأن يجهر وقت السلم بالدين الذى
يفضله اياً كان ، مع البعد عن تلك المناصب التى لا يختار لها
الا أعضاء الكنيسة الانجليكانية (٨٦) » .

والسطر الاخير يدل على أن فولتير أدرك حدود الحرية
الانجليزية . فقد عرف أن الحرية الدينية لم تكن قط كاملة ، وقد سجل

فى مذكراته القبض على « مستر شبنج » لما أبدى من ملاحظات مهينة على خطاب العرش (٨٧) . وكان فى استطاعة أى من مجلسي البرلمان أن يستدعى المؤلفين لمحاكمتهم على تصريحاتهم المؤذية عن أعضاء البرلمان ؛ وكان فى استطاعة كبير الامناء أن يرفض التصريح بالتمثيلات ؛ وقد وضع ديفو فى المشهرة عقابا على نشره حشاها تهكما . ولكن فولتير أحس بأن حكومة انجلترا رغم فسادها أعطت الشعب قسطا من الحرية يحفره حفزا خلافا فى كل مجالات الحياة .

فهنا على سبيل المثال كانت التجارة حرة نسبيا ، لا يغل يدها ما يعرقلها فى فرنسا من مكوس داخلية . وخلعت على رجال الأعمال المناصب الادارية الرفيعة ، وسيعين صديقه فوكنر بعد قليل سفيرا لانجلترا فى تركيا . وأحب فولتير ، رجل الأعمال ، روح الانجليز العملية ، واحترامهم للحقائق والواقع والمنفعة ، وبساطة سلوكهم وعاداتهم وملبسهم حتى الاثرياء منهم . وأحب أكثر من هذا كله الطبقة الوسطى الانجليزية . وقارن بين الانجليز وجعتهم : رغبة على السطح ، وحثالة فى القاع ، ولكن الوسط رائع (٨٨) . كتب فى ١٢ أغسطس ١٧٢٦ يقول : « لو خيرت لأثرت المكث هنا لغرض واحد هو أن أتعلم أن أفكر » ، وفى دفقة من حماسه دعا تييريو الى زيارة « أمة مغرمة بالحرية ، مثقفة ، ذكية ، تحقر الحياة والموت ، أمة من الفلاسفة (٨٩) » .

وقد كدر صفاء غرامه هذا بانجلترا ما حام حوله حينما من اشتباه بوب وغيره فى أنه يعمل جاسوسا على أصدقائه المحافظين لوزارة وليول (٩٠) . فلما اتضح أن الشبهة ظالمة نبذت للتو ، وظفر فولتير بشعبية كبيرة بين النبلاء وصفوة المثقفين اللندنيين . وحين قرر أن ينشر ملحمة الهنريادة فى انجلترا ، أرسلت له كل الدوائر المثقفة تقريبا اكتباباتها ، بما فيها جورج الاول ، والأميرة كارولين ، والبلاطان المتنافسان ؛ وطلب سويقت الى بعض هؤلاء ، أو قل أمرهم ، بالاكتتاب . فلما ظهرت القصة (١٧٢٨) أهديت الى كارولين ، التى كانت الملكة الآن ، مشفوعة بباقة من الازهار الى جورج الثانى ، الذى رد على التحية بنفحة قدرها أربعمائة جنيه ، ودعوة الى حفلات العشاء الملكية . ونفدت ثلاث طبعات فى ثلاثة أسابيع ، رغم أن النسخة بيعت جيشمن باهظ قدره ثلاثة جنيهات . وقد قدر فولتير دخله من هذه الطبعة

الانجليزية بمبلغ ١٥٠.٠٠٠ فرنك . واستخدم بعض هذا المال ليعين عدة فرنسيين فى انجلترا (٩١) ، أما الباقى فقد استثمره بـ غاية الحكمة ، حتى لقد حكم بعد ذلك على هذا الربح الذى لم يتوقعه بأنه الاصل فى ثرائه . ولم يكف قط عن عرفانه بصنيع انجلترا .

لقد دان لها قبل كل شيء بحفز هائل لذهنه وانضاج لفكره . فلما عاد من منفاه جلب معه كتب نيوتن ولوك فى حقائبه . وأنفق جزءا من سنه العشرين التالية فى تعريف فرنسا بهما . كذلك جلب معه كتب الربوبيين الانجليز ، الذين زودوه ببعض الذخيرة التى سيستعملها فى الحرب على « العار » . وكما أن انجلترا على عهد تشارلز الثانى تعلمت الخير والشر من فرنسة لويس الرابع عشر ، فكذلك ستتعلم فرنسة لويس الخامس عشر من انجلترا الاعوام ١٦٨٠ - ١٧٦١ . ولم يكن فولنير وسيط التبادل الاوحد فى هذا الجيل ؛ فان مونتسكيو ، وموبورتوى ، وبريفوست ، وبوفون ، ورينال ، وموريلليه ، وليلاند ، وهلفتيوس ، وروسو - هؤلاء ايضا أتوا الى انجلترا ، والذين لم يأتوا تعلموا من الانجليزية ما يكفى لجعلهم حملة للأفكار الانجليزية . وقد أجمل فولتير فى تاريخ لاحق هذا الدين فى رسالة بعث بها الى هلفتيوس . قال :

« لقد استعزنا من الانجليز المرتبات السنوية ، وأموال استهلاك الديون ، وبناء السفن وتسييرها ، وقوانين الجاذبية ، ... والالوان الاساسية السبعة ، والتطعيم ، وسنكتسب منهم ، دون ادراك منا ، حرية تفكيرهم الرفيعة ، واحتقارهم العميق لتفاهة المعلومات التى تعطىها المدارس (٩٢) » .

ومع ذلك شعر بالحنين الى فرنسا . لقد أشبهت انجلترا الجعة ، أما فرنسا فلها مذاق النبيذ فى فمه . والتمس المرة بعد المرة أن يؤذن له فى العودة . ويبدو أنه منح الأذن بشرط معتدل هو أن يجتنب باريس أربعين يوما . ولا علم لنا متى غادر انجلترا ، وأغلب الظن أن هذا كان فى خريف ١٧٢٨ . وفى مارس ١٧٢٩ كان فى سان - جرمان - أن - ليه ؛ وفى ٩ أبريل كان فى باريس ، رجلا هذبته المحن ومحصلته دون أن تقضي عليه ، جيشا بالأفكار ، متلهفا على تغيير هذه الدنيا وتبديلها .

المراجع

APOLOGY

1. Brandes, G., *Voltaire*, I, 4.
2. Cousin, Victor, *Histoire de la philosophie*, in Buckle, H. T., *History of Civilization in England*, I, 519n.
3. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 16.

CHAPTER I

1. Brandes, *Voltaire*, I, 30.
2. *Ibid.*, 31, Parton, James, *Life of Voltaire*, I, 26, Campbell, T. J., *The Jesuits*, 354.
3. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française au XVIII^e siècle*, I, 32.
4. *Ibid.*, 17-18.
5. Letter of Feb. 7, 1746, to Father Latour, in Desnoiresterres, I, 24; Brandes, I, 44.
6. Parton, I, 53.
7. Hazard, Paul, *European Thought in the 18th Century*, 129.
8. Parton, I, 66.
9. Desnoiresterres, I, 171.
10. Duclos, C. P., *Secret Memoirs of the Regency*, 6.
11. Saint-Simon, *Memoirs*, II, 329.
12. Duclos, 10.
13. Saint-Simon, II, 326.
14. Desnoiresterres, I, 96.
15. Wormeley, K. P., *Correspondence of Madame, Princess Palatine, . . . Marie Adélaïde de Savoie, . . . and Mme. de Maintenon*, 29.
16. Guizot, F., *History of France*, V, 3.
17. Martin, Henri, *Histoire de France*, XV, 13.
18. Duclos, Louis, *French Society in the 18th Century*, 55.
19. Martin, H., XV, 20-22, Desnoiresterres, I, 164.
20. Strylenski, C., *Eighteenth Century*, 82.
21. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 47.
22. Martin, H., XV, 53.
23. Voltaire, *Works*, XVI, 20.
24. Martin, H., XV, 54.
25. Michelet, J., *Histoire de France*, V, 268.
26. Saint-Simon, II, 332.
27. *Ibid.*, III, 239.
28. Martin, H., XV, 62.
29. Saint-Simon, III, 243.
30. In Lacroix, Paul, *Eighteenth Century in France*, 201.
31. Wormeley, 31.
32. Guizot, V, 42.
33. Duclos, *Secret Memoirs*, 70.
34. Martin, H., XV, 107.
35. Saint-Simon, III, 338.
36. Michelet, V, 133.
37. *Ibid.*, 135.
38. Saint-Simon, III, 69.
39. Voltaire, *Works*, XVIa, 155.
40. Saint-Simon, III, 418.
41. *Cambridge Modern History*, II, 133.
42. Michelet, V, 197, Martin, H., XV, 111.
43. Duclos, *Secret Memoirs*, 8.
44. Ercole, L., *Gay Court Life in France in the 18th Century*, 18-20.
45. Saint-Simon, III, 69.
46. Ercole, 27.
47. *Ibid.*, 10.
48. Duclos, *French Society*, 56.
49. Ercole, 44.
50. *Cambr. Mod. History*, VI, 132.
51. Duclos, *Secret Memoirs*, 131.
52. Ercole, 44.
53. Martin, H., XIV, 552n., and Michelet, V, 160, credit the charge of incest.
54. Martin, XV, 12.
55. Dupuy, *Dialogues sur les plaisirs*, 14, in Crocker, L. G., *Age of Crisis*, 117.
56. Brunetière, F., *Manual of the History of French Literature*, 282.
57. Wormeley, 30.
58. Lacroix, 83.
59. Michelet, V, 251.
60. Martin, H., XV, 339.
61. Batiffol, L., *The Great Literary Salons*, 103.
62. Toth, K., *Woman and Rococo in France*, 107.
63. *Ibid.*
64. Lacroix, 417.
65. Ercole, 56.
66. Louvre.
67. Metropolitan Museum of Art, New York.
68. Louvre.
69. Metropolitan Mus. of Art.
70. Wallace Collection, London.
71. Dresden, Gemäldegalerie.
72. Wallace Collection.
73. There are outstanding collections of Watteau's drawings in the Louvre and in the Pierpont Morgan Library, New York.
74. Goncourt, E. and J. de, *French 18th-Century Painters*, 1.

- 75 Aldington, R., *French Comedies of the 18th Century*, 103.
- 76 Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 81.
77. *Ibid.*, 82.
78. Lesage, *Adventures of Gil Blas*, preface, memoir.
- 79 Aldington, 131.
- 80 Lesage, *Gil Blas*, Book VIII, Ch. x.
- 81 *Gil Blas*, last line.
- 82 Sainte-Beuve, *Portraits*, I, 104.
83. Saint-Simon, III, 42, cf. 91-94.
84. Créqui, Marquise de, *Souvenirs*, 44.
85. Michelet, V, 126.
86. Faguet, Émile, *Literary History of France*, 474.
87. Saint-Simon, III, 376.
88. Duclos, *Secret Memoirs*, 326.
89. Michelet, V, 155; Martin, H., XV, 80.
90. *Ibid.*, 115.
91. Saint-Simon, III, 373.
92. *Ibid.*, 376.
93. 77
94. In Torrey, N., *The Spirit of Voltaire*, 21.
95. Parton, I, 99.
96. Desnoiresterres, I, 217.
97. Parton, I, 98.
98. Brandes, I, 97.
99. *Ibid.*, 98.
100. 99.
101. Parton, I, 115.
102. Like Desnoiresterres, I, 159, and Brandes, I, 100.
103. Créqui, 149.
104. Desnoiresterres, I, 157.
105. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 463, Brandes, I, 306.
106. Desnoiresterres, I, 190.
107. Parton, I, 154.
108. Desnoiresterres, I, 242; Faguet, *Literary History*, 469, gives a different version: "Gare que cet écrit in extremis n'aille pas à son adresse."
109. Parton, I, 165.
110. Voltaire, *Works*, XXIa, 221.
111. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 59.
112. Desnoiresterres, I, 345.
113. Brandes, I, 152.
114. *Ibid.*; Parton, I, 185.
115. Parton, I, 190.
- day Things in England, 21, Mantoux, P., *Industrial Revolution in the 18th Century*, 165.
5. Quennell, *Everyday Things*, 12.
6. Trevelyan, G. M., *English Social History*, 379.
7. Besant, Sir Walter, *London in the 18th Century*, 186.
8. Lipson, E., *Growth of English Society*, 212.
9. Nussbaum, *Economic Institutions of Modern Europe*, 252.
10. Jaurès, *Histoire socialiste de la Révolution française*, I, 67.
11. Usher, A., *History of Mechanical Inventions*, 280.
12. Lipson, 196.
13. Ashton, *Economic History*, 220.
14. *Encyclopaedia Britannica*, VI, 544a.
15. Mantoux, 73.
16. Ashton, 201-4.
17. In Tawney, R. H., *Religion and the Rise of Capitalism*, 190.
18. Ashton, 212; Mantoux, 72.
19. Ashton, 203.
20. Webb, S and B., *History of Trade Unionism*, 31-50.
21. Mantoux, 119.
22. Chesterfield, Earl of, *Letters to His Son*, letter of Sept. 22, 1749.
23. Mantoux, 102; Taine, H., *Ancient Régime*, 33.
24. Beard, M., *Business Man*, 430.
25. Voltaire, *Lettres sur les Anglais*, No. 10, in Mantoux, 138.
26. Hume, David, *Enquiry concerning the Principles of Morals*, 248.
27. In Beard, M., 435.
28. Lecky, W. E., *History of England*, I, 323.
29. Mackay, C., *Extraordinary Popular Delusions*, 50.
30. *Ibid.*, 55.
31. Quennell, P., *Caroline of England*, 71.
32. *Camb. Mod. History*, VI, 181.
33. Mackay, 73.
34. *Ibid.*, 78.
35. Voltaire, *Works*, XIIIa, 23.
36. Ranke, L., *History of the Reformation in Germany*, 468.
37. Rogers, J. E. T., *Economic Interpretation of History*, 157, Ashton, 2, Ogg, David, *Europe in the 17th Century*, 2.
38. Defoe, *Tour*, I, 337.
39. Besant, *London in the 18th Century*, 352.
40. Trevelyan, *English Social History*, 142.
41. Lecky, *History of England*, I, 482-84.
42. *Ibid.*
43. Letter of Mar. 23, 1752.
44. Besant, 380-81.

CHAPTER II

1. Shakespeare, *Richard II*, II, i.
2. Defoe, *Tour through England and Wales*, I, 1 and *passim*.
3. Voltaire, *Lettres philosophiques*, No. 9, Ashton, T., *Economic History of England: The 18th Century*, 36.
4. Quennell, M. and C., *History of Every-*

45. W. R. Brock in *New Camb. Mod. History*, VII, 266.
46. Besant, 238.
47. Lecky, II, 543-45.
48. James, B. B., *Women of England*, 135.
49. Besant, 138.
50. Markun, L., *Mrs Grundy*, 183.
51. Fay, B., *La Franc-Maçonnerie et la révolution intellectuelle du XVIII^e siècle*, 78-79.
52. Besant, 384.
53. Blackstone, *Commentaries on the Laws of England*, 151n.
54. Congreve, Wm., *Way of the World* III, iii, in Hampden, J., *Eighteenth-Century Plays*.
55. Gay, John, *Beggar's Opera*, I, v, in Hampden.
56. Halsband, R., *Lady Mary Wortley Montagu*, 14.
57. Langdon-Davies, J., *Short History of Women*, 305.
58. Besant, 459; Lecky, I, 522; Quennell, P., *Caroline of England*, 29.
59. George, M. Dorothy, *London in the 18th Century*, 29.
60. Lecky, I, 477.
61. *Ibid.*, 479; Besant, 297 f.
62. Berkeley, George, *Siris*, in Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 122.
63. Besant, 301-2.
64. Turberville, *Johnson's England*, I, 48.
65. Boswell, *Journal of a Tour to the Hebrides*, 84 (Aug. 31, 1773).
66. *Enc. Brit.*, XX, 779d.
67. *Camb. Mod. History*, VI, 187.
68. Ashton, 62-63.
69. Hobhouse, L. T., *Morals in Evolution*, 313.
70. Besant, 342.
71. Lecky, I, 183.
72. *Ibid.*, 367; Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 256.
73. Westermarck, E. A., *Origin and Development of the Moral Ideas*, II, 558.
74. Turberville, I, 72.
75. Some instances in Thackeray, *The Four Georges*, 42-43.
76. Turberville, I, 312.
77. Fielding, H., *Amelia*, Book I, Ch. ii.
78. Turberville, I, 310.
79. Quennell, M. and C., *Everyday Things*, 9.
80. Lecky, I, 507.
81. Turberville, I, 322.
82. *Ibid.*, 319; Lecky, I, 501-2.
83. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, II, 586.
84. Johnson, S., *The Rambler*, 183.
85. Pope, A., *Imitations of Horace*, Epistle II.
86. James, B. B., *Women of England*, 318.
87. Turberville, I, 341.
88. Thackeray, *Four Georges*, 41.
89. Allen, B. S., *Tides in English Taste*, I, 249.
90. Lecky, I, 552.
91. *Ibid.*, 553-54.
92. Walpole, H., *Letters*, I, 309 (June 29, 1744).
93. Weinstock, H., *Handel*, 228.
94. Allen, B. S., *Tides*, I, 94; Chesterfield, *Letters*, Oct. 19, 1748.
95. Clergue, H., *The Salon*, 4.
96. Chesterfield, *Letters*, June 11, 1750.
97. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 25.
98. Wharton, G. and P., *Wits and Beaux of Society*, I, 349.
99. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 29.
100. Chesterfield, letter of July 8, 1739.
101. Letter of June, 1752, in *Letters to His Son*, II, 96.
102. Letter of Apr. 19, 1749.
103. Apr. 13, 1752.
104. Nov. 6, 1747.
105. May 16, 1751.
106. May 23, 1751.
107. Sept. 5, 1748.
108. Apr. 15, 1751.
109. In Sainte-Beuve, *English Portraits*, 41.
110. Dec. 25, 1753.
111. May 17, 1748.
112. Nov. 11, 1752.
113. Oct. 9, 1747.
114. Feb. 22, 1748.
115. Oct. 19, 1748.
116. Jan. 8, 1750.
117. Apr. 13, 1752.
118. Dec. 25, 1753.
119. Stephen, Leslie, *English Literature and Society in the 18th Century*, 150.
120. Krutch, J. W., *Samuel Johnson*, 354.
121. Chesterfield, July 25, 1741.
122. Feb. 24, 1747.
123. Krutch, 354.
124. Parton, II, 551.
125. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 43.
126. Nicolson, H., *Age of Reason*, 201.
127. In Sainte-Beuve, *English Portraits*, 34.
128. Dec. 2, 1746.
129. Oct. 17, 1768.
130. *Letters*, II, 334.
131. Oct. 11, 1769.
132. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 44.
133. *Ibid.*, 45.

CHAPTER III

1. Acton, Lord, *Lectures on Modern History*, 166.
2. Quennell, P., *Caroline*, 22.
3. Halsband, *Lady Mary*, 45.

4. Voltaire, *Works*, XXIIb, 70-72; cf. Laski, H., *Political Thought in England*, *Locke to Bentham*, 16.
5. Hauser, *Social History of Art*, II, 261.
6. *New Cambridge Modern History*, VII, 261.
7. Voltaire, XIXb, 29.
8. Chidsey, D. B., *Marlborough*, 291.
9. Rowse, A. L., *The Early Churchills*, 131.
10. Martin, H., XV, 76.
11. Lang, A., *History of Scotland*, IV, 226-27.
12. Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 117.
13. Churchill, W. S., *History of the English-Speaking Peoples*, III, 91.
14. Schoenfeld, H., *Women of the Teutonic Nations*, 275.
15. Quennell, *Caroline*, 93; Martin, H., XV, 343.
16. Traill, H. D., *Social England*, V, 139.
17. Walpole, H., *Reminiscences*, in *Letters*, introd., cxxx.
18. Walpole, H., *Memoires of . . . the Reign of George II*, I, 63.
19. Thackeray, *Four Georges*, 33.
20. Wharton, G. and P., *Wits and Beaux of Society*, I, 276.
21. Lecky, *History of England*, I, 465.
22. Mossner, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 4; Quennell, *Caroline*, 134.
23. *Camb. Mod. History*, VI, 77.
24. Voltaire, XIXb, 23.
25. Lecky, I, 520.
26. Quennell, *Caroline*, 252.
27. Lecky, I, 326; *Camb. Mod. History*, VI, 181.
28. Macaulay, T., *Essays*, I, 346.
29. Walpole, *Memoires of the Reign of George II*, II, 273.
30. Mossner, *Bishop Butler*, 5.
31. Beard, M., *History of the Business Man*, 477.
32. Macaulay, *Essays*, I, 348; Lecky, I, 367-72; Koven, A. de, *Horace Walpole and Mme. du Deffand*, 13.
33. Lord Hervey in Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 28.
34. Tucker in Lecky, I, 334.
35. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 29.
36. Chesterfield, letter of Dec. 12, 1749.
37. In Lovejoy, *Essays*, 177.
38. Collins, J. C., *Bolingbroke*, 166.
39. *Camb. History of English Literature*, IX, 254.
40. Bolingbroke, *On the Spirit of Patriotism*, 18.
41. Collins, J. C., 172.
42. Bolingbroke, 128.
43. Hearnshaw, F. J., *Social and Political Ideas of Some English Thinkers of the Augustan Age*, 215.
44. *Ibid.*
45. Acton, *Lectures*, 273.
46. See *Camb. Mod. History*, VI, 64 f.; Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 681; Churchill, III, 101.
47. Lecky, I, 385n.; Burke, *Letters on a Regicide Peace*, in *Reflections on the French Revolution*.
48. Altamira, R., *History of Spain*, 435.
49. *Enc. Brit.*, XX, 779c.
50. In Lecky, I, 394.
51. *Ibid.*, 291.
52. *Ibid.*
53. 239.
54. ~~241.~~
55. Mantoux, *Industrial Revolution*, 87.
56. Swift, Jonathan, *Short View of the State of Ireland*, in Lecky, II, 208.
57. Lecky, II, 424.
58. *Camb. Mod. History*, VI, 485.
59. D'Alton, E. A., *History of Ireland*, IV, 531.
60. Lecky, II, 199.
61. D'Alton, IV, 472-73.
62. Lecky, II, 217.
63. *Ibid.*
64. Mossner, *Life of Hume*, 134.
65. Lecky, II, 83.
66. Trevelyan, *English Social History*, 444.
67. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 168.
68. Traill, *Social England*, V, 159.
69. Lang, A., *History of Scotland*, IV, 425-27.
70. *Ibid.*, 449.
71. 451.
72. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, 14.
73. Lang, A., IV, 512.
74. *Camb. Mod. History*, VI, 117.
75. Lang, A., IV, 519.
76. *Enc. Brit.*, IV, 292d.
77. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, 44.
78. Frederick, *Mémoires*, I, 191.
79. Wingfield-Stratford, 682.
80. Lecky, II, 479-80.
81. *Ibid.*, 476.
82. Churchill, III, 112.

CHAPTER IV

1. *Pensées diverses*, in Lecky, II, 531n.
2. Davidson, John, introd. to Montesquieu's *Persian Letters*, xxi.
3. *Ibid.*
4. Hervey, *Memoirs of the Court of George II*, in introd. to Mandeville's *Fable of the Bees*, x.
5. Besant, *London*, 152.
6. *Camb. Mod. History*, VI, 79.

7. Stephen, L., *History of English Thought in the 18th Century*, I, 217.
8. Thackeray, *Four Georges*, 34.
9. Lecky, II, 468.
10. Hume, D., essay "Of National Character."
11. Besant, 153.
12. Lecky, I, 275-76, 303-4.
13. Trevelyan, G. M., *England under the Stuarts*, 342.
14. Robertson, J. M., *History of Free-thought*, II, 161; Lecky, I, 313.
15. Voltaire, XIXb, 218.
16. Voltaire, VIa, 288.
17. Woolston, *Discourses*, I, 34, in Stephen, *History of English Thought*, I, 232.
18. Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 141; Voltaire, *Philosophical Dictionary*, article "Miracles," in *Works*, VIa, 288-93; Robertson, J. M., *Free-thought*, II, 157-59; Stephen, *History of English Thought*, I, 228-38.
19. Benn, A. W., *History of English Rationalism in the 19th Century*, I, 145.
20. Tindal, M., *Christianity as Old as the Creation*, 14, in Stephen, *History*, I, 139.
21. Stephen, I, 262; Robertson, II, 158.
22. In Stephen, I, 266.
23. Collins, J. C., *Bolingbroke*, 183.
24. Stephen, I, 178.
25. Torrey, N. L., *Voltaire and the English Deists*, 149.
26. In Hearnshaw, *English Thinkers of the Augustan Age*, 240.
27. Stephen, *History*, I, 180.
28. Collins, J. C., 180.
29. Goldsmith, O., *Life of Bolingbroke*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies*, 1057.
30. In Stephen, I, 246.
31. *Ibid.*, 345.
32. 349-51.
33. 356.
34. *Enc. Brit.*, IV, 463b.
35. Mosner, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 8.
36. Toynbee, Arnold J., *Study of History*, abridgment of Vols. I-VI by D. C. Somervell, 486.
37. Gibbon, Edward, *Memoirs*, 21.
38. Turberville, *Johnson's England*, I, 33.
39. Inge, *Christian Mysticism*, 283.
40. *Camb. Mod. History*, VI, 81.
41. Gibbon, *Memoirs*, 22.
42. Bearn, *Court Painter*, 198.
43. Voltaire, essay "Epic Poetry."
44. Besant, 149.
45. McConnell, F. J., *John Wesley*, 13.
46. Wesley, John, *Journal*, 94.
47. *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, XII, 724d.
48. *Ibid.*, 725a.
49. McConnell, 47.
50. Lecky, II, 554.
51. Wesley, *Journal*, 43; Hastings, XII, 725d.
52. *Enc. Brit.*, XXIII, 576.
53. Lecky, II, 565.
54. *Ibid.*
55. 563.
56. 591-94; Lecky, *History of European Rationalism*, I, 45.
57. Turberville, *Johnson's England*, I, 221.
58. Wesley, *Journal* for 1739, in Lecky, *History of England*, II, 584.
59. *Ibid.*, 583.
60. 590.
61. 636; Toynbee, *Study of History*, IX, 459-60.
62. McConnell, 48.
63. *Ibid.*, 66.
64. Wesley, *Journal*, entry for Mar. 30, 1736.
65. *World Christian Handbook*, 5.
66. *Journal* for Jan. 1, 1790.
67. Shaftesbury, 3d Earl of, *Characteristics*, I, 260.
68. Mandeville, *Fable of the Bees*, 83-85.
69. Hutcheson, F., *Inquiry concerning Moral Good and Evil*, in *Enc. Brit.*, XI, 945c.
70. Buckle, II, 334.
71. *Ibid.*, 336.
72. Hume, D., *Dialogues concerning Natural Religion*, 4.
73. Huxley, T. H., *Hume*, 3.
74. *Ibid.*, 6.
75. Mosner, *Life of Hume*, 51.
76. Huxley, 6.
77. "My Own Life," in Hume, *Dialogues concerning Natural Religion*, 233.
78. Mosner, 82.
79. *Ibid.*, 94.
80. 111.
81. Hume, *Treatise of Human Nature*, Book I, Part II, Sec. 5.
82. *Ibid.*, I, II, 1.
83. I, III, 10 and 7.
84. I, IV, 2 and 6.
85. I, IV, 1.
86. *Ibid.*
87. Appendix.
88. I, IV, 1.
89. I, IV, 7.
90. I, IV, 2.
91. I, IV, 1.
92. II, III, 3.
93. *Ibid.*
94. II, I, 10.
95. II, I, 7.
96. II, I, 8.
97. II, II, 11.

98. "My Own Life," in Hume, *Dialogues concerning Natural Religion*, p. 234.
99. Mossner, p. 129.
100. *Treatise*, III, 1, Sec. 1.
101. III, II, 2.
102. III, III, 6.
103. Mossner, p. 213.
104. *Ibid.*, 215-18.
105. Hume, *Enquiry concerning the Human Understanding*, p. 2.
106. *Ibid.*, Part X, Secs. 91-95 and 100-101.
107. XI, 102.
108. *Enquiry concerning the Principles of Morals*, V, 1, Secs. 174-75, Appendix II; cf. essay "Of the Dignity and Meanness of Human Nature."
109. *Enquiry concerning . . . Morals*, IX, 1, Sec. 226.
110. *Ibid.*, IV, Sec. 166.
111. "My Own Life," *loc. cit.*, p. 236.
112. *Dialogues concerning Natural Religion*, 156.
113. *Ibid.*, 148.
114. 182-83.
115. Essay "On Suicide."
116. *Dialogues*, 210.
117. *Ibid.*, 194.
118. 211.
119. 169.
120. 180.
121. 171.
122. 227.
123. 214.
124. Hume, *Natural History of Religion*, Secs. I, XIII-XV, in Cassirer, E., *Philosophy of the Enlightenment*, p. 181.
125. *Dialogues*, introd., xv.
126. Burton, *Life of Hume*, II, in Lecky, *History of England*, II, 543.
127. *Enquiry concerning . . . Morals*, III, II, Sec. 155.
128. Hume, *History of England*, IV, p. 480.
129. Hume, *Essays Literary, Moral, and Political*, 27, 273.
130. *Ibid.*, 161.
131. Essay "Of National Character."
132. *Enquiry concerning the Human Understanding*, Part VII, Sec. 65.
133. Essay "Of Commerce."
134. Essay "Of Civil Liberty."
135. Essay "Jealousy of Trade."
136. In Black, *Art of History*, p. 80.
137. Mossner, 317.
138. Essay "Of the Study of History."
139. "My Own Life," *loc. cit.*, 236.
140. In Black, 114.
141. Mossner, 318.
142. "My Own Life," *loc. cit.*, 236.
143. *Ibid.*, 137.
144. Mossner, 223.
145. *Ibid.*, 318.
146. 444-45.
147. "My Own Life," *loc. cit.*, 238.
148. *Ibid.*, 239.
149. *Enquiry concerning the Human Understanding*, Part XI, Sec. 108.
150. Mossner, 568.
151. Adam Smith, letter to Wm. Strahan, Nov. 9, 1776, in Hume, *Dialogues*, p. 247.
152. *Treatise of Human Nature*, Book I, Part IV, Sec. 5.
153. Wolf, *History of Science*, 757.
154. Mossner, 478.
155. Hume, *Dialogues*, introd., xxx.
156. Mossner, 588.
157. "My Own Life," *loc. cit.*, 239.
158. Strachey, L., *Portraits in Miniature*, 151.
159. "My Own Life," *loc. cit.*, 244.
160. *Ibid.*, 245.
161. Mossner, 598-600.
162. *Ibid.*, 603.

CHAPTER V

1. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 132.
2. Buckle, I, 312.
3. Johnson, *Lives of the Poets*, II, 143.
4. Pope, "Epistle to Dr. Arbuthnot," lines 127-28.
5. *Essay on Criticism*, lines 214-15.
6. *Ibid.*, line 298.
7. Lines 631-42.
8. 585-87.
9. Stephen, L., *Alexander Pope*, 45.
10. *Rape of the Lock*, Canto II, lines 105-9.
11. *Ibid.*, III, 16.
12. v, 85-86.
13. See "Windsor Forest," lines 41-42.
14. Pope, "Eloisa to Abelard," lines 281-92.
15. *Ibid.*, lines 325-28.
16. Stephen, *Pope*, p. 61.
17. *Ibid.*, 64.
18. Johnson, *Lives*, II, 161.
19. Stephen, *Pope*, 64.
20. *Ibid.*, 78.
21. Pope, "Second Epistle of the Second Book of Horace," lines 68-69, in *Collected Poems*, p. 305.
22. Thorton, J. C., *Table Talk from Ben Jonson to Leigh Hunt*, 112.
23. E.g., see Jefferson, *Eighteenth-Century Prose*, 25.
24. Parton, I, 214.
25. Stephen, *Pope*, 91.
26. Boston Museum of Fine Arts.
27. London, National Portrait Gallery.
28. Stephen, *Pope*, 100.

29. See "Farewell to London," in *Poems*, 368, and Strachey, *Portraits*, 14.
30. Garnett and Gosse, *English Literature*, III, 199.
31. Pope, *Dunciad*, Book II, lines 75-76, 102-8, 155-56.
32. *Ibid.*, Book IV, lines 471-82.
33. Robertson, J. M., in Shaftesbury, *Characteristics*, introd., p. xxv.
34. Collins, *Bolingbroke*, 158.
35. Stephen, *Pope*, 166.
36. *Essay on Man*, Epistle I, lines 1-16.
37. Milton, *Paradise Lost*, 1, line 26.
38. *Essay on Man*, I, 81-84.
39. I, 91-96.
40. End of Epistle I.
41. *Essay on Man*, II, 1-17.
42. *Ibid.*, 217-20.
43. III, 303-6.
44. IV, 35-36.
45. 49-50.
46. Taine, H., *History of English Literature*, Book III, Ch. vii, Sec. 4.
47. Voltaire, *Lettres sur les Anglais*, in *Works*, XIXb, p. 94.
48. Johnson, *Lives*, II, 193.
49. "Epistle to Dr. Arbuthnot," lines 305-29.
50. *Satires*, epilogue, lines 208-9.
51. *Dunciad*, IV, 629-55.
52. Johnson, *Lives*, II, p. 199.
53. Thackeray, *English Humourists*, 213.
54. Walt Whitman, in Traubel, H., *With Walt Whitman in Camden*, 126.
55. Lecky, *History of England*, I, 463.
56. Brandes, *Voltaire*, I, 16.
57. Woods, Watt, and Anderson, *Literature of England*, II, 51.
58. Garnett and Gosse, III, 287; questioned by *Camb. History of English Literature*, X, 147.
59. Arnold, M., *Essays in Criticism*, 317.
60. Johnson, *Lives*, II, 391, 388.
61. Allen, R. J., *Life in 18th-Century England*, 16.
62. Brandes, *Voltaire*, I, 32.
63. Lecky, *History of England*, I, 541.
64. Mossner, *Hume*, 357.
65. *Ibid.*, 360.
66. 379.
67. 364.
68. Pope, "Epitaph on Gay."
69. Gay, John, *Beggar's Opera*, I, v.
70. *Ibid.*, I, viii.
71. III, xi.
72. *Camb. History of English Literature*, X, 3.
73. Richardson, S., *Pamela*, 2.
74. *Ibid.*, 179.
75. Richardson, *Clarissa*, 429-31.
76. *Ibid.*, introd., viii.
77. *Ibid.*, ix.
78. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, II, 232 (Mar. 1, 1752).
79. Rousseau, J. J., letter to Duclos, Nov. 19, 1760.
80. Francke, K., *History of German Literature*, 216.
81. Texte, J., *J. J. Rousseau and the Cosmopolitan Spirit*, 148 f.
82. Fielding, H., introd. to *Amelia*, xxiii; Thackeray, *English Humourists*, 263n.
83. Fielding, *Joseph Andrews*, Book I, Ch. x.
84. Saintsbury, G., introd. to *Pamela*.
85. *Joseph Andrews*, II, xiv.
86. Fielding, *Jonathan Wild*, preface.
87. *Jonathan Wild*, I, i.
88. *Ibid.*, I, v.
89. I, iii.
90. III, vii.
91. IV, xv.
92. Thackeray, *English Humourists*, 266n.
93. Fielding, *Tom Jones*, III, v.
94. *Ibid.*, III, x.
95. XVIII, xii.
96. Besant, *London*, 502 f.; Lecky, *History of England*, I, 487.
97. *Amelia*, IV, ii.
98. *Ibid.*, I, ii.
99. XI, ix.
100. VI, ii.
101. Thackeray, 263.
102. Smollett, T., *Roderick Random*, Ch. xi, pp. 56-58.
103. *Ibid.*, xx, 114.
104. xvii, 95.
105. xxxix, 223.
106. Smollett, *Adventures of Peregrine Pickle*, Ch. ii.
107. *Ibid.*, vi.
108. Thackeray, 254n.
109. *Ibid.*, 255n.
110. 254n.
111. Smollett, *Travels through France and Italy*, xxvii.
112. Thackeray, 256.
113. Smollett, *Humphrey Clinker*, 16 (letter of Apr. 18).
114. *Ibid.*, 142 (letter of June 8).
115. 218-20 (letter of July 4).
116. 225-37 (letter of July 13).
117. Montagu, Lady M. W., *Letters*, I, 173.
118. Halsband, *Lady Mary Wortley Montagu*, 11.
119. Montagu, *Letters*, I, 174 (Apr. 25, 1710).
120. *Ibid.*, 178.
121. 181.
122. Letter of Aug. 16, 1712, Halsband, 25.
123. Pope, *Collected Poems*, 370.
124. Halsband, 58.

125. Pope, letter of Aug. 18, 1716, in Montagu, I, 405-7.
126. Montagu, I, 237 (Sept. 14, 1716).
127. Brockway and Winer, *Second Treasury of the World's Great Letters*, 170.
128. Halsband, 63.
129. Montagu, I, 431, 434.
130. Collection of the Marquess of Bute.
131. Pope, *Poems*, 371.
132. Halsband, 113.
133. *Ibid.*, 130.
134. 141.
135. *Camb. History of English Literature*, IX, 277.
136. Translated from Halsband, 156.
137. *Ibid.*, 157.
138. Walpole, H., *Letters*, I, 57-62 (Sept. 25 and Oct. 2, 1740).
139. Halsband, 204, 218.
140. *Ibid.*, 218.
141. 289.
33. Wilenski, 68.
34. Craven, Thos., *Treasury of Art Masterpieces*, 210; Quennell, P., *Hogarth*, 7.
35. Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 777.
36. Dobson, 31.
37. *Grove's Dictionary of Music and Musicians*, II, 406.
38. Weinstock, *Handel*, 55.
39. Brockway and Weinstock, *Men of Music*, 60; Turberville, *Johnson's England*, II, 160.
40. This section is especially indebted to Herbert Weinstock's *Handel*.
41. *Grove's Dictionary*, II, 504.
42. Weinstock, 32; Brockway and Weinstock, 57.
43. *Oxford History of Music*, IV, 80; Weinstock, 38.
44. Mainwaring, John, *Life of Handel*, in Deutsch, Otto, *Handel*, 27.
45. Burney, C., *General History of Music*, II, 662.
46. Weinstock, 60.
47. *Ibid.*, 92.
48. 97.
49. *Oxford History of Music*, IV, 209.
50. Burney, II, 721n.
51. *Ibid.*
52. Weinstock, 115.
53. *Ibid.*, 172.
54. McKinney and Anderson, *Music in History*, 438.
55. Weinstock, 207.
56. Burney, II, 817.
57. Weinstock, 212.
58. Láng, P. H., *Music in Western Civilization*, 522.
59. Brockway and Weinstock, *Men of Music*, 76.
60. *Oxford History of Music*, IV, 84; Weinstock, 225; Brockway and Weinstock, 76.
61. Weinstock, 232.
62. *Ibid.*, 239.
63. 241.
64. Rolland, R., *Musical Tour through the Land of the Past*, 58.
65. *Oxford History of Music*, IV, 198.
66. Weinstock, 77.
67. Brockway and Weinstock, 81.
68. Rolland, 49.
69. Davison, A., *Bach and Handel*, 46.
70. *Ibid.*, 44.
71. Rolland, 67.
72. Weinstock, 303.
73. *Ibid.*, 305.
74. Davison, A., 41.
75. *Oxford History of Music*, IV, 85-89, 93.
76. Burney, II, 1023.

CHAPTER VI

1. Turberville, *Johnson's England*, II, 75.
2. Allen, B. S., *Tides in English Taste*, I, 73 f.
3. Lecky, *History of England*, I, 530.
4. Tate Gallery, London.
5. Staatsbibliothek, Hamburg.
6. Traill, *Social England*, V, 271.
7. Wilenski, R., *English Painting*, 102.
8. Thackeray, *English Humourists*, 247n.
9. Beckett, R. B., *Hogarth*, 22.
10. Vienna.
11. Collection of Sir Francis Cook.
12. Frick Gallery, New York.
13. Metropolitan Museum of Art, New York.
14. Tate Gallery.
15. *Ibid.*
16. National Gallery, London.
17. Tate Gallery.
18. Thackeray, 247.
19. Quennell, P., *Hogarth's Progress*, 31.
20. Tate Gallery.
21. Thackeray, 245n.; Wilenski, 60.
22. Wilenski, 79 f.; Dobson, *Hogarth*, 23.
23. Wilenski, 72.
24. Beckett, 13.
25. Art Gallery, Birmingham, England.
26. St. Bartholomew's Hospital, London.
27. Collection of Earl of Faversham.
28. Wilenski, 63; Beckett, 18, questions this story.
29. Wilenski, 85.
30. Dobson, 21.
31. Wilenski, 71.
32. Tate Gallery.

77. Letter to Thieriot in Strachey, *Books and Characters*, 122.
78. E.g., *Works*, XXIa, 211.
79. *Works*, XIXb, 91.
80. Goldsmith, O., *Life of Voltaire*, in *Miscellaneous Works*, 504.
81. Letter of July 19, 1776, in Desnoires-terres, VIII, 108; article "Dramatic Art" quoted in Holzknecht, *Backgrounds of Shakespeare*, 387.
82. Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 201, Brandes, *Voltaire*, I, 173.
83. Johnson, *Lives of the Poets*, II, 7.
84. *Works*, XIXb, 109.
85. In Buckle, I, 528.
86. *Philosophical Dictionary*, article "Government."
87. Gay, *Voltaire's Politics*, 44.
88. Parton, II, 523.
89. Voltaire, *Correspondance*, ed. Besterman, II, 31.
90. Johnson, *Lives*, II, 176; Collins, J. C., 210.
91. Collins, 230.
92. Brunetière, *Manual of the History of French Literature*, 319.

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديمقراطي وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى. واستمتعنا أيضاً استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم. لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه. ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمون بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاضم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة.

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

